

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكّرات آدي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



صدر للمؤلف

بالعربية

- لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المزيخ - دار الرأي - تونس 1982
- تاريخ الطب للأطفال - دار أليف للنشر - تونس 1982
- الطبيب والموت - الدار التونسية للنشر - تونس 1983
- سلسلة كتب التثقيف الصحي - الدار العربية - تونس 1984
- دع وطني يستيقظ - دار المغرب العربي - تونس 1986
- دليل المزيخ في التثقيف الصحي - الدار الجزائرية للنشر 1986
- في سجن العقل - أقواس - تونس 1990
- المدخل إلى الطب المندمج - مؤسسة البحث العلمي - 1995
- الاستقلال الثاني - دار الكنوز الأدبية - بيروت 1996
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي - دمشق 2001
- الرحلة - طبعة دار الأهالي - دمشق 2002 - 2010 - طبعة الدار المتوسطية - تونس 2015
- من الخراب إلى التأسيس - المركز المغاربي - لندن 2003
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان - دمشق 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي - دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي - دمشق 2006
- إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطية - تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية - شركة المطبوعات للنشر - بيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر - من أجل الربيع العربي - الدار المتوسطية - تونس 2014
- شعراء بلا حدود - دار منوال - تونس 2018
- المراجعات والبدائل - المركز العربي للأبحاث والدراسات - الدوحة 2022
- أي مستقبل للديمقراطية؟ - دار منوال للنشر - تونس 2024

بالفرنسية

- **L'arrache corps** : - Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives - Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre - Ed. jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez !** - Ed. lieu commun - Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed. du méridien - Montréal 1990
- **Le mal arabe** - Ed. l'Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** - Ed. L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed. media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** - Ed. paradigmes - Tunis 2019

بالإنجليزية

- **The Arab Democratic Revolutions Have Just Begun** - Barnes&Noble - New York – 2024

إلى حرّة، هناء، هالة، آمنة
وكل الأطفال المشاغبين

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل الشكر أيضاً لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف على امتداد قرابة
عقدين وأخص بالذكر إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل أُملي أن يجد فيه
بعضاً مما نفتح كلنا من أجله الكتب.

الفهرس

1	توطئة
7	الكتاب الأول: الإحرام والوصول
87	الكتاب الثاني: العالم
173	الكتاب الثالث: الطريق
266	الكتاب الرابع: بنو سفر
371	الكتاب الخامس: الغريب
411	الكتاب السادس: الملحمة
507	الكتاب السابع: الرؤيا
527	معلقة باب الرحيل

توطئة

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصراً في بيتي، محروماً من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طبّ سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائياً سنة 2000.

قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيراً كل الوقت للتفكير والكتابة.

الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيعُ أرهقتني كثيراً وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ -في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي- حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث مساعديّ ورسائل الدكتوراه للطلبة؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُنسني لحظة هموم السياسة وتروّح عن النفس كرتبها: الرواية.

قلت لنفسي لم لأجرب رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لروايي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمّرها البشر وانقرضوا؟

فكرة مبتدئين استُنفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان.

إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على نصّ سأترك يعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها.

تطوّز إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلتُ من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشتررون الآثار المهرية لتزيين صالوناتهم وحدائقهم الفاخرة؟

لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّرتُ، ولمّ لا لبعثي معه حيّاً أرزق من جديد.

هل يمكن لأحدٍ المزايدة عليّ وقد تجاوزت بمثل هذه العقدة كل الخطوط الحمر

للعلم والدين؟

من البديهي أن هؤلاء التجّار-العلماء سيكونون بحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في عالم يشقى فيه البشر أكثر مما تعدّبوا في النموذج الأصلي. لكن من أين المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبة داخل ذاكرة مثل مكتبة تكدّست فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي هذه قيمة تسمح بنجاح مشروع كهذا، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زدت بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شيئا فشيئا تراجعت فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتّم التخلي عنها نهائيا في هذه الطبعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث لعل شيئا من المعنى ينبثق منها.

النص إذن سيرة ذاتية!

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية، أن النص يروي بكل تفاصيلها بعض أحداث حقيقية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري.

لكن السبّر الذاتية تدّعي دوما أنها لا تخفي شيئا ولا تروي من الأحداث الا التي وقعت فعلا وبالكيفية التي تصف ... وهو ما لا أدعي بتاتا.

أذكر حقّا أنني كنت عاكفا على لوجي في الكتاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلّمها فصرخ في وجهي المؤدّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهوكل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت ألعب لعبة المعلم مع والدتي ألقّنها الحروف التي أتعلّمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم بطلب منها لتعلّم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟

أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كُدت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضّعف بصري، وإن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل نصح المعلم والدتي بأخذي لتعلّم رعي الخرفان عند أخوالي أو رعي البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمّتها؟ ممكن، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملقّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يُعالج

به الفكر والخيال ملفّات الماضي معيدا قراءتها حسب تطور المعطيات الموضوعية للعالم والحاجيات الأزلية للذات.

أليس هذا حال السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلباء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها النص وخاصةً احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص يتفحص فقط بعض المراحل من حياة الكاتب محاولا الربط بينها لعلها تنسجم في قصة لها قيمة ولها معنى.

هل النص إذن رواية أدبية؟

حقا توجد فيه جلّ عناصر الرواية. هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي. هناك عقدة هي بحث البطل عن سرّ عظيم والجري وراء سرّ ما واكتشافه هو العنصر القار في الروايات البوليسية والمقدسة على حدّ السواء.

هناك وصف مطوّل لكل ما عانى البطل من آلام وعرف من مصاعب في بحثه هذا كما هو المفروض في هذا النوع من القصص.

هناك جملة من الأشخاص يلعبون دورا ما في قصته. لرسم صورهم غرقت كما يفعل كل الكتاب ممن عرفوا وعاشروا من البشر، لكنني غرقت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العالمية التي طبعني بطابع لا يمحي.

وبالطبع فعلت ما يفعل كل كتاب الراوية أي وضعت في فم هذه الشخصيات الحقيقية أو المتخيّلة الكثير من أفكار.

لندكر هنا بمزايا الكتابة الأدبية وبمدى الحرية التي تأخذها دون إذن من أحد. فالأدب خلافا للدين والعلم والفلسفة غير ملزم بادعاء وصف الحقيقة والالتزام بها. هكذا ترى الكاتب عند صياغته لأحداث روايته يغيّر الوقائع التي قد يكون انطلق منها لا ليكذب عن قصد وإنما لاستكشاف بعض الإمكانيات التي كانت تزخر بها هذه الأحداث قبل أن تتخذ مجرى لم يكن في آخر المطاف إلا إمكانية من بين إمكانيات.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ روايةً.

سواء قرأت على الورق رواية الحرب والسلام للعظيم تولستوي أو ارتكبت خطأ الاكتفاء بمشاهدة الفيلم الهوليودي الذي عبث بها، فإنك دوما أمام قصة بأحداث متتابعة وفق خط زمني واضح. أما في هذا النص فأنت مثل مشاهد يتجول في متحف

يستعرض لوحات لفنان مغمور تتناول جملة من المواضيع التي تبدو متنافرة لكنها تعكس في آخر المطاف طبيعة هذا الفنان رؤيته للفنّ والعالم.

عنصر آخر بالغ الأهمية لا يسمح باعتبار النص رواية. فمن النادر أن يكون هاجس كاتب الأدب البتّ في المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دوستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبةٌ تماما في الرواية أو يقع التعرض لها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه الفلسفة). لذلك لا مجال في الرواية أو السيرة الذاتية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد. حتى دوستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية، كان يحترم هذه القاعدة.

العكس تماما هو ما يفعله أو -بالنسبة إلى البعض- ما يرتكبه النص. هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إيليا أبو ماضي في طلاسمة الشهيرة. بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن النص بمجمله تأمل في هذه الطلاسمة.

النصّ أطروحة فلسفية؟ طبعا لا.

شكلا هو حافظٌ في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجديّة".

مضمونا هو ليس جملة من الأفكار التي تنقد وتردّ وتسقّف أفكار هذا الفيلسوف أو ذاك. هو ليس محاولة تسويق لنظرية جديدة استنادا لكم هائل من الاستشهادات والمراجع تبهر القارئ بسعة اطلاع هذا المفكّر وتقنعه بجديّة ومصداقية ما يقرأ. لنقل بتواضع مفتعل أن "الرحلة" جملة من التصورات لفيلسوف عصامي أو هاوٍ قرر أن يغزّذ خارج السرب وأن يفكر لحسابه الخاص بعيدا عن كل سلطة أكاديمية تدعي امتلاك مونوبول الفتوى في الأسئلة اللعينة.

إذن ما هذا النصّ المتواصل الكتابة منذ أكثر من ثلاثة عقود¹ والذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد ومنهجية السيرة الذاتية والرواية والكتابة الفلسفية؟ ما هذا النص

¹ صدر نص الرحلة ورقيا في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 وتغيّر ما لا يُحصى من المرات في الصيغ الإلكترونية على موقع الكاتب moncefmarzouki.com - (الناشر)

الذي يرفض وضع الحواجز بين الواقع والخيال، بين الذاتي والموضوعي، بين الجدّ والهزل، بين سفاسف الأمور الشخصية وكبرى القضايا الإنسانية؟
بصراحة ليس لي رأي في موضوع تصنيفه وفي كل الأحوال أي أهمية للأمر؟
أمام بناية أثرية أو عمارة جديدة بصدد البناء، آخر ما يهّم المشاهد معرفة إلى أي مدرسة هندسية وفنية تنتمي، ما يهّمه فقط الأثر الذي تتركه في نفسه .
كل ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة الكتاب بعض المتعة التي وجدتها في كتابته، خاصة أن يجد نفسه في نص طموحه أن يروي في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

الإحرام والوصول

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ، وَلَكِنِّي أَتَيْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقًا فَمَشَيْتُ
وَسَأَلْتُ مَاشِيًّا إِنْ شِئْتُ هَذَا أَمَّ أَتَيْتُ
كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
لَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدّمة الكتاب الأول

اللّهم أتمم هذه الرحلة على خير.

همس الفلاح الفقير بالجملة ساهماً كأنه يحادث نفسه، ثمّ تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل وقد انتهى الفحص. كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء.

أذكر أنّي توقّفت عن كتابة الوصفة، أنّي نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

وهوّن ما تلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر (المعري)

وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما ننفك في دأب سفر

وقوله:

أنا بالليالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ -فما بالك لرهين المحبسين- وإنما كانت صلواته صدئاً لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار تشارك فيها الأميون والشعراء.

ألم يقل عمر الخيام؟

"هيا لنُدع غمّ غد يا صاح

ولنعتنم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا

والعائش بالألوف في الدرب سواء"

ألم يقل ابن عربي هو أيضاً في نفس المعنى " الواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر في الحياة الدنيا مبنيّ على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام".

الحياة رحلة وهذا العالم بكل اتساعه مجالها!

ثمة في هذه الصورة الشائعة المغربية شيء لا يستسيغه فكري.

إذا كان العالم بالنسبة لرحالة المكان هو فضاء جغرافي مترامي الأطراف نذرعه بأجسادنا في كل اتجاه، فرحلة الحياة فيما تسميه اللغة الدنيا هي أساساً تجارب حسّية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشياً على طريق يربط بين نقطة اسمها المهدي ونقطة اسمها اللحد.

اعتراض آخر. عندما نتحدث عن الرحلة تأتينا تلقائيا صورة القافلة إذ لا أحد عبر هذا العالم برفقة نفسه لا غير. لكن قافلة رحلة الحج أو التجارة شيء جد مختلف عن قافلة رحلة الحياة.

ففي هذه الأخيرة لا دليل واضح يأتّمر الكل بأوامره وإنما عدد كبير من الأدلة وكلهم في خصام حول أحسن طريق. داخل قافلة رحلة الحياة هذه ثمة حقا التماسك والتعاقد لكن ثمة أيضا صراع لا يتوقف ليس فقط على الريادة والسيادة والغنائم وإنما أحيانا للبقاء على قيد الحياة.

اعتراض أخير. حقا كانت رحلتي في هذا العالم ركضا بالجسد في كل اتجاه، لكنها كانت في جزء كبير منها استكشاف روائع الفن والفكر التي كدستها الأجيال والأداة ذهن متحرك داخل جسد ساكن.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها. أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرها، بدلا من تصوّره منقّي ووجودنا فيه محنّ وامتحانا وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال أساطير سيئة الصنع؟

ألا نزل من بين فخذي امرأة كمن ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟

ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة أخيرة اسمها التعش؟

ثم أليس أوفرنا حظا من ينهي حياته مالئا ذاكرته بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عائدا إلى صمت العدم بمعنويات السائح الذي اغتنم كل الفرص ولم تغشّه وكالة الأسفار؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والآدميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال، أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفراش وقوافل الطيور في السماء.

وراء الظاهرة أسباب قاهرة تفرض إرادتها على كل الكائنات.

فبخصوص البشر، هم أيضا يتدافعون في الأرض منذ انطلاق ملحمتهم جريا وراء
طريدة أو هربا من صياد.

لارتحالهم الذي لا يتوقف وازع آخر هو تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات.

ثمة أيضا واعز الحجّ لأماكن يصطفها الآدميون لموعده لا يُخلف مع المقدّس.

قد يكون أهم سبب الفضول وهو أفضل خاصية عند الآدميين.

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض.

يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب!

يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا تعرف له ضفاف!

يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس!

يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخائقة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال!

يقال إن هناك على ضفاف نهر أرهق الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف

آية آلهة علّمهم صنع الجبال!

يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدارا يمتدّ آلاف الكيلومترات بناه قوم لا

يضاهيهم بشر في التوحّش والتحصّر!

يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشرا يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في

هذا العالم الغريب!

كيف لا تستثير فينا مثل هذه الأخبار أعمق غرائزنا وهي البحث عما يوجد وراء الأفق؟

لا غرابة أن أقضيّ العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

هكذا تدافعتُ مع المتدافعين، مغامرا، طالب علم، سائحا، حاجّا، لاجئا، أشدّ الرجال

إلى كلّ فجّ عميق أسمع عنه أو تدفعني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما

في الوجدان:

سافر تجد عوضا عن تفارقه واتعب فإن لذيد العيش في التعب (الشافعي)

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجرم يطب

والشمس لو وقفت في الجو دائمة لملأها الناس من عرب ومن عجم

والأسد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يُصب

والتبر كالترب ملقى في معادنه والعود في أرضه نوع من الحطب

تنتبه يوما للاتساع المفزع للعالم ولضيق الزمان المخصص لاستكشافه.

تتقدم القراءة كبديل عن كل الأسفار التي لم يسعفك الحظ بالتمتع بها مع فوائد أخرى لا يستهان بها.

هي توفر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر والمتاعب.

هي تفتح لنا ذوات من لا نعرف من الآدميين فنستكشفهم دون أن ننتهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس. بها نتأكد إبان هذا التجوال في الذوات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نختلف كثيرا، فنطمئن لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأنا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر؟ داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهم النصوص.

هكذا ارتحلنا مع بحارة حثشبسوت نتوغل في بلاد كوش وبونت... مع حنون نتبع الشواطئ الغربية لإفريقيا... مع أوليس بعد نهاية حرب طروادة طوال عشرين سنة، نستكشف كل ما يزر به البحر المتوسط من غرائب وعجائب... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمما وجهه نحو الشرق البعيد... مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر، أنتظر معه مركبا قاصدا البيت الحرام...

ارتحلت مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراض بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف.... مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع الأميرال الصيني المسلم تشنغ خه بحثا عن طريق يوصل الأسطول الضخم إلى مرفأ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق إفريقيا... مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحث عن العلماء... مع كولومب، شعاره شعاري: أروع السفرات تلك التي لا ندري إلى أين ستقودنا... مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس ومع خوان سيبستيان الكانو أصل معه متماوتا جوعا ومرضا اشبيلية مع سبعة عشر بحارا الناجين من أول رحلة طافت بالآدميين حول الكوكب الأرضي.

ارتحلت على متن سفينة بيجل مع داروين... مع بيرى وامندوسن وشاكتون، أستكشف القطبين... مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس استكشف أنماطا غريبة من البشر للرد على سؤال وهاجس: هل عادات "البدائين" "والمتوحشين" ومعتقداتهم هي حقا طبيعة الأوائل التي لم تفسد بما نسميه التحضر.

آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال، ليس فيها إلا نساء قبائل التبوء يتاجرن في الماعز والتمر، والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا، وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساءنا من تجهيز القوافل.

يا للخسارة، كم ضيّعنا من روايات مثيرة والعالم لا يتجلى إلا عبر عيون الذكور!

*

تُسلم يوما مهما سافرت بالجسد أو بالقراءة أنك لم ترتحل إلا على الزبد، والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

ومع هذا! يا ما تراكم في الذاكرة من أحداث! يا ما تلاطم داخل الذهن من أفكار! يا ما جريت من أحاسيس ومشاعر على امتداد طيف يسمح كلّ الممكن من تفاعل الذات مع ذاتها، مع الذوات الأخرى ومع العالم.

كم توقفت عند آثار رائعة كدسها هؤلاء البشر على طول هذا الطريق!

كم شاهدت من صحارٍ وجبال وغيابات وسهول يكحل جمالها عيون المسافرين المنبهرين! كم لاقيت على الطريق من كائنات تتبارى غرابة واعجازا... التي تزحف على البطن، التي تطير في السماء، التي تغوص في أعماق الماء، التي تمشي على أربعة أو على طرفين، وأغربها الكائنات التي تسمّى البشر!

نعم كم لحظات رائعة عشت والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شُعر الحبيبية، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر، روائح الحيق والنعناع والياسمين والورد، عطر النساء، طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن والماء الزلال، خريز ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعده، الرقيق للنأي، نداء عشق حسّون اعتلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدة تغزل، آذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!

كل يوم جديد والذهن منبهز أمام طفرة اللامتناهي صغرا واللامتناهي كبرا واللامتناهي تعقيدا، أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل. يا له من حصاد تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوّعها أفصح لسان لأنيغ مفكّر أو شاعرا!

تأتيني يوما فكرة التدوين لكل هذا الحصاد، للرحلة بمفهوم المعرّي لا بمفهوم ابن بطوطة.

أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الأدمي في هذا العالم وقد رويت بكل الممكن من الأشكال والمضامين؟ من أين للوصف أن يصف عالماً لا يستنفذه وصف؟ من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاماً ذا قيمة هو الذي سقّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أسارع لرعي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة، وكم من مشروع آخر تكفّلت ظروف الحياة بوأده باكراً بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنين ثم تعود إلى السطح مدججة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج. ليس أول هدف لكل رحلة أن تُعاش، والهدف الثاني أن تمشي بذكرها الركبان وتتناقلها الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد لبروي كيف هو البحر؟ ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحالة الماضي ما أبعد عني أخطاراً كثيرة ووقر عليّ كم من مصاعب ومن مشقّات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين تصوراتنا للعالم علّ الأمر يفيد ولو قليلاً رحالة الأجيال القادمة؟

وأيضاً لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤزّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

ثم ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"؟ يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.

لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتاً، من صراع استنزف طاقتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادراً، للتصالح مع ذاتي قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربّما حصل الأمر للذّة رفع تحدّد أخرج ألقبيته على نفسي، ربما لتزايد حدة الشّعور باقتراب الآجال المحتومة وضرورة اجتماع شتات ذات مهدّدة بالتفكك، أو لسبب تحركه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسبابٍ والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين، يستعرض ويتفحص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حذب وصوب... وكلّ محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا. اليوم 14 060 من الرحلة.

هل نرتحل في عالم أم في عالمين؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها إبان اليقظة... أو التي نعيشها ونحن نغطّ في النوم؟

كم غريب أنّ من سبقوني في أدب الرحلات لم يدوّنوا للرحلة العجيبة التي نسافرها كل ليلة وكأنها لا تأخذ نصف العمر!

ربما أحبطوا وأسقطوا في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها نثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدنا فيه من غرائب وعجائب!؟

تداخل الملفات التي تتفرق فيها المعطيات عن رحلة الليل هذه.

في أقدمها يتابع الطفل يقلق التنفّس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الرّدّ على كل استفزاز مُعرضاً عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه، والسؤالُ قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟

تتملّص حتى "ما" من الرّدّ عليه. لمّا تفضّل يوماً "با" بالرّدّ، تفاقمت حيرة الطفل، بل اندلعت فيه أولى المخاوف وأعمقها.

ماذا لو تاهت هذه النفس التي يتحدّث عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلّت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير التي رضي بها ورضيت به؟

يُداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفّاف متين تربط أمه طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجيناً العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي أليفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا دون مزيد من التسويق والمماثلة. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح وميّ المشاكسة. أشعر به قد غير اللّهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطلق الإلزام.

يسقط الرأس المرة تلو الأخرى على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تُكَلِّف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيّا الأمّ ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تنفع في صدّ الكوابيس.

آخر ما في ملفاتي حول الموضوع تصاعد عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الآدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

تَعَطّل المصعد الذي يرفعها ويرفعني عادة دون جهد إلى الأعال المجهولة. مصعد؟ تغزو الخيال صورة أكثر حداثة.

تنشطر ذات يعذبها أرق ركيبك إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية، وراكب نافد الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبّي.

يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البلمسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحرير يداعب خدي... تنفّس بطيء يبعث فيّ هدوء... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلتين.

على تخوم الوعي واللاوعي تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على

وجه الرجل المتشجج. تتحرك شفاته بحثا عن الراحة المفتوحة لقلبة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل متزايد الارتخاء فشعيرتهُ برد لذيذة، فيحكّم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤشرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بؤر توتّر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دموية دائمة الصمت. تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسط الأجساد الحيّة، تبعث فيها وتمتصُّ منها ببالغ الحذر شيئا ليس للغة مصطلح عنه ولا للقبضة حاليا فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية.

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

*

الذات الآن وسط حشود من الدمى في بعض المتاجر الضخمة. تحدّق في دموية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبسم. تصرخ في دموية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أعتنم موسم التخفيضات. ترى هل أنا أيضا دموية كهذه الدمى؟

تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقايع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوي في أرجاء العدم.

أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المرحاض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني -أيها الغبي- ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق يا سيدي ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق به.

جريدة اليوم التي بين يديّ هي جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحيّيه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار في شكل وجه معوجّ لآدمي يمسك بصدغيه

مصدرا صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر النرويج! ترى أين يوجد هذا البلد؟

تعالى من المجهول همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء ثبّت في أشداق الحوت. يصرخ فيّ البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعبي قهقهة تتصاعد من حنجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك.

تتذكر الذات أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض للعين؟ يأتي الرّدّ صمّتا ساخرا ومهدّدا من مصدر قريب بعيد، ما تتطلّبه المهمة من مرّات. المهمة! أية مهمّة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم. يحرك الرجل الماشي رجلين من حجر ثبّتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجلّل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. ترتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلّقين في الفراغ. يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشيخ المحبوب. يهمس في الأذن: كم أنت موجوع يا طفلي الصغير. يقطّب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا. ينزاح الثقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشى طليقا، أنه يركض خبيا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتّجه الطريق نحو فم ثعبان مربع. أواصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائنه. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. تنتصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفها متّجها الى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكةا في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القتل. أنحني لالتقاط نظارات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحدقون فينا بصمت، أدعوهم للدخول فيتدافعون حولنا، تحتجّ ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فناجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف.

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأغراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرّتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟!

لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفاً وهي لا ترتمي بين ذراعيّ؟

لماذا استدارت لَمّا تجاوزتُها ترمقني بحيرة كأنها تعصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوماً من الأماكن التي ترتاد؟

تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟ كم من آدمي دخل فراشه هرباً من "الواقع" ونهض منه هرباً من الكوابيس وهو في الذهاب كالمستجير من الرمضاء بالنار وفي الإياب كالمستجير بالنار من الرمضاء!

*

السؤال الذي لا نلقيه أبداً لا على أنفسنا ولا على الآخرين ربما تعلمنا أنه لا جدوى من القائه : إلى أين نرحل كل ليلة؟! من أين نرجع؟! ما طبيعة هذا الذي نشدّ إليه الرحال أحببنا أم كرهنا نعيش فيه أحداثاً لا ترابط بينها لا تفسير أو معنى؟! لنحاول حتى وإن كنا نعرف عبث المحاولة ولنبدأ بالتوقّف عند بعض الخصائص المميّزة لرحلة الليل هذه.

أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأً آمناً تستودعه -بكل ثقة- جسداً فقد تأهّب للكرّ والفرّ دفاعاً عن وجود على الدوام مهدّد.

من الطقوس أيضاً التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار، إذ لم يُعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل -قلّ الذي سترحل- إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.

حقاً، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الأعداء ابان نومهم لا تحسباً لما سيلقونه من أشباح في عالم المنام.

أغرب ما في هذا الذي "نحطّ" عليه ونعيش فيه جزءاً هاماً من رحلتنا أن الذات تصبح فيه شكلاً لا شكل له، شكلاً تخفّف من خصائص الشكل، فكرة مبهمّة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلاً غير الذي هي عليه الآن، شكلاً ضاعت ملامحه الأصلية.

قال واحد من أنبه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟

من خصائص "الفضاء" الغريب أيضاً أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى. تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثانية بأربعة شمس وأحياناً بنصف بشمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد.

كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادّة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماجريت.

هل الفنّ صدى لما تكتشفه الذات في هذا "الفضاء"؟ ... ربما هربنا أيضا منه تصورات الآخرة والأشباح وكم من مفاهيم أخرى تتحكم في رحلة اليقظة ونحن لا نعي. كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهددة على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل مسافر يتلاشى كل ليلة بالسرعة التي ظهر بها.

عن وظيفة "الفضاء" الغريب ودوره في رحلتنا ليس لي إلا بعض الفرضيات. ماذا لو كان "مكان" صيانة ذاتٍ ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه دوريا للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية. الدليل أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعتها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها.

تصوّر أباد خفية تستلم الذات حال دخولنا الإغفاء لتفرك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الخروج إلى الواقع والعودة للصراع. فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمّ فيها -كل ليلة- صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال لنجد كل صباح عالما معافي جاهزا لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب، هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والمنام هو العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية.

إغلاقا لقائمة من أسئلة بلا ردّ، سأعتبر -دون أدنى برهان متين- أن ما نسمّيه العالم عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسّر لي إدراكه خلال ما عِشْتُ من الزمن.

هكذا نتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير. أمّا رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي أتصوره -ببعض الشماتة- مُنهمكا في كتابة أشلاء جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط، يتوجه بها إلى قراء من الأشباح شاكيا من صعوبة مهمّة عبثية لم يكلفه بها أحد.

البدايات الغامضة

السؤال الذي يقض مضجع الفلاسفة والمراهقين هو عن سبب مجيئنا هذا العالم. قلّ من يهتم بالبحث في سؤال متقدّم عليه: متى بدأت رحلتنا فيه؟ في أقدم الملفات عن الموضوع هذا الحوار بين طفل في الرابعة أو الخامسة من العمر وأمه كما أعادت ذاكرة الخيال ترميم ثغرته.

- "ما"، أين كنتُ قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي، انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز دوماً بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوماً وقد أصبح أباً وجداً: لو طُلب منه ألا يفعل شيئاً لفعله بأقصى ما يقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلتُ داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا تقولها أم لأبنا.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القش:

- لا أحبُّ شيئاً فيك قدر ازعاجك هذا.

- "ما"، حدّثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحتُ له ابناً؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتّشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجاً: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثاً عن "با"...؟

إذن والعهددة على الراوية، تحرّك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثاً عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سگانها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات من يريد وكلها كانت موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجوداً ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان الذي قصده شيخ القرية. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتى مصاباً بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديداً. لم يكن يتمرّن على

السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة.

نعم، كان الرجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل صفاته كأنّ الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحقّ في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها سكان القرية رغم توفر كل الشروط فيه؟ ربما انتبهه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع دوما حركاته وسكناته؟ أم هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى ألدّ أعدائه؟ ربما اختاره رغم حدة طبع واضحة فيه لأنّه كان وسيما. يأخذ الشيخ قراره وحسنا فعل. لكن ... كأنّ الآدمي الذي سأسميه "با" يتردّد.

أول مشادة بيننا في مستوى من العالم سيشهد وقائع لا تحصى ولا تعدّ وقد زالت داخله الحواجز بين الواقع والخيال، بين الحاضر والماضي، بين الجدّ واللعب.

- ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف سأوجد؟

- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا كفى من أنا، أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم؟

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنتصوري مؤدّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستتشرف بانتسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عقليته البدوية باحتقارها التاريخي للماشين وراء أذنان البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لآدمي مثل "با".

ثمة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "با" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منحرفا في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامى، عن سرقة وتهريب سلاح جنود الغزاة الجدد والقدامى الذين تقاتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية، عن انتصار الغزاة

القدامى على الغزاة الجدد وبحثهم عن ساعدوا أعدائهم، عن هرب الشاب المتهور واضطراره للاختفاء فترة من الزمان في أول قرية تقبل بالغريب المطارد.

هكذا وجد الرجل الذي سيصبح لي أبا نفسه مؤدِّبًا لأطفال الفقراء، يُقرئهم بعض ما تعلّم في الجامع الأعظم وهو ساخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك من طموحاته، جاهلا أنه لم يُخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعا.

هو الآن وجها لوجه مع امرأة قررت تزويجها لرجل لا ترضى أن يعيش فيها غريب أعزب. أيرضى الشاب المتعجرف بفلاحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي سخط على الخنساء لأنّها لو عرفته لقاتل فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء؟ هل تردّدت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجرّة توقّر أيضا لمالكها الشرعي متعة عابرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذاب أخيرا ربّع ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟

أم هل اكتشف وراء عيني المها ذكاء حادًا بهره ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن الذكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدّقت، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قرّرتة مشيئة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلّا ما أراده كائن لا مردّ لإرادته.

كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه، بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أتصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتغلّب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألاّ يصل بتاتا، لكنّ ذلك لم يحصل. كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل. كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء اللعينة ذلك الصيف المشثوم، لكن ذلك لم يحصل. كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الآخر المشثوم، لكن ذلك لم يحصل، إذن لم يحمه الله من كل هذا إلاّ لأنه يريد له البقاء، لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ.

بقدر ما كانت "ما" تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا "مكتوب" أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار، بقدر ما آمنتُ دوماً أن العكس هو الأقرب إلى الحقيقة.

في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على فطرة الماء النّازلة من أعلى شلال الزّمان اتجاهها أوصلها إلى شفيتها بالرّغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية.

أنظر إلى نفس الفطرة، أتابع تدرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.

أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أيّ مسار كانت ستخذه قصتي وهي تتردّد أمام كم من تقاطعات طريق.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفئها. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها. تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستنقلب ضحكة مرحة لبداية درشة تستهلها مع كل غريب بتلقائية من لا يعرفون الخبث.

ثم تفتح عينها على الأقصى، تحدّق باندهاش في النادل الأسمر المقترّب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم الموردين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا وافرا من السوط وهو -لسبب يجهله- متهّم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرد وحتى بالإعداد له. يقدم لها ما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها.

الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعودّ عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حنينا غريزيا لجداولها الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفوا يا دكتورة، هل ضايقتك هذا العبد السامي في شيء؟

- لا أبدا، أبدا.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئا!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لاثثة بالفرار وفي عينيها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة

موازية تبحث مع حبيبها هذا في متاحف المدينة عن لوحات رسام ملعون اسمة كارافاج وفي كل كنائسها عن موسيقى راهب اسمه فيفالدي.

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القنال الكبير، إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أوروبا أفريقيا العظمى عليه صلوات الرب ووطن وبركات الربة فريكا.

يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على الحجاج يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا Untermensch. بصراحة أفضل صيغة أخرى لنفس المشهد، لكن هذا يتطلب تحويرا " بسيطا" في تسلسل الأحداث.

يتعالى الصراخ من ممرضات عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تتدافع زميلاتهن من سائر أقسام المستشفى ليتسمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لائذا بالفرار!

فجأة يدوّي عويل يصمُّ الآذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بالسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها مفتشٌ حضر لتوه لمعاينة الجريمة:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة هتلر على اسم قط القسم، اسمه أدولف، أه يا أديلفة، أه يا صغيري!

تتقيأ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبنيّ اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمّت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نهجل أننا مررنا قريبا جدّا من ضبّة النجاة!

بوسع الصبيغة الأخرى لنفس المشهد أن تتقدم وقد أزيحت عقبة كأداء أمام المسار الذي أفضل.

يتوجه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشاب الأسمر المتعجرف:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها. يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسياذنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوماً مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاحة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده وبالقلب ثقل لا يعرف له سبباً، مخترقاً ساحة القديس حانون في اتجاه معبد بعل إله أكبر آلهة امبراطورية قرطاج التي لا تغرب عنها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحدق فيه فاعرة فمها.

ثمّة مشكلة في هذا الطرح انتبه له كل كتاب الخيال العلمي الذين عالجوا فكرة السفر إلى الماضي لقتل هذا السفاح وهو رضيع إنقاذاً للعشرات من الملايين.

كيف كنت سأوجد لو كنت ذابح الرضيع أديلفة؟ أليست الحرب التي سيشنّها عندما يكبر هي التي كانت ولادتي من مضاعفاتها التي لا تحصى ولا تعدّ.

كم مخجل ومعيب أن أدين بوجودي لوجود مثل هذا الأديم البشع.

طيب، لكن هل صحيح أن ولادة هتلر وخسارته للحرب كانت تقاطع الطريق الوحيد الذي جعلني أوجد؟ طبعاً لا.

ربما أخطر تقاطع طريق لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها، هو ما حدث في ذلك الغار، تلك اللحظة التي تلثم فيها التاريخ.

ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

"سل عصبية الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمت الزغب كالرخم"

هل كان آباؤي واجدادى ينطلقون لفتح الأرض التي ولدت فيها لو لم تحم العنكبوت من الموت النبي الذي ولدت قصته قصة أمة بأكملها؟

لكن ألم يكن بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا؟
ماذا لو أطمعهم الخليفة الفاطمي وهم على الطريق بذهب الجنوب لا بمراعي
المغرب؟

ألم يكن بوسع تلك الجدة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء
في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهابا وكرها؟
ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك
الجدّة؟ الخ، الخ،

محكوم علينا أن ندخل العالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أن نفيق في مكان
عينته الأقدار وزمان حدّته طاولة القمار، أن نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا
فيها ولا جمل تشككت سنوات وعقود وحتى ملايين السنين قبل ولادتنا ولا خيار لنا
غير الانخراط فيها ومواصلتها .

إلى ماذا يقودنا هذا الكلام؟ إلى بديهتين.

الأولى أنه لا يمكن القول إن الرحلة تبدأ عند الولادة لأن هناك قصة مهدت لهذه
الولادة وهي لقاء الزوجين. لا بد لقصة لقاؤهما من قصص مهدت له ولا بد لهذه
القصص أن يكون لها بداية هي الأخرى . يمكنك المواصلة بعيدا بحثا عن بداية كل
البدايات إلى أن تضع في الغموض والابهام مهما كنت مؤرّخا قديرا ونسّابا مبدعا.

أي استنتاج غير استحالة معرفة متى تبدأ الرحلة؟

البديهية الثانية أن مجيئنا هذا العالم نتيجة سلسلة طويلة من أحداث لم تكن لا
مبرمجة ولا حتمية منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل
خمس وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وفيما
يخصني تردّد حنبل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار
بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا،
ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"،
وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من الأحداث
الأخرى- أغلبها لا علم لي بها-ربما كانت قد تثير فيّ موجة عارمة من الضحك العارم أو
موجة من الاستنكار الساخط.

لا شيء في هذا العالم قابل للتنبؤ لا اليوم ولا بعد ألف عام ومساره مصنوع من تفاعل
ما لا يعدّ من قوى عمياء ومن صراع ما لا يحصى من إرادات واعية... كل القصص،
حتى قصة العالم، ارتطام الضروريات بالصدف والصدف بالصدف ولا شيء مقدّر أو

مكتوب إلا اللامقَدَّر واللامكتوب...كم مطمئن أن تواصل الأمور السير على هذا
المنوال، أية قيمة للعيش في عالم لا مفاجأة فيه !

التبلور الصامت

كما لا مجال لمعرفة البداية الفعلية للرحلة، لا مجال لمعرفة كيف كان المقام في أحشاء الأم ولا كيف كانت لحظات عبور النفق الرابط بين الرحم الضيق والعالم الشاسع. مُحيت لأسباب مجهولة كل هذه المعطيات. يجب البحث عنها بطرق أخرى.

بتفحص ما تراكم داخل ذاكرتي حول وصول من كنت له الدليل، يمكنني رسم الملامح العريضة لأهم منعطفات رحلة الآدمي والقصة واحدة وإن تباينت في آلاف التفاصيل. أنتبه ذات يوم إلى أنّ داخل فكري شبها كالفأر في مكتبة يُحدث ما يكفي من الضجيج تاركا وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل. أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علّها تؤدّي إلى اختفاء الشبح أو حتّاه على البحث عن قنطرة أخرى يعبر بها إلى هذا العالم غيري.

هل أقول له ألا يجرب معي حيله، وأنني غير مهتمّ بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أمّ جميلة فخورة؟

هل تدخّل لديها لتقنعي؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان سُغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا استقباله؟

تنهار يوما كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفا ومحض عناد.

وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضّم نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع دقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل وهو شرط التحول من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

"أماه أنت التي تحمليني في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حقّ أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حقّ أن أحيا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح"

تبتسم الممرضة وهي تمدني بنتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعتُ فيها نتيجة الفحص في جيبي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصبح أنك من على تخوم الوعي واللاوعي تتابع ما يجري حولك ودخلك؟ ...
أن أول ما تلتقطه أحاسيسك البكر صوت من تحملك في أحشائها... أن انتباهك له
يتزايد يوماً بعد يوم وهو الذي يقودك من الحلم إلى اليقظة... أنك تمسك بفقاز من
حرير لجام من تركب، توجهها إلى حيث تريد وهي لا تعصي لك أمراً؟
مثلي لا يكتفي بالقييل والقال. تقسم الأم أنها لا تعلم أكثر مني.

ترتسم الابتسامة على محيّا المازة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متناقلة الخطى ترصد
نظرات الإعجاب وأحياناً نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من
جديد في نسق منتظم كهات الراكض، عالم لا هم له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في
التكرار مكزّر ومثّل.

يتجدد الحوار الذي أنا فيه السائل والمجيب.

تعال، كن مولوداً طيباً... لا تتركني بهذه الحيرة... تكلمم لأسجل لقرائي كيف انطلق
الطريق فقد محيت من ذاكرتي كل المعطيات التي احتاج لنص مكتمل تمشي بذكره
الركبان... تفضل كلي أذان صاغية وسأمنحك من وقتي الثمين كل ما تحتاج.

دوما نفس الصمت المدوي في الفراغ.

قربت لحظة الوصول ومعها تتعاضم مخاوف مبهمة. لم القلق فالصانع مجرّب أخذ
كل الزمان لتعلم مهنته. كأنك أمام مهندس عبقرى صامت ومخفي ألقى على نفسه كل
الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. أتخيله طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من
أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذبوا، لا تغفلوا، قفوا،
واصلوا، هنا جدّوا، آخر اللمسات هناك. الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه
العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل تجميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك
بفراغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

في محطة الوصول وهي غرفة توليد في مستشفى عريق، يُطلب مني بأدب أن أنزاح إلى الخلف حتى انتهاء مراسيم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيدي البارزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيدي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكور دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط تخبط عشواء. تتعثر ضربات قلبي هي الأخرى.

يتصبب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق البيضاء وأعضّ على نواجذي لأمنع الصراخ الذي في داخلي، فتهتّر لصداه الصامت كل أصقاع الروح.

كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصراً على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزا أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكاً.

ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظنّ أنه أنا.

هل تتلکّأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ ... أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتجول داخل ذاكرة "ما"؟ ... قد تكون محقا في تردّدك، أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت، لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي ستدفعك إياها تجربة الحياة؟

تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي، ادفعي!

تتصبب المرأة الراقدة منذ فجر التاريخ على فراش نفس الآلام عرقاً. تصرخ وهذه الآلام تتفاقم لحظة بعد لحظة إنني لميئة.

تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيدي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً.

آه، صدقتني وفترت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم يا غبي أن هدية ميلادك عالم بأسره؟

أفنعنك بمثل هذه الحجج بالمواصلة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقات القلوب تنتظم والأيدي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة.

كأنّي بك تتحرّك أخيراً نحو باب الكهف السحري مدفوعاً بقوة لا تقاوم ومجذوباً بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العالم والعممة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحثك مبتهلا ومشجعًا.

تطلق الوالدة الأزلية آخر صرخة المخاض. ثم صرختك أنت ، صرختك الأولى.

هل هي حقًا بسبب صعوبة أول فتح للقصبات الهوائية كما يقولون؟ ... أم هل هي صرخة الرعب وقد أدركت أي عالم أطبق عليك كالفخ على الفأر المتهوّر... ربما رفعت عقيرتك لتنذر وترهب عالما مدججا بالسلاح، وأنت الأعزل من كل سلاح! ماذا لو كانت صرخة الدهشة أمام الوليمة الفخمة التي تنتظر التشريف؟

أيا كان معنى صرختك هذه، المؤكّد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتمزج فيها صراخ كائنات لا تُحصى بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح.

في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشيعو الجنازات في ذهاب وإياب، تزغرد القابلة الأزلية احتفاءً بمجيئك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد.

لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب.

*

تطلب القابلة مني ضاحكة أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسم نافذة الصبر لاحتضانه. أمّك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادات السخرية التي أدويه بها: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

آه، يا تفاحة، كان وجهك وجه عجز دار بها البساط السيار دورة كاملة في حياة ماضية، ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدًا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. ولم تكن هناك أيّة هالة من نور حول رأسك الأصلع.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبتلي بها البعض لأن الأيدي الخفية أخطأت في شيء ما. برافو، هي لم تُبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كلّ الباقي!

فجأة كل متطلبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لآخر سيوجه دفة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه.

شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كل هذه المسؤولية!

في انتظار تهاطل تبعاتها ما أول مسؤولياتي تجاه هذا الضيف المبجل؟

سأدعوه إلى مطعم لتبادل الأخبار. هو سيحدثني عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتذكر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى... كل ما أحتاج لبناء الرؤيا.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعلّلا بحجج واهية فطرودوني بيتسمون. أذكر أنّ النوم كان مضطربا، أنني أفقت أبحت عن طفل لي في ساعاته وأخطاره الأولى.

من الغد سمح لي أن آخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول.

أذكر أنني وضعته بكثير من الرقة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت.

أذكر أن أمه نهرتني كي أبقى منتبها لأخطار السياقة وأني افتعلت سببا للتوقّف لا صبر لي على انتظار وصول البيت.

على ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعيّ لأفاجئ بعينين بالغتي الاتّساع تتأملان عينيّ المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. كم هو قريب مُغالٍ في بعده، حاضر مغالٍ في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها.

لم أعرف من كل القادمين الجدد من أتى مسلّما معانقا ومصافحا. لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العالم يقايض بها شيئا ثمينا. وهذا الأدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشدُّ عن القاعدة.

لماذا لا أجرب فلا أكثر ابتداء من المعجزات.

- مرحبا.

لا أحظي بردًا وأكاد أغضب لقلّة الأدب.

- قلت: مرحبا.

كأنّي بصمته تكثّف، بل مع شيء خفيف من التقريع ونكهة من التهكم.

مواصلة العبت مع الكائن المجهول المتعالى عليّ بصمته.

عفوا، سهوت لحظة، أعد ما قلت. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمج؟ أنا ألح! أدرش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديدا. مرحى، من شابة أباه فما ظلم... على الأقل طمّني. هل هذا حقا أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تُهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ هل أنت حقا مولود جديد أم إنك والد كل قديم وكل جديد؟

يحدق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي، فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحدّيك السافر لأبيك، سأنطقك في نصّي بما أريد وما أنا بأمرّ الحاجة إلى سماعه. كل الأجوبة مضمّنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الموجه ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به ومندمج. كأن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم والجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قيس من شعور قد يكون جُرّب في عالم آخر. خيار صائب. أليس من الأحسن أن نأتي العالم مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يُخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا في قصة طريفة هي مثل حبة في عنقود القصص الشيقة التي تصنع وتروي ملحمة الآدمية في هذا العالم؟

الإفاقة

لتمثّل لحظة ما بعد الخروج من الرحم تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مَرْضِيَّة. مثلا حالة مسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة غير معروفة الوجهة وحوله جحافل من الأغرب ليسوا أقلّ ضياعا. ها هو ينتبه للألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. ها هو يسمع دون أن يفهم همسا ناعما من مكبر للصوت "نعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن الاستقبال في البهو رقم 1".

يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "الرجاء من الراحلين التوجه حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5". ها هو يشعر بغريب يدفعه من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. لا خيار غير الانخراط في السيل ولا فعل أهمّ من البقاء طافيا على سطحه. أحبّ إليّ صورة الإفاقة في عرض البحر.

يستيقظ البحّار على صرير الشراع، على دويّ الموج، على صفع رياح أُرست به في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بين البحار والبحر.

"عند شَطّ الحياة أَلْقَيْتُ مرسى زورقي (نازك الملائكة)

في الصَّبَابِ تحتَ الظَّلامِ"

حتى هذه الصورة لا تفي بالغرض.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة. لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك، تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط داخلي. ثم ممّ نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجودا قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة؟

في الحية كل الصور عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي ستبقى إلى الأبد جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها ونهايتها.

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟

مما بقي منقوشا في أقدم الملفات أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلمور، أو الوصول، أو سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهومة.

ها أنت لا تكفّ عن الصراخ في أوج تجدد أول شعور ستسميه لما تدخل اللغة وتدخلك المغص. محكوم عليك أيها المسكين أن تأتي الوجود جائعا، أن تجرّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على كل أصناف الجوع.

يدرك العالم المنكبُ فوقك أنك ما زلت هشا غضا قابلا لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدقق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلا.

يتجدد مغص الفراغ وكأن لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثابتة لذة الرواء والشبع. تشعر أنه لم يعد لك من طاقة على تحمّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الأرنب بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لتبرأ من هول الوصول.

أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوّهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ثم يسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأنهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. هيهات، هيهات، لا نكوص من الآن على الأعقاب.

أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا وثب داخلها وقد فاجأه البرق والرعد.

عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا وشدك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمنن إلى ما أتيت به إلا إذا كنت واثقا أنّ ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى تشاء.

أنت دوما داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطي بمنتهى البطء والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!

تنتظم التجارب وتتضح بعض العلاقات المتواترة ومع هذا تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أهوج مرح، يداهمك بكلّ حيويته، من كلّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.

ثم تدرك يوما أنك شيء مختلف عما يثير فيك هذه الحالات، أنك مصدر بعض الحالات والأحداث. شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها شكل الكائن الأول الذي كان المغارة السحرية وفتنرة العبور وهو الآن مدير التشريفات، الحارس والخدام الأمين، قريبا المرأة التي تعكس لك أول صورك.

يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الآدميين وأول من تفهم تلقائيا منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشعّ الملامح بالنور وهو منكبّ عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائيا معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، تعود للصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن تربيّ بالحكم ولا تخف.

ثم تنتظم هذه الملامح في فكرك الناشئ وهي دوما على نفس الثبات لتنقش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويدين نحيفتين لا تمسكان بك إلا برفق... وكل ما يعتمل داخلك من أحاسيس مبهمه ومشاعر غامضة مرتبط بوجوده.

تتعلم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلبل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدد. ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشيء المنقذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصر على غيابه المرعب.

قد يكون أهم انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة لا حدود لقوتها، هي وحدها القادرة على منحه ما هو بأمس الحاجة إليه إن أرضاها، أو منع هذا المطلوب الضروري لمواصلة الوجود إن أثار فيها استياء غير مفهوم. آنذاك يتضح له أنه لا خيار له ليظفر باهتمامها وخيراتها غير الاكثار من الرجاء والتملق وإظهار كل علامات الخضوع والطاعة. هكذا تتشكل باكرا في أعماق أعماق الذات، في أحاسيسها ومشاعرها وأفكارها المبهمه الأولى دعامة كل ما وجد وسيوجد من أساطير وأديان. ما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للقوى التي تتحكم في عالمنا والعلاقات التي يجب أن تربطنا بها لرضع يتخبطون في مشاكل المغص والبلبل!

الخطوة الأولى

عن ملفّ هذا المنعطف من الطريق تتوجه تفاحة إلى أبيها وقد أصبحت هي التي ينادى لها "ما" وأصبح هو الذي ينادى يا جدي.

- "با" أخشى أن تجننك هذه البنت إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاجه لموعد هامّ.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت لك بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب ولا تقلقي.

تسحب تفاحة مسلطة عليّ نظرة فيها إشفاق وشكّ في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته البعيع.

لا تنتبه رضية لم تغلق بعدها سنتها الأولى لغياب أمها مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة في قمة الجذل. كيف لا وقد أخرجتها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جوانتنامو".

ها أنت حرّة الآن يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم في عمرك هذا.

فجأة تجلس الرضية على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي تحديق فيّ مطوّلاً. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كلُّ الممكن من الاستغراب. ثم ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنتقل كالسهم على أطرافها الأربعة هذه المرة باتجاه المكتبة.

تنتصب واقفة مترنحة تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب لتسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تُدير وجهها باحثة عن ردود فعل.

الآن وقد جاء أمر صامت يشجع على مواصلة البحث تعود أدراجها لئمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها تقلّبه ببالغ التركيز.

تكتشف أن الأصابع قادرة على فعل هو التمزيق ، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف.

تُغيّر الرضية اتّجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أنأملها.

ثم تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه.

تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطراً أو مزعجاً. إذن لتواصل تذوّق العالم؛ فاللسان -بعد العينين- أهمّ أدوات الاستكشاف وليس فقط في هذا العمر.

تنتبه حرّة لانتباهي المبتسم. يفتّر ثغرها عن ابتسامة أول صبح لأول عالم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني. ترمي الرضيفة براحتها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها لتبدأ العبث بفنجان القهوة. ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تُراق على بنطلوني.

تلاحظ الرضيفة تغيّر النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية. تعود لتسلّط عليّ نظرتها الثاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرّة منعا وتقريعاً. يشتد الخبط. أه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة.

رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يأتك بعد بأي خبر مقرف، فإم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أضرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت! الحلّ إرجاعك إلى "جوانتانامو" لأخلص من ضجيج الملعقة، من إرهاب الجري وراءك لمنعك من جرّ نباتات أمك على الأرض. ستحتجّين لحظة متشبّثة بالقضبان الخشبية تمارسين عليّ الضغط والابتزاز ببكاء فيه كثير من التكلّف. لكنك ستجلسين سريعاً لمواصلة أبحاثك المعمّقة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة.

لا، لن أحبسك وقد جنّت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بنتاً طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتي بانتظار أن أدوّن بعض الملاحظات على حاسوبي النقال.

إنها المرحلة من الرحلة التي أولى أولويتها استكشاف الأشياء عبر ما تثيره من أحاسيس البريق والبرد والحَرّ والليونة والمقاومة والألم... واستكشاف الكائنات الجبارة المحيطة بالقادم الجديد عبر ما تثيره من مشاعر الخوف والتعجب والفضول.

تقطع عليّ الرضيفة سلسلة الأفكار وهي تتحرك بعصبية فوق ركبتيّ كأنها تريد شيئاً.

- ماذا؟ تريدني النقر بدلي. لكنك لا تعرفين الكلام فما بالك بالكتابة. على كل حال، هل لك في هذا العمر ما يستحق التدوين؟

ماذا؟ هل لي أنا شيء يستحقه؟ يا بنت، "بلاش قلة أدب"، طيب، اكتبي تقريراً ضافياً عن تفاصيل الإقامة في الرحم، عن انطباعات الخروج منه، عن أولى الأحاسيس البكر التي تأتينا عند الإفافة، الخ. كل المعطيات التي طلبتها من أمك في نفس العمر فواجهتني بصمت متكبر. أرجو أن تكوني أكثر تعاوناً منها. خذي راحتك، أمانا متسع من الوقت.

تنقر الرضيفة بحماس: ناء للسلغلء غغل نائشلئغشبئفبشف تلالغشبغفئبشفتب...
- ما هذا؟ طيب، واصلي.

بيصشيسيسيسسضض. نتلغبلفبئبئتاغلغانتلاتخالسبفبيخبالافتع7فقققق
- يا بنت، لا أفهم هذه اللغة، ولا أظن أحداً من قراء "الرحلة" قادراً على فهمها حتى ولو تكلموا كلهم بها يوماً.

تايتهؤالأوشيتاؤهتخسءمنتتءاعءسلهصغسلعصتسنءجخصعاعءنمءهءعءاعضاع
- يا بنت، النقر على مفاتيح الحاسوب يكون بالأنامل لا بالقبضتين.
ؤيشؤشؤسشءؤؤسشؤئيشبضنةنتهاعاعالعللغاللغلبقق6ف8ع9حه.
- حقا إنها معلومات مهمة. سأستعملها لاحقاً في بلورة الرؤيا. وفي الانتظار، الرجاء إيقاف الاعتداء على هذا الحاسوب المسكين.

الاحتفاظ بهذه الخريشة... ربما يعترضني يوماً عبقرى في فك الشيفرات يستطيع
قراءتها صارخاً في قمة الهيجان والجدل إذن هذا هو السر الذي تجري وراءه كنا.
اللجنة على هذه الطابعة الغبية، لا تتعطل إلا عندما احتاجها. قد تكون غير مرتبطة
بالحاسوب. يجب أن أبحث عن السلك في هذا التشابك الفوضوي المخيف حول
قدمي.

فجأة أسمع تفاعاً تصرخ ضاحكة: ماذا تفعلان تحت الطاولة؟
تفعلان! ألتفت خلفي وأنا جاث على ركبتي فإذا بحرة ورائي على أطرافها الأربعة
تحدد في شخص مجهول يفعل أشياء مجهولة في مكان مجهول أفاقت فيه لا تعلم
لأي سبب.
تسحب البنت التي أصبحت "ما" طفلتها من بين ذراعي جدها ثم تهمس كأنها تحدث
نفسها.

- "با"، البنت تكبر بسرعة. هل فكرت بالقصص التي ستطلبها منك قريباً.

ترفع تفاحة اصبعها في وجهي تفتعل التهديد الضاحك.

- تذكر أن تفيحة حدّرتك في آخر عشاء لنا في ذلك المطعم الهندي الصغير من إعادة استعمال القصص التي كنت ترويها لنا.

كم غريب حبّ البشر كبارا وصغارا للقصص، لكن أي غرابة في الأمر؟ ألا تصنع ذواتنا من أين ندرى ولا ندرى؟ ... ألا نجد في أكبرها وأوسعها انتشارا- تلك التي تشيعها أساطير الدين والعلم ما نحتاج من الطمأنة والعزاء والسلوى.

- تفاحة، ما زال ألامي بضعة سنوات لإتمام سرديتي لقصة لا أضخم ولا أجمل منها وفي الاثناء انتبهي لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.

- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وأنداك يا ويلي من هذه الفأرة!

الفأرة!

وفي بعض أقدم ملفاتي عن هذه اللحظة الفارقة في تاريخ الرحلة تنتهد "ما":

- يوم وقفت على رجلتيك أول مرة وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغرذت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأرة.

يوم يقف الآدمي أول مرة على رجلتيه!

إنه يوم أغرّ حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، لماذا لا تضرب له الدفوف، لماذا لا تنطلق الزغاريد، لماذا لا تنصب الموائد، لماذا لا تفتح خيام التهئة والتبريك وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟

في هذا اليوم الذي لن يضاهيه يوم إلا يوم الوصول وبوم الرحيل، تنتصب واقفا بصعوبة تُرفع قدما ترميها على طبق تظنّه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من النّار. ثم ترفع القدم الثانية وترميها بنفس الحذر على نفس سطح البسيطة. تنبؤك العثرة تلو العثرة أن الطريق مسلسل عثرات لكن خوفك ينزاح تدريجيا، وقد فهمت سرّ العملية وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركّه.

كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجعا ومطمئنا: والآن تقدّم لتكتشف ما أعددت لك من هدايا، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنّها تحمل جبالي الرواسي منذ الأزل ولا خشية أن تكون أنت بالذات القسمة التي تقصم ظهر البعير.

معالم المكان

لو تابعنا كل قادمٍ جديد وقد عرف كيف يستعمل رجله لأرهقنا وهو لا يكفّ عن الرقص والرقص والتسلّق والهرولة في كل اتجاه.

تصرخ الأم في طفل في الرابعة من عمره بشدّة غير معهودة منها:

-كفى، قلت كفى، أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مرارا لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح!

يفلت الطفل من بين ذراعيها مرة أخرى هاربا من جديد لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثم كيف يضجّ فرصة تأمل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟

هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهار وجه السّماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالي بعصبية متزايدة كأنّ إليها يقدح ولاعة تعاكسه، أو كأنّ عفريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفيّ وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بخطر ما.

يبدأ الطفل في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جدّه يساعده في سقي النخيل.

تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفت مخبأه يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوة إلى الغرفة الصغيرة، تحميه من جنون الريح

تصرخ لتسمع صوتها وسط صفير الريح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده: كفى الآن، لا خروج قبل نهاية العاصفة.

تعود بسرعة لرقتها الطبيعية

- هل تشعر بحرقّة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرنني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يقفّي الآثار.

لا خيار للطفل غير وسّام أمّ تردد ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق، والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيِّتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تعود المرأة الخائفة للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل رغم تواضع النتائج.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحزاني؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟

تتنهدّ الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن ينساها الطفل أبدا:

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

وفي ملفّ آخر يؤكّد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكسّر عن الأنياب.

- لمّا هبّت الرياح، فقدتُ كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضتُ وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولمّا بدأت الشمس ترميني بأشعتها كالصيّاد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار ولا طريق يدلّني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. عند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا، إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرّنك -يا بني- من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.

تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر من جديد وتحذّر عبثا.

- يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس، المعلّم القارّ المتحرك في العالم.

- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينكسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.

- "ما" هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار ردّه وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول في فضاء خياله بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهمها

استقرّ في كبدها فهوت من علوها كالطير الجريح. ثم ها هو يمدُّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الآفاق.

- اسم الله على ابني. كَلِّمْنِي. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

الطفل الآن حبيس الحوش ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكتبان؟

يغمض عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخُطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه، بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع. أتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجابا وغيره. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأني بأشباح تائهة في مجاهل العتمة، تبتّ فيّ من أعماق الماضي حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول لا بأس أن تُبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

*

الظلام أخيرا بعد طول التريّج ونفاد آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفيننا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار، حُبّ ابيه للصحراء وبغض أمه لها، خاصة وقد جاءتها هي وطفلها مرغمة وديعة عند عائلة الزوج الغائب بانتظار رجوعٍ لا أحد يعرف مواعده.

تستدرك الأم هفوتها وقد فهّمت أن طفلها لا يحبّ قدها في الصحراء وتهجمها على شمس الأب والجد:

- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تنقلب فيما بعد إلى...!

تصمت "ما" لحظة، تصيخ السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع ثغاء الجدي المولود الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!

- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوّره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعا ويتشاركون فيها، منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن "ما" تحفّظا بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفيئا. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكملوا نقش البخنوق الذي تلبس؟ هل كان ثوبا سحريا تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري، ولتقل "ما" ما تشاء.

- أنا و"با" وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبّينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.

- قد يأتي متأخرا هذه الليلة.

- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.

- أمر سيدي ومولاي.

قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه

الوحشة والسحنة المخيفة التي يتخذها عندما يتسريل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح.

هذا طفل ما زال بعيدا عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق، وأنه من أوحى منذ قديم الزمان للشعراء بأرقّ وأجمل الأشعار.

"كم عمر القمر؟ (إيسا)

ثلاث عشرة سنة

تقريبا."

ثم من علم الآدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ أكنّا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المَعْلَم والمُعَلَّم؟

أهمُّ من كل هذه المشاكل فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.

- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب يتبعه الهلال.

الهلال!

أضياءً لآدم هذا الهلال فكيف تقول الهلال الوليد (أحمد شوقي)

تعدُّ عليه الزمان القريب ويُحصى علينا الزمان التباعد

تزولُ ببعض سنائه الصفا وتفيى ببعض سنائه الحديد

تحاول الأم التصحيح:

- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.

- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس.

تبتسم "ما"، تداري حرجا. أياكون للشمس هلال لم يتفطن له إلا طفلها؟

- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك. كلُّ ثمين يا حبيبي فريد.

موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهم الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على

"ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.

أولى النظريات أن القمر كوة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا يمسك به الكائن العطوف

الذي تصلي له أمه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغيا به تعود الأشباح التي تملأ ساحة الحوش، تترصد به وراء أشجار النخيل.

هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحور -بكيفية جذرية- وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا زُميت على سطحه الكائنات الأتمة لقضاء عقوبة اسمها الحياة... ومصباح الليل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعو في قصص قومه "إبليس".

يعود الطفل لأسئلته الغريبة التي لا تتوقف أبدا.

- "ما"، من ماذا صنع الله الشمس والقمر؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. الشمس مصنوعة من ذهب قرطيك أما القمر فمصنوع من الفضة كالتي حول معصمك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

- فكرة مثيرة، لكن صدقني، يا بني، لا أدري.

- سأقول ل "با" عندما يرجع إنني اكتشفت مم صنعت الشمس ومن أي شيء خلق الله القمر. سيكون متفقا معي في كل ما أقول.

- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقوله هو.

لم تكن رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية هاجس هذا الطفل وحده وإنما هاجس الأطفال على مر العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسسوا على كل طريق يتبعه، واكبوا تغير ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتبعوه إلى أن حظوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترجح الجرم السماوي ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.

- "ما" أريد أن تروي لي أظطططول قصة في الدنيا، أنا أحب القصص، لكنك...

- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدتك التي...

- لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدين...

تضحك "ما" بحرج.

- صحيح أنني لا أحب القصص... جلها لتزين الواقع أو للهرب منه.

هل نطقت "ما" حقا بهذه الجملة أم إن النص يقولها ما لم تقل؟ ربما قالت كلاما من هذا القبيل علق بذهن الطفل أعادت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود لتؤكد قناعة ستصبح ثابتة لدى الكهل والشيخ.

يعود الطفل للكلام وهو مصرّ على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما يزرخ به من إمكانيات لإشباع فضوله وفرض وجوده. فما يميّز هذه المرحلة من الرحلة

اكتساب الطفل أهم أدوات دخول عالم الآدميين والانخراط فيه: الكلام. هناك الكمّ الهائل من الكلمات التي تمكّنه من تمييز مكوّنات العالم البالغة الحضور والتأثير: الريح، الرمل، النخيل، الشمس، النجوم والقمر. كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم. هناك الأشياء التي تتزاحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه: الحصير على الأرض، القربة على الحائط، الجرة أمام الباب، كانون الشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الواطئة التي فوقها قصعة الأكل في ركن من الأركان. هناك الكائنات الحية التي تمّ رصدها خارج وداخل هذه الغرفة كالعزّة والدجاجة والديك، والقط والحمار والجمل. هناك أيضا للأسف الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج أيام جني التمر. هناك نوع ثالث من الكائنات لا مبرّر مقنعا لوجودها اسمها الأفاعي تختفي داخل الرمل وحتى في طيات الأمتعة بنية القتل وليس فقط -مثل الذباب- لمجرّد الإزعاج.

يعود الطفل للججاج رافعا صوته.

- "ما" أريد أن أذهب للعين التي قرب المستوصف للسباحة مع اصحابي.

- نعم ستذهب لها غدا شريطة ألا تغسل المعزة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقتل الماء كما تفعلين عندما تلتمين الخبز قبل أكله؟
تتعمّق ريع ابتسامه الأم.

- لا، ليس عليك أن تقبّل الماء، أكرمه فقط بعدم تبيذيره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحماره عنتر من عنتر ليكون هناك دوما في القربة والجرة ما تشرب.
- "ما" أريد...

تقاطعها الأمّ تضع إصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

- أنصت لأي شيء؟

- للصمت... لكل هذا الصمت.

هل ثمة صمت أروع من صمت الصحراء ليلا! في مثل صمتها الذي لا يشبهه صمت وفي مثل ليلها الذي لا يشبهه ليل وتحت نجومها التي لا تشبهها نجوم، لا غرابة أن يقف آدمي هامسا لنفسه وللسماء تدبّرت من أنا، تدبّرت من نحن، تدبّرت لماذا جننا هذا العالم... لذلك حُكِم على الصحراء وعلى الصحراء وحدها بإنجاب الأنبياء.

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماءً هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد، هدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، عويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، صفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمين حسن الحظّ أو من سؤئه أن بُعدا لا يتصوره عقل يمنع عتًا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج؟

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس للبريق الذي يتلألأ في حالك السواد الصامت. يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟

تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولا في آن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا. ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟ إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها.

لا، لا، هذه الأضواء رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقوبا في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمّه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. آه، لو استطاع التسلسل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!

كم استفرّ فيه هذا الكائنُ بالُغ الحضور بالُغ الغياب، الذي تناجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صورا مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مردّدة أنه لا سند غيره يُرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكّد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البُعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم،

يوضع على سلّم، يوضع بدوره على سلّم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لمروه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع. الحلّ استعمال فانوس الليل وهو الليلة مكتمل.

حانت لحظة اللقاء وقد أنقل النوم منه الجفون. يبدأ الطفل تسلّق السلّم السحري وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجذلا، إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه أريكة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمتع في ملامح وجه مشرق بالنور.

يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر -وهو جالس على ركبتيه- بأنفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربة ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أمّ يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تُروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لعنق "ما"، وعن مسحة جديدة للجدّ، وعن أتان جميلة يزوجها لعنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كللللللّ أسئلته ليفهم كللللللّ شيء.

تتسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفلُ أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

ثم يشعر بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.

- "ما" لقد كلّمت الله وقلت له...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع يدها على فم ابنٍ كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأوّل مرّة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلّغها.

- "ما"، لكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه.

لا خيار غير الإخلاق للنوم وهو لا يعلم أنها آخر ليلة له في صحرائه الغالية، أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه طيلة حياته.

فجأة يشعر بأمه تقبله وتهمس في أذنه:

- قلت لك انهض، إنه الفجر... انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلوّن ثوب الليل بحمرة شاحبة ثم تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجمّد بعد في سبائكها.

من يتذكر فضل بناء معابد ماتشوبيتشم على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كيف كانوا يربطون الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الودت. يبقى -أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب- أننا ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما شاهدت من بشاعات وما اطلّعت عليه من أسرار مشينة.

تستغرق امرأة خاشعة في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتها وابنها واقف بجانبها فاغرّ الفم من الدهشة يتابع وجه الله يبتسم.

محكوم علينا جميعا أن ندخل العالم من بوابة لم نخترها، في فترة من التاريخ لم نُستشر فيها، لكن لا خشية أن يضام هذا أو ذاك فالعالم يتجلى لنا بما فيه من مرعب ومن مبهر أيا كان المكان الذي ندخله منه وأيا كان الزمان الذي نتبلور فيه.

تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة. القمر في طرف من السماء، والشمس في الطرف الآخر تواجهه. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النهار نصف الزمان، ولفانوس الليل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء.

إنها حالة يتخذها العالم الطاووس عندما لا يدّخر جهدا ولا يتراجع أمام تكلفة لترتين دار الضيافة. أليبهنا بغناه وحسه الفني المرهف، أم ليعوّضنا عما سنلقى من محن ومن امتحانات في دار ضيافته هذه؟

معالم الزمان

شيئا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للمكان الذي أفاق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا، حالكة السواد ليلا، مقام الشمس، والقمر والنجوم واللّه. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لَمّا يخرج إليه بحثا عن "با".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال، فالشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزار وتصمت ومغص الجوع يرحل ثم يعود. يكتشف الطفل يوما أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثا تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الأهل بل حتى هو. أية دهشة كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية غير يوم الخميس؟

بعد الخميس ثمة يوم يشعر أن له مكانة خاصة عند أهله: الجمعة.

إنه اليوم الذي يستطيع مصاحبة جده للجامع الصغير حيث يتجمع كل رجال القرية لطقوس غريبة لا يفهمها، لكنه يستبطن باكرا أن لها أهمية بالغة.

المطمئن في هذين اليومين المحبوبين رجوعهما الدوري الثابت ومن ثم لا خوف من فقدان متعة التسوق مع الأم ولا هيبه الصلاة مع الجدّ.

هناك أيضا يوم يأتي يرحل ويعود أدرك الطفل باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصيدة بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تترجى حمايته من أخطار مبهمة.

ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحلّ أسعد ليالي الأطفال وأشقّ أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

يعود الطفل للعادة التي لن تفارقه حتى وهو يصل أرذل العمر: السؤال وراء السؤال وراء السؤال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بنيّ، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكّدة، متأكّدة، متأكّدة؟

- كل التأكّد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحبّ هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مُشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحبّ والأمل.
يا للأسف هو الآخر يرحل تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القرّ بعد طول المعاناة من الحرّ. لا مكان يصفحك فيه الهواء كوهج من نار شريعة قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجمّهم.

ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بيّ.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيّرات التي يعرفها الطقس... أي الجوّ... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغيّر؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله ... إنه...إنه...إنه... إنه مرور الزمان وعودته الدائمة، والآن كفتّ عن القاء أسئلتك التي لا أعرف الردّ عليها.

الزمان!

ما هذا الذي قال فيه أحد الحكماء "نعرف ما هو عندما لا نفكر في طبيعته ويتضح عمق جهلنا به عندما نريد البتّ في هذه الطبيعة".

الطواف الحذر حول المفهوم والاكتفاء برصد ما الذي يجعله موجودا... كما لا وجود للماء الا بتمازج عنصري الهيدروجين والاكسجين، لا وجود للزمان دون عنصرين مكونين...الأول هو التغيير المتواصل في الحالات والأشكال التي يتخذها العالم، -رقصة الفصول نموذجا - وفي الحالات والأشكال التي تتخذها الذات-التقدم في السنّ نموذجا...الثاني وعي الذات بهذا التغيير المتواصل داخلها وخارجها - نموذجا وعي ذات الشاعر المتألم من سرعته أو تباطؤه أو وعي العالم الباحث عن أعقد النظريات الفيزيائية والرياضية لتفسيره.

يقرّر الطفل أن موضوع سمر الليلة الفصول وللخفيف على أم تردّد لنفسها ساهمة تظن طفلها لا يسمع مثلا شعيبا تردده جلّ النساء "الرجال والزمان ما فيهم أمان".

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي الفصول أربعة. سترى تتابعها جميعا عندما نعود لأرض جدتك، بعيدا عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتليا إياها بلهب جهنم أغلب الوقت وبلبالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هناك واللهب يشتعل في دوالي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟
تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم، سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضّل عند الله؟
تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل؟ طبعا الربيع.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخلق مرحّباً ومهنّتا بحسن الوصول.

يُزيح الفنّانُ الأعظمُ النّقابَ عن وجه السماء. يهشّ -نافذ الصبر- بعصاه وبعص الرياح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتنصرف متأقفة متوعّدة برجوع قريب. يمرّر خرقة لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوانُ بريقها. على ذكر الألوان، ليُسمح لي بالتعبير مجدّداً عن عميق الاحترام لهذا الفنّان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جُلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارة طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوقّر على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الفنّان الأعظم أن يُظهر مزيداً من الكرم حتّى تتسارع كلّ صباح للنافذة لنصرخ مرّة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفّ، ما هذه الصفرة الغبيّة التي اتخذتها السحب، الظاهر أنّه سيكون يوماً بطعم القرع.

تقول كفى دلالة يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات.

ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الجلي والحلل ثم يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتتدافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعتها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها على أنها ما

زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أول نملة غارها، تفرك عينها وقد أبهرها ساطع النور.

يتسارع إلى أعالي الأشجار-وقد أكمل زينته- أولُ عصفور مُرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقيّة الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

"هذا الربيع (ايسا)

حتى ظلي

مفعم حيوية"

آن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبثّه الحشائش والأزهار من رسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّدة أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأنّيني علامات مبهمّة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها -عبر مختلف الفضاءات- بصورة أنف عبثاً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّع في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتمّان صفقة لا تريداني -ظلما- طرفا فيها.

آه، كاد السيد ربيع أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. ها هو يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينظّ ويطير ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لذة الجماع.

نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جئنائه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحّباً بالصيف ومهنّثاً بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقاً.

يُطرد القادم الجديد بفظاظة ما بقي متردّداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلاّ من شمس كأنها قدّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة

مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عاد مضيفا بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالآدميين من شبق. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحب وتمتى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلفل والباسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شك أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها. يغير الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تسمح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجد والكد. يجمع الصيف حوائجه متأففا من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

لرصد الذات طول الفترات التي تفصل بين تغييرين في حالات العالم اخترع العقل المقاييس مثل الثانية والدقيقة والساعة والعام والسنة الضوئية... واخترع آليات القياس- من العمود المثبت في الأرض لتتبع الظل إلى الساعة الذرية... لكن لا مقاييس ولا أدوات لحساب التغييرات التي تمرّ بها تحولات الذات أبان خلوة غرامية او حصّة تعذيب طوال الدقائق التي تقيسها الساعة الميكانيكية؟ أي استنتاج؟ ... أن الزمان بعد قابل للقياس وآخر لا سيطرة لنا عليه!

يتقدّم الطفل لأول أيام الخريف مرحبا ومهنئا بحسن الوصول. يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمثل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي ستتدثر بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيهما دوما حلوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفيح. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصة الموت. ثم تمتلى

السّماء بأشلاء وبقاياها وببقايا أشلائها. تتحرّك نباتات بأغصانها المحمّلة وورودا حمراء كأنّها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف.

ما أغرب أن يتكلّم الأبكم، أن يطير من لا جناح له! تصبح أنفاس العالم صفيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد.

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه! من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الآذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنّاه لفسحة تدوم الحياة كلها.

أيا كان تصورنا للزمان وأيا كانت آراؤنا حول طبيعته وما أكثرها، كل ما نحن متأكدون منه أنه إرادة عالم يمنع منعا مطلقا الثبات على شكل، على حالة، على وضع مهما طال... عالم لا دوام فيه إلا لعدم الدوام.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، لم تشاركوني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّبا ومهنّئا بحسن الوصول.

يضرب الطفل جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقدة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمنٍ أغلّب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنّاه لفسحة تدوم الحياة كلها.

حتى لا يتعطل الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما"، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستفز يوماً فضول مؤرخ، عالم، فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفاديا اتخاذ أي موقف، الأول مكتفياً بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة. إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين حالاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم الخصومة مسرّاً في أذن الربيع: أنت الأول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف: إصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك.

تبتسم الأم لتخلّص الطفل من إشكالية لم يطرحها أحد قبله. كيف إقناعه بالإخلاق إلى النوم إذا أراد أن ينهض من الغد ناشطاً متحفزاً لمواصلة أبحاثه في عالم لم تستنفذ أسراره أبحاث كبار وصغار الباحثين.

أسهل فهما من طبيعة الزمان وظيفته ... هو همس المستقبل لأنه هو الذي يقرر متى الزرع، متى الحصاد، متى الإبحار، لأنه هو الذي يمكننا من التوقع، من التخطيط ومن الاستعداد لكل ما سنواجه من محن وامتحانات على طول الطريق... هو الماضي أي رصيدنا من التجارب والخبرات التي راكمتها على طول الطريق لتعيننا على مواصلة الرحلة... هو الحاضر الذي يفرض علينا أولويات اللحظة حتى لا نضيع في خضم تراحم الأحداث... ألا يعني هذا أنه ليس للمرتحل من حليف أئمن من الزمان! المهم أن الطفل استوعب المعطيات الأولى التي تثبت الإطار العام لعالمه وأنه مكان شاسع مترامي الأطراف في كل الاتجاهات ، أن فيه ثبات يمنع من التخبط في الفوضى وحراك يمنع من الغرق في الملل والفاعل هو الزمان .يمكنه الآن المرور بنوع من الطمأنينة إلى مرحلة التوغل في مجاهل هذا العالم لمعرفة ما يخفي من أسرار واكتشاف ما يعد به من عجائب وغرائب.

الدليان

لا أحد توغّل في مجاهل العالم أيا كانت مجالات الاستكشاف-بدون أدلة يقودون خطاه على الطريق، يحمونه من كل مخاطره ويدلونه على ما يوجد على جنبه من غرائب وعجائب.

هكذا لا تصل آخر محطات الرحلة إلا وأنت تدين بجزء كبير من حصادها لكل الأدلاء الاكفاء الذين أدوا وظائفهم هذه على أحسن وجه.

تفحص قائمة كل من قادوك على الطريق وستجد انها تبدأ دوما بنفس الدليل الأول الذي لولاه لما ذهب بعيدا.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا! كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابة في الأمر؟ هذا الدليل هو الجسر الذي يحملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود. هو مدير التشريعات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات. هو من يقود أولى حُطاك في العالم، أول مرآة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يطالبك يوما بتعويض الساعات الإضافية الطويلة التي يحرمها قانون الشغل!

آخر ما سخرُوا به مَيّ لافته قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأنت لم تعد تسكن هنا من زمان".

لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلا وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتدالا.

يا ما تعلّمت عن الآدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقدّمون كأطهار وقدّسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة! لا أكره شيئا قدر أن أكون متعبدا لصنم حتى ولو كان صنم "ما".

تُرى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرم، ما "الطابو"؟ تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعرّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجافّ.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضربني.

ما العيب في أن تفضّل أمّ أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتّر إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من علوّه والتهشم إلى ألف قطعة. ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم طليّ بالذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تنازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتأملها من جهة فترى وجه كوماري ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت "كالي" تتلوّى راقصة على جسد طفلها المرعي تحت قدميها، قلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة أساسية لفهم الآدي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن واجهك بوجهه المظلم ابحث عن النور المظمور وراء السحنة البشعة. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفى عقوقا وتجنيا على اللواتي وُضعت الجنة تحت أقدامهن!

عقوق؟ هناك حقائق مخيفة نرفض بشدة مواجهتها.

كم من دليل أوّل ما إن تسلم القادم الجديد نازلا من أحشائه، إلا وبادر بلفّه في خرق قذرة ورميه في أول صندوق قمامة، وفي أحسن الأحوال تتركه يصرخ طالبا النجدة على أعتاب مسجد أو كنيسة!

كم من دليل أوّل منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق!

شواذ تُحصى ولا يقاس عليها؟ نعم، لنُظمئن أنفسنا، لا أصعب على العقل والقلب من صورة أم أو أب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القبول الذي تمثله كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي، وبين النقطتين كل الممكن من الحالات والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة، وأغلب الوقت من مزيج من الإثنين.

يشاء حُسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي يرضي أصعب زيون والذي تُكتب بخصوصه رسالة شكر للإدارة العامة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا).

هذا عالم أقدمُ علاقاتنا به الخوفُ والبحث عن الأمان أولى الأولويات نترجاه من البيوت المغلقة، من الشرطة في الشوارع، من الجيش على الحدود، من الأقارب وأولهم الدليل الأول.

يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تتشجج يدا الدليل الذي لا ينام إلاّ متحفّزا حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لنأنيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلّمكم إياه.

يتردّد زوّار اللّيل. يتقرر من قبل لا أدري من أو ماذا، أن المرأة الضعيفة لن تنشب تلك الليلة التي تقاطعت فيها أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثة الطفل لن تُرعى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفّع أبرياء ثمن أفعال الآثمين. ينسحب قتلة الليل بخفيّ حنين وتُسارع الأم لإخفاء الطفل أياما عند الجيران. ينمو لدى الطفل قلق جديد من أخطار لا تُفصح عن نواياها وعن أسبابها، أفظعها أن يبقى على غرار كل الأطفال دون أب.

تُرى أين هو والده وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوما ومتى سيعود كما تُمنيه بذلك أم ليضفي عليه حماية لا يقدر عليها إلا الرجال؟
من قال إنه إذا كان بقدرة الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من السوء فإنها لا تتردّد أبدا؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:
- أبوك في مكان لا يمكنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء...
هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفثها السفلى. تشيح بوجهها. ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورود.

يصرخ الطفل: "ما" لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا.
تعبّر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كأن بها ترددا بين ريع الابتسامة أو تفجّر الضحك. تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:
- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.

تضع الأم إصبعها على شفثيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدر و صفير الثعبان راميا بآخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش.

تتخلل أحلام الطفل صوّر لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب، تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجّلي؛ ابني جائع.

فجأة يشعر بأمه تهزّه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أنت لنا بقفة فيها ما يكفيننا لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثرة، مرحة تبرز من قريتها دوريا لتفقد أحوال تَعَلَّم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها، بالخيرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفظور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاويه يوما فطور. تلتحق بهما بعض نسوة الحيّ. جئن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط المدينة الصغيرة وقد أفاقت على حصار دبابات الاستعمار.

تصرخ الجدة في الطفل الهائج وقد نفذ صبرها من ضجيجه.

- إن لم تكفّ هرجك فإنّ العبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما سترى.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما ستهدده الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يغمض الطفل عينيه، يترصد قلقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يغرق في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يتعمّق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها.

يُصدر البابُ صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هربها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهبة الري. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين لمواجهة الكلب، لكن مع حجارتك دوما في الجيب.

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ آه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.

يتنفس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنه لم يكن خائفاً، أنه -مثل "با"- لا يخاف جِئًا أو إنسا، وأنه سيشجّ رأس العبيثة بجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئًا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

- " ما" من أخطر؟ العبيثة هنا أم الأفي في حوش جدّي؟
- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سرًا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهمس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جِئًا أو عفاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب يجهله، يريدون الشرّ به وخاصةً بأبيه.

تسارع نسوة من الأقارب لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.

ينصت الطفل الذي يفتعل النوم لهمس مسموم يعلمه باكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أكثر إيلاما من اللّكلمات.

- آه، هذا هو الطفل الكبير! الله يخليه لك. نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توخّمت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكنا الطيب!...

أهم ما في الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إدماجك في مشروع مبيهم، في أمل واسع، في مهمة غامضة عليك الانتباه لها... لكن من أين لكل عُمر أن يصبح الفاروق الحازم العادل، ولكل مريم أن تلد مخلصًا وإلها!... تُرى أيّ مسار كانت تتخذه رحلتي لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محقلا بتعليمات وأمانٍ صامتة غير التي يحملها اسم ملك مقاوم سيموت مسموما ومنفيا اختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار.

تتنهد إحداهن بصوت عال تفتعل أقصى التعاطف والأسى:

-مسكين حقًا هذا الطفل. يقال في كل القرية إن والده ملاحق ومطلوب من البوليس. أرجو الله أنه ما زال على قيد...

لا تجدُ أخرى لإظهار فطنتها طريقة غير الاستشهاد بإحدى حكّم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخا في أمه:

- لا أريد أن تموتي أنت أيضا، أسمعين؟ إذا متّ لن أكلّمك أبدا، أبدا، أبدا!
- تحكم الأم ذراعها، تمسح دموعها يتهاطل من عينيه ومن عينيها:
- إطمئنّ. لن أموت، هدّئ من روعك.
- و"با"... هل... هل مات؟
- يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.
- تجمع النساء حوائجهن يتلعثمن ببعض عبارات الاعتذار لائذات بالفرار.
- ذات يوم تدخل البيت امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "با".
- تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد. تأخذها اليد المخضبة بالحنّة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيها تفاصيل بقية الطريق.
- خفّفي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير. إنه في الطريق، أقرب مما تتصورين.
- تنطلق الدفّازة في خطاب لا يهمّ منه الطفل مفتوح العينين والأذنين على أقصاهما سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.
- وهذا الطفل؟
- انتبهي، إنّي أرى عينا شريرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تهدّده!
- تعود الأسارير إلى تجهمها.
- تتدارك الدفّازة ما ليس هفوة وإنما مدخلا.
- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تركّبه ينزعه أبدا حتى وهو في الحفّام. إنهم يريدون به وبوالده شرّاً عظيماً، فبّح الله سعيهم.
- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصبية.
- قلت لك: لا تخافي فكلّام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسمُ الله دوما عليك.
- يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلّا بعد عقود ردها الواجم:
- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما أتمنى وأعطيتها ما تتمنى.
- العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختلّ في جدة وأم وخالات وجارات، وكلهن يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقّة ونعومة وليونة وطرّوة، عالمٌ أنثوي بامتياز.

تُهاجم الطفلَ يوما رغبةً عارمةً غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفّ كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرّك البطيء، ليحتدّ ما هو خافت، ليكتسب المكوّر المستدير أضلعا حادّة.

لا تتعجّل الزمان يا فتى. يوم تعرك الأحدث بكل ما فيها من فضاظة وقسوة، يوم يشتدّ الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلّل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تُمّي النفس بفضاء تُعيد تشكيّله مخيلة كل أطفال العالم، ليس فيه إلا إنانٌ اسمهن الملائكة وحوار العين.

*

الهاجس الآن ليس العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإنان المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الثاني.

على فكرة، لماذا دليان وليس دليل واحد أو حتى لا دليل أصلا كما هو الحال عند بعض الكائنات الحية التي تولد وما عليها إلا تدبر أمرها وحدها منذ نزولها للعالم؟ ربما لأن مخطط الرحلات أدرك أن رحلة الآدمي هي الأخطر والأكثر تعقيدا ومن ثم ضرورة إسناده على الأقل في المرحلة الأولى من الرحلة بدليلين يتناوبان السهر عليه.

المشكلة في قضية الحال أن الدليل الثاني متغيّب عن مكان سُغله. أين هو؟ كيف هو؟ تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط أمام المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويُخرج من رأسه دخانا أسودا كثيفا. ألم تقل له "ما" إن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفلُ الآدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبّلا، فيعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس دامع العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حُرْم منه بغير ذنب.

يتعلم الطفل أن ينفّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يولّد هذا الشعور عنده قلقا دفيناً لن يفارقه يوما.

هل ظاهرة الغائب وانتظار وصوله مشكلة هذا الطفل بالذات أم هي مشكلة جميع الآدميين؟

لا ينفذ توسل "ما" ونهيتها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفكف المرأة وهي مُنزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا فلا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأن في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد. ثم تغلبه حيويته. لا بد أن هناك حلا. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو -هذه المرة- عنصر له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أبا اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجه من لا صورة له ملامح وعلامات.

ألم نصنع أساطيرنا وأدياننا بهذه الطريقة، ننتقي أمام أصعب المشاكل الحلول التي ثلاثمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمننا صحتها؟

لا أحد من آباءه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقي منه إلا الصدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعبث طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أول إضراب له.

صدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل، مصمّما ألا يريح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتى يعود إليه دليل دونه يستحيل استكشاف ما وراء كثبان الرمل وما على الله والبيئة والجن والعفاريت وكل من يهتمهم الأمر إلا تحمل مسؤولياتهم في تمكينه ككل الأطفال من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تقترب الأم من طفلها بحذر من يقترب من قفّ مستعد للهجوم أو الفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلّة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الآدمي الذي يتحرك دوما وكأنّه مصنوع من الضباب. ترتفع يدها ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلاّ واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنّه -على صغر سنّه- صنع من خشب جفّت قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما يريدون، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأتي أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثاً، متقطّع الأنفاس، أخذاً القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسياً أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كاتّني به يتنّفس الصعداء وهو يتأكد أنّ القادم الجديد ذكر، هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه.

قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامّة وأن حديثاً بشفرة "المورس" أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السريّة.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، بارداً على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني غالب الوقت وحيداً ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قرداً عالماً يفاخر بي رفاقاً يستهزئون بي وبه. الرحمة!

- لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولته القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون لك الدليل الثاني وتدبّر أمرك معه.

كم من مرة سيجمعنا، قل سيفرقنا في الواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصمّ وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "با" أريد أن أذهب معك إلى كللللل الأماكن التي زررتها.

- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق أميناً فيه، لكن لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع، فدليلك بالحرب أحسن خبير. هبّاً، أسرع لنغزوه ولا تضيّع وقتك مع هذه الأثني. لا خير يرجى من أثني ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات المجوسي اللعين. لا أسمعك تنشد: "أين في الناس أب مثل أبي!"

- "با" أريد أن أسألك...

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوماً مشهوراً باليد اليميني في وجه من يعصّ، وباليد اليسرى السوط مرفوع في وجه من ينبج. في هذا العالم اللعين يجب أن

تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظ أن أكون له أبا. - "با" اسمعني أنت ولو لمرة.

- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيادا حتى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الآدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كل ما يجب أن تتعلم في فنون الصيد فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلاء المزيفين، يقودونك إلى صحار بلا واحات وأنهار بلا ماء وبارر بلا عشب، لكن لا تخف فدليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطرق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأثني ولو أنها حملتك في أحشائها، لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضربة حظ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبر أمرك وكن جديرا بي.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يُضَيِّعُ أغلب الآدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرد وباقى فضائلهم التعيسة.

كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غش، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتتمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثرة للغثيان. كانت صراحته سلاطة لسان. كان احتقاره نارا حارقة. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجراته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المألوف.

سمعتة مرة يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة مع الراديو لم يعرف لها ليل الصحراء مثيلا، المغنيّة كوكب الشرق، القصيدة نهج البردة، الشاعر أمير الشعراء والمستمع عبدكم المتواضع.

ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حَقْظِي باكرا بيتا لن ينمحي من الذاكرة:

وأبي كسرى علا إيوأته أين في الناس أب مثل أبي (مهيار الديلمي)

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيّد "أَيْتِفَنَّاَس" ، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

تهمس الأم في أذن الطفل الغاضب الحزين لا تُخفي قلعا متزايدا.

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد...

- لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سوياً.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجرب الأم مخرجاً آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء

فقم لهم، لكن عنترة قال له إنه لن يحارب لأنّ...

- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبداً جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوماً الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوماً تُمنيّني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلاً.

- لن أسمع كلاماً سمعته كثيراً. ليأتي الآن وفوراً.

تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية، المخرج الذي سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك الليلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. ثم يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن

للحبيب أن يخلفه. يدخل عالماً تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على

قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة

على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصقّر وحش أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطّلة

بحنو اضطراباً غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين دامعتين

ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تنبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللقاء حدث وأنّ

الطفل جالس على ركبتَي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مراراً وتكراراً على

طول الطريق.

عندما ينقش الضباب عن الأفق

يشعر الطفل وهو ما زال بين نوم ويقظة بوجه جافّ التصق بوجهه. تداومه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبغ وعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدفان فيه بابتسامة واسعة.

حدثت المعجزة وخرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدّك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك شبعت من الصحراء وهي لا تحبّ واحتنا.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعنّ ذلك اليوم عالما يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وبنفس الشعور البغيض إن لم يرحل.

تسرّ "ما" في أذن الطفل أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها ستراقبه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجده ويردّه لأّمه.

تُعِدّ المرأة الوقور طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد، كل ما يشغل بالها في هذه اللحظة أن تهدّئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

يفهم طفلها من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملابس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي أعتقها من الأسر. يسرّ الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاحب بآخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفتعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى اتركه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان "با" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضَيِّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضَيِّع وقتك أنت ننفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلّمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلّبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة.

بجدّ، ألا يُفزعكم كلُّ الوقت الذي يبذّره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟ تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تفتح أخيرا قضبان القفص ليطير العصفور الذي طال به الحبس.

على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود، تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات. يصرخ الطفل في أب على أقصى درجات التوتر كأنه ينتظر نزول الصاعقة.

- "با" هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟
يجيل "با" البصر حوله بعصبية مشيرا للطفل بغلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك، هؤلاء هم الذين تريد قتلهم؟

ينقذ وصول القطار الأب من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل -وهو لأوّل مرّة في جوف الوحش الأسود- ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه. يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنفه فوق الزجاج.

يتحرّك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أيديهن أمام أنوفهن ضاحكات متأففات.

تتسع حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربة المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با" لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوها بها أبدا.

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي، والمساكين لا يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيّدا أجنبيا بسيد محلي، وغاشم من وراء البحار بغاشم من وراء القرية.

ثم يعود للتركيز على نافذته متعجّبا من إعراض الناس عمّا تعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوماً كلّ المسافرين... أنّه سيجلس يوماً مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطلوع قمر.

ينتبه فجأةً للتغيّر البطيء فيما يشاهد خلف زجاج النافذة والثعبان الأسود يغادر بلاد البرتقال والعنب، ليدخل أراضٍ موحشة غبراء اللون تميل -كلّما تقدّم الركب- إلى حمرة قانية.

تغرق المناظر العجيبة في غموض الليل والطفل لا يقبل أمراً بالجلوس أو الأكل.

أخيراً يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يعبره استياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متناقل الخطوة، يحركّ رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.

- "با"، هذه ليست قرية جدّي.

- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزّل. أنا ميّت من التعب.

يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجلٌ يصرخ فيه بالسبّ والشتّم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلّما هوى السوط وكأّن ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:

- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟

- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.

يرفض الطفل القبول أنّ بوسع الثعبان الأسود الجريّ نهاراً كاملاً إلا وسيصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبقاً أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود. يجب التثبّت من الأمر.

- وهل ذهبّت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدّاً جداً؟

- لبعضها، العالم واسع يا بنيّ.

- وهل ستسافر إلى كللللللل أماكنه؟

يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.

- لا، لكنّي أحاول.

- سأحاول أنا أيضاً؟

- وهل أمامك خيار آخر؟

يرتمي الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله سهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطيّر. ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:

- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.

- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.

يعود إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:

- استيقظ، سيفوتنا القطار.

- ألم أقل لك إن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.

يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:

- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.

يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنّه في خطر. يسلط الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثمّ ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.

- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟

يجرّ الطفل دليبه المندهبس يبحث بعينه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.

- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.

- لا قطار هنا!

- سركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.

- هل فيها نوافذ؟

- نعم.

- هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟

- تماما.

- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.

- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.

- سأقول ل " ما " إنّك أردت أن ترميني من النافذة.

- وأنا سأقول لها إنّك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنام قليلا عليك اللعنة.

- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثمّ بانحساره السريع والمحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقتنا.
- في الثالثة صباحاً؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللّعة.
- تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجرّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم أقل لك إنّنا لن نرى شيئاً في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّّه بعيد عن هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فالتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سترجع من هنا؟
- يتنقّس الرجل الصعداء.
- أعدك أن آخذك إلى البحر عند رجوعنا من واحتنا.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن... الآن... الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفّ عن النطّ والصراخ.

- بالعسل؟

- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيرا الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق.

يحار لّبه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.

- لست مطالبا بالوقوف طوال السفرة.

- لا أحبّ الجلوس.

- افعل ما تشاء.

- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

- ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبّة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبرّ تتكدس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذناه كلمات "با" عن المكان وحماماته الطبيعية العجيبة التي تریء بمائها الفوّار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزايدة التعب في مبهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا منطقة البحار.

يواصل الطفل ككل الأطفال إلقاء أغرب الأسئلة.

- "با"، هل البحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الرّكّاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحار كانت تستأهل يوما اسمها ذلك لأن هذه الصحراء التي لم تكن دوما بحار

الرمل التي نعرف. كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءا من محيط اندثر سبحت فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو فجأة في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصانا.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، تذكر الآن أن اسمه الجمل ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "با".

يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكلللالل غرائبه.

يعود الطفل للصرخ يجذب كم أبيه بقوة:

- انظر، انظر!

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟

- لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟ أنا لا أحبّ هذا المكان الموحش.

ما لا يعرفه الطفل قدرة هذه الأراضي القاحلة على التحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء والبراعم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيدة، قوية، أشهر وأحيانا سنين، رحمة الغيث لتعود الأرض الجذباء ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.

يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.

- الحَرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.

- "با" انظر، انظر!

- إلى ماذا؟

- لساقيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.

يضجّ الجمع مجددا بالضحك.

- إنّها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟

احمد الله أنّها تصل بنا.

فجأة يدخل الرجال في حديث هامس وكيف توقفت أكثر من مرة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار.

يдахم الطفل خوف مبهم أن تتوقف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.

- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟

- فأل الله ولا فألك.

يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمع صمّت متجمّم. يأتي الطفل لأول مرة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم.

تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس.

أخيرا يتوقف هدير المحرك يكاد يلفظ آخر أنفاسه. إنها آخر محطة قبل الوصول إلى واحة الآباء والأجداد.

يتسارع الركاب إلى الباب كالفئران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.

يضع مجهول يده على رأس الطفل هامسا إنّها بركة هذا البريء.

يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.

- أنت، تعال معي.

يتوجّه الأب لابن خالي الذهن مما ينتظر والده من لحظات صعبة

- انتظرنى هنا حتى أكتمل الإجراءات.

- إجراءات!؟

- أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي. لا بدّ من رخصة.

يفتح الطفل فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا. لا تتحرّك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خده، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. مؤكّد شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن التزييف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟
- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.
- لماذا؟
- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.
- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟
- ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.
- هؤلاء! من بلّغ عنيّ واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكّر دوما يا بني، أن البشر من صنفين...
- الرجال والنساء، الرجال والنساء...
- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.
- الكبار والصغار، الكبار والصغار!
- لا يا فتى، الرجال وأشباه الرجال.
- يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق ثم يأخذ في الصراخ وكأنه في محفل خطابي:
- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبوّل وقوفا. لا تكن يوما جبانا وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيطٌ ألحق ظلما بنسبي.
- يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كتفي:
- إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. انهم يقبّلون اليد التي تخفضهم ويعصّون التي ترفعهم. كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! آه وآه، أي ذنب ارتكبت لأحسب عليهم ويحسبون عليّ!
- يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفرّ من حوله.
- اللّهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجبناء، اللّهم لا تجعل من جنازتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة!
- فعلا يا له من منظر مضحك لو دفن هذا الرجل في هذه الأرض وقطعان الخرفان تحرسها كلاب الذئب توارى في الرمل جثة الأسد!
- كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية تافه. لكن كل كرهه كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغى شيئا قدر التباهي بأهله

على عادة البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا "خير أمة أخرجت للناس".

- "با"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدًا جدًا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئًا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مُدنه، قُراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال؛ أحرقها إن استطعت، وإلا اهجرها، ذلك أضعف الإيمان.

هذا الرجل هو نفسه الذي سيردّد لابنه أكثر من مرة: يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبًا مخلصًا ووفيًا إلا لهذا الوطن مهما جافاك وظلمك.

والآن تدبّر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقفين الذي يجب اتخاذه والثبات عليه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "با" قدر ثنائية الوطن والمنفى... كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ضروريات الجغرافيا وصدف التاريخ... كيف لم يكتشف هو الباهر الذكاء أن العالم كله هو الوطن والمنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد، أن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بدّ لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونًا أو ميتًا. يتوقّف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدّك.

أحسن ما في الآدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وُجد تجديد.

- لا أريده. لا أحبّ لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضًا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.

- قلت لك البس.

متوجها للبايع: بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصراخ ليثبت أن له رأيا حتى في هذا العمر، وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الإكراه.

- لا أريده، لا أحبّ لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!
- يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.
- يصرخ فيه "با" بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوة.
- اللبس بسرعة وإلا فانتنا الحافلة.
- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!
- يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. مشهد لا أكثر منه ابتداء في علاقة الأدميين ببعضهم.
- إنه سعي كل ذات لتطويع الذات الأخرى بغية استعمالها وتوجيهها في الاتجاه الذي يخدم مصالحها... ترى مظاهر هذا المنحى الغريزي في تصرف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم... حتى العلاقة الدينية ليست إلا إرادة الخالق تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، وإرادة المخلوق تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر... كل الفوارق في تباين استراتيجيات التطويع وهي لا تخرج أبدا عن شكل أو آخر من الترغيب والترهيب.
- يتوقّف الأب عن ضرب الطفل وهو يفهم أن كسر شوكة هذا العنيد يتطلب مستوى من العنف لا يرغب وصوله. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. تتباطأ سرعة المشي وقد جاءه التردّد. يسترق النظر إلى طفل يشهق أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.
- لا أريد أن تقول لجدّك أنني ضربتك.
- بل سأقول له إنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل "ما".
- نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!
- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدّك.
- وسأقول أيضا لله.
- لا تقحمه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟
- يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.

- بعد المرطبات وزيارة جدي، ناسف معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر
وكللل الأمان التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجال؟

- شريطة ألا تقول لجدك أنني ضربتك.

- كلمة رجال.

يعود الطفل إلى الصراخ:

- جدي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخر منه مجددا كل حسن استعداد:

- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار.
كفّ عن الجري، كفّ!

وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريد إغراقها في
أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق،
أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل ليطنى صوته على صراخ الريح:

- "با"، أنا أيضا أذفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكّرني.

- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إنّه أمامك، يا مغفل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل إلى أن والده لا يتهامس مع جليس
وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة
المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، ساخطا، لا يحلم -وهو منفيّ عن أخطارها- إلا
بالعودة إليها. كم سمعته يردّد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق:

أقصى أمانيّ أن أمدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجيل بصري في عمق سماء ليلها... أن تنتهي غربتي في أحضانها.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل سترى جدك. انتهى عذاب الطريق. تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الآدمي مثلما تنعكس في الآدمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذلك وتحققت فيها أهداف ذلك من هذا، وفيها تُختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

"أعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرناندو بيسوا)

هب لي الطفولة مرة أخرى وخذ معك الله"

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة ستطبعه إلى الأبد وأن العالم بالغ الاتساع، أن الطريق طويل خطير لا بد أحيانا من شقّه بأجسادنا، أن السفر هو الهامّ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفّه على النافذة ينظر لجده واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى مكان اسمه "طينية" ليبذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو مُعرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانتها.

- تركني أول يوم واختنفى وأرجعتني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدّك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم وهم وراءه طول الوقت. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

حقاً يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلّفوا معه فجاءوا لذبحه ليلاً. حقاً كان له أعداء يترصّون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتدلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها.

كانت "ما" تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

الحقيقة أن "با" كان لا يستقرّ في مكان إلا مُكرهاً، كله تحفّز لاستئناف الطريق والجِلّ والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوماً على سفر.

يعود الطفل للصرخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- ما إلى أين يقود هذا الطريق؟

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوماً لتتعلّم كلام الله.

- وبعدها، إلى أين يذهب؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء البحر لأجد "با" وأعود به.

تبتسم "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هائماً على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له لتجد ما لم تبحث عنه يوماً.

في ركن مُنزوٍ من ذاكرة الخيال يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف ما يحفل به العالم
من خوارق ومعجزات.

بين أشجار اللوز والزيتون تواصل طفلة متقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من
سداجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.
لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم سهّل على هؤلاء
الثلاثة الطريق وأتمم رحلتهم على خير إنك السميع المجيب... أحيانا.

العالم

"ما إن يعود الربيع

إلا وأنا متتيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟"
هايكو لشاعر مجهول

مقدّمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

يثير فيّ هذا اليوم رهبة غير معهودة وفيه أربع مرات رقم تسعة. حقا هو يبدو غير مختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة وتخبّط المرتحلون في نفس المشاكل. لكن من يدري؟ قد لا يكون الأمر صدفة. قد يكون هذا اليوم آخر أيام العالم.

تقول ساخرا من خوفي ومن خوفك: ما الداعي إلى القلق، فنهايته مبرمجة حسب أغلب المنجمين ذوي المصدقية العالية لبداية القرن وانطلاق الألفية الجديدة أي بعد أشهر، فتنعم بما بقي لك من وقت.

صحيح أن من تبعات تكرار الإنذارات الكاذبة بنهاية هذا العالم عدم التصديق بقرب وقوع أقصى ما يخشاه البعض وأقصى ما يتمناه البعض الآخر.

لكن لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم المشبوه بأرقامه المثيرة للريبة؟ لهذا قرّرت وضعه تحت المراقبة اللصيقة إلى لحظة رحيله.

أنظرُ إلى ساعتي بشكّ حذر بين الفينة والأخرى، فيتأكد لديّ كل مرّة أن عقاربها لم تتوقف، بل تتحرّك دوما في الاتجاه العادي.

حتّى لا أتّهم بترويح الأوهام والآمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقّنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من عدم وجود أي ظواهر غير عادية تحضّر للحدث الجلل.

الأكيد أنني مشيتُ على نفس الأرض الصلبة المعتادة. لسعتني أيضا نفس الحشرات المجهولة كما تصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة.

في نفس سياق المألوف داهمتني نفس الريح القادمة من البحر حرارة ورطوبة. لمستُ كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فلم أجد لها طعما يحدّد أكلها.

لم ألاحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء وجهلي بأسماء النجوم جهلي البارحة.

أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الآدميين ونباح الكلاب، وأني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق.

كلّ هذا يؤكّد انطباعي أنّ العالم ما زال قائما.

على كل حال، ما زال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القراء والنقاد، فلو فكّرتُ في جدوى أفعالي لما قُمتُ بأيّ عمل باستثناء سماع الموسيقى.

ها قد تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل بأكثر من دقيقتين، والسماء ما زالت مرفوعة فوق رأسي.

أبشروا نهائيا، فهذا اليوم برقمه المثير للشبهة والشك ليس نهاية الرحلة حيث ولى الأدبار والعالم ما زال موجودا.

يдахمني شعور مبهم يفسد عليّ التمتع بهذه اللحظة وأنا أتخيل إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في "التسبيح" ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.

المشروع! الذي قرّرتُ عند انطلاق التدوين: أن أنظم ملفّات مبعثرة في الذاكرة، أن استجمع شتات تصورات متضاربة تبلورت في مختلف مراحل العمر علّني أجد أخيرا تصوّر المقنع الذي يردّ على هاجس الكهل ما طبيعة هذا العالم وعلى هاجس الطفل هل قُدّ القمر حقًا من فضة خلخال "ما" وهل صنعت الشمس فعلا من ذهب قرظيها؟

عالم أسسه مما تبلوره الحواس الخمس

في أقدم الملقّات عن أولى مراحل الاستكشاف تهمس "ما" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.

- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.

- يا الله يا فتى، تحرّك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيّعه.

تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجبّي من القمقم.

- "با" أين... أين كنت؟

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره فرحا. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدّدا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- كأنك تريد إغضابي! هيا، لا تضيّع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحّمّام وزيارة الحلّاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور ولا بدّ أن أبحث عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حتّ الخطي.

يتبع طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هامة حتى في الآخرة.

تتلقّانا بعد ثلاث سنوات مرت كلمح البرق نفسُ المحطة ونفسُ القطار لكن هذه المرة متوجها نحو الشمال.

- "با" وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

- لا توتّر أعصابي من الآن، حتّ الخطي لنصل الحّمّام سريعا.

يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:

- "با"، ما هذا الشيء؟

- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".

- لماذا يقف أمامه الجنود؟

- حتى لا ينسفه رجالنا...

- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استفزاز المحتلّ وكفره.
- يزمجر "با" كعادته عندما يصل عنده منسوب الألم أعلى الدرجات.
- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سمّوا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرة ومرة على لا-جبروتنا نحن.
- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. هيتا أسرع ما لك تجرّ قدميك!
- لا يريد الطفل شيئاً أكثر من الركض مع الراكضين وحتى تجاؤزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم إليه.
- يصرخ فيه "با" يكتم ضحكته.
- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.
- يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشّة طافية على أمواج نهر صاحب وجدران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.
- ينقل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضئع شاردة ولا واردة.
- "با"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟
- شيخ ينسج الجبب. سأشتري لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا توقفت عن الصراخ.
- انظر "با"، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!
- هذا سوق الشوّاشين وهذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعثرات.
- "با" أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.
- يا جحش. أريد لك مستقبلاً أفضل.
- "با" لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب"سفساري" أبيض؟
- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.
- يعود الطفل للصراخ:

- "با" ما هذا الشيء الأبيض؟
- يسمونه "الكنسترو". يوم نَخدُعُ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.
- "با" ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟
- فجأة يُداهمُ الطفلَ قلقٌ مبهم.
- بخصوص الحَلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّةً أخرى؟
- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشَّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.
- يصل أبُّ يجز ابنا، وابنُ يجز أباً، لحَمّام اسمه "القشّاشين" يقول عنه الأب إنّه أفضل وأرخص حَمّامات المدينة العتيقة.
- "با" لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟
- ألا يُعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟
- كنتُ أفضل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدّى!
- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.
- تضيق الأشكال والألوان في ضباب تتهدى داخله أجسام مترهّلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللّون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي "الطيباب" كالفأر بين مخالف القظ. يسلم جسمه مُكرهاً ليديّ المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.
- ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال، ملّ حمام النساء الذي يذكّره دوماً أنه ما زال طفلاً صغيراً.
- لا يبقى له غير كتم أئينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمة الجسدية. ومع هذا، ليس في هذا الحَمّام اللّعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل، وقد أعمى البصرَ الماء والصابون ورغوة "الشامبو".
- عيناى تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.
- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقلّ أنشّفك. المرّة المقبلة ستذهب إلى الحَمّام مع أمك ككلّ الصغار.
- أريد الخروج! أريد الخروج!

- أخرجَ الله روحك. استلقِ على هذا الحصر فلا بدّ من الراحة قبل العودة للشارع. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".

يأخذ الطفل الثمرة، يقربها من عينيه يطيل النظر وكأنّه يرى برتقالة لأوّل مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنّها جميلة جدّاً، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضاً، "با" هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالاً بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلُّ برتقالتك واطركني أغفو لبعض الوقت.

- "با" لا أريدها، إنها شديدة الحموضة.

- إذن كلُّ القشور، ربما يعجب سيادتك طعمها.

يغمض الأب عينيه معرضاً عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأوّل.

يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكراً لعبته المفضلة زمناً طويلاً، وكم كانت أمه تكرهها لسبب غير مفهوم.

- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوماً في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلظف معه دوماً وخذ بيده لتعيّنه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسمّيه "مبصراً" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئاً.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصراً" متى شاء، مكتشفاً أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة.

ها هو "يستنشق" روائح يفوح بها شجر النخيل. ها هو يسمع دبيب النمل على الأرض كأنه ركّض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزرخ به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسّر للضربير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "ما" إذن هذا الأعمى كما يقول جدّي لا يراني!
هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزعج أمه.

- "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- سبعة أطاف وبعيد الشّر على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عينيّ.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفائه ولا تفلح.

كيف لا يأتيها التطيّر وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنّه نائما

- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبيّ.

- ولكنه يقرب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب ثم يهز كتفيه.

ثمة إذن عالم لا يعرفه إلا "المبصرون" وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش وآخر لا وجود فيه للروائح لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم!... كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه لا يعرفها سواهم... في أي عالم كنت أرتحل لو لم تكحل عينيّ خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح!... في أيّ عالم كنت أرتحل لو أفقت فيه دون حاسة الذوق لا أتمتع بحلاوة التين، بمرارة القهوة وحموضة الليمون... في أيّ عالم كنت أرتحل لو أفقت فيه لا أعرف كيف هو خربير الماء، آذان الفجر وضحك الأطفال!... في أيّ عالم كنا نرتحل جميعا لو أفقنا فيه ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة اللمس؟

في الاتجاه الآخر، في أي عالم كنا نعيش لو ولدنا بحواس غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها أرسطو؟ سماع ما لا تسمعه حتى الخفافيش، شمّ ما تعجز عن شمّه الكلاب

والقطط، رؤية ما وراء البنفسجي، تحسّس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية، وحتى
ذبذبات الجاذبية؟

ينهر الأب الطفل الضائع في تأمل البرتقالة وسعيد لسبب لا يفهمه بما يبته فيه لونها
الجميل من طمأنينة:

-هيا، ما زال أماننا الكثير من الأمور.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا
له الكمين.

- "با"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك لن تهتّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلاق المسكين
يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية. أهذا اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟

يتفحص الطفل وجهه في المرآة، كأنّه يراه لأول مرّة.

يُرجع له سطحها القذر وجها عابس الملامح مع مسحة من كآبة، مستديرا أسمر اللون،
بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلعب فيهما دوما بريق غريب
يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.

يثير لديه الوجه الغريب، فلقا غامضا.

- "با"، انظر، هذا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا!

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريديني أن أتأملك في المرآة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

هو سيعاني -مثل بقية الأدميين- من ألم بقائه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره
وهي شاخصة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا
بكل قواه لتتوجّه إليه كل الأعين. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار
التي تتجاهله.

يبدأ الرجلان حديثاً طويلاً بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد
المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "با" هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أ-د-ر-ي. لا أحد يدري شيئاً في هذا العالم اللعين والآن أغلق
فمك إلى نهاية الجلافة.

يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجّر الضحك من أب نقل
عن العالم سرعة تقلّب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفتاً للنظر غير
صورته تتأمله بإلحاح.

يعود إلى تأمل أدوات الحلاق من موسى، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير عطر.
ثمّ يشدّه ثانية الوجه العائس في المرأة. يغمض عينيه ثم يفتحهما آملاً أن يرى اختفاء
الخيال فيجده يحدّق فيه كل مرّة، يستفزّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس
اللسان، يقرّر تخويله فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب،
فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "با" هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفضّ الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل
على قطع النقود التي دسّها فيها "با". يتوجه إليه بلطفٍ من فتح الكرم قلبه:

- حقاً، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضاً. تعرف المثل: "كل قرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصة الطائشة من بدقية الصياد المبتدئ:

- "با" هل أنت أيضاً قرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روجه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا
إلهي لم يجزّب مثلها على كثرة ما عرف خدّه الغصّ من الصفع! تُرى هل ستترك -

كالمرّة الفائتة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجرّ الرجل المتشجّج طفلاً قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات
الرجل، أناه الهدوء ومعه الندم. قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائياً إلى

تعويض الضحايا. كان "با" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا

محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

...

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذنيّ عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج "ما" ستكون هذه المرة جدّية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم هو لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمام.

للضرورات أحكام كما يقال، خاصة إن كان من بينها الجوع؟ يعود الطفل للصرخ

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلّم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجنب كانوا أم أبناء البلد. ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطقّة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقفُ المرفوعة فوق شارعٍ حافظ منذُ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شارد يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما". يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبّة تتوجه إليها الجحافل فلا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه للللللّ كلام الله، وحيث سنصليّ معا.

يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!

قد يكون المبني شيئاً هاماً بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهمّ هو ما حوله.
- "با" من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلتَ له "رَبِّي ينوب" ولم تعطه شيئاً؟ هل رأيتَ النادل؟ إنّه إنسان ظريف حقاً، يهرول بخفّة بين الطاولات، إنّه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.

- اترك الرجل وشأنه، كلّ، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينه؟

- قلت لك: كلّ، أتريد طبقاً آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟

- "با" لم أكل الدّ منه من قبل، رائحته أيضاً طيبة، سأقول لـ "ما" أن تطبخه لي كل يوم.

- نعم، نعم لكن كفتّ عن الصراخ أصبتي بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لستُ أطرشا.

- "با" أخطأ النادل هذه المرة، فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية...

- هل ستأكل هذا الطبق اللّعين أم أسكبه على رأسك؟

- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.

- ركضاً.

يعود الطفل جرياً من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجددّها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدّمى والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلّى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاذ الصبر أمام زمان يتلكأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.

يتوقّف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟

أهمّ سؤال يلقيه الآدميون على بعضهم البعض وكلّ إجابة فحّ... إن أنت تجحّرت في الشكوى من مصائبك أزعجت سائلاً غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيّبات أثّرت غيرته... وفي الحاليتين إن أظلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيّعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضربات الدهر.

ينصرف الصديق فيتنفّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال غدائه. فجأة يجلس لاهئا إلى نفس الطاولة شيخ بدين بئرس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادم الجديد.

- "با" انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنّه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاريها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبوس" وجبة "قمراية" مثل أبناء المدن.

يهب الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى، ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه للهجته. الرجل كان يتهمّم علينا. هل تعلم كيف يسمّينا أهل هذه المدينة الكلبة: الآفاقيون؟

- "با" ما معنى آفاقيون؟

- القادمون من الآفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرّقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في قدمنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدهدها... آفاقيون، آفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة. ثم يستشيط غضبا على عاداته عندما تصل آلامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنّي الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموت أورتنا الخدمُ لخدمهم واليوم يورثوننا لحراس الخدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثم تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة ببثّ وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

آخر تحذير عديم الجدوى من أب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه.
- أنتبهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصرخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة آخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنّما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلوّ! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة مذهلة الاتساع! هذا الحّمّام الطائر، الراقص، الماشي، القافر الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببناؤه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما" الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنّها تتوسط الصحن، إنّها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم أيضا أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -وإلى الأبد- من الشائعات وأصناف الحقائق وكبرى الأكاذيب.

يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه. ينهره الأب

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلا فقدتُك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادهما الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف مترابطة ورائه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدرّ الجري للوصول إلى الصفّ الأوّل حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيّلة، لماذا هذا القلق المبالغ والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظرائه تقول: لا تخشّ شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقلّد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفاً ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمّر بصره على قديّ الساجد أمامه.

لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزق يبرز منه كعب القدم، كأنه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ "با" من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثمّ ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيت امرأته أن ترفع جواربه.

يصرخ أب غامرٍ بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفلَ رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "با" هل جواربك مثقوبة أيضاً، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهد الرجل المتزايد توتراً.

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرآة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكأ وأتباطأ، أجزّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجزّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنباً لجنب فذلك ما سيأخذ زمناً طويلاً على فرض أن الأمر حصل يوماً.

- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "ما" إنني صليت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.

- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهد "با". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلاً.

- يا بنيّ، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس، باتجاه آخر محطة زيارة في المدينة، وأهمّها بالنسبة ل "با".

من أين لي أن أنسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبّر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق مقيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق أغلى عطر لها!

حقاً لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به المكتبات.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري. مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با" هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كل اللللل الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس الأب في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعمّك ما تريد.

- أريد آخر عدد لمجلة سندباد وقصص جرجي زيدان وأيضاً كل اللللل القصص الهندية. يفتح البائع فمه.

- كل قصص جرجي زيدان، كل القصص الهندية!؟ كم له من العمر!

يغالب "با" زهوه:

- هات له كل ما عندك حتى لا يقرأ كتبي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.

يا للرجل المتهوّر! يصرخ "با" وقد امتقع لونه:

- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشياً على الأقدام؟

يتدخّل البائع بلطف:

- لا تحمّل والدك فوق طاقتة، ما أخذته زاد لأشهر من القراءة.

يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضرية:

- ولا تحمّل والدك فوق طاقتة...

يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:

- ما دام والده حيّاً فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجوداً... إلخ.

يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مباليّ بالبائع يخفي سروره وشماتته. إنذار صامت أنّه من الأحسن أن أتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير. أخيرا الهواء الطلق والعودة إلى الركض والرجل والطفل محملان بكمّ محترم من المجلات والكتب.

- "با" هذه بناية جميلة، أحب شكل بابها، هل تعرف ما هي؟
- لا أعرف، لا أعرف، كفّ عني أسئلتك خمس دقائق وأسرع حتى لا نبيت الليلة في العراء كالمتشردين.

في عربة الدرجة الثالثة لآخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.
- "با" هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كلللاللّ الدنيا؟
يرسم الرجل على محيّاہ ابتسامه التهكّم ثم يصرخ.
- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوماً أراد الحياة". لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوماً أراد الممات"، لكن من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.

- هل ثمة غيره يا مغفّل؟

- "با" أريد أن أكون مثله عندما أكبر.

ينفجر الرجل ضاحكاً، ثم يستشيط غضباً كعادته والسيناريو الذي لا يتغير المرور من الضحك إلى الغضب ومن الغضب إلى الضحك.

- إياك، ثم إياك. حذارٍ أن تصبح شاعراً ولو كهذا الشاعر الذي عقّرت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.

- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلاً. كن طبيباً، والآن اتركني أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده. آخر ما يهّم الطفل مستقبليّ الغامض، وكلّ ما يريد العودة مجدداً للمدينة العجيبة لمواصله استكشاف ما لم يستكشف من أزقتها، من جوامعها، من حوانيتها، ما لم يذق

من مطاعمها، ما لم يشرب من مقاهيها، ما لم يسمع من أصواتها، ما لم ير من بشرها
ومما يتسلل من قشط بين أرجلهم.

هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة عجوزا عاهرة
تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط وأنه سيواصل حُبّها رغم كل شيء.
"مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي
برغم جميع ما فيها
أحب نداء باعتها
أزقتها
أغانيتها
مآذنها... كنائسها
سُكارها... مُصلّيها
تسامحها، تعصّبها
عبادتها لماضيها
مدينتنا -بحمد الله-
راضية بما فيها
ومن فيها
بآلاف من الأموات
تعلّكهم مقاهيها
لقد صاروا مع الأيام
جزءا من كراسيها
صراصير محنّطة
خيوط الشمس تعميها
فلا الأحداث تنفضها
ولا التاريخ يعنيها"

يومٌ يجلس الكهل لترتيب ملقّاته عن توغّله في الفضاء الحسّي، سينتبه أنه لم يطلب
من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يمكن.

كيف لا وهو لم يعرف مكانا على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك
التي اعتصرتها منه المدينة العتيقة والعالم كلّه اختزل ذلك اليوم الذي لا ينسى في أزقتها
الضّيقة بما كانت تفيض به من ألوان، من روائح ، من أصوات ومن تدافع محموم
للبشر.

عالم على تخوم المادي واللامادي

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق هذه المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملُّ البحث في أصل مبانيها المتداعية. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرني وهي تقلد لهجة دليل سياحي أمام كل مَبَيّ نَصِله:

- هذا جامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك. هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما؛ إرهابٌ دولة ذلك العصر.

- جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية التي كان "با" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تُبّر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون الأدلة الذين قادوا أولى خُطانا بهذا الجهل المشين؟

- بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدقّ، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقيّة أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسما أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية...

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتها بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة الذكية الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.

نواصل المشي وسط الزحمة في صمت ثقيل. تُغيّر مرافقتي الموضوع.

- على فكرة، ما ذا تكتب حاليا؟ أنت لا تنفك عن الخربشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

- لست متأكدا أنك ستستخرجين منه شيئا، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبت.

- حظ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحيانا وقوفا وسط حافلة مكتظة وحتّى مشيا.

- مادة لنصّ جديد؟

- نعم، لنصّ يتجول فيه الكاتب بين ذكرياته محاولاً التجميع بينها لاستخراج ما يمكن من عبر ومعاني... إنه نوع من التقرير الشامل الذي يفترض من كل مرتحل تقديمه في نهاية رحلته إن لم يكن للسلطات العليا التي رمت بنا في هذا الجحيم فعلى الأقل للأجيال القادمة لعله يعينها في شيء على تحمل مصاعب الطريق.

تهزّ مرافقتي كتفيها ساخرة.

- سيرة ذاتية أخرى! ألا يكفي من هذا النوع وطوفانُ النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

كم سأردّد النص ليس سيرة ذاتية، النص ليس سيرة ذاتية، النص ليس سيرة ذاتية، فيردد الخبثاء ورائي، بلي، بلي، بلي.

- يا ستّ الكلّ، نسيت مقولة فيكتور هيغو "عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدّث إلا عنك".

- لا تتحدث إلا عنيّ؟ فرصة لتقول لي أخيراً رأيك فيّ.

- رأيي في الآدميين عموماً والإناث خصوصاً: كائنات يستحيل العيش بدونها ويستحيل العيش معها.

- وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء.

- عنوان نصّك العظيم هذا؟

- الرّحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرًا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الآدمية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم....

- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان... فبا خيبة المسعى!

- هل غلطي أن البشر لم يتركوا عنواناً لكتاب إلا واستعملوه نكايّة فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيلة قرونا قبل أن أولد؟

- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حساباً لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوماً، سيُخرجون جُملاً من سياقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان وبالكفر، بالشيء ونقيضه... كل هذا تعسفاً على النص وتحاملاً على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيداً، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنيةٍ لأحَبِّ مطربةٍ لِكَلِينَا:

"كُتَبْنَا وَيَا مَا كُتَبْنَا

وَيَا خَسَارَةَ مَا كُتَبْنَا

كُتَبْنَا مَتِيَّةً مَكْتُوبٍ

وَلِهَلَّا مَا جَاوَبْنَا"

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

أقول لها إن هذا النص تصفية حسابات قديمة.

يُشَرِّدُ البصرَ وتَنكُفِي الذات على ذكريات فيها من الألم ما فيها من المتعة.

يَوْمَهَا صرَّخَ المَعْلَمُ في صفِّ تلامذة مدرسة ابتدائيةٍ في حيِّ فقيرٍ: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفقت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك لفسحة، صيف ما شاهدت وما فعلت ذلك اليوم.

يَوْمَهَا انكَبُ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطوراً وبقع حبر، يتمرّن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أوّل نصوصه يفتق بطل قصته على همس الشمس قائلة: أما زلت نائماً؟! انهض أيها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفُطِرَ في الحرّ لآته على سفر. ثم خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكلّ الإمكانيات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلاً ومتجاوزاً كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية، فتنحّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرُك وكفى هزلاً. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيّارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يَبْسُطُ حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل، توقّفت السيّارة قُربَ فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضاً. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أككككبر طيب وسأتيك بكللليلل الأودية التي تحبّ وستروي لي كللليلل قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنتره وعلي بابا وسندباد،

فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأم لأنّ النساء يبكينّ دوماً عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلاً بتجاوزه السابعة من العمر لم يبكٍ رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبّه لجدّه. فهو يحبه كحبّه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبداً، أبداً، أبداً.

يومها ختم الطفل إنشائه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيالٌ من الكتّاب الناشئين نصهم الأول: ورجعتُ إلى البيت فرحاً مسروراً.

يومها ضحك المعلم باستهزاء:

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوماً سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّرٌ مُبين؟! لا تُعد إلى مثل هذا الكلام أبداً.

ثم تنهّد: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.

يومها كظم الطفل غيظه واعد نفسه أنه سيكتب يوماً إنشَاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شكّ أنّ هذا النص انتقام للإنشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كُبر كثيراً وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار طول إنشائه وخاصة موضوعه: أفقت ذات يوم في هذا العالم، صيف كلّ ما شاهدت وفعلت وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

أفبق من ذكريات لذيذة موجعة على صوت مرافقتي:

- كنت أظن رجال العلم الذين تدّعي أنك منهم لا يتعاملون إلا مع مشاكل بالغة الدقة تاركين المواضيع الفضفاضة للشعراء والأدباء والفلاسفة.

- سأترك للمختصين ولعهم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. لا بدّ من هذا النوع من الشغّالين الفكريين. لكن ليتركوا لي ولأمثالي متعة بناء نظريات تعطي معنى لكل الشتات الذي يجمعوا حتى ولو كانت أغلبها جوفاء.

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي للسخرية اللطيفة:

- ألا تخشى أن تكون كتابتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر، وذلك ما نسعى دوماً لتفاديه ونحن نفرق بين القضايا والمستويات والمناهج!

الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر، العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علمته المنفصلة، الفلسفة في خاتمة والشعر في خاتمة أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين... النبيلة في الواجهة والدينئة خلف الستار، الجِد حيث لا مجال إلا للجِد والهزل حيث يُسمح بالهزل. أي تصوّر بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط أروع ما فيه التداخل والتناقض وكل الحالات الطريفة التي تنتج عنهما!

لم لا؟ نعم ، أريد لنصي أن تتجاوز فيه ذكرياتي الشخصية -الخيالية والحقيقية -مع شهادتي عن العالم -الموضوعية وغير الموضوعية- مع آرائِي- المتواضعة وغير المتواضعة -في الكليل للقسايا التي تشغل العقل البشري...تماما كما تفعل جريدة نيويورك- تايمز التي تجدين فيها على نفس الصفحة آخر التقارير عن الاحتباس الحراري وتطورات مشاكل فنانة مشهورة مع طليقها بجانب أحسن طريقة لطهي سمك السالمون.

- وكيف ستحقق هذا الإنجاز العظيم؟

- عبر التمعن في أدقّ تفاصيل في القصة الوحيدة التي أعرفها جيدا لاكتشاف الثوابت التي بُنيت عليها كل قصص الأدمين. أليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لمعرفة كيف بُنيت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟ ألا يعني أنني إذا تفحصت ذاتي التي لا يمكن أن تخفي عني شيئا فإنني سأفهم الكائنات الغريبة التي حكم عليّ ظلما وعدوانا بالانتماء اليها ؟

- أنت كمن يدّعي أن دراسة قطرة تعلّمك ما طبيعة المحيط . لكن، ما علينا. واصل.
- هل تساءلت يوما لماذا نقرأ؟ أليس لأننا نبحث عن ذواتنا في قصص الآخرين؟ أليس لأننا نبحث في قصص الآخرين عن معنى وجودنا في هذا العالم؟
- المهمة أن تجد في عصر الاستهلاك السريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكُتاب هذه الأيام أكثر من القراء؟

- لا خوف من انقراض جنس القراء حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. وعلى كل حال أمني السري معقود على كائن آت من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدتْ للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزعج سيادتك.

- بصراحة مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض منهم شيئا من هذا الذي نبحث عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف إلا إثبات الذات وتخليدها فيما تبقى من الزمان.

- الخلود بالكتابة مجرد طُعم كالذي تلوّح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي، المهم تَواصل النسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يلدّه الفكر الذي يجب ألا يتوقف أبداً.

- سأفتعل تصديقك، والآن إلى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بوَدّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا دُوق الزبون وخوف الرقيب. لكن أي ناشر انتحاري قادر على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئٍ قادرٌ على الصبر عليها؟

- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستفزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظه العائر للشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.

جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.

- متى ستشرّفني بأن أكون أولى قرّاء هذه الرواية العصماء؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلاً هل سأغامر يوماً بنشرها.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهاراً عديدة لست متأكداً من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات والنصّ غابة موحّشة يجب فتح مسالك المعنى داخله بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليه طول الوقت بالصقل والنقش... مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقاً.

- سهوٌ مجدّد، كلّ آذان صاغية لك.

- لا أحد يصني لأحد، ربما الأهمّات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظراً أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك

بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفي منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبدا.

- أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة.

- طيب والآن إلى أين تريد الذهاب؟ بدأتُ أتعب.

- إلى المكان الذي كان "با" ينتظر بفارغ الصبر وصوله... المكان الذي لعب هو وأمثاله دورا أساسيا في حياته وفي حياتي... لم أتعرف عليه لحد الآن رغم أنني واثق أنه كان في هذا الشارع.

فجأة أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين وقد تعرف الوعي الباطني في لمح البرق على أنه فعلا المكان كنت أتشوق له منذ بداية هذه الجولة في أزقة المدينة العتيقة.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با". جلّ هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائضية البشعة ولوحات عن مكة تدّعي الفن وتوهم بالقداسة!

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك. المكتبات بالعشرات وهي أيضا محلات تجارية تبيع موادّ للاستهلاك اسمها الكُتب.

- يا امرأة تحدّثي باحترام عن أماكن لا تقلّ قداسة عن المساجد والكنائس والمسارح والعُلب الليلية.

- استفزاز باستفزاز، قل لي يا فهميم ما الذي يفرّق بين حوانيت تبيع مثل هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتباً أغلبها لا تصلح حتى للّف السمك.

أقول لها إن المكتبات هي النقاط الحدودية التي تربط بين الفضاءات التي تشكل عالمي وهي الأماكن الوحيدة التي تتجاوز فيها جنباً لجنب وتتمازج معطيات الحواس واللغة والخيال.

تعود مرافقتي سريعا للحديث ظنّاً منها أنها جرحتي.

- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟

تلك الليلة وصل البيت أبٌ مرهقٌ وطفلٌ متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا. افتعلت سجينه البيت السرور بما جلبا لها من الحلوى. سارع "با" إلى كتبه ورحل إلى أحب فضاءات العالم إليه. سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.

تلك الليلة عادت المرأة الوقور لغسل الصحون القذرة ثم للجلوس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتابا أصفرا رثا تطيل النظر إليه ثم تغلقه واجمة. كانت مثل سجينه زنزانه ضيقة رغم أنها لم ترتكب أي جريمة ومفاتيح الحرية لاستكشاف أوسع فضاءات عالم البشر محرمة عليها إلى الأبد. هذه المفاتيح هي التي سأروي الآن تفاصيل تمكني منها وتمكنها مني .

عالم دعاماته التي تصنعها الحاسة السادسة

- تهمس أمّ في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:
- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!
 - إلى أين؟
 - إلى الكتاب. هيا، لا تتأقّل!
 - الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.
 - تغالب "ما" نفسها حتى لا تنفجر ضاحكة.
 - ستذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.
 - إنّها نبرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحّمّام، أي أنّ الموضوع غير قابل للمساومة.
 - لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة؟
 - لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلّكأ.
 - تجرّ امرأةٌ طفلاً أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاتر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.
 - تذكّر ما قلّته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تنشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده ب "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً. استوعب ما يقوله لك، قبّل يده عندما يدعوك لتمثّل أمامه، لا تكن وقحاً ولا تتكلّم صارخاً أمامه، أطعه في كلّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى. لا تنس أنّه سيخرجك من الظّلّمات إلى النّور فهو من سيعلّمك كلام الله.
 - إنّها عادةُ الأمّ الأزليّة: إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد.
 - بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرةٌ مُشبعة بالخيال.
 - لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.
 - تجذب "ما" يد الطّفل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:
 - لا تكرّر أبداً مثل هذا الكلام، خاصّةً على مسامع الناس.
 - يصل الطّفل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركّز من جامع المدينة الصغيرة التي قدفتها على ضفافها أمواج الزوج.

تدفع الأم طفلها لتخطي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بداخلها يحث على الفراق وآخر يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ نسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف ببنس من الصوف البيئي وعلى رأسه شاشية حمراء يلقيها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا يوماً فأساً أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترئاً بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتفاسمه الطفل مع الرفاق الصغار، وكلّهم جالسون أمامه صفوفًا متراصّةً في أعجب فوضى.

يوم غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليبصره عن كثب فوجئ بنظرته الجانبية مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدّر حظوظه -خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الآخر لمآربه.

يومها داهم الطفل شعور بالتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثمّ قرّر البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيء رهيب آخر تسمّيه اللّغة "الفلقة".

الفلقة! وما أدراك ما الفلقة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أمّة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطفل لمحاولة تسييره في قوافل المرؤضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكلّ العيون، جاهزة لكلّ الاحتمالات، وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصاً طويلة لن تبقى طويلاً دون استعمال.

على ذكر وسائلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصاً طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصقر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفتر فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إليّ ويخلصوني منهم".

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيبنا على مرّ العصور، وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه أفخم "سويت" في الجنة.

يعود الظَّفَل ذلك اليوم المشؤوم إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر وكل همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلِفَت الانتباه.

كيف تَفَادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنّه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنّه قام ليجلس بعيداً عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلاّ من نفسه، أنّه لم يقل للعجوز: "سيّدي الشيخ" وهو يخاطبه، أنّه لم يُظهر له من الاحترام إلاّ أقلّه، أنّه لم يُقبّل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يُغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟

تتظاهر "ما" بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقي أيّ سؤال. تتغافل -على غير عاداتها- عن حصّة غسل القدمين الإيجابية مظهرة مزيداً من الحنان.

التجاهل! إن أصبحت متمكناً من تقنيات هذا الموقف ستعي يوماً كم من أصدقاء اكتسبتمهم لأنك تسوّرت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم وكم من أعداء أفقدتهم صوابهم بنات الصمت ناهيك عن كونك وقّرت على نفس منغصات معارك تافهة مع تافهين.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويق، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصّاً طويلة وقدمان داميتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفوراً.

وفي الغد تهز اليد الرقيقة الظَّفَل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه ب "سيّدي"، قبّلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلّاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلتِ وفعلتِ.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّباً؟! كم سيكون رائعاً أن تشبهه، وكم سيكون فخوراً بك يوم تُعلّم صبيّة قريتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدّبًا. أنا أكره كل المؤدّبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!

تأخذ الأم طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب صغيرا موجوعا وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجعُ أمام أوّل عقبة؟ تُرضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويلُ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدها لك "با"!

نعم، كم هو شاقّ طريق الآدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه باكرا أنه لم يأت العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة وكم سيكون صعبا ومكلفا فهم هذا العالم والتعامل السليم معه فما بالك كما يحلم المجانين بترويضه والتحكّم فيه.

تواصلُ الأم إقناع طفل مُعرضٍ عن كل كلام.

- رأيتك في المنام عالِمًا بارعًا باللّسائِن! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك- ملاك بشّرني بهذا. هل تكذّب ملاك الله وتخزييني؟

هل أتاها الملاك يَوْمها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ لكنه أتاها واتّفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الظّفل عالِمًا بارعًا باللّغتين ذلك لأنه محكوم عليك دوما أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدّتها لك طاولة القمار وأنّ تلعب -شئت أم أبيت- الدور الذي قرّره لك "البخت" أو سوء الطالع.

لم يعد مطلوبٌ من الطفل سوى التطبيق، إذ لا حقّ له في إفشال مخطّطاتٍ سرّية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديةٌ للأُم ورجبةٌ عارمة عند الأب في الثأر.

كيف مواجهة تجدّد كابوس البارحة؟ موجة من الرفض الباكي. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في بداية البداية؟

تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجّة التي لا تُقاوم.

- تعلّمتُ بعض الحروف من أخويّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيّني بالبقية. آنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدّق الطفل في وجه أمّه وقد تغيرت فجأة كامل الوضعية:

- أنت لا تعرفين القراءة وتريدين أن...؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتّاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محمّلا بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه:

- سأذهب لآتيك بها. وسأتوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كل ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

ذلك الصباح لم يركض طفل في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد بمحض إرادته مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد أَلَمَّت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعاً سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.

تُداهمه -وهو يردد كاللبغاء- أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما العالمين، ما الختّاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى ختّاس ولماذا يوسوس الشيطان في صدور النّاس وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر- من باب المطالبة بالحجّة أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفتّن إلى أن الطّفل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأقبح ما يكرهون، فأراد أن يقوّم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجراً في الدنيا وثوابا في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرة والشيخ أحسن مزاجا:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الختّاس؟ ولماذا تبتّ يداه؟ وما معنى تبتّ؟

أخيرا يستبطن أهمّ ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة: تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمّق كرهه للمؤدّب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلّم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون -ككلّ سلطة- إلا بالفلقة والعملاء. كان همّ العميل هذا، وهو أطول

الأطفال قامة وأكبرهم سنًا، أن يصقّي حساباته مع مَنْ لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعمّس العريف، عقوبات كافية لتثني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفضَ الحضور بين يدي مَنْ هو بأمرّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدار كلّ مساءٍ مثقلا بآلامه الصامتة يردّد عليها ما علق في ذهنه من جُمَل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تُترب لسماعها.

- "ما" لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحث عنها في كتاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءٍ مع حرقه الإحساس بالذنب والقهر.

تتوسل الأم لطفلها انقلبت الأدوار.

-أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا ستُفرج بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكر والسّمّن. وأنت أيضا لا تكن سليلت اللسان كعادتك. لا تكابر، فلسّت دوّمًا على حق. سأصليّ الليلة كثيرًا ليهديك الله.

كم من آلام ومصاعب يتطلبها استكشاف الوجه الآخر للعالم وكم فيه من مصاعب ومطبات ومفترقات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجه الآدمي في استكشاف فضاءه الحسي!

ها قد بدأت "ما" تتخوّف بجدّ من صدق وعد الملاك. تتشجّج أصابعها وهي تمسك بكتفي ابنها:

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليًا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبدًا، هل تسمع؟ يجب ألا يحصل هذا أبدًا. أبدًا!! كم سأكون فخورة بك وقد حفظت السّتين جيّزًا! كم سيكون "با" فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسر منها!

ولأنّنا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإنّنا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصا وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشريّة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التطلّعات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدقق العصيدة بالسكر والسّمّن، أمرت بإصدار التعليمات

لدواليب الإدارة حتى لا يكابر الطفل ويتخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرععيين.

ربما تدخل الملاك حليف "ما" بحزم وإلحاح لدى مكتب التطلّعات الكونية. قد تكون علاقاته الشخصية مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطفل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.

ذات صباح يتنحى الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألواحكم لتعلّم الحروف التي كُتبت بها كلام الله.

*

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسيّ جسم سليم، حواس نشيطة، ثياب تقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أمّا عن استكشاف الوجه الآخر للعالم فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطفل: قسبة مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتُعاد.

يبدأ الطفل رسم الأشكال التي أمر بها الشيخ. لا بدّ من التحكّم في تشجّح اليدين حتى لا تنطلق العصى الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملاً، فصوراً، فأفكاراً تتزاحم داخل عقل نهم يقظ.

كم كان بعيداً عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراته لذاته وللعالم!

المهمّ في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفاتيح السحرية التي ستفتح أمامه أبواب كم هائل من الكتب وكلّ كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ أبوابه ونوافذه.

من أين له -وهو راعع مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه- الوعي بأنّه وضع أولى خطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

يتعلم الطفل المنهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها!

ها قد تعلّم من سيدي الشيخ، خمسة أحرفٍ دفعة واحدة.
أليس ألم الفلقة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "ما" وأهمّ من ذلك،
ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟
الآن وقد فرغ الطّفل من تفحص العصيّ والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت
السّيطرة.

تُداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قِبل القريب والبعيد، تارة
بالغريبة وتارة بالاستفزازية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيّه الراقدة على
ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الصّوري الذي ستواجهه "ما"؟
من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقفة خاليةً من كلّ
تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين
فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية
الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعاً بوجاهة الاختيار. لم يبق إلّا عرض اكتشافه على
المؤدّب.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! سيدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا
نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيراً على "ما" حفظ الحروف!
- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصّبيّة الحمقى حماقة.

- سيدي الشيخ! سيدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!

المهم أن الطّفل تحصّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير
مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصرّ عليه المؤدّب.

يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضاً:

- "ما"، اليوم تعلّمتُ كللللل الحروف! إنّها أجمل من كلام الله.
- كم مرّة قلْتُ لك ألا...

- اللّيلة سأعلّمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

يلتقط الطّفل عُود حطب رقيق يلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّماً ومُهاجراً إن لم
يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثم يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يُخرج مفاجأة
المفاجآت وهدية الهدايا.

- انظري مليًا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.
- نعم، يا...؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- انظري جيّدًا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟
- هو هذا، يا سيدي الشيخ.
- حسنٌ جدًّا. والآن الحرف الثاني. انظري مليًا ولا تتبسّمي. إنّه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصًا قصيرة منحنية قليلاً إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟
- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.
- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمتِ الفرق؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- والآن إذا وُضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟
- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.
- لا بدّ من التروّي في العقاب ولو كان خفيفًا، فهذه التي ستنال العصا هي "ما" وعلى كلّ حال هي غير مطالبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علما بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث إنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم من لا تظلمه؟
- حسناً، لتراجع كلّ ما علّمتكِ اليوم.
- الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ "ما" تنسى حرفاً أو حرفين وأنّذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضّرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمعّ بسلطته الجديدة.
- ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟
- ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلّا نادراً.
- إيتاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!
- وفي المقابل أريد...

- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!

ينتظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ "ما"، والطفل مسكون بهاجس طبع بقية الرحلة. هو لا يتعلّم لحسابه الخاصّ وإنما لحساب من لم تسعفهم ظروف غير مفهومة بأن ينالوا ما يناله غيرهم.

*

ذات يوم تغتنم "ما" لحظة هدوء لتُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غدًا سيكون يومًا أعرّ في حياتك يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية. إنّها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيرًا في الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتاب قراءة جميل.

- لن أذهب إلّا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن، هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. سترى أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معاينة الشّيخ والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظّهر؟ كلًّا، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيدًا بالزاد الذي يوفّره. جُلّ خرّيجيه ليسوا سوى رعاة في قرية جدّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوفٌ مبهم أن تكون عصا الشّيخ الجديد أطول من التي تعوّد عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعًا.

تستمع الأمّ إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضّحها ثمّ تفنّدها، تخاطب في ابنها كأنها له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ العرض قد يكون في مصلحته حقًا، خاصّة أنّه من "ما". ثمّة أيضًا أشياء جديدة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصر البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "ما" بحرص شديد، لا تُخرّجها إلّا نادرا، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاد صبر:

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتم ذلك بنظافة تامة.

يصرخ الطفل المتهور:

- إنها كلمات سهلة، أعرفها كلها، فسَيدي الشَّيخ عَلمني كيف أقرأ.
تبتسم المعلّمة ابتسامة صفراء.

- حسناً، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللّوح.
ذات يوم تتوجّه المعلّمة متجهّمة لطفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليك معك غداً. من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.
تحدّق الأمّ في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللّطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللّامع الذي لطالما أحبّه الطفل.
- أريدك أن تعديني بعدم مضايقة "سَيدي". إنّها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كلللللل الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.

- لا تُقل أبداً عن أقرانك أغبياء وإلاّ كرهوك وأدوك.

يبلغ الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمّه له ولا امتعاض "سَيدي" منه وهي لا تبتسم إلاّ للأطفال الآخرين. يتزايد انغلاقه على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنّها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود. تهزّ الأمّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى التّور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.
تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتّب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلّمة، مستغرقاً في خربشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنّك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دامٍ؟ يا إلهي، متى يعود، علّك تعود أنت إلى رشدك؟!

يرفض الطّفل الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلّمة وكل ما تقول.

تطأطئ "ما" رأسها، تنكفي على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

خاصية الأوضاع كما قال صمويل بيكات أنها إذا وجدت فرصة لتزداد سوءاً فإنها لا تتردد لحظة. ذات صباح تصرخ المعلمة:

- والآن انقلوا في كراسياتكم الجملة المكتوبة على السبّورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالاً باهتة لا يستطيع التعرّف عليها. يغالب الطفل تردّده، ثمّ يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجّهاً إلى السبّورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بقهقهة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثمّ يصلّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في غُدوّ ورواح من السبّورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبّورة، كأنّه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصّيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- اجلس في آخر الصف وإلا شوّيت أصابعك بالمسطرة.

يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمّة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبيّ أم ماذا؟!...

- سيّدتي!!

- كفي، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبّورة إلى الجحيم. لتذهب سيّدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمّن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي تُوفّرها لهم اللّغة.

لمثل هذه الوضعيّة التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بَعْضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينقّص عليه عزلةً موجّعةً لذيذة.

ها هو يسترجع كل ما يعرف ليبيّن أولى تصوراتهِ للعالم الذي وجد نفسه تائهاً في أسراره يتخبّط في مشاكله الموجّعة.

كل ما كان متأكدًا منه في تلك المرحلة من العمر أنه يعيش هو وبقية الكائنات والأشياء فوق طبق صلب أفقيّ جلّه أصفر أو بّي اللون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر وبقع خضراء صغيرة متناثرة، منها واحة الأب والجدّ.

فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه ثمة قبة هي السماء، ووضعت عليه كما تضع أمه صحنًا أجوف من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب.

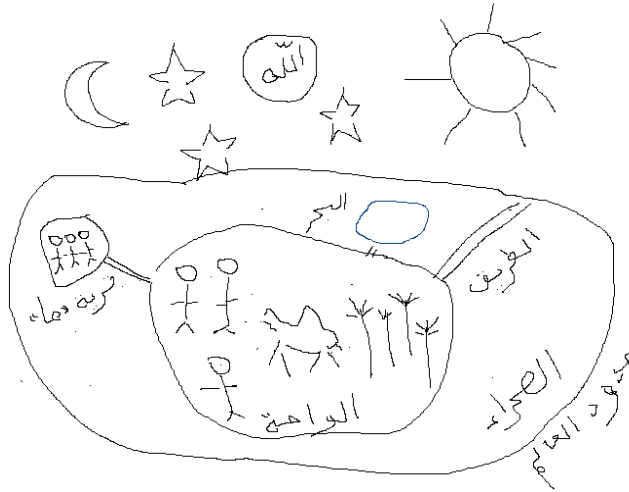
على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر.

فوقها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه العرش شيخُ كلّ الشيوخ اسمه الله.

بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم "با" و"ما" والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران والكلاب والماعز والحمر والبعر.

من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل زاهب وكل عائد. على جانبي هذا الطريق ثمة مدنٌ وقُرى لا يعرف عددها وأسماءها.

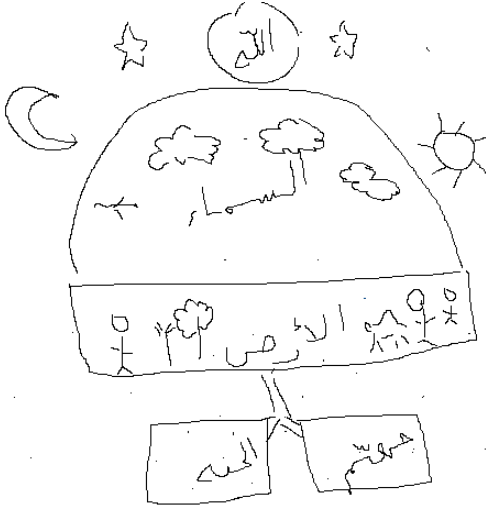
أمّا الحدود فعندما يرتطم الطريق بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، ومن بينهم "العبيثة".



ماذا عن الآخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!

هل يُعقل أن ينسى معلّمًا كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ هي المكان الذي يذهب إليه الموتى والموتى يدفنون في القبور إذن لا بد أن تكون موجودة تحت المقبرة.

ووفقا لما سمع من "ما" هذه الآخرة مكوّنة من جناحين اسمهما الجنّة والنار. لم يبق إلا إضافة مرتبّعين في آخر النفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى عندما يتحولون من القبر إليها. المربع الأوّل أخضر اللون لأنّ الجنّة كما تقول "ما" واحةٌ خصيبة، ولو أنّها أكبرُ ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعذب، يذهب إليها من عمّلوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمرٌ بلون النار المخصّصة لشواء لحم الكفار والمعلمات الشرّيرات.



حلّت مشكلة طبيعة العالم. لم تبقّ بالنسبة لطفل في أوّل سنة له في المدرسة إلا حلّ مشكلة الزمان. ما معنى أن يكون لليوم - كما يقول المعلم - تاريخا هجريا وآخر ميلاديا؟ كيف يكون هناك زمان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبويّة" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان؟

الأهمّ من هذا كله، متى ستقوم القيامة التي سمع عنها كثيرا من جده في سهراته مع شيوخ الحيّ. وهل يا ترى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفار؟ حسب زماننا طبعاً، فالهنا هو الإله الحقيقيّ. ولكن في أيّة سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ أوّل يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء؟ لكن أيّ يوم من أيام الأسبوع؟ يوم الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفار اليهود، الأحد يوم الكفار النصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيّامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا

واحدٌ منها يستحقُّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنَّه دون شكَّ يوم الخلق، خاصَّةً أنه أوَّل أيام الأسبوع.

لكن، ماذا كان موجودا قبل أوَّل يومٍ إثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان الطفل بعيدا عن فهم أنه يعيِّث بجزء مما أنتجه خيال القوم الذين ارتحل في ركبهم وأنه سيجلس يوما لنماذج أخرى خلقها خيال أقوام أخرى فلا يرضيه أي منها.

يفيق الطفل على صراخ المعلمة: المدير يطلبك حالا.

لا شيء في نبرة السيد المدير تبشِّر بخير:

- لا تأتي للمدرسة بهذه الثياب؟ يجب على الأقل أن تكون نظيفة... قل لأبيك أن يأتيني غدا.

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأةٌ تموت خوفا، تُمسك بيدها المبلِّلة عرقا يدَ طفلٍ يتملِّص ضامًا يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟

يتوجَّه الرجل الفظُّ إلى المرأة باحتقار لا يتكلَّف إخفاءه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيدي المدير.

- غائب أم فارَّ؟ أم في السجن؟ معاذٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنَّه إرهابيٌّ متطرَّف خطير ومسلَّح.

- يا سيدي...

- اسمعي يا امرأة. ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلِّف ذهنيًا. يضايق المعلمة ويعطل القسم. لا فائدة من أن يكرِّر سنته. سمعتُ أنَّ والده نازح من الآفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لك وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

- أقسم يا سيدي، إنَّه يقرأ طول الوقت كُتبا كثيرة...

- كفى! إنَّه متخلِّف ذهنيًا، ولا فائدة من أن يضيِّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسَّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا، إنَّه يشبه يتيم يا سيدي.

- حسنا، حسنا، لا فائدة من البكاء. يُقال إنَّ لإخوتك زيتونا جيِّدا ينتج أحسن الزيوت! ليُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.

يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمًا تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثمة في أقدم الملقّات صيغة أخرى لنفس الحادثة قد تكون صحيحة وقد تكون مصنوعة في جزء منها على الأقل من خيال يواصل تضميد جروح استعصت على الاندمال.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيّدي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّداً. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئٍ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبّورة لينقل ما تطلبُ المعلّمة كتابته. حقّاً إنّهُ طفل غريب! لماذا لم يُقل من البداية إنّهُ لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركتهُ يرسب. أما الآن فحُذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستحسن نتائجهُ حالما يلبس نظّارات.

من يوم وُضعت على عينيّ الطفل نظّارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

يصرخ الطفل وقد أصبح كهلاً -لم ينس الحادثة- في مساعديه الأطّباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصّر النظر. أُولى أولويات القسم -هذه السنة- الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصّتي بما فيها من حقيقة وخيال يمزج الأب راجع لتوّه من معركة ما في أصحابه:
- ابني أنا متخلف ذهنيًا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يهمل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!
- إنّهُ تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوماً في رقابكم لترحمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمه تُدَلّ وتُهان ولم تذبحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رمياً بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحرّروا هذا الاضطبل الكبير الذي تسمّونه الوطن!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل هو أيضاً؟

- بالتأكيد أجنبيّ مُتخفّ فضحّته أخلاقُ انقضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه
يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسقروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيًا؟ هو أم
الفاسق الذي نصّبوه مديرا لأنّه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيًا؟! أسأله ما
تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمد الزعيم في وجه الغزاة الملعونين؟
- في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربُّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في
العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهتئًا ومساندا؟
- قلت له: جئناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلح نقهر به أعداءنا وأعداءكم.
- أسمعتهم؟! والآن علّم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية
العاهرة العجوز.
- جومو كينياطا.

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟
- الماو ماو.

- رأيتم؟ هذا الطفل كاد يوفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّي وجدته البارحة
مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنيًا يقرأ الجاحظ في السابعة من
العمر! إنّه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى التي لا يقدر على فهمها ويقولون لأمه
خذيهِ ليرعى الإبل! ابني أنا يرعى الإبل! ابني أنا، إلخ... إلخ...
ثمّ يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسَ وجودي. هيهات، يجب
أن أدفع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟

- ابني أنا يبكي! ثمّ ماذا أيضا؟! تعتقدون أنّه من طينة أطفالكم! ربيّته على الشدّة حتى
لا يشبهكم يوما يا من إذا حكّمكم كلبٌ مدحتم الكلاب وإذا حكمكم بغلٌ تغنّيتم بفضل
البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحداً
منكم! إلخ... إلخ...

*

وفي ملفّ آخر عن مراحل فتح العالم المصنوع من الحروف يتوجّه المعلّم لقسم هائج على الدوام.

- انظروا جيّدا إنها حروف اللّغة الأجنبيّة التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "با" في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضا واحدا من الخونة الذين يتوغّدهم "با" بالويل والثبور؟

مبدئيًا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار. يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليعبأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بأكثر من تمرّد عقيم. يفرّغ المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا يهّمهم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف. يكتشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تقلّ أذى عن فلقة سيدي الشيخ.

بيني وبينك، ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكّمة كان يستحق!

الأدلاء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضّة كلللللل حروف لغته الأمّ فُزِعِج من أهدها أعلى وأثمن الهدايا. يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلللللل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزا إضافيا- فيتأفف ويُعلن العصيان.

هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير عصره، وبلدٍ غير بلده وعرف باكرا مثله قسوة الحياة.

بدأت مأساة ذلك الطفل وهو في العاشرة بضربة سيفٍ من جنديّ غازٍ مخمور شجّت رأسه ومع هذا بقي حيّا خلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيّه.

عقدتُ القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلّم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا- ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث حروف الأبجدية. جُنّ جنون الطفل همّه الأوحده أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف أ.

هل أحسّ اليتيم بأنّه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكّم عليه بالنظر إلى العالم بقيّة حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلث الألوان؟

ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه- ماذا بعد حرف ز؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يتوجه إلى عشيقه القسّ: من فضلك -يا سيدي- ماذا يوجد بعد حرف أ؟ فتركه صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟ يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف ز؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني

مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقا: يا بني، اسأل القس، هو وحده الذي يعرف القراءة في هذه القرية الملعونة.

لا نعرف كيف وضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة z، k، l، والجلالة n، m، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، والعظمة w، x، y، z. كل ما نعرف أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب المسائل... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، مؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ. يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه؟ ألم يَعد الملاكُ "ما" أنّ طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟ ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كتيّة الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يَخدع الملاكُ "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتهمه بالغشّ والتحايل، وحتى -لم لا- تُطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلّم ضده.

لهذا السبب، يقرر الطفل متأففا إيقاف أول عصيان مدني له. كم من قرارات نأخذها في كلّ المجالات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق!

والآن كيف التحكّم في الحروف الجديدة؟

اللعنة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفّة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.

لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عصيّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاّ ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأمّ إلاّ عصاّ واحدة منتصبّة مكثفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأوّل منتفخ كالطاووس بعصيّته الثلاث بالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بدّيل قصير كدّيل فأرٍ قضمته أنياب القطّ.

لا داعي لإضاعة الوقت في تعلّم حروف غبّية كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفِرطوا عليه بالضرب والنفي إلى الركن.

تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل يعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بمفترقات تتبارى صعوبة وخطرا.

كان مسيو فيدال المعلم الجديد للغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثر، يقوم اعوجاج أشباه الجُمَل.

ها هي الحروف تنتظم كل مرة في ترتيب مختلف لتصبح كلمات تحيل إلى معاني وصور تتدافع في ذهنه لتصبح يوما بعد يوم جزءا مكوّنا منه، جزءا مكونا له.

يأتي يوم يمتلك الطفل من الكلمات ما يكفي لتسكنه صور مشوشة ثم متزايدة الوضوح عن بلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنية من الخشب، سطوحها حمراء وشكلها كحبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض ومتماسك كالقطن يفرح بقدمه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه المدفأة، فيه توقد التار ويلتفت حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدّتي قصّة جميلة عن رجل طويل بدين، له لحية بيضاء وثوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقيه بنفس اللون. هو يأتي مرّة في السنة فقط عندما يشتدّ البرد ويغطي قطرُ السماء الجبال والبراري، ممتطيا عربة تجرّها حيوانات رشيقة كالغزلان مُثقلّة بالهدايا. ينزلق الجنيّ الطيّب داخل المدفأة محملا بخيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول الليل، لكن النوم أثقل جفونهم ثم أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعباً باحتجاج ضعيف، مُحكمة الغطاء فوقهم وطابعة قبله خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدّات.

ها أنا أراقبه متسلّلا عبر أنبوب المدفأة، أفاجئه يضع اللّعب والحلوى والأقلام الملونة في جراب الأطفال النائمين. أراه ينسحب على أطراف القدمين يواصل جولته حتى يحصل كل طفل في المدينة على حقه من الهدايا والحلوى. هل أغتنم فرصة نوم إخوتي للاستيلاء على هداياهم؟ لا، هذا لا يجوز؛ فأنا كبيرهم والوصي عليهم في غياب "با". طيب، لكن ماذا عن النظر في هداياهم والتأكد أن الجنيّ الطيّب لم يخطئ فأعطاهم أحسن مما أعطاني؟ ألسنت الطفل الذكر الأكبر، ومن ثمّ نائب الرئيس، ولي حقوق خاصة، منها اختيار ما يعجبني من الهدايا تاركا للبنات والصغار ما لا أريد؟ لن أفعل شيئا كهذا فقد تنتبه "ما" للأمر فلا تثق فيّ مستقبلا.

أذكر أنني سألت أيضا مسيو فيدال هل يعرف بابا نويل سندباد وعلاء الدّين وهل سيأتي يوما بلدنا وهل سيدخل بيتنا من النافذة حيث ليس لنا مدفأة؟

يومها طمأنني قائلاً: يا بني، كل شيء وارد في مثل هذا العالم.
 متى قلت لـ"ح" بلهجة التحدي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردّها
 متوقّعا: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.
 شهرا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الوجه الآخر للعالم لزبونه
 الصغير الذي يبدو وكأنه لا يعرف معنى كلمة الشيع.
 - هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تُكملها، ماذا أحببت فيها؟
 - سيّدي! سيّدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجئتك بقائمتها. سيّدي، سيّدي،
 سيّدي، سيّدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟
 يتنحج الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها،
 ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء، ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل: لا
 أعرف يا بني.
 حتى الكبار لا يعرفون أشياء! كيف سيعرف إذن كم في العالم من كلمات ومن سيعلمها
 إياها؟

*

على سجاد غرفة نوم البنّتين آخر طقوس اليوم : قصة الليلة .
 تبادرني تفاحة بأسئلتها التي لا تتوقف وهذه المرة بآخر سؤال كنت أتوقّعه.
 - "با"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كلللللها عندما أكبر؟
 يحدّق الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سنتها الثامنة وقد تدافعت
 من ذاكرته كل الأسئلة التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال.
 الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
 - سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عليه. خذي ورقة وقلم
 اكتبي كل ما تعرفين من الكلمات التي تعلمتها في المدرسة وسأكتب كل ما أعرف من
 كلمات.
 تُريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الإعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب،
 دمية، عصا، حلوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
 إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.
 تكتشفنا تفيحة وهي راجعة من الحمام منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض
 بكللللل الكلمات والأفعال التي تعرفها تفيحة.

تحتجّ لوعبها بأنها ستخسر اللعبة وهي التي بالكاد تستطيع تجميع الحروف للكلمات القليلة التي تسيطر عليها. تقرر اختيار واجهة أخرى للهجوم على أختها.

- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيّا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأتُ تحسنين كتابة كل الحروف.

تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت.

فجأة تصرخ وهي تنظر للورقة المرمية جانبا:

- أنا قرأت كلماتك... أنا قرأت كلماتك كلها... إنها كلمات قبيحة لا أحبها.

تتدخل تفيحة.

- لا نحتفظ إلا بالكلمات الجميلة التي في قائمة "با".

الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسح التي لا تروقنا؟ لعلها وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة! أية كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني ألينا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفسح غيظي وأفسح من القاموس كل الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، حزب، قائد، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب.

بربّك، أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها، بل وأنها تزيد الطين بلة.

تقول ما الكلمات التي سنحافظ عليها لتكون اللبنة الرمزية الوحيدة لعالمنا؟ طبعا دفء، نسيم، ماء، هواء، غذاء، طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، أطفال، تعاضد.

تعال اسكن عالما لا توجد فيه إلا هذه الكلمات وأخواتها اختفت كلّ الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي. رجاء لا تدع السرّ لأتمتع وإياك بإعادة صياغة واقعنا المقيت.

نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجزّة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الآدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو.

قد تكون هناك أسباب أعمق، فالكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلاّ وانهار الصرح بأكمله.

قد تحتجّ عليّ بأنه الموقف الذي ينعت بالمثالي عند نمط من المفكرين والحال أن الغلبة لمن يقولون العكس ويسمون أنفسهم ب "الموضوعيين".

هم مقتنعون أن العالم موجود كواقع مستقل عن اللغة والدليل على ذلك أن الأشياء لا تتبخّر إن ألغينا من القاموس الكلمات التي تعرّفها.

هذه الكلمات في تصوراتهم كأوراق النقد التي نحبّ أن تملأ بها حافظاتنا... مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر الذهب الذي في البنوك.

إنه تصوّر منطقي، المشكلة أن هذا الذي في البنوك والموجود شئنا أم ابينا بحاجة إلى واسطة ما ليصبح موجودا بالنسبة إلى المتكلم، وإلا وجوده والعدم سيان وهذه الواسطة دوما كلمات.

نحن لا نبصر فقط بخلايا قرنية العين وإنما أيضا من خلال "قرنية" اللغة. ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والثلج. أعابته بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها.

أنظر من علوّ الجبل إلى صفحة الماء الخضراء تحت قدمي وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، فلا أرى إلا بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا. لكن رجل "المايا" يرى في هذا المكان باب "الشيبالا" أو العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء إلا بالأطفال والعداري قربانا للآلهة. هذا الرجل يرى العالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه، بغير الطريقة التي أتفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمّي وتصف وتشير إلى الأشياء غير التي أملك.

بشبكة العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقّة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتختفي منها ليلا.

لكن "شبكة" اللغة ترصد شموسا مختلفة. كانت شمس آدمي اسمه أختاتون إله يُتوجه إليه بالعبادة، ونفس الشمس جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه آينشتاين.

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنك تسمع -خاصة ليلا- حفيف أجنحة الجنّ والعفاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات، ولا أتحدّث عن العبيثة... واليوم أنت لا تسمع إلا طنين البعوض.

فضاءنا الحسي إذن ليس معطى مجردا وواحدا بالنسبة إلى كل الآدميين، وإنما فيه اختلافات جذرية تتعلق دوما بما "تراه" بصيرة اللغة وما تصنعه من تصورات متباينة انطلاقا من نفس الصور التي تسجلها حاسة البصر.

"قمر من طحين (محمد برهان)

ونجوم منثورة كحبات السمس

إنها السماء للجائع"

إذا كانت اللغة هي التي تنظم مظاهر العالم وتضفي عليها المعنى فلا بدّ من إقحام معطى جديد في نظرنا للعالم: دقة الحاسة السادسة ومداه.

أليس الأميّ أعمى لغوي يعبر بالضرورة عالما مبتورا كعالم المبصر الذي كنت أريد أن أشرح له الألوان.

بما أنه ثمة قصر نظر عند الكثير من الآدميين وعلى رأسهم كاتب هذه السطور، فلا بدّ أن منهم من يعبر العالم بقصر نظر لغوي، مما يعني أن نصيبك من العالم زادك من الكلمات.

وفي المقابل، هل ثمة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات وهل ثمة هوس إلا وهو مصنوع منها؟

أغرب ما في اللغة أنها مثل شبكة الصياد، لكنها شبكة لا تكتفي بالإسماك بالسماك وانما تعيد تشكيل الذي يعلق في حبالها... بل وتخلق أحيانا من حبالها هذه أسماك لم تسبح يوما في محيط!

تعود تفيحة للصراخ:

-لا أحبّ هذه اللعبة، أريد قصة، أريد قصة، أريد...

- موافق، لكن لكي نصنع قصة يجب أن نحركّ الكلمات. كيف؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال...

طبعاً الأفعال، هل ثمة شيء أهم منها وكل قصصنا أفعال وردود فعل؟

تأتي الأوامر العلية من الصالون لتذكّر أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها حالا دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يمّوه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. نصيب هذه الأوامر ككل الإنذارات التي لا يحملها أصحابها أنفسهم على محمل الجدّ التجاهل البتاء.

تعضّ تفاحة على لسانها وهي تصفّف الأفعال التي تعرف. تصرخ في أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها. نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟ لكن أغلب التي تندافع في ذهني هي صارع، صرخ، خاصم، أخطأ، تاه، ضاع، غامر، تهوّر، تجاسر، تغرّب، تحدى استفز، تصدى، ضحّى، أفضل، يئس، كفر، سخر... كل ما أكره من الأفعال.

ترى ما الفعل الذي لم أفعله ولو فعلته لاتخذت قصتي مجرى أقل خطرا وعذابا؟ ثمة ما أهمّ: ما الفعل الأول الذي تولدت عنه كل الأفعال التي تولدت عنها قصتي وكل القصص؟

تتناثر النجوم في السماء في فوضى رهيبة فيطوّعها الخيال ليرى المنجمون طيوراً وأسوداً، بل منهم من يكاد يسمع صهيل الحصان يتعالى من جزء من قبّة الليل. لا ألبث أن أرى مثلهم أفعالي تصطف وفق شكل ما زال يتلمس الشكل ثم تنتظم حول بذرة كل الأفعال... أولها والذي بدونه لا تنطلق السلسلة.

نعم، لا مجال لغير هذا الفعل الزاخر بكل الإمكانيات... مهلاً، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أواصل تجميع أكبر قدر من المعطيات قبل أن أعلن بكل ثقة أن فعل الأفعال هو...

*

تصرخ تفيحة وهي تكفّ عن الرقص على سيرها:
- "با" هذه الليلة أريد أطوووووول القصص وأنا وأنت فقط نتناوب عليها...
ثم تجهش بالبكاء .

- لن تسافر مجدّداً، أليس كذلك؟ "با"، ستبقى معي دائماً، دائماً.

من قال "من شبه أباه فما ظلم"؟ كم كان مخطئاً.

تضع الأخت الكبرى يديها على خصرها لتعطي أوامرها الجديدة، هي التي لا تحبّ شيئاً قدر الأمر والنهي.

- "با"، أنا وأنت نتناوب على القصة وهي الليلة عن الأميرة والصفدعة.
تتدخل تفيحة:

- وعندما تنام تفاحة نواصل أنا وأنت وحدنا.
تصرخ فيها تفاحة:

- لن أنام أبدا وأنت التي ستنامين وأبقى أنا و"با" نروي قصة الأميرة إلى الصباح، عجل
"با"، لقد لبستُ البيجاما وغسلت أسناني.

تقاطعها أختها مسلطة عليها نظرة الاستفزاز:
- أنا أيضا غسلت أسناني.

تنتبه تفيحة لأمر بالغ الأهمية.

- انتظرا لحظة. نسيت "إيتي". يجب أن تسمع القصة وإلا فسأضطر لأن أرويها لها من
البداية.

- "با" تفيحة تغسل أسنان "إيتي"!

- وما دخلك أنت؟ إنها دميتي أنا وأفعل بها ما أريد.

لا بد من تدخل السلطات الأبوية العليا

- أعقل واحد في هذه العائلة العصبية "إيتي"، والآن أريد منكما انتباهها وصمتها. سأبدأ
أنا كالعادة، وتأخذ كل واحدة دورها كلما جاءتها فكرة. لكن رجاء دون مقاطعة أختها.
إذن، كان يا ما كان، في قديم الزمان وسالف الأوان، أميرة صغيرة اسمها تفيحة، وتفاحة
عندما كبرت، وكان لها عيون مثل...

تصرخ الأختان بنفس الحماس وقد تغلّبت الحيوية المكبوتة على ثقل الجفون:

- المها، المها!

إنها بداية كل قصصنا والويل ل"با" إن لم يحترم تقاليدنا الراسخة.

تعطي تفاحة إشارة انطلاق الأحداث وهي تأخذ الكلمة.

- أرادت الأميرة الخروج إلى الغابة لقطع الأزهار لكنها كانت خائفة من الساحر...

تصرخ تفيحة: أنا أفقد القصة الآن، دائما تفاحة هي التي تقود.

تردّ تفاحة بعصبية: لا، "با" هو الذي يقود.

المسارعة إلى القصة نلقها من تجدد خصومات الآدميين ولو أن أغلب القصص
ليست إلا بخصوص هذه الخصومة أو تلك.

- إذن شجع "با" الأميرة فخرجت إلى الغابة دون تردد تبحث عن...

- وخلف الأشجار كان الساحر الخبيث يترصد وهو عاقد العزم على مسخها ضفدعة لينتقم من الملك الذي...

أهمس في أذن تفاحة: الآدمية كلها -وحتى تفيحة- سمعت بقصة مسخ الأميرة إلى ضفدعة، وكيف خلصها الأمير بقبلة مدوية. الرواية ممجوجة ولم يعد فيها أي تشويق. يجب أن تجدي شيئاً آخر.

تهمس في أذني: في أي شكل نمسخها؟ ثم كيف سنخلصها فيما بعد؟

أهمس في أذنها: لنبدأ بموضوع المسخ، ثم سنرى فيما بعد كيف نخلص المسكينة.

تصرخ تفيحة: أريد أن أسمع ما تتها مسان به.

- كنا نقرّر في أي شكل سيمسخ الساحر تفاحة ليواجه الأمير بأكبر صعوبة في إرجاعها إلى شكلها، فتشغلنا القضية بضع ليال.

تفتح تفيحة عينيها على أقصى اتساع، فهمت حجم التحدي. تضع إصبعها في فمها ثم تصرخ:

- بعوضة!

- البعوضة أنت!

- قردة! سيمسحك قردة!

- "با"، واصل أنت وقُل لهذه البليدة ألا تتدخل في قصتي.

طيب، لكن من أين لي تصوّر أي شكل يجب أن يمسخ فيه الساحر هذه البنت وقد استنفدت المخيلة الجماعية كل الأشكال المرعبة التي يمكن للآدمي أن يمسخ إليها؟ تأتيني فكرة لم تخطر على بال قصاص.

- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحر الخبيث فكرة مسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف. هكذا ذهلت الإنس والجن وهم يرون طفلة تمثي في الغابة، والرأس كلمة رأس وفوقها كلمة دماغ، ومكان الصدر كلمة صدر، ووراءها كلمات قلب ورثتين وكبد وطحال ومعدة وأمعاء، والأطراف الأربعة مصنوعة من أسماء العظام التي تشكلها.

يذهل الأمير، هو الذي خرج من رحم قصة أعدّته لضفدعة يبعث منظرها على التقزز. لكن ماذا يفعل الآن؟ هل يقبل كلمة وجنة؟ من هذا الغي الذي تدخل في السيناريو وجاء بمثل هذه الفكرة؟ أنا غبي؟ استح يا ولد، وإلا ستري هل سأزوجك تفاحة، وما المهر الذي سأدفعك إن رضيتُ بك أبا لأحفادي.

تحتج البنت:

- "با" لا تهمهم، اسمعك تقول عن الأمير إنه غبي، إنه جميل وأنا أحبه.
- لا أغبي منه حتى ولو كان على ذوقك. ألا ترين أنه لم ينتبه إلى أن الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار؟
تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر! مطر، مطر!
تدرك تفيحة أن أختها مهددة بهذا الذي أنقذ به الأمير حياتها.
- يا غبية، ستبتلين ويسيل حبرك... سقف، شمسية.
يجب تحويل الانتباه بسرعة قبل تجدد الشجار.
- فأشهر الساحر كلمة مقصّ. لنهرب جميعا، نركب كلمة زورق.
تصرخ تفيحة: ونضعه على كلمة نهر.
ترقص تفاحة على السرير صارخة: فتأخذنا كلمة تيار.

تأتي الأوامر من الصالون بوقف الضجيج. لا أحد يحملها ولا حتى صاحببتها على محمل الجدّ. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقلد الرقص. تحتد لهجة أوامر نافذة الصبر فأنصح البنتين بالحدز. تفتعلان الطاعة والصراخ متزايد العصبية من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشة وقرصا وتجادبا بالأيدي. ينتهي الإنذار والأم الأزلية المكلفة بحفظ النظام العالم في البيت تعود للصالون.

لا يبقى لي غير ركوب كلمة تيار لتأخذني وأنا على تخوم الوعي واللاوعي ، بين اليقظة والنوم إلى حيث يخزن البشر كل الكلمات وكل الأفعال التي يقدرون عليها.

عالم تبنيه وتهدمه التصوّرات

فجأة أنا وسط مكتبة المكتباتاستنشق بلذة رائحة المكان كما رأيت "با" يفعل لما قادي للمكتبة الصغيرة في أسواق المدينة العتيقة والتي انطلق منها الإدمان الوحيد الذي لا يعاقب عليه القانون ولا تدينه الأخلاق.

أجيل البصر في الكم الهائل من الكتب والمجلدات المتراصة في صمت وقور على رفوف لا يدرك نهايتها البصر.

"هنا" كل ما انتجه البشر من تصوّرات أي من تنظيم لما يكتشفون ويخلقون من معطيات عن العالم وعن أنفسهم ... وكلها سبب ونتيجة لأفعالهم فيه تفاعلاتهم معه ومع ذواتهم .

"هنا" كل أساطيرهم عن ولادة العالم، عن القوى الغيبية المبهمة التي يؤمنون أنها وراء ولادته وظهورهم هم فيه.

" هنا "معتقداتهم المقدسة، الجذور اللامادية لما شيّدت سواعدهم من أهرامات، وكاتدرائيات وجوامع ومعابد...لما رسم الفنانون طوال التاريخ من روائع على جدران الكهوف أو على لوحات أرقى المتحف...لما ألف باخ وموزارت وبتهوفن من أناشيد دينية يتردد صداها عبر الأجيال رهبة وخشوعا.

"هنا" زبدة علومهم لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمّة إبداعهم الفني.

"هنا" جبال القصص التي أودعوا فيها آلامهم نثرا وشعرا وهم في صراع لا يتوقف مع هذا العالم بينهم ومع أنفسهم.

"هنا" تواريخهم المفبركة أغلبها، رواية المنتصرين لانتصاراتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح ممّولّهم، وآخرون يفككون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممّولين آخرين.

"هنا" تشريعاتهم المتراكمة المتزايدة عددا وتعقيدا والتي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين، مرتشين، متمعشين من الاتجار بالنساء والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبال من التشريعات لا تفضح إلا فشل الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر، أو إن أردنا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذلهم كل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

في هذه المكتبة الضخمة تراكم فيها منذ بداية التاريخ تصوراتهم المتغيرة المتناقضة لعالم لا يكلون جريا وراء حقيقة "موضوعية" له والحال أنه كان وسيبقى إلى الأزل ما يعتقدون أنه العالم.

يقطع عليّ ذهولي صراخ باعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من لا يشتري بمثل ضماناتنا... عندنا الردود الجديّة على كل الأسئلة اللعينة ولا غشّ مثلما يفعل الآخرون!

كما الأمر في فضاء الحواس، جلّ الباعة في هذا الفضاء متنافسون يصرخون في وجوه بعضهم البعض يتّهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المساكين، بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور.

لا غرابة في الأمر والكائنات اللامادية الحية التي أسمىها الفكريات والتي تتولد من عقول الادميين بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي، وإلا فإن فكريات قاتلة أخرى تتربص بها لن ترحمها.

أصخ السمع للصراخ الهامس المتصاعد من بين صفحات الكتب: ديانا تمك شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خبثاء وملوك قساة، لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمر، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيدا وفهمنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... آه يا أوباش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن -خلافا للأغراب- نعلم عنك كل شيء.

يقترّب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتبع أيا من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعتُر أخيرا على ما بحثتُ عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ بمزوّري النصوص وبمهمّزيها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تشوّق لهم نفسي. قد أسقط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولة جُلّها لأن الرجل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بهُدَى وتوفيقٍ من الشيطان.

هل سأجد في بعض الحاويات المألّنة بالنصوص المحرمة كتب ابن الراوندي التي وصفت بالملعونة؟

آه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم - ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة- أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسبته وأخيره أنني سأختم به نصِّي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظُّ بالارتطام بمؤلّف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل - اللهم إلا إذا كان امرأة- تدبّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إماطة اللثام عن هويته(ها). كتاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام!

قد ألاقى صاحب مخطوطة فونيتيش. كم قضى من ليالي لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستमितون ستة قرون لفكّ رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.

آه، هذه الواجهة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاغوريون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير الأزلية.

آه، هذا سرادق الآلهة وكهننتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكافؤون بكثير من الملذات الرخيصة وإن عصيتمونا سلخنا جلودكم دنيا وآخرة. لا، شكرا لست معنيا بمثل هذا البرنامج.

هذا سرادق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلمنا أثنى الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشّرة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.

هذا سرادق ديمقريط وبيروتاغوراس وابقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. لكنه هم أيضا يريدونني خيّرًا وحكيما ومعتدلا، وعاقلا وصبورا ونافعا! لماذا يصرون كلهم على أن أضحّ ع وقتا ثمينا في مهمة بعبثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأكثر قبحا؟ هل جنّت لهذا العالم، للصراع مع ذاتي كأن الصراع مع الذات الأخرى لا يكفي؟

نعم ، إنها نفس البضاعة البائرة على مرّ العصور، كلهم يريدون من الأدعي أن يصبح خيرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنيّ للسعادة دون وجود الشقاء.... يريدونه واصلا وثابتا على حالة اسمها الساتوري أو النيرفانا أو الحكمة والحالُ أنه لا شيء في هذا العالم يثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بالواقع العنيد لتنتهي طقوسا يتعيش منها المخادع وأوهاما يعيش بها المخدوع.

هل من الممكن أنّ هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثروة مجرد قمة جبل الجليد، أمّا المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الآدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبليور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعيهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

"على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد"

آه نسيت البحث عنم يعتبرون أنفسهم ارستقراطيو هذا الفضاء ونخبته المتعالية على باقي صناعات العالم. من الأحسن تركهم وشأنهم خاصة وأنا لا أفهم شيئا من الألغاز التي يتلهون بها. إنهم آل فيثاغورس الذين أداروا ظهرهم لمن يتوهمون قدرة فهمه أو بناءه بكلمات اللغة وصور المخيلة. هم على ثقة مطلقة بأن الرياضيات ملكة كل العلوم وحدها القادرة على اكتشاف الأسس واللبينات الأولى التي بنى بها الله أو الطبيعة هذا العالم. يا لخيبة أملهم وهم يكتشفون انه لا مجال لفهم الأسس التي بنيت عليها الأسس التي يبنون عليها حقائقهم المطلقة، أنهم لا يستطيعون دوما اثبات ما يدعون وانه لا مجال للخلاص من تناقضات العقل حتى داخل أكثر النظم الرياضية متانة. يا للمساكين وهم يرتطمون بأخطار الاقتراب من أبعد الحدود التي يمكن للذهن البشري وصولها. هل كان جنون الكثير منهم سبب تعنتهم في البحث عن الحقيقة القصوى أم أن البحث نفسه وخيبة أملهم في ايصاله الى نهايته المنشودة هو الذي تسبب في فقدان مداركهم العقلية؟

ترى هل تركوا مذكراتهم وهم يحاولون الوصول إلى ابعد النقط على طيف ما يقدر عليه العقل البشري ؟

آه ، تذكرت البحث عن أهم معلم من معالم هذا الفضاء ... الركن المخصص لتخزين قصص قل شهادات كل الذي ارتحلوا في هذا العالم .

فجأة مكتبة مترامية الأطراف رفوفها لا تتوقف عن التوسع لسيل متدفق من الكتب لها نفس الحجم واللون ونفس العنوان : "الرحلة"، مذكرات آدمي .نفس الوجه البشري على الغلاف ولا وجه يشبه وجهها. بديهي أن كل كتاب قصة تستكشف جزءا بسيطا من الطيف اللامتناهي لتجارب السعادة والشقاء، المتعة والألم، الحيرة واليقين ، الغرابة والطرافة....تجربة البشرية كلها تحت التصرف!

أولى مشاعر خيبة الأمل من بداية تصفح بعض النسخ فالصفحات الأولى بيضاء خالية من أي كتابة اللهم إلا إذا كانت بمداد غير مرئي.

ماذا عن البدايات تحديداً قصص الذرات والجزئيات التي سكنتكم من أشكال قبل أن تسكن شكل الراوي ! ماذا عن قصص الكيانات والكائنات التي توالدت من بعضها البعض حتى تنطلق قصة الراوي ! لا شيء لإشباع حاجة المنطق أو فضول شرعي، أي حظوظ إذن لفهم قصة تنطلق في منتصف جملة ولا نعرف شيئاً عن كل الجمل التي سبقتها ؟

لا داعي للاحباط . ما زال أمامي الجزء المكتوب بمداد مرئي . المشكلة أن القراءة ترتطم بعد كل صفحة مفهومة بصفحة تفيض برموز غريبة مثل التي تراها على جدران المعابد الفرعونية. فجأة تتوقف حتى هذه القراءة المتقطعة في منتصف الكتاب والنص ينتهي بسطر وسط صفحة تتلوها عشرات الصفحات البيضاء . اللعنة كيف تنتهي هذه القصة ؟ ما الذي حدث للراوي ؟ أين تبعثرت الجزئيات التي كانت تعطيه شكله ؟ في أي أشكال جديدة دخلت وهل حافظت في ذاكرتها على ما كانت عليه لما كانت جزءاً من هذا الراوي؟ ما الذي حصل لكل ما عاش من تجارب ، هل تبخرت أم هل هي محفوظة في مستودع ذاكرة عملاقة تختزن كل تجارب الأدميين الذين عبروا هذا العالم ؟

لا شيء لإشباع حاجة المنطق أو فضول شرعي فأني حظوظ لفهم قصة تتوقف في منتصف جملة ولا نعرف شيئاً عن كل الجمل التي تتبعها ؟ كيف يمكن فهم طيف الوجود والصفحات الأولى التي يفترض فيها وصف بدايات المغامرة العظمى غير متوقفة... والصفحات الأخيرة التي يجب أن تروي كيف تتواصل هذه المغامرة بعد منعطف الموت غائبة...والجزء من النص المسموح بالاطلاع عليه لا يروي إلا تجارب اليقظة في حين تبقى تجارب المنام مسكوت عنها محفوفة بالغموض؟

أنتبه للاحتجاج المتصاعد للبنتين :

- "با" ، تعال يجب أن نبيع بضاعتنا نحن أيضاً.

إتّها حقاً لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحملة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٍ أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا- أملٌ كل المبتدئين، أن تتحسن الأحوال يوماً فتفتح لك دكاناً صغيراً ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضاً من كبار مقاولي هذا الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضاً لعرض أحسححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهّم أن تكون فاسدة الصياغة أصلاً.

ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصبح مغتنياً أو أغني صائحا "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيه مجاناً "المدخل إلى الطبّ المندمج" شرط ألا يستعمله للفتّ السمك.

تنخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عِوض أن تصرخا: مَنْ لم يقرأ رحلة "با" مات غيبياً، ها هي تفاحة تغيّي: تعالوا، اسمعوا قصّة بينوكيو ترويها لكم أحسن راوية. طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الآدميين الملاعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أمّا ما يدعونه من أثره وعمل لوجه الله أو الوطن أو الإنسانية، فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسبُ ثمّن تحريك العضلة أنفة الذكر. فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كفتي.

- "با" ارتفع شخيرك. هيا أسرع إلى غرفتنا لننهي قصة الليلة ولا أريد أن تتدخل فيها البنت الغبية التي تسكن معنا.

- نعم، نعم، أيتها البنت الأناثية التي لا تهتم إلا بالإشهار لقصتها.

عالم واقعه خيال وخياله واقع

حتى أعصاب "ما" قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيّدي، أطعه... إلخ.

يستشيط المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيل أحداث القصة التي يتأمر كل من حوله لمنعه من إتمامها.

تتدافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعمالقة، لا يفتحها إلا بطل هو وحده من يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل أخيرا بفراشه متنقّسا الصعداء وقد استعاد كتابه من قبضة المعلم.

يرتفع صوت "ما"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثا، لن تمنعه حتى أمّه من مواصلة القراءة لمعرفة إلى أين تقود وكيف ستنتهي القصة التي استحوذت على لبه.

إنها عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكمننا" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبكي "سيتا" قومها ووطنها، لا تخفي رعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

"سيتا!" "سيتا!" "خطفوا" "سيتا"، خطفها "رافانا" اللعين!

إنه أوّل امتحان للطفل وقد تقمّص الدور الذي يحبه كل البشر. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد المُلْك إلى صاحبه والأمورَ إلى نصابها والعالم إلى توازنه المفقود.

- "ما"، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأوّل على الأقلّ، أرجوك.

- طيّب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمه أنه واثق أنّ قبلاته عبرت حاجز الورق وتسَلَّلت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. آه يا سينا، يا "جاناكي"، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمه الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعة، يا طُهرًا، يا مَلاكا على الأرض مَشَى. يا أوّل حبّ.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سينا في أسرها! إنّ "ما" لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسينا ملقاة على خشبها مكتمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقهه وتوهّم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بنيّ، الكتاب لن يهزّب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسينا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أقطع بكثير؟ لا تقدّر "ما" كم هي حرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّدًا، والقراءة بالليل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزًا عليك فلماذا لا تذهبي أنت لتنامي؟

- لا تكن سليط اللسان حتى مع أمك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم سرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من "واقعها": لا تقلقي، هو لا يلعب، لا يضئّ وقتًا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككل "الأبرياء"، وهم من نجحوا -أحسن من غيرهم- في إخفاء ما بهم من مكر وخبث. كانت تظنّه نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبّئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفلُ المُخرج والمنجج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه، ففي هذا الجزء من العالم أنت الرب الذي يقول للشئ كن فيكون.

ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولا إرهائي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيقّ عليه الخناق في كل مجرّة. تكشّر السماء عن أنيابها وقد توسّطتها

شمسٌ يَلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها سهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحرَ شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم.

آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفّ، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللّعين: آه يا راما، قتلتي لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرّجا بدمه الأخضر. أضعُ رجلي على صدره مبتسما مديرا رأسي يميناً وشمالاً أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه... أنا راما... أنا سيّد الأسياد!

يا للطفل المسكين! لا يعرف وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلاّ الجزء الجميل من الملحمة، وأنّهم أخفّوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الآدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة.

لم يكن الطفل واعيا تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقري اسمه فالميكي، أنه سيقضي جلّ رحلته يتجوّل في فضاءات خيال كم من شعوبٍ وكم من أفراد لا يكل ولا يمل من سفرات تتبارى غرابة وثناء تغنيك عن جل سفرات فضاء الحواس.

*

يكشف الطفل يوما بوّابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري الذي تتحرّر فيه الذات من قيود فضائيّ الحواس واللّغة.

يتوجّه المعلّم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في حوالي العاشرة من العمر:

- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها "الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عما يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قَبَعَة مهْرَج ضخم اسمه العالم لا ينفك يُظهر عضلاته ليزداد به الأدي تعلقًا وإعجابًا؟!

يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطًا شاهقًا تتجّه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيًا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصّبية، لا ينفذ فيه صراخ المعلمين طلبًا بالهدوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّب بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة مناظر لحقول وجبال تخرج من اللاشيء ثم لآدميين يثبون هم أيضًا من العدم. من أين برزت هذه العفاريت، وهل للخيل أيضًا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة ألد من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوّت فرصة كهذه لينقّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى.

تتوقّف الصرخةُ فاجأه قلقٌ مبهم. هل سينبث الفرسان من الحائط إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة المداهمة ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارًا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشائتم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعًا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينبّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة ويرعب الخيل

وهي تحتضر. أيّ أهمية للألام بالوكالة؟ هو شغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصياد والصيدَ لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قدّم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبت في القاعة تذكّر الادميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتلة ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهتدين بالقتل.

لا شكّ أنّ "اما" لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيّة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرون من كّر طفل مغوار يُعمل في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهتدّ؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيال الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ من الغيبيّ، هو أم هذا الذي يقول إنّ الكائنات التي رآها بأتمّ عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟

إنه إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب. أيّ طريقة لإرضائه غير التكتّم والخداع، فالأتمّ مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف وقتل. كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسيّ، كفضاء الفكر، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والادمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه كلّ أحلامها وكوابيسها.

لا أحد من جهابذة العلوم الاقتصادية قادر على تقييم كمية الأموال التي تصرفها المجتمعات البشرية لتعهد الفضاء الحسي بما فيه من بيوت ومستشفيات ومصانع وطرق وقناطر دون نسيان تكلفة الفلاحين والعمال والمهندسين وعمال النظافة فما بالك بالقدرة على حساب كمية الموارد لتعهد الفضاء الخيالي بما فيه من مساجد وكنائس ومعابد ومسارح وقاعات سينما ومتاحف دون نسيان تكلفة رجال الدين والشعراء والروائيين والرسميين والمغنين الخ

يتهامس الأطفال يوما بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على "ما".

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أُجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريث التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو "العبیثة" التي ما زالت الجدة تهذّده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكّه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار نريد الشيء ونقيضه، نجري وراء ما نفتعل الهروب منه، والحدود بين ما نحبّ ونكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج الطفل مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال. ماذا سيقول للأم بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلاهما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش "ما". لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ يجب -انصياعا للأمّ الأبوي الصارم- التحلّي بالشجاعة، أو على الأقلّ افتعالها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمّة قراءة الفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكّل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانهُ إله الآباء والأجداد والاستنجاد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما" ثومها المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد وهي تضبطه حافيا في الظلام ويدها منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطّي في تابوته المبطن بالدمقس الأحمر.

اللجنة، لماذا يترك دراكولا أطفال قازته، وكلهم تحت ذمته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وفتش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محله من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟

يتحرك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيد القمر بالله، ترتجف الأشجار فرقا وتبرأ البوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأدي. ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شللا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت. القاعدة أنّ الخوف من خطرٍ ليس دَفْعاً له، إنّما دَلّه على أقصر طريق إليك وأنتك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما. هكذا وجد دراكولا متفذا إلى طفل يهّب صارخا والبول -لا الدم- قد أغرق الفراش.

ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة... منها أن الأدي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله... وأنه مُقَرَّر العزم على العودة إليه يوم يُطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة... ثمّة أيضا تصوّر العالم كمغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض... ربما شرعية فتح القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم كما فعلت بعض الشعوب خفية لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعة سُلّم الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيّب التمنيّات بنجاح المهمة. تركب الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعانَ الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنّما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحانون متشبّث بصواريخها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات -التي توشك على الغرق- الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهور أنّه أنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل

المظلة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراة وكله امتنان للرب بعل ولدعوات "ما" وللطيّار الهُمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغائة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك.

قد تكون أهم خصائص فضاء الخيال طبيعة الطريق فيه، ففي فضاء الحواس لا سلطة كبيرة لك عليه، هو يأخذك إلى حيث يسعى لا إلى حيث تريد وعندما تحاول القفز من بساطته السيار لا تجد نفسك إلا فوق بساط سيار آخر... أما في هذا الفضاء فأنت صاحب الأمر والنهي تأخذ الطريق في ألف اتجاه ولا قدرة له على توقف أو خروج عن الخط أو نكوص على الأعقاب...

يواصل الآدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعمق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة بتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

يخرج الطفل منتصرا كالعادة حيث لا مشكلة في الفضاء السحري إلا وتوفرت لحاها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

تنبت يوما له بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

كفى من المعارك مع الشياطين وأشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تهمس بدلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنبت الجيران: الحب أجمل من الحرب.

يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبق الأحداث.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسد. يواصل الصوتُ الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قبل لك بتصوّر متاعبها.

تُرفع حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

يهمس صوت ساخر:

ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكف والكيف الذي يأمر.
الأربعة الكبار؟: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زيونه الوحيد ألف ليلة
وليلة، ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

إن كان فضاء الخيال الجماعي مفتوح الباب على مصراعيه لنتشارك في نفس
الأساطير فإن فضاء الخيال الفردي الجميع محكم الاغلاق لا يدخله دخيل... يمكنك
ان تزور صديقا في بيته وأن تفتح له بيتك رداً للجميل، لكن لا مجال لدخول فضاء
خياله ولا إمكانية له بدخول حديقتك السرية التي لا يدخلها حتى أحب حبيب...تصور
لو كان الاقتحام ممكنا... من حسن الحظ أن ما تتوعدنا به قصص الخيال العلمي من
ظهور بشر واختراع آليات تكسر كل الأقفال ما زال مجرد خيال.

تمرّ المراهقة لتدخل الرحلة مرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا
جذريا وكذلك المشاريع التي ستشغل من هنا فصاعدا ما بقي من زمن الرحلة.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجوبة على كل هواجس
كل آدمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا
بقانون أنه "لا نبي في قومه" وأن تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة
كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الراحة في اليانصيب، لأن السوق زاخرة
بالمتمدّمين لأقدم المهام، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدي نبيتنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن
صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسامير وعُين الجلاد الذي لا بد
من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على
حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالين.
يغيب المصطفى عن الأنظار ونُوح حواريه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن
يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل
حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز
عن دفع مصاريف ملحق صحفي يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج
المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر
التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع
السرية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على
أكواخ المعدّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا
يلبث أن ينتشر في الأرض كالنار في غابات الصيف الحارق، فلا يطالع على القوم نائر إلا

والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذها للولادة إلا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلاً إلا وسارعوا إليه بتمائم مأخوذة من جُمَله المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تَكَرَّرت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتة، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. ها قد داهم خريفُ الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحاً تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكآبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزناً، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلع بدين. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف جزءها الراكب فوق حطام حصان.

- ضع حدًا لهذا التيه. أما آن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟

- تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوايبس الآخرين؟

فَهَم الرجل الحكيم أن هذيان الفرد هو الذي يوصف وحده بالجنون، أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها الهامات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهزم الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنَّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهزم الحمار

- لأعملنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى العالم .

يتنهد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبّة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

يتنهد سانشو:

- رحماك يا سيّدي مزة أخيرة، عد إلى الواقع .

-مزة أخرى عن أي واقع تتحدث يا غبي وما هذا الذي تريد مني العودة إليه؟

الواقع؟ الخيال؟ أما آن الأوان للخروج من هذه الثنائية الساذجة؟ من يجادل في أنه وجد يوماً في فضاء الحواس حبر يهودي اسمه يسوع ناضل عبثاً لإصلاح قومه وانتهى أبشع نهاية كأغلب المصلحين؟ لكن لو لم يعاد في فضاء الخيال تصنيع هذه المادة الخام التي وفرها الواقع، لو لم تنسج المخيلة أسطورة إله أخصب آدمية عذراء أولدها

ابنه الوحيد الذي مات طواعية على الصليب تكفيرا عن ذنوب البشر وسيرجع في نهاية التاريخ محررا العالم من كل الآلام... هل كنا نعرف في ماضينا وفي حاضرنا الحروب الصليبية من جهة ومن جهة أخرى روايات موسيقى باخ وهندل وبرفوليزي ولوحات ميكلانج ودافنشي ورافاييل وكاتدرائيات كولن وستراسبورغ وباريس

*

الوظيفة الأولى لفضاء الخيال بما لا يدع مجالا للجدل الرفع -ولو كان مؤقتا- لاحترقان ذات تعذبها شهوات يمنع الواقع تحقيقها أو يماطل فيه وفي كل الأحوال التقدير الشديد سياسته التي لا يحيد عنها إلا نادرا.

لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان.

إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.

يقرر أنه يريد أرنبه ناطقا.

- أريد أرنبًا يتكلم.

تستجيب القوة المجهولة فورا:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقلّب العالم شفتيه وتلمح في عينيه ابتسامة ماكرة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.

تنصاع القوة المجهولة كأن لا همّ لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستفرّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.

يكبر الأطفال وتنوع وتتعدد أحلامهم ليبدأ البحث الذي لن يتوقف عن كيفية جعل هذه الأحلام جزءا من الوضع المفروض علينا الذي نسميه الواقع .

القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق بالمرور إلى أفعال، لكن أروع إنجازات البشر التي نحتت معالم العالم الذي نعبر كانت يوما أحلاما في هذا الفضاء.

حلّم الآدميون قرونا طويلة بشفاء كل الأمراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على سطح القمر.

تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام بأعمال لا فعالة لأن الأداة الوحيدة السحر. ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتُحقق أهداف السحر بالوسائل الأكثر فعالية للعلم والعمل.

أين ولدت الكائنات التي نسميها الروبوتات والحواسيب وكل أدوات الذكاء الاصطناعي التي تغير عالمنا بصفة لم يسبق لها مثيل منذ ظهور الحياة على سطح هذا الكوكب؟ ألم تتبلور في فضاء خيال عالم رياضيات اسمه جانوش فون نيومن وآخر لا يقل عنه عبقرية وجنونا اسمه ألان تورنج؟

إذا كانت مهمة الحواس الستّ رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات لخلق ما لم يوجد قبل وجود الأدميين.

ها هو الآدمي منكبّ على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذنب وذلك على امتداد أيام وأسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من عاجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم آدمي، والفنان يضيف لكائنات العالم كائنا جديدا هو خالفه.

كم من فنّان مثل شوبرت عمل على الأصوات يعيد تركيبها لتُضيف للعالم كيانات صوتية لم توجد من قبل وتنافس في جمالها الأذن أصوات تدفق الماء في الجداول... وأيضا كم من فنّان مثل شونبرغ صرخ كفى من موسيقى النغم والوزن والتناسق فلتنطلق الأصوات بحثا عن أشكال لم تنظمها الطبيعة يوما.

مع بيكاسو وشاجال يدير الآدمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد يوما.

مع أبي ماضي وإيسا وبوشكين وهولدرلين تضيفي الكلمات في تنظم مفاجئ على العالم حالات لم يعهدها من قبل.

تأتي الأرقام بكل إمكانيات المزج بينها لتخلق لنا إمكانيات لم يكن أوائلنا يتصورون إمكانية وجودها حتى وهم في أوج التفكير السحري.

فضاء الخيال إذن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحات الرسام وأنغام الموسيقى وأفكار الفيلسوف ومعادلات باحث فيزياء النسبية ونماذج المهندس المعماري والميكانيكي. هو الورشة التي لا تغلق أبوابها، مهمة المخيلة أن تنحت الواقع ومهمة الواقع أن يوقر لها المواد الأولى، كل هذا لمواصلة صنع عالم بدهة ما زال قيد التجريب. نعم، بدهة هذا العالم مشروع لا معطى.

عالم متواصل الصنع والصانع الأكبر الأرقام

حقاً إنَّها لضربة حظ أن أعاش ولدادة فضاء لم يعرفه لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة ولا حتى ماركو بولو أو كريستوف كولومب.

كأن اجدادي البدو أضافوا للصحراء التي كانوا يذرعونها طولا وعرضا صحراء أخرى انتجتهم قريحتهم ومع ذلك لم تكن تقلّ موضوعية وحقيقة وتأثيرا عن تلك التي وجدوها عند خروجهم من رحم امهاتهم!

وحده جيبي من شاهد بروز المكون الجديد للعالم بروز الجيبي من قممته ليحرب فيه ارتحالا تغيرت فيه كل المسلمات التي حكمت لحد الآن تعاملنا مع العالم.

مثلا بخصوص "أماكنه" التي قد توّد السفر إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "أكسيت دوت كوم".

لن تجده على أي خريطة جغرافية. وإن حاولت، ستكون كمن يبحث عن جزر الواق الواق في الفضاء الحسي.

خاصية هامة مرحب بها في هذا الفضاء أن المشي على الطريق فيه دوما بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصات التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسي مثل بعوض المستنقعات الاستوائية ودببة القطب الشمالي وأسود الأعراس الإفريقية وضباط مطارات الدول الاستبدادية.

لا خوف عليك أيضا أن تعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الفضاء الجديد يتغير أيضا بصفة جذرية مفهوم آخر بئينا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبونّة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في عدن للتبضع ثم العودة إلى لشبونّة... كل هذا في دقائق معدودات.

ما أحبّ في هذا الفضاء أنني لم أعد بحاجة لتخيل "مكان" يجمع فيه العقل الجماعي كل ما أنتج عبر العصور من أفكار وأشعار وأنغام. لم أعد بحاجة لإغلاق العينين وتخيل سفرة بين جبال الملفات التي اريد أن أضع فيها انفي. يكفي اليوم أن انقر على حاسوبي

طالباً من مكان مجهول وآلية مجهولة مَدِّي بما أبحث عنه، لكي تأتيني في التو واللحظة من المعطيات ما قد يتطلب تفحصه أياماً وأياماً.

لا يعني هذا أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل كله خير وبركة أو أنه خالٍ من المطبات والأخطار.

هو أيضاً -مثل الفضاء الحسي- ساحةُ حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمس نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخُ برامجٌ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

الفضاء الجديد مجال يلوّثه المرتحلون هو الآخر بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهييار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بورنوغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرايين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو قمامة تُصبّ فيها مجاري صرف صحيّ تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماماً كما هو الحال في "الفضاء" الحسّي، حيث يختلي كل واحد بمراحضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركاً لمجاري الإسمنت مهمة التخلّص منها بعيداً.

لكن مهلاً، أيّ حُكم كُنّا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سهولاً سوداءً لفظتها البراكين لتوّها لم نُعْظّها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترتفع فوق سطحها الأشجار وما يصيح على غصونها من عصافير؟ أيّ حُكم كُنّا نطلقه على "فضاء" الحروف وهو أولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنةُ أراتا وتجار أوروك؟ أهم سؤال بخصوص هذا الفضاء العجيب التي تسميه اللغة الفضاء الافتراضي طبيعته.

قلنا إنّ لبنات الفضاء الحسي معطيات الحواس الخمس ولبنات فضاء الأفكار الحروف والكلمات المنطوقة والمكتوبة ولبنات فضاء الخيال صور المخيلة. ما لبنات هذا الفضاء الداخل؟ إنها كائنات رمزية لا يمكن تصور عالم الآدميين بدونها: الأرقام. هذه الأرقام هي التي تصف هذا العالم أدقّ وصف عندما تحصي وتقيس وتصنف جلّ مظاهره.

هي التي ترصد له حدوده الحقيقية عندما تسنّ أنه لا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معيّن وأنه لا حرارة تنزل تحت رقم آخر وأنه لا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث.

هي التي تخلق الأدوات التي تجعل السيطرة عليه ممكنة فلولاها لما حلقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من تحديد مساحة الأرض التي تحكمها، من إحصاء سكانها وما يمكن اعتصاره منهم من ضرائب وحساب ما يتكفون من خدمات.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر وللشعر قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك وأنت معرّف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصلحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

تنبّه الأرقام الطفلَ لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث إنّه لا يمكن أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنّه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليماً للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطة. يكتشف الطفل أيضاً أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانين وحياة خاصّة لا علاقة لها برتقال أو ورثة.

من إشكاليات الطفل أيضاً مع هذه الرموز الغريبة معضلة كانت بداهة فوق طاقاته.

- سيّدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- كيف يمكن أن يكون هناك شيء غير موجود؟

- قلت لك كفّ عيّي أسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّفه.

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفر إلى واحد!

- طبعاً، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة، ثمّ مئة ألف، ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، لكنني حصلت على رقم لا أعرفه... سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به صفحة من كراسي؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيب؟

- أبحث عن أكبر عدد. لكن، حتى هذا ليس أكبر عدد لأنني أستطيع أن أضيف إليه صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!! بؤسي أن أملأ الصفحة بأكملها بالأصفر ولا ينتهي العدد!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدداً أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفر تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتَنساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفر جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دوماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أنّ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفر. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها "اللانهاي" دوّخت قبله كمّاً من عقول أطفالٍ كبيروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنَّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرّك؟

لا هو ولا معلّمه ولا أيّ آدمي كان قادراً يومها على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها في عالم الآدميين هذا الصفر وأقرب رفيق له: الواحد.

هل ثمة رقم أهمّ بالنسبة للآدميين منه وهم لا يُقترّون بالحب إلا للحبيب الأول، لا يعظّمون وطناً أو زعيماً أو شاعراً إلا وأسموه الأول، ومنهم من لا يعبدون إلهاً إلا لإيمانهم أنّه وحده الواحد الأحد. الرقم الذي يبدأ به الحساب... أبلغ رمز لموجود مكتمل.

رقمان لا أكثر يضيفان للعالم فضاء جديداً تكتسب الرحلة فيه خصائص لم يسبق لها مثيل!!!

أولى هذه الخصائص تزايد خطورة هذا الفضاء إذ بقدر ما تتعاضد مكتسباته بقدر ما يكلف أي خلل هام فيه ثمناً رهيباً.

تصوّر فيروسا لا يقهر يحكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض التي لا تشتغل إلا بالرقمين السحريين.

النتيجة قائمة طويلة من الكوارث تتسبب في فوضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات والأفراد. حدّث ولا تسل عن انهيار البورصة وشلل كلّ دواليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

ظاهرة مهمة أخيرة تميّز الفضاء العجيب عن بقية فضاءات الرحلة.

لا قدرة لك لا اليوم ولا غداً على تلمّس الذرات، على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر مما يعني أن حدود فضاء الحواس ثابتة أو

صعبة التحريك حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار ما نستعين به من أجهزة مثل المجهر الإلكتروني أو التلسكوب الفضائي.

على العكس من هذا ترى دفعا للحدود في كل الاتجاهات في فضاء الفكر وفضاء الخيال والأجيال تراكم فيهما شلالات وأنهار من الكلمات والأفكار وابداعات جماعية كأنها لا تنضب أبدا.

ومع هذا تبدو عملية توسيع المجال ودفع الحدود إلى الأبعد في الفضاء بين متواضعة بالقياس للسرعة العجيبة والمفزعة في تطور الفضاء الافتراضي وهو يراكم في جيل واحد من معطيات وقدرات ما لم تحققه كل الأجيال التي سبقتنا.

هل سيعيش أحفادنا داخل عالم مصنوع بالأساس من الخوارزميات وبصفة ثانوية من الحواس السبّ؟ أي معنى للرحلة في هكذا عالم، بل أي نوع من البشر سيرتحلون فيه؟ هذا ما يقود إلى الحديث عن الآدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعمالقة التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته لنفسه والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة البوليس السياسي؟ لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يحاورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسّي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتنم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود إلى مضايقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والملثم وطرزان؟ ثم لماذا اختار المقتنعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتقام من الاسم الذي فُرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقني آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكتبوني ويشتموني ويهددونني ويعلموني بأني ربحت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، ويملؤون موقعي بالتفاهات لتدمير سمعتي.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أطلق مجهولاً فيروساً طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليلاً

وليالٍ لإعادة صبِّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتصارع على شاشة الحواسيب لما أفنعتني أحد أنه ثمّة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكّان هذا الفضاء.

ثمّة إذن للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما يشاء من الأقنعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثّر من أبعد نقطة في الفضاء الحسيّ، يدخل البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتطوّله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كلّه أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات تقاسمنا بعض خصائصنا البشرية دون أن يمكن حسابانها من جنسنا البشري، وهي تستعد لتأخذ مكانها بيننا حتى ولو كنا لا نعرف ما المساحة التي ستحتل.

لقد بدأت قصصُ الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمّة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الافتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

أتخيل رحالة يتصفحون كتالوجات زاخرة بأجود الرحلات لأروع العوالم ووكاله الأسفار تحاول إغرائي بواحدة منها. لا شكرا والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة، والتي اختارت هذه المرة في الكتلوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم ورّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدلا مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطايه كلما دفع فيها أعلى الأثمان.

أخطر سؤال يُثيره هذا الفضاء الذي لم تعرفه آلاف الأجيال التي سبقتنا والذي خلقه وأثته واستكشفه هذا الجيل دون سواه: هل ما زالت هناك فضاءات أخرى ستمخض عنها عبقرية بشرية تستكشف ما تخلق وتخلق ما تستكشف ولا حدود واضحة لقدراتها على خلق اللامتوقع وحتى الذي يبدو غير ممكن أصلا؟

سؤال آخر لا أحته كثيرا: هل قطعك كل هذا السُّوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحلها أنني كنت مجرد رخاله بدائي حبيس جسد بدائي يتحرك مشيا على قدمين ليس له لاستكشاف العالم إلا بعض حواس بدائية ولغة بدائية بمفاهيم وتصورات بدائية... وأنتي سأغادره وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبغ كتاب الخيال العلمي؟

على كل حال هنيئًا للأحفاد تَمَتَّعهم بحريم من الروبوتات أو تجوّلهم داخل المجرّات وشوارد الذرّات وهم مستقلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمغتهم. نعم، هنيئًا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص. لكن أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أي لذة يمكن أن تضاهي لذّة المشي حافيا على العشب المبلل بِقَطَر التّدى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

تقول، ربما ستعطي البرامج التي سيصّنعها المهندسون أحسنَ من هذه الأحاسيس والمشاعر. لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضّل الأصل على صوره، ولو كانت أحسنَ من الأصل.

الأصل؟ الصُّور؟ وهل لهذا العالم أصلاً أصلٌ، أم إن له ما لا يُحصى من الصُّور، و ما نسميه الأصل نفسه ليس إلا واحدة منها!

النموذج- المعضلة

انطلاقاً من كل ما تَجَمَّع لديّ من معطيات عن هذا الذي نعبه أحياء ونغادره بالموت، يمكن التقدم بتصورٍ أوّلي للعالم وأنه مصنوع من مستويات متباينة، متداخلة، رَصَدنا منها لحدّ الآن أربع: ما أسَمَّيناها فضاء الحواس، وفضاء الأفكار، وفضاء الخيال، وفضاءً جديداً سميناها الافتراضي.

رأينا أن الفضاء الحسّي هو الفراغ الممتلئ بمظاهر وكائنات وأشياء، وأدواتنا الأساسية التي تخلقه وتستكشفه هي حواس خمس اسمها: البصر والسمع والشم والدُّوق واللمس. هو مجال كلّ الأفعال والتفاعلات التي تسمح بها هذه الحواس وحدوده طاقتها عند الأدميين - كما هي عليه الآن - حيث لا قدرة لك لا على تلمّس الذرات ولا على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر. خاصة بالغة الأهمية لهذا الفضاء (تشارك فيها مع كل الفضاءات الأخرى): الاكتظاظ والتداخل والحيوية المذهلة لكل ما يتحرك داخلها.

تظن حديقة البيت ملكاً خاصاً بك وأنت مجرد مستأجر لجزء صغير من الزمان مسموح لك بالاستعمال المؤقت لا بالتملك. نحن لا نتقاسم هذا الفضاء الحسي فقط مع كل البشر المتدافعين من كل حذب وصوب وإنما أيضاً مع ما لا يخطر لنا على بال من كائنات هي نفسها مرتحلة داخل عوالمها الخاصة.

أما فضاء الأفكار فهو ليس "امتداداً" داخلنا أو خارجنا. هو "ساحة" لا تتراحم داخلها الكائنات الحسية أو صورها وإنما "الفكريات" هذه الكائنات التي يصنعها الفكر وليس الحواس أو المخيلة. هو جُملة ما كدّس الأدميون وما سيكدّسون من قيل وقال حول ذواتهم العالم. أمّا حدود هذا الفضاء فهي الكلمات التي لا تملكها اللغة لرصد ووصف أحاسيسٍ ومشاعرٍ وأفكارٍ توجد فوق وخارج تجربة البشر، مثل التي يخمنون أنّها تعتمل داخل "ذهن" النبات والحيوان أو كائنات يتخيّلون وجودها فوق سطح كواكب هائمة في أرجاء الكون اللامتناهي.

بخصوص فضاء الخيال رأينا أن أداة خَلقه واستكشافه طاقةٌ -وظيفة داخل الذات اسمها المخيلة. هو المصنع الذي يُنتج وتتكدس فيه ما تخلقه المجموعات البشرية المتعاقبة من أحلام يقظة غير مسجلة، ومن أساطير، وفنون تعبر القرون. أما حدوده فإمكانيات المخيلة الفردية والجماعية وهي في ذروة الخلق والإبداع.

أخيراً، الفضاء الافتراضي الذي لا تخلقه الحواس والكلمات والصوّر وإنّما الأرقام، واثنان منهم على وجه التحديد. في هذا الفضاء أنت مثل زائر يدخل متحف اللوفر بحثاً عن

لوحة مونا ليزا، فَيُفاجأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتمائيل تتزايد عددا بسرعة مذهلة وفي كل الأركان، كمّ من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم ينافس نفسه كمّ من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

خاصية مهمة لهذه الفضاءات التي تشكل عالمنا ترابطها وتداخلها وتمازجها الوثيق. أحسن مثال لتوضيح الفكرة النور. هو في ظاهره لون واحد. إن حللته ستجد وراء الوحدة الظاهرة التعددية المخفية أي جملة الألوان التي تكون هذا اللون الواحد وهي تلك التي نراها عندما يتصدّر قوس قزح كبد السماء أو التي فاجأتنا في تجاربنا عندما كنا ندرس ابجديات الفيزياء في الثانوي.

بتخصّص هذا التصوّر نكتشف أنه يثير من المشاكل أكثر مما يحلّ.

إذا كان الفضاء الحسيّ هو مجال كلّ الأفعال والتفاعلات التي تسمح بها الحواس الخمس... وإذا كان فضاء الأفكار ما تشكله الكائنات الحية الغير حسية التي يخلقها الفكر باستمرار والتي سمينها الفكريات... وإذا كان فضاء الخيال المصنع الذي يُعاد فيه تصنيع ما تنتجه الحواس الست... وإذا كان الفضاء الافتراضي الذي تخلقه الأرقام آخر مبتكرات العقل الآدمي لتوسيع رقعته، فمعنى هذا أن الذات هي التي تخلق هذا العالم وأنه موجود داخلي.

لكن إذا كان العالم من صنع ذاتي لماذا لا أستطيع التحكم فيه؟ لماذا يقاوم أبسط ما أريد منه ولا أتحدث عن الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ ثمة أيضا ما يدحض هذه الفكرة: شعورنا القوي في تجربتنا اليومية مع العالم أنه أكبر حاوٍ يحتوي على كل الكيانات الكائنات ومنها أنا وأنت وبقية البشر. ألا يعني هذا أن هذا العالم موجود خارجنا وبصفة مستقلة عنا؟

”النجوم تتألأ في السماء (ناظم حكمت)

حتى وإن لا يراها الأعمى”

صحيح أن عالمي الخاص سيرحل برحيلي. صحيح أن عالم الآدميين سينقرض يوم يطلق آخرنا آخر أنفاسه كما انقرض عالم الديناصورات. لكن ألا يعني هذا وجود شيء كان موجودا قبلنا وقبلهم اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية كل القصص؟

المخرج من هذه الورطة هو أن نقول إن العالم موجود داخلنا و...خارجنا.

لكن كيف يكون موجودا داخل الذات وخارجها؟ اليس الأمر بغرابة القول بأن الذات مثل السمكة التي تسبح في أعماق المحيط المنغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من

الأسماك ... وفي نفس الوقت أنها هي التي تحوي داخلها كل هذا المحيط الذي يحتويها؟

أخيراً، إذا تناولنا العالم من زاوية النسبي -أي كتفاعل ذاتٍ محددة بحواس معينة وفكر وخيال مع مبهم غامض، فهو غير قابل للإدراك بما أنه عالم خاص بكل ذات. أما إذا تناولناه من زاوية المُطلَق، كالحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل عوالم الكائنات - فهو أيضاً غير قابل للإدراك إلا من قِبَل كائن كامل وأزلي، كالذي يشير إليه جزء من العقل الجماعي تحت اسم الله.

حتى هذا الكائن الخارق للعادة قد لا يكون إلا مفهوماً من مفاهيم الفكر وتصوراً من تصورات الخيال وكلمة من كلمات اللغة تجعلنا نفسر كلمة بكلمة ندور في حلقة مفرغة لأننا حبيسو أفكارنا مثلما نحن حبيسو الأجساد التي تنتجها.

ثمة إشكالية أخرى يفرزها التصوّر: شرعية الحديث عن العالم بالمفرد.

خذ الفضاء الحسي. للحيوانات حواس مثلنا لكن باختلافات بدأ العلم يرصد بعضها. ترى كيف هو العالم بالنسبة للنسر المحلق في السماء، للدلفين في أعماق البحر، للقط، للكلب ولا نتحدث عن النملة والقملة؟

لماذا الذهاب بعيداً؟ ترى كيف هو العالم بالنسبة للبشر الذين نسميهم تودبا بالمبصرين أو بالذين عبروه صمّ بكم وهم يعقلون؟

ماذا عن البشر الذين نتقاسم معهم نفس الحواس السليمة؟

ثمة منهم -وهم الأغلبية- من يولدون ويعيشون ويموتون داخل فضاء قطره أربعون كيلومتراً لا أكثر. ثمة منهم أقلية طلعت إلى المحطة الفضائية الدولية.

بين هاتين الحالتين القصوتين ثمة ما لا يحصى ولا يعدّ من فضاءات متباينة الاتساع - ناهيك عن تباين خصائصها الأخرى - شكلت بالنسبة للمرتحلين داخلها نصيبهم من عالم مترامي الأطراف.

شتان أيضاً بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه تصورات ما قبل التاريخ وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم... بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على "فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أنه لا وجود لشيء اسمه العالم وإنما لعوالم لا تحصى ولا تعد هي عوالم ملايين الأجناس الحية وداخل جنسنا البشري عوالم الثقافات والطبقات والأفراد؟

ليكن إذن أن ما نسميه العالم ليس إلا العالم الخاص بكل فرد منا وأنه مثل قطرة من

محيط.

حتى هذا العالم، هل نحن قادرون فعلا على معرفته؟

ثمة شرط أساسي لهذه المعرفة ألا وهو الوعي به وإلا كان هو والعدم سيان.

حيث إن الوعي هو أنني أعرف وأعرف أنني أعرف، ما أنا متأكد منه أنني لا أعرف -فما بالك أن أعرف أنني أعرف - شيئا عن عمل خلايا أعضائي أو كيف يعمل ذهني وهو يفكر ويتخيل أو يقوم بأبسط عملية ضرب وقسمة.

إذا كانت جل عالمي موجود تحت سطح الوعي، ألا يعني هذا أنه إلى الأبد مجهول؟

أخيرا، برّيك أيُّ نموذجٍ جدّيٍّ يمكنك هندسته عن عالمٍ تُعْبِره وأنت كَمَن يريد رسم خارطة مدينةٍ سياحيةٍ مترامية الأطراف يزورها بين طائرتين... أو كمن يراد منه رواية فيلم بدأ عرضه قبل دخوله قاعة السينما بساعات ويتردد منها قبل أن يجد الوقت لأريح وضعٍ للجلوس.

المحصّلة؟ كل ما أنا متأكد منه أن العالم ليس امتدادا من الأرض الصلبة، أن السماء ليست موضوعة فوقها كطبّق البَلُور الشفاف الذي نضعه على صحن الفواكه وبينهما كل الكيانات والكائنات، أن الشمس ليست مصنوعة من ذهب قرطي "ما" ولا القمر مصنوع من فضة خلخالها.

كل ما أنا متأكد أيضا منه أنه يصنعنا مثلما نصنعه، أنه موجود داخلنا وخارجنا، أنه واعي ولا واعي، أننا نتحكم فيه كما يتحكم فينا، أننا نعرف عنه الكثير ولا نعرف عنه شيئا، خاصة أنه ليس لنا عنه -لا اليوم ولا بعد ألف عام - إلا تصوراتنا مما يعني ان العالم من الأزل إلى الأزل هو ما نتصور أنه العالم.

ما عدا هذا!. نعن لكن ماذا لو كان؟... ماذا لو كان أهم ما في العالم ليس إنه لغز للفاكِّ وإنما إنه أفخم وليمة سُرفنا بأن نكون من بين المدعوين اليها حتى وإن حُكم علينا أن نكون حول المائدة وعلى قائمة الطعام!؟

الطريق

قال أرجونا: إني أتحرّق شوقاً لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني يا إله الآلهة ذاتك الأزلية.
فردّ كريشنا تأملني يا أرجونا في أشكالها القدسية، إنها بالمئات والآلاف نوعاً ولونا وشكلاً، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهاجفاد جيتا

مقدّمة الكتاب الثالث

هذه غابة عبرتها كم من مرة أفهم فجأة أنني لم "أرها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ.

فرصة للعودة إلى تمارين الانتباه التي أحرص عليها لترويض النفس حرصي بالرياضة والمشي على ترويض الجسد.

أفرض على البصر أن يتسمّر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة البلوط ليتابع بمنتهى التركيز كل ما تمرّ به من حالات. ها هي تهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلّقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتبه من عبث فإذا بها تلتف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصيّاد وابل الرصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحظّ بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبي ثم أغيّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الموت التغذي بالحياة وقدر الحياة التغذي بالموت.

آه، هذا عصفور مختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر لكنه مصرّ على اثبات وجوده بهذه الزقفة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق. لكن الا يقول أهل العلم أنها إما دعوة انثى للجماع أو تهديد لذكر آخر بأن يبقى خارج حدود فضائه والويل له إن تخطاها؟

تلسعي بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحيّة البالغة الصغر التي تختبئ تحت قدمي. ففي هذه السنتمرات القليلة التي تدوس عليها قديمي أجناس لا تحصى ولا تعدّ، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة وكلها تتبارى غرابة وتباينا وتعقيدا.

هي الأخرى في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة آكل ومأكول، طريدة وصياد... كما هو الحال في المستويات المرئية من العالم.

يعود البصر لتأمل الأشجار الصامته وقد اكتسبت فجأة خصائص غير معهودة وأولها غرابتها المطلقة.

مما يقال هذه الأيام أنها لا تكفّ عن تبادل الأخبار بينها، أن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون، أن بين هذه الجذور والفطريات اتفاقيات مبرمة منذ قديم الزمان وتعاون وثيق في استغلال الثرى لصالح الطرفين.

تشدّني من جديد أوراق الشجرة التي أجلس في حضرتها فأتحص البعض منها كأنني لم أر من قبل شيئاً من هذا القبيل .كلها ثقوب قضم . ثمة اذن هجوم منظّم من جحافل يرقة الفراش لالتهام هذه الشجرة. كل هذه الثقوب وسط الورقة لأن اليرقة الذكيّة كما يقول الباحثون في شؤون الأشجار تحاذر من قضم الأوردة. هي على ما يبدو تعلم -لكن كيف؟ - أن لمس هذه الأوردة سيطلق إشارة بأن هناك هجوم فتبادر الشجرة الذكيّة بإفراز مواد كيميائية في كل أوراقها لتسميم المهاجم إضافة لبثّ روائح تلتقطها العصافير والرسالة تعالوا ثمة أكياس من البروتينات الشهية تنتظركم.

لهذا أصبحت لا أدخل غابة عندما أكون على أقصى الانتباه إلا متسائلاً هل انطلق الهمس بين الاغصان: تعميم الإنذار، حيوان غبي آخر بصدد اقتحام المحراب.

أن تكون منتبها يعني إنك استعدت الوعي الموجه بما يزخر به العالم من غرابة ومن أعجب الأسرار.

أن تكون منتبها يعني وعيك المفاجئ بأنك لا ترى من العالم إلا الزيد وأعماقه المظلمة محرّمة إلى الأبد.

أن تكون منتبها يعني ادراكك كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل.

أهمّ فضل وخاصية للانتباه نجاحه في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرده هموم المستقبل من ساحة الوعي لتتفرّغ الذات للحظة وقد تخففت من كل الأعباء.

لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة ولما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.

ها قد عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه فيك...ها قد أفقت فيه مرة أخرى.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" المنتبه. ليس من باب الصدفة أيضا أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنًا من "الساتوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم في مثل هذه الرؤيا.

الرّسامون هم أيضا من كبار المنتهين، موني نموذجًا. بقي الفنان على امتداد شهور يرسم لكاتدرائية "روان" نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغير الطقس واتجاه أشعة النور للعودة إلى الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لونا يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي رسمها للكاتدرائية العجوز.

لن تجد في أجمل قصائد كبار الشعراء شيئا هاما إلا وكان انتباها مفاجئا لعلاقة تربطنا بالعالم لم تخطر ببالنا يوما.

"أحصد القمح (ناكاتسوكا)

وفوق ظهري

كلّ السماء"

ربما أكبر ما يميز الشاعر أو الفنان عن بقية البشر أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل أو قل إن الطفولة التي يفقدونها تدريجيا بتقدمهم على خطّ الزمان تتواصل عنده دون تغيير جوهري.

لاستعادة انتباه الطفل والشاعر والفنان ولتعدهه دوريا، قف أينما تشاء وتأمل ما حولك قائلا في نفسك إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها هذا المشهد.

المشكلة الكبرى التبدّل وهو النقيض المطلق للانتباه المتربص بك على طول الطريق.

إنه الحالة التي تعيشها الذات عندما يتبخّر الإعجاب والتهيب وحتى الفضول أمام الخوارق والمعجزات التي تحيط بنا. إبانها تشهد الذات انطفاء الأحاسيس والمشاعر عندما كان العالم بكرا... ولا تبالي.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)

إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"

نعم يجب ألا تعبر العالم كالجاهل التائه في أروقة متحف اللوفر مضيقا جلّ وقت الزيارة في البحث عن المطعم وبيت الراحة ومتجر الهدايا ومازّا بلا وعي بهيمي أمام كم هائل من روائع فنية تتابعت الأجيال على خلقها.

لكن لماذا رفض المؤلف والعادي والتافه والمحاييد حسيا وشعوريا وكل هذه التجارب البسيطة التي نجمها في كلمة اجنبية: "الروتين"؟

ربما هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في وجود التبدّل في حياتنا.

أنت لا تنخر عضلة لتقبض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتا للارتخاء إلا وأتت لحظة اضراب هذه العضلة احتجاجا على كثرة الوخز.

كذلك الأمر مع الذات. أنت لا تستطيع البقاء طول الوقت فاغر الفم أمام شروق الشمس وغروبها، أو متابعا بكل دقة حركة النجوم في السماء. لا بدّ من إدارة الظهر للروائع أحيانا حتى لا تصاب بالتخمة ولا بدّ من أوقات صوم حتى تستعيد شاهية الأكل.

نبض الرحلة إذن ليس فقط سعادة فشقاء فسعادة الخ وإنما انتباه فتبدّل فانتباه وذلك إلى نهاية الطريق.

ومن ثمّ ضرورة إعادة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا في هذه الرحلة منتبهين إن لم يكن كل زمن الاستكشاف فعلى الأقلّ أغلبه... واجعل تبدلنا لا يدوم أطول من زمن التقاط الأنفاس.

عندما يضع العالم كل ما عنده من الحلّي والحلل.

في ملفّ التعرّف على السهل والعشب وقوس قزح .

ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسؤولي. سأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل لأول مرة للفرق الهائل بين الصحراء والسهول الخضراء التي تحيط بقرية جدته وأخواله وكيف أن الله فرش على أرضها بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بأعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.

ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادته العارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل.

ثم ها هو يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين أمثاله.

يتفطن سريعا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكوّرة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأي يدفعه باتجاهها عله ينجح على صغر حجمها في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليبصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

ثم يأتيه الدُّ إرهاق فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاضّ بالخوارق والمعجزات، أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شيئا فشيئا تثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أم وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

من الغد، يصرخ الطفل المطر، المطر، المطر! الظاهرة العجيبة التي لم يعرفها في صحراء الأب والجدّ والتي طالما وعدته بها أمه.

الانطباعات البكر لأول لقاء مع ما تسميه اللغة الغيث النافع أي ما تغيث به السماء البشر حتى لا يموتون جوعا وعطشا.

الطفل الآن مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنه هو الذي دوّت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالبرق وبالرعد فاتحا عينيه كما لم يفتحهما يوما ليتأمل-عبر ومضات البرق الخاطفة-ما تتخذة جبال السحب السود من غريب الأشكال، فأغرا فمه أمام تشكّل نهر من نور يقسّم فجأة سقف السماء إلى قسمين.

إنّها المرة الأولى التي سيرى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور والنّار. يخرج لسانه ليلتقط قطرات هذه الماء التي تجود بها السماء فجأة متابعا تسلّ لها بين الثياب والجلد وهي تبعث فيه موجات ألذّ قشعريرة.

يسجّل الذهن المنبهر توقّف تساقط القطرات، أن ومضات البرق تتباعد، أن زمجرة الرعد تخفت، أن أذرع الإخطبوط النبائي كفت عن صراع مع حيّ غير مرئي، أن حفيف الأوراق عاد همسا لا يكاد يسمع، أن الملامح العابسة للسماء استعادت إشرافها المألوف.

لم يبق إلا رصد بقية الخوارق والمعجزات وكيف تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السّماء إلى صمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التعالي وكيف يتسلق الفراغ الأزرق قوس ملوّن بلا أعمدة تسنده يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قرّرت محوه من سبّورة السماء لا تريده-لسبب مجهول-علما ثابتا كالشمس والقمر.

*

في ملفّ اللقاء الأول مع البحر .

تسأل الأم ابنها ألا يبخل عليها بالتفاصيل خاصة وأن من قام بتقديم البحر للطفل وتقديم الطفل للبحر الأب لا غير.

ليلتها فتح الطفل ذراعيه علّه يبلغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متّسع، كم هو ملآن بالماء فسقطت الذراعان والعجز عن التعبير الشعور الغالب.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيبة دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يقنع الأمّ أنه رأى بأم عينيه سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانه ثم اختفائها فيه!

كم يكره أن تظنه مبالغاً أو كذّاباً!

تلك الليلة آب الطفل إلى فراشه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجدداً أم هل سيحتفظ بها نهائياً فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيس.

من الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها أنه اكتشف أين تذهب الشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

ترمي أمواج النزوح من الأرياف والصحاري عائلة هذا الطفل مثل كم من عائلات فقيرة أخرى على مشارف المدينة الكبرى في أبعد ضواحيها الملاصقة للبحر.

يتجدّد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذّة العوم في موج هادئ أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلاً أن الأسماك خلافاً للبشر لا تموت غرقاً.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصرّاً على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلوّ الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي بجسده النحيل وسط أمواج صاخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يختنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ: النجدة! النجدة!

ذلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشله من أشدّاق البحر يرتجف برداً وخوفاً ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخير في بعض الصحف الشعبية: غرق طفل في التاسعة في شاطئ جنوب العاصمة، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها بقيت أوراقاً بيضاء والكتاب مات قبل أن لم يخطّ عليها حرفاً واحداً.

منذ ذلك اليوم وفوبيا البحر ساكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبداً للبيع المخيف لا سباحة ولا سياحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقلّ التي نلتزم بها لخاصية أساسية للعالم ألبس قناع البحار، أو الجبال، أو الصحاري، أو القطبين، أو الفضاء اللامتناهي: إغراءه الذي لا يقاوم.

يحدّثونك بتهيّبٍ ووجلٍ عن عواصف بحرٍ كانت تذهب له الطفلة "ما" مع جدتي وخالتي لغسل الصوف. أيّ رعب مقدّس كان سيدهمهن لو وجدن أنفسهن فجأة وسط هذا الذي يسمونه لسبب عجيب بالحيط ... بالهادئ!

يومها بدأت السفينة الصغيرة تسلّق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميّزة للطريق في عرض بحر أو محيط أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط.

هل تقدّر كم أنت محظوظ والطريق على اليابسة ثابت، وإلا عبرت العالم ضحية دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.

لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو الأسفل ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود مرة أخرى إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستزول منه أمام بيتك تترنح فيصفّك الجيران بعرييد وضح النهار.

في ملفّ آخر عن لقاء البحر .

تتدافع الصور والأفكار الرأس بين ذراعيّ مغلق العينين.

أية قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية الصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

يتسارع طلوع وهبوط السفينة وتتسارع داخلي أفكار مشوشة عن قاع هذا المحيط الذي لم يتوقف منذ مئات السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الآدميين ومستعدّ لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في مكان كهذا؟

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبْتُ هذه السفينة الصغيرة عَلِّيَ أظفر منه بنظرة هو الآن في مرمى البصر. إنه يسكن فضاء خيالي منذ قرأتُ له رحلته في قصة هو بطلها تحت اسم موبيديك.

أرفعُ رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجته من بين ذراعين أغلقنا عليه بكل حرص خوفاً من أن يكون للسماء أيضاً صعودٌ وهبوط وكل أملي أن ألقى نظرة خاطفة عليه. يحتدّ الدّوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجّر من الفم قيئاً كريهاً.

تعود المرأة إلى الصّرخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! كُفّي عن الزعيق لوجه هرمان ملفيل نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبّار في خيالي بعد أن أفرغْتُ كل ما في معدتي على فستانٍ عجوزٍ أخرى أشبعتني نظراتٍ ساخطة.

تحت قدمي واحات غناء تلجم بجمالها كل لسان ولن أتمتع بتأمل روائعها يوماً... آه يجب أن أسلي النفس بالتذكّر أن الصراع من أجل البقاء هو الذي تعرفه السماء والأرض... قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك... تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، ليتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق، في الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكّي الحوت الخرافي لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الآدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إزياً إرباً.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سمّيك السائل! لله دَرّ فرسان الرياح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يثنّهم كم من مرة ألقى بهم في غياهب اليمّ. حقا إن شجاعتهم لَصُرب من التهور أو الجنون، لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون من ثبات وصلابة أرض قرطاج إلى حراك البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوماً. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن!

نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والعطش والرعب عندما تقطب السماء جبينها ويزمجر البحر وتصبح الأمواج جبلاً متحركة.

مُجّي من ذاكرته كل ما عانى، عائداً لأحضان الغول، بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدّرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، لركضتُ إلى أبعد نقطة أحتمي من البحر الجبال أضع بيبي وبينه وسع بالبراري.

لكن حانون عاد اليه كما عادوا كلهم، ربما عاد لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يرَ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشح طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتنوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشحذ كل ما في جعبتهم من مهارات، من ذكاء، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار.

الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة أصاب فيها بدوار البحر.

كأنني بأشباح تائهة في مجاهل العتمة، تبتت في من أعماق الماضي حفيظة واضحة لسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

في كل الحالات وبغض النظر عن اعتبارات تباين درجات الرفاهة، أليست هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشداقها لالتهامنا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن لا نتوقف عن التخاصم فوقها نتقياً على بعضنا البعض؟
أخيرا المرفأ.

لا تصدق أبدا من يتشدقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن "

"تجري الرياح كما تجري سفينتنا...نحن الرياح ونحن البحر والسفن (مجهول)

فاقصد إلى قمم الاشياء تدركها.... تجري الرياح كما رادت لها السفن"

أدير الظهر لهذا المحيط الذي يسمونه كذبا وبهتاننا بالهادئ وقد قرّ القرار. نعم لن أعود لسهول الماء المرعبة ما حبيبت.

حقًا! من أين الوفاء بالوعد والضروريات هي دوما المتحكمة في القرار؟

آخر ملف عن البحر على أمل اغلاق موضوعه نهائيا .

ها أنا مجددا بعد عقود في جوف سفينة صغيرة في نفس الوضع البائس والبحر الهائج يعبت بالسفينة عبث القظّ بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقبها والحرب حولي برّا وبحرا على قدم وساق.

أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن أطلق عليّ وابل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة السويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتّي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى أنا الطريدة والبحر صياد على وشك أن يعمل فيّ أنياب سمك القرش. تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل على وشك الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت بالراحة.

فجأة ينكب عليّ رجل ملثمّ يحمل مدفعا رشاشا ليقول سيدي، لا نريد بك شرّا ولو أحببنا لسلمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن نهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرخلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعوني فيها عنوة أحدّق طويلا من النافذة في قوافل السحب متمتعا بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر.

التفت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم ...أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلتّ من برائنك للمرة الثالثة، لا تعوّل على فرصة أخرى لست مثل المجانين الذين يحبون استفزازك المرة الواحدة بعد الألف ولا يتوبون.

طبعاً وعد آخر لن يتحقق وأنا لا أطيق فراق البعبع الجميل طويلا.

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة. من قرّر أنّ على الآدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون الشاطئ لا يحيدون عنه إلا اضطرارا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

ليُسمح لي بملاحظة فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العالم من المشي.

من مزاياه أنه لا يكلف شيئاً ويمكن ممارسته تقريبا في أي وقت وأي مكان وأيا كان الطقس. من محاسنه أيضا عندما يصحبك فيه الآخر أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعوانية الغريزية عند الآدميين.

أضف لهذا أنه يعطيك إن كنت تمشي وحيدا كل فرص الانتباه لما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب.

كم كان أوائلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوةً بعد خطوة، وهم كمن يتدوّقون أفخم مآدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصّوا ببعضها أحيانا.

لهذا قرارا هذه المرة لا رجعة فيه - نعم، نعم، لا رجعة فيه. سأستكشف البحر الذي عشت على ضفافه - ثم من بعد كل البحار والمحيطات - نعلّاي بيدي، بنطلوني مرفوع إلى الركبة، قدمي في الماء الدافئ إلى الكعب، أطوف حوله أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه أحمّد من يتوجّب له الحمد بأنني في مأمن من البلبل ناهيك عن الغرق.

*

في ملفّ اللقاء مع النهر الخالد يبادرني مُصَيِّفي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طُبقت شهرتها الآفاق.

- هبّا، الولية تنتظرنا للغداء، يكفي ما تأملت هذه الأهرامات.

- لا تستعجل عليّ، يا للمهندس العبقرى الذي أمر الصخور أن تتخذ أشكالا هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فنّ خلق الجبال.

- ما أعجب له أن الذين هندسوا وشيّدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من عناء ومن حوادث مروعة فقط ليتمتع حفنة من الفراغة بالخلود.

- ربما لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات ذواتهم وسعيا لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير الحجارة والخبز والجمعة؟

يهزّ الرجل كتفيه مستهجنا فكرة لم يدافع عنها يوما أحد ثم ينظر لساعته.

- طيب، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة أعددتها لك كمفاجأة.

كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر وأن السفر عليه يأتي المرتحل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبّر الحياة:

جلوسا على كرسي مُريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان-
روائع العالم وفضاءاته.

أضف لهذا أن هذا الذي أنساب فوقه نهر ليس ككل الأنهار. إنه نهر ارسطراطي بكل
المقاييس ومن ثمّ شعور التهيب الذي يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.
"هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

ميقات كل العصور

راحل أبدا باتجاه الشمال

هو النيل

يعبر هذي التخوم... وتلك البحار

وذاك الغمام... وحدّ الخيال

يسافر في اللانهايات

ويبقى على شفّته السؤال"

يقطع عليّ صوت مرافقي تركيزي على الحركة البطيئة للفلكة.

- هيا يا صاحبي، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسمّيه اللهجة العامية البحر. أهم تحدّد طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف
السنين عرضّه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم
يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حدّث ولا تسل عن طوله وكم أرهق أكبر المغامرين
وهم يبحثون عن منبعه.

- المنيع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول
مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لتركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث
وُلد ووُلدت معه حضارتكم.

- أخشى أن تتأخّر كثيرا حتى على العشاء فتزعل "الولية مراتي". كل ما أستطيع توفيره
لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير
بخصوص طبع هذا النهر.

- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

- الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأنّ ركض آلاف الأميال
امتص منه كل حيويته. لكنه شيء جد مختلف هو يتشكل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج بل لا أكثر منه حرصا على رضانا ورضاء كل الكائنات.

"وشاهدتُ كيف النهر يبذل ماءه فلا يبتغي شكرا ولا يدعي فضلا (أبو ماضي)

وكيف يزّين الطلّ وردا وعوسجا وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا

تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الإبلا

ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلى"

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلتُ لنفسي أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق ونقول لي لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيب، ماذا سنفعل الآن بالآدميين في بحثهم عن المنبع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحب من البعوض، تترصدهم تحته التماسيح وعلى ضعفه ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- أي خيار لهم سوى السباحة بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نافد الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

-الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجئا آخذ المتروكل صباح لأسمع تفاهات الناس يصرخون في نقّالهم!

- عفو!

كأني بأشباح تائهة في مجاهل العتمة، تبتّ في من أعماق الماضي حفيفة واضحة لسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في مستنقعات وأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية نكاد نهلك فيها هلعًا وجوعًا وعطشًا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفّوا عن التريديد: سنكتشف من اين يأتي كل هذا الماء ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من أين يأتي كل هذا الماء؟... قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر للآدمي هو الذي ولد فيه الأسئلة حول منطلق الأشياء ومنها من أين يأتي الزمان؟ ... أليس هو من أوحى لنا بتصوّراتنا الأكثر انتشارا عنه وأنه هو الآخر تدفق يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته في حالة أو جعله يعكس مساره عائدا إلى النبع؟

- لا تقل لي أن الروّاد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السرّ؟
- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتمّ منذ قرن تقريبا اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من المغامرات.
أعود لممازحة مضيف كريم.

- لا تُطل، اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟
- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "البوزل" ولتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرم أمراكهذا.
- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أغلق.
- طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأمّ وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة وموثقة.
- وقبل ذلك.

- ماذا تقصد؟
- فهمتي، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟
يضحك مرافقي.

- في السحب طبعاً.
- وقبل تجمعه في السحب، من أيّ بحر تظنّ أنه انطلق؟
- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر. محكوم علينا أن نجهد دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنايع جاءني شهوة المصبّ. في طباع هذا

النهر شيء يذكرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

- لستُ متأكدًا أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة حبهّ للتعرّج واللفّ والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطًا مستقيما؟

- طيّب، لتتبع بتعاريجه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوما.

- أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.

*

في ملفّ الغابة أساسا غابة الليل يبدأ الاستكشاف بشرطي في زيّ مدني يعترضني قبل دخول الطائرة وكأنّ شرطي الجوازات لم يكن كافيا للتفطن للمشبهين أمثالي.

يواجهني بوابل من الأسئلة وهو يقلّب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّيتستان؟ زرت قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان ونفاقستان أيضا! ماذا فعلت في كل هذه البلدان؟

كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية؟ هل تصلّي؟

لم يكن استكشاف العالم يوما سهلا على أحد وذلك منذ غابر الزمان. كان رحالة العصور القديمة عندما ينزلون بشاطئ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفا يقتربون من بضاعتهم يقبلونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدورهم ليعودوا يوما -إن عادوا- بأعلى ما يملكون يبغون. بالكاد تغيّرت الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف العنصر القارّ الثابت في العلاقات بين الآدميين.

يتجدّد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطية تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بوضوح تقدير مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المفدى.

من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأذهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطتها البيروقراطية المطلقة لقادتني مباشرة لغرفة الإيقاف.

تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليباً وتمعنا.

- انتظر...

بعد دقائق بالغة الطول والثقل تعود بالجواز وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.

أخيرا المدينة التي جنّتها متعللا بالبحث عن مزيد من الخبرة في مستشفياتها والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غابات قريبة منها سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار.

يا الله، لم أر أشجارا بهذا العدد، بهذه التعددية، بهذا العلو الشاهق، بهذه الجذوع الضخمة، بهذه الأوراق الخضراء التي يقال إنها تتحول في الخريف إلى حمرة الشفق توحى لمن ينظر لهذه الغابات من الطائرة أن حريقا بصدد افتراسها.

أتوجّه للزميلة والصديقة التي قبلت أن تكون دليلي مداعبا ومستفزا ونحن ندخل أقربها.

- من الظلم أن تتمتعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأت أخطط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح- تحسبا لغزونا؟

فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري، انتفخت يدي!

- هذا الذي ذقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

-بعوض! تسمون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ ما هذا الغش؟ من تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنّة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة -على الأقل- ليعلم الجميع ما الذي

ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك.

حقا إنه عالم رائع، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحوالك كائن يخدش أو يقضم أو يعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنيننا لمجرد الازعاج.

- لا تعجل بالتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرتني حولا كاملا وأنه ترصد قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئيني. هل النزلة محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجددا إلا مسلحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تغير الموضوع.

- تعال، طلبت أن أريك الأماكن التي جئت من فيافيك القاحلة خصيصا لرؤيتها.

- خذيني حذو أصغر جدول وتحملي صمتي وجلوسي عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء. هل النوتات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟

تجذبي مرافقة الطريق من كنتي.

- نعم كم جميل صوت الماء وهو خرير هذا الجدول. لكن مضي جل النهار. تعال

- كيف يمكنني مفارقة هذا المكان... لم أر في حياتي مثل هذا الماء يمثل هذا الصفاء... يمثل هذا الصوت الشجي ...

يقولون إنه بلا طعم ولا أطيّب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل وهو السائل المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... وهو قبل أن يكون شرط الحياة القدوة والمثال لكل كائن حي.

ترفع الزميلة من صوتها، تغربني بشلال فيه موسيقى أروع من موسيقى الجدول.

ثم تعود نبرة فراغ الصبر لصوتها.

- كفى، بدأ الليل يداهمنا

- لن أتحرّك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدّق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك الزميلة إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعا بالتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفّر في كل مكان.

أقفز من جديد وأفزع الشتائم تتدافع مجدّدا على لساني:

- بجّد، كأنّ لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجّلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيرتُ رأبي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزول. انظر مليًا لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطرًا إلى مصّ دمك أعوّض ما يأخذه مني فيلكم الطائر.

تشير المرأة إلى الخارطة بأصبعها لتقنعني بصواب القرار، لا تعلم أنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبقونفيل وكوك وقبلهم بحارة العرب والفيكينج وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة! ... كلهم مع ذلك توغّلوا في الغابات المجهولة الموحشة، في الصحاري الصفراء والبيض المخيفة وفي البحار الشاسعة المرعبة لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا التهور والحس.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر هذه الخريطة، هل تعلمين أن بعض الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأدياننا كتبوا دليلًا مفصّلًا اسمه كتاب الموتى وهو خريطة سحرية حتى لا يضلّ آدمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكّر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نفصّ فادح قررتُ أن أضع له حدًا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك مَنْ تَسَلَّم عند الإفافة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العالم شبيها بوضع سائح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ مَنْ يكون وماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبَّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكَل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الآدميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخرائط الموثوق بها هي غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- مَنْ يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مَصَبّ البلدية، أو يدخل به أوّل سوق يبيعه بمقابلٍ بَخَس، أو يجعل منه عبدا، أو يضَيِّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نَقْضي جُلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حدّث ولا تسل عن الأدلاء الكاذبين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الإسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبيبدو الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من تبيدون.

تهزّ رفيقة هذا المقطع من الطريق كتفيتها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطة لا نفع منها.

أعود لنصحها. يا ليتني مسكت لساني.

- تنفّسي بهدوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي تقررين لا نحيد عنه قيد أنملة.

- احتفظ بنصائحك، أنا قادرة على أن أخطئ دون إعانة من أي كان وانتبه للطريق، لقد رسّمته على أرض الغابة الحُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدًا منّا.

- إن رأيته فسأفعل أني لم أره.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنتِ في ورطة، أمّا أنا...

- لوجه الشيطان اصمت، هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

- ألا تعتقدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق ومفترقاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تائهون أكثر ممّا.

- في الوقت الحاضر أكبر مشاكلي أنت.

- نعود إلى المشي وسط أليافٍ وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا وأعود لمداعبة امرأة بصدد فقدان السيطرة على أعصابها.

- لا تخشي شيئاً، خادمك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلاً تعويذتي رقم 86: "ابرادابرام باتو باتي يتاي متغقى". هي سلاح يصلح لكل طفل ضد العفاريت التي تخرج من قبور وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلاً يغارون منه. ثمة أيضاً التعويذة رقم 798: "لإيناعي لايس". هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمراً معيّنًا.

- وتعويذة...لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

- تبسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشاً من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأهم التغييرات التي أدخلتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!

- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلي لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على الخارطة.

- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المقرفة التي لا تنتهي.

- هل جننت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.

تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.

- ربما خاطرت بمستقبلي وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يحدّق فيّ بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربابك يا نزق! لن يأخذ وقتا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتتمزّق أشلائي وتلتهم روعي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمل الأدميّ وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهم.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند أبشع أنواع الرجال ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكيلا تزعجني بشكل من أشكال العنف أو الهستيريا.

- أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعّت فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان شمال القارة العجوز، كسبًا لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرّي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا -لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجده كل تقنيات الجني والقنص-أصلح من زوجها للمهمة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلّت في نفسي: يجب أن أطلب رُمحا وقوسا ونبالا. بماذا

سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرتُ الصمت وتوكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستفّر آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعتها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبث -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و "ما" في طرفها الآخر لا قبيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الآدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتتُ على قديمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا وبالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدتك الشرطة بعد أسبوع بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتظة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأني بأشباح تائهة في مجاهل العتمة، تبتّ في من أعماق الماضي حفيظة واضحة لسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوتُ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعْتُ فيها مكانا مروّضا شقّ فيه الآدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفسْتُ الصعداء ولم

تبقى إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف في أي جهنم كان الآخر يتخبط.

- مالك ممتع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. ترسلوني لمواجهة الدببة ولا أدري كم من وحوش أخرى وأنا أعزل. سأقول كل شيء لـ "ما".

يومها ضحكت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.

الحديقة العمومية! كاريكاتور الغابة... الطبيعة تحت الحراسة المشددة... حلم الأدمي في أقصى حالات التبلد وهو يريد الشهد دون إبر النحل.

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:

- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبعة صفراء يدلنا على باب الخروج. انها غابة تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا "المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّرني ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعون يوما زنين نقال؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وأنداك حدثني مجددا عن رغبتك في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وجني ثمار الغابة ولبس جلود الحيوانات. لنعد للموضوع. حدسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء من عالمك المجنون. أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ السحرة وآخر معاقل الثوار.

تهزّ المرأة كتفها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهمننا، يا يسوع!

- نعم، لنُصلّ ليسوع. سمّره على خشبة ثم اعبده. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهديني التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقّف وانتظار الفجر والفرج.

يا إلهي، الغابة ليلا ولا نارَ تدفع عنا أنياب البرد والذبّ.

ثمة في نبرة المرأة ما لا يدع مجالاً لشك بخصوص الحالة النفسية التي تعيش... والتي افتعل تجاهل تصاعدها داخلي.

الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور... هو خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه... خوف الكهل من ضربات الدهر... خوف الشيخ من فقدان الصحة والحياة... خوف الغريب من الموت بعيداً عن الأحبة والديار... والويل لمن لا يترجى ويرجى على فنّ التغلب على ألّعن الحالات التي تمرّ بها الذات،

مما يقال ان الكلاب لا تهاجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيلة بجلب كل ما فيها من اصحاب المخالب والانياب.

على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان. ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصار ليلة جادت بها الأقدار.

إذن هكذا هو العالم كما جرّبه الأوائل كل لياليهم طيلة مئات الآلاف من السنين... إذن هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والأدمي طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق فيه جمرات ملتهبة هي أعين سباع جائعة تبحث عن عشاء.

نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر طال انتظاره.

أخيراً، تعود للعالم ملامحه المألوفة وللنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلاً وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هياً، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائح وأسرار فقررت أنه آن الأوان ليغربا عن وجهها.

تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجذل:

- أخيراً، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...

- آه، عادت الابتسامة إلى شفّتك. مهلاً، ما هذه العجلة؟

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة: دشّ ساخن، وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

يجب مواصلة الاستفزاز لعلني أضيف لميزان حسناتي تجدد الانتباه في هذه المرأة.
- ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الورا،
كوني بنتا طيبة. من سيطبخ لي "المارنجوان" ويكوي لي جلود الحيوانات لأكون أنيقا
وتعجبين بي؟

- لو كنتَ تعرف على الأقلّ كيف توقد النار!
- لم أتمعنّ في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف
الأعظم.

- تدبّر أمرك وبالتوفيق.
- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من
ضلعي.

- هذه مشكلتك لا مشكلتي.
- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نفذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب
ذني وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمة بأغوارها. كم صدقت العجوز النرويجية:
آه منكم يا أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وفتبة
صفراء.

*

في ملفّ اللقاء مع الجبل المقدّس هذا ما أتذكّر .
الطريق الآن ليس متّجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق والمشكلة المتفاقمة ليست
الدوار وإنما ما يشبه الربو.

كأنّ العالم داهمته نوبة بخل فقرر أن يكون عطاءه من الهواء أقلّ من القليل.
أتوقف لاستعادة أنفاسي أنظر مطولا لقوافل السحب البيضاء وهي تمر لأول مرة...
تحتي وأنا الذي أرقبها من فوق.

يجب العودة إلى المشي المتعثر البطيء.
يا إلهي ثمة رياضيون طلّعوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بثلاثة أو أربعة آلاف من
الأمتار الإضافية!

صحيح أنهم ارتحلوا وأغراضهم الثقيلة التي تقصم الظهر محمولة على أكتاف فقراء
الوديان المنسية من البشر والآلهة صورة مصغرة للوضع الذي تخلقه طاولة القمار
وهي تقرر من سيرتحل مخدوما ومن سيرتحل خادما.

ومع هذا، كم تنعموا هم والأوائل الذين فتحوا هذه الربوع المبهرة المرعبة! الملاعين
لم يتركوا لي غير ركوب باصات السواح للوصول إلى سفح الجبال المتكبرة.

كأني بأشباح تائهة في مجاهل العتمة، تبت في من أعماق الماضي حفيظة
واضحة لسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادِنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون بين
قمم الجبال السود نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وخوفا... وخذ ما شئت من انبهارنا
البكر.

من جديد عليّ التوقّف وهذه المرة طويلا.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا العلوّ.

أية مخيِّلة قادرةٌ على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الشكل
والمعنى... أحسن من فهم طبيعته بشر النازكا... هم انتهوا أنه لا يجب أن يكون خطأ
مستقيما يفصل بين نقطة انطلاق ونقطة وصول أو حلقة مفرغة تدور فيها وكل نقطة
بداية هي نقطة نهاية... لهذا رسموا له على أسطح جبالهم السوداء المتجهمة لوحة
فنية ترى فيها من علو شاهق طريقهم ينطلق من نقطة ليلف ويدور حول نفسه مرارا
وتكرارا إلى أن يجد له منفذا من التمرجات التي صنعها عن قصد متوجها كالسهم نحو
هيكل وُضعت عليه هدايا للآلهة علّها تواصل حماية الحجاج الذين رسمت خطى
أقدامهم كل مسارات هذا الطريق.

تحضري صورة أشهر لوحات كاسبار دافيد فريدريش للآدمي المنبهر وهو يتأمل وحيدا
الجبل الذي جاءه ليكتشف نفسه في مرآته.

مستلق على الظهر لاسترجاع أنفاسي أتابع سرب طيور دخل فجأة مجال بصري.

أکید أن رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافآتها لا تختلف جذريا عما تعرف كل
الأجناس الحية التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفاثة خطأ أبيض يقسم السماء إلى اثنتين. تبرز طائرة ثانية هي
الأخرى بخطها الأبيض الطويل. تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد
تساقط أشلاؤهما فوق رأسي.

من حسن حظي وحظّ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.

يحصل التلاقي فقط بين الخطين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة
السماء.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار ساقطها ولو
زحفا على البطن.

أخيرا المكان الذي أُصِبتُ بالوصول إليه وكلُّ من حملهم الطريق إليه لم يرجعوا منه كما بلغوه .

كم وقف عنده من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسّرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة. منهم من جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد. كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسم عندهم صلاة المؤمن!

" جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يبتسم (كيوكوسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبالٍ كأنه نائم"

أه عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحلل لاستقبال ضيوفه الكرام!

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أَوْحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.

أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.

العنصر القار الآخر أشجأ متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمّة دوما شكل لا يكاد يُلاحظ لآدمي يفصّل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.

هل ثمّة فنان أكبر من هذا الذي تفتقت عبقريته عن مثل هذا المشهد!

مشدوها أمام جمال الجبل تحضرتني قصّة الرجل الذي تصرّع الى الله أن يدخله الجنة فهمس في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.

فجأة على أقصى قدر من الانتباه والشعور الطاغي الانبهار، أجدني أصبّق كما يفعلون في المسارح والملاعب صارخا بأعلى صوت: برافو الله!

*

لاتّباع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال ثم إلى ما فوق قبة السماء لا امكانية غير سفرة بالوكالة.

داخل بعض ملفاتي عن هذا المقطع من الاستكشاف يخيم صمت عميق على قاعة العرض الضخمة ومئات المسافرين مثلي على أهبة الاستعداد لأغرب سفرة لم تسعفهم الأقدار بأن يكون في قافلتها.

فجأة يدوي انفجار يصم الآذان والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.

يخيل إليك من فرط دقة تقنيات التصوير أنك ستشعر بلهيب النار يلفح وجهك وبرائحة الدخان تخنق منك الأنفاس. تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف في حركة غريزية.

ترصد كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدخان وهو يتلاشى رويدا رويدا في زرقة السماء. ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية القذف.

تتمركز الكاميرا في موضع يمكن الآدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصح تسميته البحر.

أول انطباع: فعلا هو ليس قطعة مسطحة من الصلب كما تصوره الطفل وكما لا زال بعض الآدميين يصرون على تصوره. هو كروي الشكل مستدير استدارة الكعكة والبرتقالة والشمس والقمر.

على ماذا أركز والذهن مشدود مأخوذ منبهراً بما يرى والانتباه على أقصاه؟ على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟ على البياض وهو كقرو دب ألي على كتفي غانية؟ على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟ على الصفرة تضيق الخناق على نهر خالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟ على الحمرة استفردت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟

من يتذكر أن هذا الكوكب توسّح طوال تاريخه العاصف بأكثر من لون، أن الجوهرة الثمينة اتخذت عبر تاريخ يقاس بمليارات السنين حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة أما زرقة البياقوت التي هي لوانها الغالب الحالي فالأکید أنها لن تكون اللون الأخير.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على سطح هذا الكوكب لا يكف عن الثرثرة والصرخ وفي أعماقه تزمجر قوى جبارة تنتظر لحظة التذكير اللفظ بوجودها.

من ينظر لشكل القارات يتحسبها موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها- ومقياس الزمان بملايين السنين -لم ولن تكفّ عن التغير انقساما ثم تقاربا ثم انقساما جديدا وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

ما لا تراه العين من هذا العلو الشاهق شبكة الطرقات التي تعتمدها آلاف الأجناس الحية وهي تهاجر في السماء وعلى الأرض وفي أعماق البحار بحثا عن القوت أو لتجديد النسل.

من هذا العلوّ الشاهق ليس من السهل تبيّن الحدود التي تفصل بين قطع أرض متفاوتة الحجم استولت عليها قبائل أو شعوب أو أمم تدعي انها ملكها الخاص إلى الأبد كما تفعل سائر الحيوانات الأخرى التي تعيش هي الأخرى على الجهل بالفرق بين الاستغلال المؤقت والتملك الدائم.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وامريكا الوسطى وكل ما كدّست الأجيال الماضية من آثار، مثلما لا ترى كل ما كدّس جيلي وجيل الآباء من موانع عملاقة، من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبرة، من شبكة أنابيب البترول والغاز والكهرباء والأنترنيت التي تنسج حول الأرض غشاء رقيقا حيا بدونه أي حياة للبشر.

فجأة تحتلّ بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مربع يستعدّ لاعتداء مميت على هؤلاء البشر يذكرنا بأن الكوكب هو المههد واللحد.

تحتي أكبر رحم لا ينفكّ عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس. تحتي أيضا أكبر مقبرة لا ترفض منذ ملايين السنين جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة.

فهذا الكوكب كائن حيّ يحمل، يلد، يغدّي ثم يوارى في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده!

أغرب ما فيه أنه لم يكن مقدّرا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود رغم كل ما مرّ به من محن ومن امتحانات.

يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار! كم من مفترقات طريق، من فرص جاءت بها

الصدف، جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي!

كم شهد من انفجارات براكين، من زلازل من أنهار سالت وجفت، من صحار تمددت ثم اخضرت! كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنّت هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!

كم تتابعت وانقرضت على سطحه في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية كلها تتبارى غرابة وإعجازا! كم من بشريات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار! كم من ديانا، كم من حضارات، كم من امبراطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر، ثم ستختفي!

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشريات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا المسرح أبوابه نهائيا وقد انتهت كل العروض! طال الزمان أو قصر ستنتهي كل القصة باحتضار سيحوّل هذه الأرض الى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس! لحسن الحظ ما زال أمام هذا الكوكب زمن طويل قبل استنفاد المعجزات التي سهرت على وجوده وبقائه.

تدرجيا يمحو السواد باقة الألوان.

يرسم النور بقع ضوء لكبرى مضارب الأدميين. في هذا الجزء من الكوكب الذي داهمه الظلام، نصف البشرية مضطجعة في أسرتها ترتحل داخل أحلامها وكوابيسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في أوج الصراع مع ما نسميه الواقع... إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

يتحول الانتباه تدرجيا من التركيز على الكوكب إلى الفضاء اللامتناهي الذي يسبح فيه، من الزمردة الزرقاء إلى علبة الدمقس السوداء التي وضعت فيها.

علبة! نعم بحجم كون لا غير.

تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو في الواقع مثل صحار مترامية الأطراف رملها كواكب ونجوم وكتبانها مجرّات لا تعد ولا تحصى.

كأنّ الفنان الأعظم جعل من هذا الفضاء الحسي الذي لا حدود له معرضا دائما للوحات تذهب العقل. أي لوحات يمكن أن تضاهي في روعتها، أناقتها تلك التي تنقلها لنا عدسات تلسكوب " هوبل " و" جيمس واب "؟

الانبهار والرعب أمام مشهد لا يستنفذه كلام أكان سجعا أو شعرا .

كم غريب أن يثير الجمالُ فينا إن فاق حدًا، شعورا يقارب الألم!

والآن هل بقي لمفهوم الطريق معنى هنا وهو كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟ حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات التي أصبحت مستعصية على كل حساب؟ ماذا لو واصل مساره هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفص عن ظهره آخر راكب. لكن إلى أين؟ ... إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟

ليواصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي من أبعد نقطة أو صلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجرّات ... هناك في ركن متناهي الصغر من المكان ولقبس من الزمان بالكاد يُدرك بين غمضة عين وانتباهتها... في هذه الصحاري المترامية الأطراف التي تتوسع بسرعة جنونية في كل اتجاه، توجد حبة الرمل التي نعيش فيها قصصنا المترابطة ببعضها البعض والمترابطة بكل القصص التي أولدتها ... كما هو الحال في الدمى الروسية ثمة قصة هذا الكون اللامتناهي بما يحتوي من عوالم لا تحصى ولا تعد... داخل قصة الكون قصة العالم الذي تبلورت فيه بكل مكوناته من بشر وحجر، بكل ما فيه من بني حرية وآل ثبات... داخل قصة العالم قصة الآدمية التي شاء حظي العاثر أو حسن طالعي أن اعايش صراعاتها داخلها ومع العالم... داخل قصة الآدمية قصتي التي تشبه في ثوابتها كل قصص الآدميين منذ وجدوا ولا تشبه في التفاصيل داخل التفاصيل أي قصة من قصصهم ... حقا لا أنفه من قصتنا بمقياس شساعة الكون والزمان ، لكن هل ثمة أهم من قصتنا هذه بمقياس الآن وهنا؟

جيران الوجود

كم سمعت هذا السؤال السخيف حتى من أذكي المرتحلين : هل نحن البشر وحدنا في هذا الكون اللامتناهي ؟

إنه سؤال بغباء ذلك الذي يلقيه على نفسه شخص محشور في عربة مترو أوقات الذروة : هل أنا الكائن الحيّ الوحيد الذي يسكن هذه المدينة المترامية الأطراف ؟ تأتيني دوريا صورة الآدميين، بكثرتهم ومشاكلهم المقرفة ، كحائط شاهق يحجب عني الكائنات الحية الأخرى التي تقاسمنا الكوكب وتجربة الوجود . تأتيني دوريا رغبة عارمة في تسلق هذا الحائط ووضعه خلفي لأطول فترة ممكنة لتأمل ما يحجبه عني.

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعد ليوم لن يكون كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحمية أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.

أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا تحملنا هي الأخرى كل المسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميتها الكبرى؟

- رجاء، لا تخلق لنا مشاكل مع قوّى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة هذا اليوم وفي مثل هذا المكان.
يهمس الرجل العبوس: رجاء، لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.

يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة الأخيرة التي جنّنا نتطّقل عليها في عقرب دارها.

ثمة في هذه المحمية شيء ما يجعلها مثل رجوع صدى عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء... كم أنا محظوظ أنني لحقت بها قبل أن تصبح هي الأخرى أثرا بعد عين.

أهمس بعد قرابة ساعة من المشي في أذن رفيقتي:
- أيّاً كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقا في لقائنا. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم أوفي الأصدقاء.

- نعم، كيف لا تتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل الرياضي الذي يسمونه الصيد أو للتجارة في لحمها؟

الفيلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركّز قبل ألفي سنة في البراري التي جئتُ منها؟ لكنّ بشرًا اسمهم الرومان قرّروا أن تكون تلهية الشعب أساسُ السياسة، فبنّوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانًا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين -نعم الملايين- من الفيلة والأسود والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلق "بزنس" كامل كان يدبّر الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئًا فشيئًا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوغّلون فيها جيلًا بعد جيل هربًا من الوحوش الحقيقيين... هذه المحمية في طرف القارة الأسفل الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها وما نحن نأتيهم دون دعوة ونريدهم في استقبالنا.

تمدّ لي رفيقتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام. الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.

- لا أرى شيئًا.

- دقق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟

الحقيقة أنني لم أر من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام.

ينبّهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.

- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدّها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.

نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مركّز على شجيرات قزمة متناثرة على جانبي الطريق.

تحدّق في مرافقتي ثم تسألني لا تخفي سخريتها.

-ماذا تفعل؟ تشمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!

- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّراً على عجزتي عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب. تهزّ المرأة كتفيها لتتكفئ على أفكار لا تفصح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟
يردّ الرجل متحرّجاً:

- المحمية غنية بالخمسة الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحياناً وحشاً واحداً طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الآدميون... أي جنس حيّ فيه جلاّدون غير جنسكم؟ ... لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبة وشتيمة؟ ... بنو حرية لمن نسميها الحيوانات وآل ثبات بصوت متهيب لتسمية الأشجار.
فجأة يتسّمّر الدليل مشيراً إلى مُبهم ما:

- سيّدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئاً.

- دقّق النظر يا سيّدي!

- في ماذا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

- أه، تقصد هذا الخطّ.

- إمضاء فهد. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون هرولة.

تختفي رغبتي في ملاقاتة السكّان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء.

نعود إلى المشي والطريقُ يتوغّل بين أعشابٍ تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعداً المشي ورائي فقط. ممنوع منعا باتاً دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توفّقاً فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمّ هنا سبعٌ سائحة متهورّة.

المسكينة أكلت قبل أن تستكمل رحلتها... لم يسعفها الحظّ بأن يتأخر وقت أكلها إلى لحظة تسليم جسدها كبقية البشر إلى الذباب الأزرق والدود والجراثيم.

أهمس في أذن امرأة متزايدة التوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حاد.
- كن جدياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.

- وهل المدن التي جئنا منها حقاً جدّ مختلفة عن هذا الغاب؟
يأمر الدليل بالصمت ثم يسعفنا باستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.
نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوعه بملل متزايد يشوبه قلق هو الآخر يتزايد بمرور الدقائق.

توجهه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بداهةً ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشرات التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحجّ قلبك على الآدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. نحن -على الأقل- خلقنا على هامش معاركنا "الصليب الأحمر" ناهيك عن كوننا لا نلتهم أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرّزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن يجهل المتبلّدون قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصاً هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرّزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطاً، شجاعة، تضحية وعملاً دؤوباً لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوماً؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرقّ والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أمره على

أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل. تهزّ مرافقتي كتفيها تخالني أمزح.

يرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا أقفال أزرار سرواله.

تبادره المرأة المتزايدة نفاذ الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.

- افترض -بعد الشّر عنك- أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعا. كيف كنا نخرج من هذه الأحرش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق دورية البحث. اسمحي لي بأن أردّد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحرش بلا بندقية وخارطة ودليل محض انتحار. آسف، بالنسبة لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أقترح على مرافقتي رفع الحرج فلا تستفزع الفكرة.

- أديري لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لشرطة الأخلاق هنا.

نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ منقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المجتّح؟ ... إلى من توجّه بالتهديد أو بالغزل؟ ... ترى كيف تشعر وتفكر كل هذه الكائنات وهل ثمة بينها فلاسفة تساءلوا هم أيضا ماذا يفعلون في هذا العالم؟

أفبق على همس صارخ للدليل:

- انظر هناك! تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.

- هناك، هناك!!

- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع.

أثر آخر سينمجي قريبا... هو والآثار التي تركتها كلّ الكائنات على الطريق.

- لا يا سيّدي إنه لوحيد قرن. لنتبه، قد لا يكون بعيدا.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة وُجِدَت يوما...

-أرجو أن حراس المحمية لا يغفلون عن حمايته من القتلة ...

- لا تقلق يا سيدي كلنا مجندون لحماية ما بقي من هذه الحيوانات المسكينة.

فسّر لهذه الحيوانات التي تتفادانا خوفا من موت صاعق مُدوّياً من بعيد أننا كائنات تقتلها برخصة من نفسها وتسيّر دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها من القتل غير المرخص فيه.

يعود الدليل للهمس في اذني:

- سيّدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات أخرى للحيوان. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.

انتباه متحفّز ثمنه توتّر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
فجأة يتوقف الدليل مشيراً إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

- نقترّب لنرى بوضوح.

- يا سيّدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقي في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.

يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا ويمثل هذا الحجم!

- يا سيّدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى امبالا، والمتوسطة الحجم وتسمّى نيالا، والضخمة وتسمّى كودو. ما رأيت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

ينگس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لساني، ماذا لو ضيعتني في هذه الأعراس؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا. أعود لاستفزاز رفيقة السفرة:

- كيف لا تتوارى الحيوانات عن الأنظار ترتجف رعبا وقد شممت من بعيد روائحنا المخيفة. برّبك هل ثمة على سطح هذا الكوكب وحوش غيرنا؟

ألم تخالجك الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتقرّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرأة تتبرج وصوريتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها الذكر إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لسْتُ العفريّة التي تصف بالنسبة إلى كلبني وأني لو متُ غدا لحمل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك ستُقيم المآذب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجرائم والفيروس، خاصة القمل ونحن مصدر قوّته الوحيد.

كم من آدمي ينتبه لكونه عالما بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعدّ ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها! ... كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

تُفضّل المرأة المرهقة عدم التعليق خاصة والدليل يتوجه إلينا لا يخفي مزاجه.

- آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خرا وصياح منكر لأشباح.

هذه المسكينة لم تتعلّم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

"لا هدف ولا وجهة.

يغنم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة"

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحرش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدف جنباً لجنب.

-أي حصيلة بأئسة! سيادتك غير متأسف بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.
-بالعكس أنا جدّ مسرور بحصيلة يومي. لا تكفين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعيناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف من قتل.

- هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأسد؟

- استحضري أيضاً ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفراً لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبّان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا قبل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّني بالدوار.

- انتبهي أيضاً لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدّثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكلّ هذه الأشجار التي تحفّت بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الرياح في حرك... انتبهي ل... أشباح الأوائل ... كل الأوائل الذين مرّوا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكلمون بإشارة.

- لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوسي السريّة تغنيني عن كل ضجيج.

تتنهد رفيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغيبي يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألدّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائي بالادعاء أنك طبّاخ ماهر.

- ذكّرني، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشّي باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تميّز إنائها بصيغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوي أكثر من بقية الكائنات.

تعود رفيقة السفرّة المثيرة لما تظنه مزحا.

- كفي، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك... لا تفتحي جروح طفل ذبحوا واكلوا يوما أمامه أعزّ أصدقائه.

تسترجع الذاكرة مشهد طفل في سنته الرابعة أو الخامسة يفتح عينيّ الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، ودبعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّله كما لو كان له الأب والأم. وفي هذا الملفّ المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يسمح سكينه في منديل أبيض هادئا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمرّقها إربا إربا.

ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلّمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفي الآن، تعال اجلس بيننا، لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لرجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفّ عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

صوت الأم: يا بني هوّن عليك، إنه مجرد... إنه كبش العيد نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الآدمي

المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها. تهزني مرافقتي من كتفي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمل رؤية اللحم النيئ.
- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سري كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلقة في واجهة دكاكين الجزائرين.
تغنم مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش -كما هو الحال في أغلب سجالات البشر- صراع بالكلمات بديلا عن الصراع بالكلمات.
- خاصة إذا تكدّس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحَقُّ لي أنا وحدي. أواصل.
هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزائرين ببلدك وببلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أمّ أو أخ أو أب.
تقاطعني امرأة تفتعل الاستنكار وهمها الوحيد أن اواصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.
- إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية من أمثاله وأمثالك.
- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزائر والشواء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذتُ بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور ممتعة لقطيع من الآدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزائر، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضحك نعجة ويغازلها.

- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل آدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديدمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح!

تضحك رقيقة الطريق إلى أن يملكها السعال. أغتنم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الآدميين طبعاً). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلقة في الهواء ميتة -أو هذا ما يتمناه لها المرء- وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجرّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندقق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزائريين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.

على فكرة هل انتهت يوما لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحذائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح.

لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال -يقتل الأول ويموت الثاني- يحفّ بهما وقارّ الصمت. أما عند الآدميين فيرفع القتل عقيرته بعويل يجمّد الدم في الشرايين والقاتل يصبح كالمجنون بسخافات من نوع يحيا الامبراطور أو يحيا الوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات- أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدّعون؟ أليس العكس هو الصحيح؟

- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟

- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصدّ بنا الكوابيس على الضقة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكي)"

والقرد ينزول إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

*

من الغد توقظني رفيقة السفر:

- يكفي ما نمت. انهض، إنه الفجر.

يا لسحر هذه اللحظة من الزمان! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا.

- عن أي نوم تتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

نزدر فطور الصباح لننطلق مجدداً بحثاً عن أصحاب الآثار الذين يعدنا الدليل إنهم سيتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.

ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

فجأة يتوقّف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألتفتُ إلى المرأة فإذا بها باسمّة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجدل:

- وصلنا في الوقت المناسب....

- أنتِ، أمّا أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أتكون رأيّتها وترفض الاعتراف؟ فاجأئك أكثر من مرّة تخلع نظاراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة آسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

بعد مرور أكثر من ساعة تهزّ المرأة كتفيها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أَمَلْنَا الأَخِيرَ فِي الكَسَالَى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يَغْطُونَ في النوم. كَأَنِّي أَسْمَعُ صرَاحَ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيثربون كل الترفة وسيادتك تغطّ في النوم. آه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تغني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإخبارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمالاً صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البدرية!

يضع الدليل مجدداً إصبعه على شفقيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمية.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول. تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تثبتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطف على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سارة. فجأة تتواجه زرافتان فيتقاطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نباتا في اتجاهين معاكسين. ثم تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، الحوار الذي لا يتوقف مع هذا الذي لا أعرف له اسما أو صفة.

لست إلا عجوزا خرف يردد نفس الأفكار منذ ملايين السنين... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال والأوان وتغيير المقاييس... هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ ... مثلا عالم بلاكواسر وطرائد ومع هذا لا يختل له توازن.

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يتوجّه إليها الدليل بنبرة من نَفد صبره من الأبلهين:

- يا سيّدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

آكلة أو مأكولة، كلها كائنات مسكينة لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لو تمنعت هي في مصيرنا، لما وجدت نحسدنا عليه... في أعماق البحار، في البراري، في الأعراس وفي أعالي السماء، يعتمر الخوف والجوع أحشاء كل الحيوانات الحرة... في الاسطبلات والمراعي تنتظر الحيوانات الأسيرة برعب صامت لحظة الذبح والخنق... لا أحد يعرف كيف هو الخوف عند الأشجار وهي تتعرض منذ آلاف السنين لأكبر عملية إبادة جماعية يشهدها هذا الكوكب... هذا عالم لا يرخي قبضته لحظة على أي من الكائنات الحية والويل لمن لا يقاوم لا همّ له إلا البقاء أطول فترة ممكنة.

توجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

- هل انتهيت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغيّر المرأة الموضوع مجرّبة المنح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- العياذ بالله. أفصّل صورتني أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعيثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصّد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبهاها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قزرت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البندقيات عليها.

يلتقط الذهن الشارد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقًا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- ققط هنا في الأعراس؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقًا، إنها حيوانات عجيبة جديرة بالاحترام الذي تحظى به عند الجميع. الدليل كم صرخوا فيّ يا كلب يا ابن الكلب لكن لا أحد شتمني صارخا يا ققط يا ابن الققط. صدق من قال الكلاب لها سادة أما الققط فلها خدم. تهزّ مرافقتي كتفيها.

- ققط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لطراوة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك ققط جائع من ققط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، آه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجففه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تتكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرت إنائنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهم يعرفونه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسمر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجتو مرافقتي على ركبتها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- آه طبعاً رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتفطن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحرش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- بريء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر توزّع بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و...الحرج. هل كنت تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الآدميين، وأن له تقريبا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميقة؟

على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.

تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهني صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون اصطادته حسب رأيه لبؤة ماهرة لا أسد كسول خلافا لما يعتقد أغلب السياح.

الصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل... ثمة صيد الأسد للغزال، من ثوابته تربص المفترس وانقضاضه الخاطف، سرعة وأناقاة مروعة الفريسة، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيعة للمأكل أو بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد...النموذج الثاني صيد تتين الكومودو لثور راقد في الوحل يكتفي بعضبة واحدة تتسبب له في جرح بسيط لكنها تحقنه بسّم بطيء المفعول... لا يبقى على التنين إلا ملاحقة ضحيته أحيانا لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضة

يحقنه بمزيد من السمّ إلى أن تخور قوى الثور فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف مميت نصف حي... صيد الأدمي للأدمي مزيج من تكتيك الأسد ومن استراتيجيا الكومودو.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريبا منا لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني آوى. حتى هنا كانت يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين. فجأة تتحرّك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر. يهمس الدليل: لا تهتمّا، مجرّد خصومة قردة الشمبازي.

أهمس في أذن مرافقتي:

- على أيّ شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز، على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟

لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج بين هؤلاء القرده على الأغصان.

تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكّر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: البونوبو. يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتزعهها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي منهما، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- على الأقلّ نحن نستطيع أن نضحك من أنفسنا، أليس هذا أحسن دليل على أننا أرقى مخلوقات الله؟

- لا أرقى ولا بطيخ. لسنا إلا حيوانات من بين كل الحيوانات والدليل كثرة القواسم المشتركة.

نحن نتشارك مع السباع في ضراوة الدفاع عن قطعة أرض نريد كل خيراتها لنا وحدنا، الفارق أنهم يرسمون حدود أرضهم برائحة البول على أشجار معينة ونرسم حدود الوطن المفدى بالأسلاك الشائكة وكاميرات التعرف على الوجوه في المطارات... نحن نتقاسم مع الذئاب تقنيات الصيد جماعيا الفارق بيننا وبينهم حجم المجموعة التي تخرج لأكل ما هو أضعف... نحن نتشارك مع النمل في تنظيم الغارات الحربية التي لا تبقى ولا تذر على الجيران لسرقة ما يملكون أو لاستعبادهم، الفارق أنه ليس لهم إلا أجسادهم كسلاح ونحن نستطيع القاء القنابل الذرية من السماء... نحن نتقاسم مع بني عمومنا الشمبانزي الصراع على السلطة الفارق بيننا وبينهم أنهم لا يرفعون صورة الزعيم الأوحده الفائزة في تصفيات القتل بين المتنافسين... نحن نتشارك معهم أيضا في الصراع على الأنثى...

-رحمك بالآدميين المساكين، أترك لهم شيئا يمتازون به.

-حتى لا نظلم أنفسنا نحن نتشارك أيضا مع الثعالب والكلاب والقطط والفهود والأسود في حب صغارنا وفرح اللعب والتهريج معهم.

-آه، أخيرا تعترف لنا بشيء إيجابي. ما نسيته أو تناسيته أن حيواناتك التي تمجد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبر على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر لثتهم صيدا ما زال يبيض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثم من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الآدميين؟

- من قال لك إنني ضد كلليل الآدميين أو إنني متعاطف مع كلليل الكائنات غير الآدمية؟ أبغض -دون حرج أو عقدة ذنب- الذباب والبعوض وكل هذه الهوام التي أطلقتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. رأييت أفبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الآدمي الجديد -بالمقارنة- آية في الجمال. والجراد، من أي مختلة مريضة خرج كائن كهذا؟

تضحك المرأة ضحكة صفراء ثم تلتجئ إلى صمت غاضب والتجئ إلى صمت حائر:

ماذا لو كانت كل الكائنات من بني حرية أو آل ثبات مشاريع بحث يجرب عبرها باحث عبقرى كل إمكانات الخلق؟... آنذاك ما الذي يجرب في الآدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟ أنكون أنجح تجاربه أو أفضلها؟

سمر الليلة الثانية

في المخيم تعود مرافقتي للثرثرة، لا أصعب على الآدميين من التزام الصمت طويلا وهم جنباً إلى جنب.

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قلتها وصغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديتما أدنى اهتمام بها والحال أنها أجدر بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عبثاً.
- يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصية فيك تتعهد بها بكثير من العناية.

ثم تهزّ كتفيها غير مصدقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجتث فنحن صرح من الغباء الصارخ في تعدي على صرح من الذكاء الصامت.

يوم مشيئاً وراء نخلة مقتلعة لحينها، وجزار البلدية البطيء الحامل لجنتها يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.

يجب مواصلة زعزعة قناعات تمنع هذه المرأة الذكية من تجدد الانتباه.

- برّبك هل يوجد على سطح هذا الكوكب كائنات مثل الأشجار كل النفع منها ولا يحسب لها ضرر واحد.

- صحيح أنها وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لولا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفس وبالتالي لما وجدنا.

- آه بدأت تليّنين موقفك، ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تدمر النيران تسعة أعشار " جسدها " وإنما تتجدد كلياً بينما يكفي أن يدمر المرض عضواً واحداً من الجسد الآدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصناً جديداً على عكس الآدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبته به قبلته؟

- يذكرني كلامك بشجرة اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة.

- عشرة آلاف سنة! ونحن كم نعيش؟ ومع هذا ندعي أننا الكائنات المفضلة عند الله.

تضحك المرأة ضحكة صفراء. مواصلة ما يشبه عملية غسل الدماغ، لكن بنية الانارة ليس التزليل.

-بربّك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدرات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.

-إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حال.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفّي القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! ربّك هل في الآدميين ما يُعبد؟

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعا عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي -هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنّت الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقلاء مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا" لن تفتّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن"

هذه المرأة والكثيرون من أمثالها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة يحتفون بالأشجار متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجذوعها وأغصانها وأوراقها.

تعود المرأة لممازحتي:

- قل لي قبل أن أقبّل بهذا الدين الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا وأنا في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحرّاس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُتقطع الأنفاس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب- على الكائن غير الآدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

- تدبر أمرك لخطب ودّ آلهة الهندوس حتى تبعث في حياتك المقبلة شجرة ...

نعم لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكوياء، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شرابي تتدقّ عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محمّيا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرّد، يتسلّقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطمع من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو آمل شيئا... صلب، لتين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح والفراش والنحل رسل أشواق... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل، منتبه، شارذ الدهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلعثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

تلتزم مرافقتي الصمت وكأنها تفكر في منافع أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير موضوع الخصام المفتعل.

- لننس أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغمضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسلية ورقيقة كتلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الآدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احكِ لي مثلا

عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.

- ليس لنا دبة في الصحراء، اللهم إلا إذا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.

- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.

تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة، بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك.

كان يا مكان في واحة نائية، فلاح عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كان جديّ لا يملك غير حوش متداع وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجهم الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقننتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعْتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أذقته إياه من أصناف التعسّف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.

- هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئتُ؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّي- فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدّي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطان عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبيّ الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرب من العين،

والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، ستبكييني. لا تصوّرك تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحديثيني عن النساء! آه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حميرٍ يُحضّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الآذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الحمير حمار مثل حماري! آه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقي فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك أحسن "سويت" في القسم المخصص للحمير في فسيح جنانه. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من حكماء الآدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الآدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازى في الشرّ اسمه الآدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! الحيوانات لها روح!؟

- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الآدميين. على فكرة ألا تعرفين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسل...هل كنا نتعلّم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناءة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاةً وفرسانا لولا مُطّهم الخيل؟... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقودة، ونحن نحاول تقليد هيبة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد...أما نحن أحفادهم الأغبياء فنستغلها دون حياء أو عقدة ذنب أو نضعها في الأفقاص في سجون نسميها حدائق الحيوانات.

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق سنينا في نفس البيت قلت: لم لا أشتري حمارا أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيرا عرفتُ ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكّلف المشقة فبلدي يعجُّ بالحمبر، بل منهم من تبوّأ أرقى المناصب.

- ذكّرتني بذلك الأرسطراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنت ستفعل بحمار بظال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحني. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي أخطار الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيدس؟ ماذا لو تفضّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإفناع مواطنيك برؤاك دوما معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحت معدومة ونصف.

- خاصة مع قرية الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ديدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهمّ، تخليتُ عن المشروع برمته ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسّدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق في الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط

حمازه أواصرُ نَسب بحمير الجنوب وربما -لم لا-بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون - هكذا بمجرّد الصدفة دائما-من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بداية لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الآدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجذباء التي حُكم عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام من حيّ يكرهني، من مدينة تبغضني، من بلد أنا فيه منذ ولادتي الخائن ابن الخائن، الملاحق ابن الملاحق، الغريب ابن الغريب. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أواصل الطريق هربا من الكوكب برمته. تصوريبي على عنتر الثاني متسكعا بين المجرّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، شاعر يتأمل معجبا، متعجبا، منبها ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّدي، لا خصم ينافسي، لا نصير يبتزّي، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب بروجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تنحج بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمح بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوي هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الآدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبوني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلّما تذكّرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعا لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها...ذلك الجلد الأعجوبة... ذلك

الجهاز المناعي العبقري... تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الآدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلّب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين!

حفنة من الدنانير قيمته تعقيدٍ مخيف يكتشفه الباحث، فاغرا فمه من التعجب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تُكلف الملايين، ويقول لي هذا الآدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين ديناراً!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند. لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر. تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعاً قديمة.

- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غباء تكلفنا أخطار هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغتمي، غداً يوم آخر سنرى أخيراً الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غداً يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة. تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الآدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديداً:

Go home، Go home،Go home !!!

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعاً إلى الضفة الأخرى من هذا العالم لربما تلاقي فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.

أي نوم في هذا الضجيج؟ آه يا صمت صحرائي الغالية! يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلاً لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.

آه نسيت أن الليل وطن نصف الأجناس الحية التي تقاسمنا هذا الكوكب، أنها تنتظر غروب الشمس كما تنتظر شروقها لتخرج من أوكارها وأعشاشها ومغاراتها تواصل هي

الأخرى رحلتها في عالم وَّزَع زمن التمتع به والمخاطرة فيه بالعدل والقسطاس : النهار لكائنات لا تجد طريقها إلا والنور هو الدليل والليل لكائنات لا صديق لها أئمن من الظلام.

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ كل كائنات النهار والليل مفهوما. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوَّغها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة تصرخ بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القاتل.

فوق الساحة الكبرى يواصل المؤلف والممثل والمخرج العمل على أدوار تتزايد تعقيدا هو الذي يجرب منذ الأزل بكل ما يلبس من اشكال كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة، كيف يتوزَّع في الطريدة وفي الصيد، كيف يعطي للطريدة كل حظوظها ولا يبخل على الصيد بحظوظه هو؟

*

النهار الأخير - بنفس الحصاد من الغبار والفراغ والحرّ - وأجمل ما فيه نهايته. تبادلني مرافقتي بنبرة غاضبة وكأنني المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن تلتقط لها الصور.

- سيادتك تفتعل عدم الاهتمام لكن اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدا، ما يؤسفني عدد الذين يتجولون هنا في عرباتهم شبه المصفحة يقيسون نجاح رحلتهم بعدد الحيوانات التي التقطوا صورها. كأن هذا المكان بالنسبة لهم حديقة حيوانات أكبر من التي يزورونها وسط المدن الكبرى. ربما هم على حق. محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. نعم قد تكون هذه المحمية سجن كبير أو بانتوستان للحيوانات، لا غير.

- بانتوستان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه بانتوستان كان في الواقع حديقة حيوانات آدمية؟

- بالضبط والقاسم المشترك في الحالتين الجهل والاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانيه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البائس في طريقنا غياب الاحترام.

- تبالغ، تبالغ...

- آخر بانتوستان حيواني صغير زُرُّهُ مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غنّاء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك المحتشد المتحصّر وفي ذلك البلد المتقدم- كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شَرطي! أتذكّر جيدا أحد السجناء. كان كلب بحر، جُوعَ عمدا، يرمي له المروّضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفالُ حول المسيح يصقّقون له فيقلّدهم سجين الحرب يتسوّل غداء مُنع بالقوّة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وحوادٍ مخصّي على المشي إلى الورا.

- واصل افراغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض... الألم، نعم أشعر بك موجوعا.

- برافو إذن أنت منتبهة لمزاج غير مزاجك... معك حق... يومها وقفتُ طويلا أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريلا"-طبعًا بنكهة احتقار الأدميين لما عداهم من حيوانات-وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب. يومها تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و" الشيء" بما لا يدع مجالًا للشك يحدّق فيّ يسألني: عرفتي، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يومها حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها... لا عليك...

- وفي الأخير انصرفت مُضيفًا إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجَدَت في حدائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة آمنة لا يتهدّد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم نقرّر أنه بعد الغاء رَقّ البشر حان الوقت لإلغاء رَقّ الحيوان... يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف ومصيرنا واحد.... يومها سيصبح الآدمي إنسانا.

نعم، نحن حيوانات كبقية الحيوانات تتحكم فينا نفس الجينات الأساسية ونفس الهرمونات، ما الذي يعطينا عليها إذن كل هذا السلطان؟ ألا تحتاج الحيوانات

والأشجار حتى تتطور من حالة إلى حالة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر باللغة نقل تجاربنا وتطوير إمكانيات جنسنا والزمن المطلوب يحسب بالقرون وأحياناً بالعقود لا أكثر؟ الكتابة؟ هل تكون هي السر؟ عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعليّ.

-على فكرة لماذا لا نفتح سجون الآدميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل ستمكّن مداخيلها -بعد خصم رشاوي الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلاً. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحاً منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيتدافعون للضحك على السجناء ورميهم من وراء القضبان بالحجارة وبالبدور. تضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

سمر ليلة الرحيل

داخل المخيم تصرّ المرأة المرهقة على مواصلة الحديث. أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تنتظم أفكارى، وترتخي أعصابى، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق؟ ها أنا أترنم بصوت خافت بأغنية صاحبت طفولتي وشبابي لحنها موسيقار ألمعي وكتب كلماتها شاعر نسي ظلماً:

عندما ما يأتي المساء، ونجوم الليل تُنثر (محمد أبو الوفا)

إسألوا الليل عن نجمي، متى نجمي يظهر

عندما تبدو النجوم في السماء، مثل اللآلئ

إسألوا هل من حبيبٍ، عنده علمٌ بحالي

كَلِّمًا وَجَّهْتُ عَيْنِي نَحْوَ لَمَّاحِ المَحْيَا

لم أجد في الأفق نجماً واحداً يرنو إليّ

تقطع عليّ مرافقتي تدفق ذكريات ماض فيه ككل ماضي أحلى وأفزع الذكريات:

- في ماذا تفكّر؟

- في ضرورة اقتصار النهار على غروب الشمس وشروقها ، على بداية المساء وأولى تباشير الفجر. برّيك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غبّية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبّري الانقلابات؟

- بما أنك دخلت في تنظيم الزمان على هواك، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بالسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد لا فهو محمّل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلّص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرّفة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بالكذب ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحّرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. ألن يكون زمنا رائعا طهرناه من كل وقت مضبّع للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟

- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقلّ التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة" والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المئة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراء الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصيلّة. تصوّري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادئا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. دقيقة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكّل بها الآدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للآدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.

-ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.

الفيروسات! في مستقبل ما زال بعيدا عن هذه الليلة صور مُدُنْ مطوّقة بالجنود ممنوع دخولها أو الخروج منها، أخبار عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون

مدعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة، عن شوارع مقفرة، عن اغلاق
جل مطارات العالم، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن أعداد مهولة من الموتى
يدفنون في مقابر جماعية تحفرها على عجل أضخم البلدوزرات، عن جوّ غير مسبوق
من الهلع يسيطر على البشرية جمعاء... السبب فيروس اسمه كورونا حصد عبر العالم
أكثر من خمسة وعشرين مليون ضحية... معطيات وأحداث تدّكر أن الأدمي هو دوما
الصيد المرعب والطريدة المرعوبة وأن هذا العالم خلافا لما يتوهم ليس لا ملكه ولا
هو فيه الأقوى.

تتهدّ مرافقتي تقطع عليّ تفكير مضطرب.

-المهم أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة أكانت من الفيروسات أو من الفيلة بعيدة عني
هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن
يتهاوى.

- سفسطة كالتي تجيد.

-اسمعي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة
أدت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف
المختصون أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المذمومة التي اسمها الجوارح والتي
تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة ونبل الصيد مثل النسور والصقور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ستّ الكلّ أن الهندوس لا يأكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك
في العراء فتقتات منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح
نتيجة تسمّمها بكل ما ننتج من مواد كيماوية بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق
تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات والجراثيم فانتشرت هذه الجراثيم في الماء
والهواء والترية ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح لكل كم كان البشر يدينون
بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى
مستشفياتهم؟

-لا لكنهم سارعوا لسنّ قوانين لحماية حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهايار عالمنا.

تبتسم مرافقتي وكل ملامحها تفضح تأثرا تريد اخفاه.

- افترض أننا... انقراضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العدل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعد لنا أديم الأرض ليكون حاضنة الحياة.

تهرش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اختفت من نبرة كلامها كل سخرية. -أصدقني القول...هل ترى أننا سنجد حلا؟ ... هذه الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر الحرائق الجبارة، عن تفاقم موجات الجفاف القاتل، عن تزايد عدد الفيضانات الرهيبة، عن الغابات التي تتلاشى، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة، عن أطنان البلاستيك في البحر!!!...شيء مخيف حقا.

قانونان خرجت عليهما الآدمية تدفع اليوم ثمنهما الباهظ ... الأول: كل الاجناس الحية شبكة علاقات بالغة التعقيد والدقة ووجودها مرتبط ببعضها البعض، لذلك يمنع على أي جنس التغول بالنمو المفرط او إفناء أي جنس آخر بأي وسيلة كانت وإلا وجب التخلص منه لتستعيد الشبكة توازنها...الثاني: الآدمي ليس كائننا فوق وخارج ما يسميها الطبيعة هو جزء منها وإليها يرجع وعليه الالتزام بإرادتها التي تبقى دوما فوق إرادته، لا التصرف فيها كخزان لحاجياته...السؤال هل بقي وقت للتدراك بعد دفع أولى الفواتير أم هل اتسع الخرق على الراقق؟

تهزني مرافقتي من مرفقي لأعود إليها.

- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس. ثم ماذا عن حقّي ككل الآدميين في "كوتا" من التناقضات؟

- تجاوزت هذه "الكوتا" بكثير. لكن هذا موضوع آخر، هات ما عندك من آراء وسأختار منها الذي يتماشى مع ما اعتقد.كّلي آذان صاغية...

-نحن ضيوف غير مؤدبين، دخلنا بيت الضيافة فأخذنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج ونتبول على الزرابي ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله. هل تعلمين أن الغابات تتعرض لأكبر إبادة جماعية في تاريخ الحياة على هذا الكوكب وأن صناعة الأثاث مثلا تغتال شجرة كل ثانيتين والحبل على الجرار ؟ من يتذكر أو يهتم بأننا نضحي كل يوم بعشرات الملايين من البقر والغنم والدجاج ؟ ورغم تكرار إنذارات المضيف ترانا نواصل حماقاتنا لذلك ربما أخذ قراره بطردنا في أسرع وقت. المشكلة أن العالم المسكين مواجه بخيارين أحلاهما مرّ وقد أصبح بقاء البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.

-كيف؟ فسّر.

-توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلا بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطيئة الانفجار تبتّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترو، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلا لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكرهٌ أخاك لا بطل." هذا ما يؤدي بي للرأي الثاني.

-قل وعليك الأمان.

-هذا العالم مرّ بألف أزمة وأزمة وسيجد حلاً لأزمته الكبيرة معنا لذلك لا خوف لا علينا ولا عليه...على الأقل على الأمد المتوسط والطويل.

تتنهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.

- والآن بجدّ، بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستندارك حتما خطأ عدم استشارتك.

- لسْتُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيت في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الآدميين يضحكون ممّا يبكيهم وي يكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقمّوا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة علينا.

- أفصّل سماع مثل هذا الكلام خاصة من عدو للبشرية مثلك.

آن الأوان للعودة إلى الهزل والى مواضيع أقلّ ايلاما.

- هل تتزوّجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المئة من الرجال الذين لا يضرّيون نساءهم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المئة من النساء اللواتي يضرّين أزواجهنّ، ثم هل ستقدر على مهري؟

-كم؟

- مئة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- يا للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة يتيمة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن أَلْمَع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدك بقائمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبية والأفواس وفلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفن أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كُثْر يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أنتاجهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية لمن ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقته.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمنكن كان الدافع لظهور الصناعة والتجارة الفلغنى بالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون...

- فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات آكلة البيتزا وآكلة السوشي وآكلة الهامبرجر وآكلة جناح القرش.

- يا الله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنبت البلدية. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا.

- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رنة فخر كاذب وتأثر مفتعل- تحزّر المرأة. هل لاحظت أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شعلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-قُل، من واجب الشغل- ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة

بين الجنسين." سنتكشفين آنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرر الذكر من ثمنها المشطّ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا ناهيك عن كل أخطار اختطافها. لَمَّا حَظَبْتُ أُمَّ تَفَاحَةَ وَتَفِيحَهُ، كُنْتُ لَا أَمْلِكُ شُرُوءَ نَقِيرٍ وَمَعَ هَذَا أَعْطَانِي الرَّجُلَ الطَّيِّبَ ابْنَتَهُ لِأَنَّهُ كَانَ تَقَدُّمِيَا كَمَا كُنَّا نَقُولُ تِلْكَ الْأَيَّامَ، بَلْ وَدَفَعَ فَاتُورَةَ الْغَدَاءِ الْعَائِلِي الَّذِي كَانَ احْتِفَالِ الزَّفَافِ الْوَحِيدِ. أُنْثَى بِالْمَجَانِ وَأَبُوهَا هُوَ الَّذِي يَدْفَعُ تَكَالِيفَ الْحَفْلِ! عِنْدِي شَعُورٌ مُبْهَمٌ أَنَّ الْأَوَائِلَ سِيرْكَضُونَ وَرَائِي هَذِهِ اللَّيْلَةُ فِي فِضَاءِ الْأَحْلَامِ وَأَنَّ أَحَدَهُمْ سِيْمَسْكَ وَيَشْبَعْنِي ضَرْبًا بِجَزْمَتِهِ.

- سَلِّمْ عَلَيْهِ مِنْ طَرَفِي وَبَلِّغْهُ تَضَامِنِي وَتَشْجِيعِي.

- كَلِّ مَا أْتَمَنَاهُ أَنْ يَتَوَاصَلَ التَّقَدُّمُ فِي هَذَا الْمَجَالِ. تَخَيَّلِي لَوْ وَصَلَ الْمَشْرُوعَ الذَّكُورِي غَايَتَهُ فِي عَصْرِنَا هَذَا. كُنْتُ سِتَاتَيْنِ أَنْتَ لَخَطْبَتِي مِنْ "مَا". قَدْ تَخَيَّرْتُ بَيْنَ مِئَةِ نَاقَةٍ بِيضَاءٍ أَوْ السَّخْرَةَ لَدَيْهَا لِعَشْرِينَ سَنَةً. كُنْتُ أَنْصَحُكِ بِالْعُرْضِ الْأَخِيرِ بَدَلَ جَمْعِ ثَمَنِ النُّوقِ سَنِينَ بَعِيدَا عَنِّي. الْوَالِدَةُ امْرَأَةٌ طَيِّبَةٌ لَنْ تَضْرِبَكَ إِلَّا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَسَنَقْتَنَصُ كَثِيرًا مِنْ لِحْظَاتِ الْحُبِّ وَرَاءَ ظَهْرِهَا. بَعْدَ نَهَايَةِ الْعَقْدِ تَأْخِذِينِي عِنْدَ أُمِّكَ مَعَ بَقِيَّةِ الْعَفْشِ، لَكِنْ ائْتَبِهِي، لَنْ أَقْبَلَ أَنْ تَضْرِبِينِي فَأَنَا مِنْ سَلَالَةِ عَلَيْسَةَ وَالْجَازِيَّةِ وَعَزِيْزَةَ عَثْمَانَةَ. نَعَمْ أَيْنَ فِي النَّاسِ جَدَّاتٌ مِثْلَ جَدَّاتِي!

تَصَرَّرَ رَفِيقَةُ هَذَا الْمَقْطَعِ مِنَ الطَّرِيقِ عَلَى الْعُودَةِ لِلْمَوَاضِيعِ الْجَدِيدَةِ وَكُلُّ هَمِي الْهَرَبِ مِنْهَا.

- هَذِهِ آخِرُ لَيْلَةٍ لَنَا مَعًا، هَلْ لَكَ أَنْ تَقُولَ لِي آخِرًا لِمَاذَا أَرَدْتَنِي أَنْ آتِي بِكَ إِلَى هَذِهِ الْمَحْمِيَّةِ؟

- جِئْتُ لِإِثْرَاءِ نَصِّ أَكْتَبَهُ مِنْذُ سَنِينَ عَنِ طَبِيعَةِ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي حَكَمَ عَلَيْنَا بِالْإِرْتِحَالِ فِيهِ وَهُوَ مَا يَتَطَلَّبُ أَنْ أَسْأَلَ سَكَانَ هَذَا الْمَكَانِ كَيْفَ هُوَ عِنْدَ الْغَزَالِ وَالْفَهْدِ وَالتَّمْسَاحِ وَبَنِي عُمُومَتِنَا الْمَتَّارِجِحِينَ عَلَى الْأَغْصَانِ.

- خَمْسَ دَقَائِقَ مِنَ الْجَدِّ لَا أَكْثَرَ.

- لَمْ أَكُنْ جَدِّيَا فِي حَيَاتِي أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ. نَعَمْ كَمْ بُوْدِي اسْتِكْشَافَ كَيْفَ هُوَ بَعْيُونَ الدَّلَافِينَ وَالْفَرَاشَ وَالتُّورَسَ، كَيْفَ هِيَ صُورُهُ دَاخِلَ ذَهْنِ الْفِيلِ وَالنَّمْرِ، كَيْفَ هِيَ الطَّبِيعَةُ عِنْدَمَا يَنْظُرُ لَهَا النَّسْرُ مِنَ الْقَمَمِ الشَّمَاءِ بَعِينَهُ الَّتِي تُنَبِّئُ دَاخِلَهَا مَجْهَرٌ يَبْصُرُ أَدَقَّ التَّفَاصِيلِ. هَلْ كُنْتُ سَأَفْضَلُ عَالَمِ الْقَطِّ وَهُوَ عَلَى مَا يُقَالُ بِلُونِ الرَّمَادِ، أَوْ عَالَمِ الْكَلْبِ وَقَدْ اخْتَفَتْ مِنْهُ حَمْرَةُ الشَّفَقِ وَلَا وَجُودَ فِيهِ مِنَ الْأَلْوَانِ إِلَّا لَزْرَقَةُ السَّمَاءِ وَخَضْرَاءُ الْحَقُولِ؟ يَا نَاسَ، أُرِيدُ اسْتِكْشَافَ هَذِهِ الْعُوَالِمِ، حَالًا، الْآنَ، عَلَى وَجْهِ السَّرْعَةِ وَإِلَّا سَأَشْكُوكُمْ جَمِيعًا إِلَى "مَا".

من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟

-يا للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئاً.

-نعم محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمتنا، فمحزّمة إلى الأبد...

-وماذا أيضاً؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

-أقول لها أم أحتفظ برأي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفرة؟

أقول لها إنني جئت حاجاً لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منها الطريق جرياً وراء الطرائد والكأ إلى أن أوصلنا القمر... أن في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكّلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم... أن في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل القانون والتقاليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرائس بعضهم البعض... أن في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والراوي حول النار يرّد ملاحم كبار الصيادين...

- لم تردّ على سؤالتي.

- جئت أيضاً على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.

- جئت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات بريّة؟

- أين تريدني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتممّشون منه دون حياء وبشحاذين يتسوّلونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمتدينون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه... انظر للمولود الجديد وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتّح الوردة وستراه... انظر لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

"وَأَيُّ الْأَرْضِ تَخْلُو مِنْكَ حَتَّى (الحلاج)

تَعَالَوْا يَطْلُبُونَكَ فِي السَّمَاءِ

تَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ جَهْرًا

وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ مِنَ الْعَمَاءِ "

تحدّق في مرافقتي وكأنها تراني بعد طول غياب.

- آه، أخيرا عرفت بأي دين تدين.

ديني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

عَقَدَ الْخَلَائِقُ فِي الْإِلَهِ عَقَائِدًا / وَأَنَا إِعْتَقَدْتُ جَمِيعَ مَا عَقَدُوهُ (الحلاج)

فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبتها فأرفع صوتي.

- ألم نتفق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكامٍ إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة.

فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد.

كلنا ننتظر خيرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة من الإدارة العامة لشؤون الكون تقول لي أنني حققت

بنجاح المهمة التي كلفت بها ومن ثمة تهانيها الحارة.

- ولم تصل لحد الآن! يا عيب الشؤم.

- ستصل حتما يوما فأفتحها خافق القلب لأرخص طربا وأنا اقرأ ما فيها من أخبار رائعة

تتجاوز كل أحلامي لا يهم أنني كتبتها بخط يدي ومزيفا امضاء الله.

- وفي الانتظار، جئت إلى هنا لعلك ...؟

- جئت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء ... معجزة لا

أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة

شيئا لا توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- عشية وصولي هرعت لهذه الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكع عند امرأة

في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء.

كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما

انتبهت لوجودي حدقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلم: أنتشيري

مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت

دون تردّد: ليكن. التقطت المرأة الغربية بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض

الأعشاب المحترقة. مدّت لي الكلّ في خرقه قدرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف

الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكّة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل

السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدّت لي المرأة الغربية حجيراتا وبعض العشب

المحترق أطالت النظر إلي... تلك اللحظة شعرت بأنه "هو لا غير" الذي يبتسم لي عبر

عينها.

-انتبه، بدأت أغير.

تضحك مرافقتي ثم تهزّ كتفيها. مؤكّد أنها ستكتشف يوماً أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي تودّعني عند باب المطار.

ثم تستعيد جدّيتها.

- تُدكّرني بجدّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد. أنت طولَ الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله معبّدك. والآن كفى تهزّبا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمي وأدمية وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.

-نعم... ونحن نتبوّل في الهواء الطلق طبقاً لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حرجك وأنا أكتم ضحكي.

الأشياء

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم مخاوف المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت ومكان الميعاد.

تبتّ في ساحة المدينة شبه المقفرة قلقا مبهما. هذا ماؤ ربما يدلّني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمّى "ليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد الصعوبة تغيّر المكانة لا تغيّر المكان.

بغرابة سحتي وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك داخلها أعرق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيدي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطّبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

-سيدي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلّيني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

-أنت ماصري؟ ماصر كويس، أنا أهبّ أهرام كثير، ماذا أنت تسأل؟

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- آه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذّة هذه المرأة الطيبة.

تخيلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهد هامسة لنفسها: آمين.

أخيرا النزول في ابتداله وشبهه بكل الأماكن المخصّصة لإيواء الأعراب، وأيضا في محاولة الإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتهت أن الأماكن الآدمية، سُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الآدميين انصبّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرّون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قَصِرَ مزركش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بأجمل الأثاث وبما يتكفون من أموال طائلة لتزيين كل ركن فيه.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتمائيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!

يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، بقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها، ثم بسيارة لدفعه أخيرا داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟ ألا يجب أن نلعن وسائل النقل العصرية التي اخترعناها لتسهّل علينا متاعب السفر فألغت أيضا مُتعتة!

ماذا تصرخ في أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

لا يبقى عليّ إلا إلقاء نظرة خاطفة على الغرفة العادية التي أدنوا لي بسكنائها. طبعا لم ينسوا أن يضعوا فيها بَرّادا زاخرا بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدقّعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

آه، يجب أيضا تعديل المكثيف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة. لا بل يجب اغلاقه حتى لا يزعجني ضجيجه وأنا عازم على النوم باكرا لأكون جاهزا لطقوس المؤتمر "الهام" الذي سألقي فيه محاضرة " مهمة" وسط حشد حافل من الناس " المهمين".

كم ندجّل على بعضنا البعض وخاصة على ممّولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهئ ويكافئ نفسه داخل حلقاته الضيقة، والعالم في طفرته لا منتبه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. نعم، آن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددتُ به عبثا كل السلطات ودعوتُ إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟

أست القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر! ربما سيتبعني بعض نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، ثم المدينة، ولم لا العالم بأسره؟

هكذا ستفريق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوء مريبا في شوارع أقفرت وبيوت أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم السلطات المجهولة على تغيير جذري في سياساتها غير المفهومة في التعامل معنا.

ليبدأ إذن الاضراب التاريخي صباح الغد.

على باب الغرفة والمعنيّ بالأمر العالم كله وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح -لافتة "عدم الإزعاج". على الطاولة حذو الفراش لافتة "ممنوع الكوابيس".

مباشرة عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي كامل هذا اليوم التاريخي؟

لم لا النسج على منوال ذلك الأرسقراطي الفرنسي المدعوّ دوماستر الذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوما في غرفته عقابا على وقوفه في وجه الثورة، فقرر أن يشغل وقته باستكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟

كم كان الرجل محققاً في سخريته من كل المغامرين الذين صدّعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم، أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرف البيت وحديقته إن غالينا في التهور!

"معرفة العالم دون تجاوز الباب (لاوتسو)

إدراك طريق السماء دون النظر من النافذة

لا حاجة لعاقل للسفر"

بيني وبينك كيف تجاسر هذا الدعيّ على سبقي بقرنين بفكرة عبقرية كهذه أنا الذي حلمت بالسبق والتجديد الجذري في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه لا أسطو على أشياء وأفكار ونساء الآخرين إلا إذا كنت واثقا مئة في المئة من عدم اكتشاف أمري... وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول عند قرّاء لغة موليار فما بالك عند قرّاء لغة الضاد... وحيث أنه لا خوف اذن من ناقد مغرض يفضحني في كل مواقع التخاصم الاجتماعي... فإنني قررت أن أنسب الفكرة لنفسى .

إذن عزيزي القارئ -عزيزتي القارئة- هذا أول نص في تاريخ أدب الرحلات يروى رحلة الهدف منها ليس استكشاف الأتساع وإنما الضيق، ليس البحث عن الآدميين وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما اهمالها جملة وتفصيلا.

لجمع مادة التدوين لهذه "اللارحلة" التي ستمشي بذكرها الركبان، ليكن الانطلاق من استكشاف غرفة الحمام ووصف كل ما فيها: دشّ، ستار، مناشف، مرآة، حنفية، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، معجون أسنان، كوب ماء....

أوف! لا شيء مفاجئ، أو غريب، أو مثير للانتباه أو الحيرة. بالضبط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

المرور الآن لاستكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها.

رائع، لا شيء فيها يحرك داخلي رهبة أو خشوع أو انبهار أو تقزز أو رعب.

يتوقّف البصر مطوّلا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا موقف الأريستقراطي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث، بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن الفراش يعلو عليها قدرا وقيمة وهو الذي نقضي فيه جزءا كبيرا من زمن وجودنا في هذا العالم.

اللجنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب- أكثر من ربع ساعة، وذلك الآدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا!

كم من مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (لكسر الرقم القياسي على الأقل بيوم واحد)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزّل يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطيّب المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية؟

فكرة صاحبنا إذن ليست بالعبقرية التي تصورتها.

لأعبيدها إليه بكل تعقّف، فأنا ككل آدمي نزيه لا أسرق أبدا ما ليس له قيمة أو ما لست بأدنى حاجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أنتبه لإناء موضوع على الرفّ مبهّر بلمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي مثل سرّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز... الشيء الذي استفزّ طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي نقّب عن المادة العجيبة التي تصنع منه كم من مغامرين... الشيء الذي حمل منه أشباه العبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار لإيصاله للسفن التي تنتظره على أحرّ من الجمر... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة غرق منهم الكثير وغرقت معه أثمان بضاعة تلك العصور: البورسلين.

كيف فاتني إذن لحدّ الآن الانتباه لأهمية الأشياء ودورها المخفي في رحلتنا؟

كل هذا الكلام عن خروج الآدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال والدعوة للدين القويم هراء في هراء... جل من غادروا حزن نساءهم كان بسبب جشعهم للملح والشاي والقهوة والسكر واللبن والعمود والتوابل والبورسلين والذهب والبتروول، يبحثون عنها في كل فج عميق لا يهمهم أن يكون الثمن القتل والموت... لماذا نعتزف بالحقيقة أن الذين فتحوا لنا كل الطرقات في العالم هم غزاة النهب والسلب ثم التجار والمتسولون؟

*

ها قد أتضح أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فادح في تقريره هذا.

حتى لا يشوّش عليّ أحد اعتكافي يجب التأكّد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الواجهة الصحيحة على الباب الخارجي، وأن باب الغرفة محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض المفضوح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببرد؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثم جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهلٌ فهذا الذي نشير إليه صنيع وطُورٌ وحُسْنٌ على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سري للغاية"، كل هذا خوفا من قلة أدب وفضول الآدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعا.

الوظيفة الأساسية لشيئك هذا بما لا يدع مجالاً للشك إذن هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرّفْع المؤقت للإغلاق- فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تَسهُل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وآخر لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظّم لكل ما تنغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الرصد الأولي مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان إيليا أبو ماضي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، علبة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أن آكله كله بما أن أيّا من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ آه ثمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دورا أخطر من هذا الشيء في رحلة الآدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب ومنها أبواب السلطة، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكزّمهم، هو الذي يذلّمهم. هو الذي

يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعزّي كل قبحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربّهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.

أرعي بقرف غير مفتعل قطع النقد على السرير. آه السرير!

بصراحة من منّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوقّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أواصل حافيا"

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع هذا الشيء النفيس له حدّا. لا غرابة أن يكون من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمّل الطريق لولا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلصق بالمسكين. كم نُظهر للأشياء من عقوق أفظع ما فيه لامبالاة، هي أفسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات!

تدهمني صور عشرات الأحذية التي أبليتُها على الطريق وتخلصتُ منها رميا في الزبالة لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص وتحضرني اشكالية لم أفكر فيها من قبل: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلا كيف نقرّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفرادا وشعوبا لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبقات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفاً بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه فلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل مفاخرا العوام... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

يجب التكفير عن غباي أنا الذي عشت على قناعة أن للوحة الجوكوند قيمة أكبر من قيمة حذائي الأخير.

ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحبه من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القدّاس. يا له من منظر مهيب والادمي المعترف بالجميل أخيرا ينظّف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لإبسه. كيف سيمكنتي بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة حشر قديمي داخله خوفا عليه من روائحها ومن العفس على أوساخ الطريق. لكن كيف سأواصل هذا الطريق اللعين حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخر الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟

نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء.

أذكرُ أنني فتّشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطاء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.

على السرير أيضا البيجاما وقميصان وجوارب وبدلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء التي نسميها الثياب.

من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جدّ بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى الجثث يزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغانم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدّر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الآدميين -خاصة الإناث- من ينتبهون أكثر، لكنني أشكّ أنهم يُظهرون لها من الامتنان أكثر ممّا يظهر نحن الذكور.

فالثياب دوما مجرّد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء، أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة قدرة، أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. من أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وظواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمة أوادم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرّد منديل، مثل المدعوّة هرتا مولر التي تستأهل جائزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

"هل لديك منديل؟" سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقتنعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداع نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطي وجهه بمنديله. كيف سأنجاس مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني من خرّ صريع الموت؟ "

ها أنا مجبر بعد قراءة هذا النص على النظر لمنديلي بحذر.

من هنا فصاعداً إن أُصِبتُ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أُصِيب؟ لكن ما تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يدي لأننا كائنات لا تحترم بشراً أو شجراً أو حيواناً ولا حتى منديلا.

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

كما هو الحال ثمة دوماً استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمة أيضاً ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يداً إليها؟

لا يجب أن ننسى حبّ الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموماً على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تُصالح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وشاردان وزوباران ورودان وبربارا هبورث وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها ونحتها، حتى لا نقول في التعبد لها.

يقطع عليّ تفكيري رنين مطّول غير عابئ على ما يبدو بكل ما أصرّ على إظهاره تجاهه من علامات اللامبالاة المفتعلة والنفور الصادق.

بصراحة إذا كانت هناك قائمة لأبغض الأشياء فهذا الشيء هو على رأسها دون منازع ولأسباب ليس فيها أدنى ظلم أو تجيّي.

تحضرنى قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الآدمية بالسراح الشّرطي وبالعفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعدّبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عانيت منهم كثيراً، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان منذ نعومة أظفاري وما يزال إلى اليوم أكبر مصدر إزعاج في عالم لا تنقصه المنغصات.

في بعض أقدم ملقّات الذاكرة التي يفرض فيها وجوده، تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى

بيت الناس الطبيين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مُطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".

لم تتغيّر العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود. يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا. تصرخ الممرضة في السماعة: الرجل يفرغ من دمه. عَجَل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عَجَل مريض آخر بصدد لفظ أنفاسه. لو كان تنكيل هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلقُ الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمنا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضّل عدم رفعه. يلبخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوما نفس الشيء السمج الحامل لنفس الأخبار السيئة أيا كانت مكانتك في أسفل درجات السلم أو في اعلاها.

يخاطبني المستشار الإعلامي بكل أدب: سيّدي، هجمات حاقدة في صحف المرترقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم.

أغلق الشيء وأهزّ كنفّي: معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحق لا يدمر إلا الحقود والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟

يرنّ الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: آسف سيّدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتنقبض عضلات الحلق وتتسارع دقات القلب!

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكرهه وأنداك الويل لك منها.

غريب أمر هذا الجوال، إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطيا ما. أقلّبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدّق أن الأمر ليس منه.

هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والفكر والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء رنّ وعليك الأمان. لم يبق أمام صمته المطبق غير أن أطلب نفسي. ما عليّ إلا طلبها من التلفون القارّ. آه هذا صوتي: "شكرا على ترك رسالة".

طيب لنترك رسالة بعد وضع منديل على فمي ليصعب عليّ التعرف على صوتي، أما فحواها فالغرف ممّا يردده "المعجبون" في صفحات التباعض الاجتماعي: ياطرطور، يا مجنون، يا سكّير، يا إسلامي، يا ملحد، يا خائن، يا عميل...

لم يبق إلا انتظار الردّ لا يهم أن تشتمني ذاتي بما شتمتها وأكثر.

تمضي الساعات والأيام ولا حياة لمن تنادي. من اين لي لوم الآخرين على نسياني وذاتي نفسها نستني؟

ثمّة ما أخطر من صمت جوّالي. إنه الرنين اللعين لهذا الشيء الذي أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الشيء- تماديا في جريمته النكراء- صغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ-وقريبا كل طفل-عل حمله معه لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفطيع في الحافلة والقطار والمترو، في المقاهي، في المطاعم، في المكتبات وحتى بيوت العبادة.

انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدوني أن أعني بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكة هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

مؤكّد أن هناك من سيوصون بدفن جوالهم معهم مواصلةً لعادة مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين الجوال يتصاعد من القبور بمختلف أنغامه البشعة من تكبير ونوتات كبرى الأعمال الموسيقية وجمل أغان هابطة. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحه تحسبا لكل الاحتمالات بحشو أذنيّ بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت رنينه كما أزعجني في الحياة.

أقولها متحملا كامل مسؤولياتي أن هذا الشيء الذي يسمونه النقال هو اليوم أخطر ادمان يتعاطاه الجميع تحت أعين البوليس وهذا البوليس لا يحرك ساكنا لأنه هو نفسه من كبار المدمنين.

تقول يا رجل كفى تجنيا وسوء نية على أهم ابتكار للبشر بعد النار والابرة والمحراث والمطبعة. هل بقدره حدائك الذي صدّعت رؤوسنا بمحاسنه أن يعطيك أكثر من

"حذائته"؟ لكن أنظر يا ناكر الجميل كم من وظائف يضطلع بها الجوال! ضع على الطاولة هاتفك الأسود القديم وبجنبه آلة تصويرك المضحكة ثم أضف مسجلك التي تزن عشرة كيلوغرام وبجانبيها الآلة الكاتبة التي كنت تمضي عليها لياليك تزعج زوجتك بضرباتها المتقطعة ولا تنسى جهاز الراديو البالي والتلفزيون الجديد الذي اشتريته مؤخراً وأضف كل ما في مكتبك من كتب. اجمع وظائف كل هذه الأدوات وستجدها كلها مضمونة في هذا الشيء الذي لم تعد قادراً مثل بقية العوام على العيش بدونه. اعترف، كم من مرة في اليوم تستشير به بخصوص هذه المعلومة أو تلك تأتمر بأوامره، وتتخذ الطريق الذي يرسم لك.

لم تسعفي قريحتي الشعرية الجذباء لمدحه إلا ببيت أعرج سرقت بعض كلماته من شاعر بالغ حسن الظنّ في المعلمين والمتعلمين:

قم للجوّال وقه التبجيل ألم نصبح كلنا للّعين عبدا

ألمي الآن وقد وقّيت الشيء كل حقّه من التقدير ألا يرّ من هنا فصاعداً إلا بالأخبار السارة التي طال انتظاري لها.

الانتظار! على فكرة كم الساعة الآن، كم مرّ من وقت على بداية الاضراب العظيم؟

الساعة! كيف فاتني أن هذا الشيء قد يكون أخطر حتى من الجوال.

ساعتي موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة مصباح أسلطها عليها كما تعلّمت من المحققين في الأقبية المظلمة.

يجب أن يكون الاستجواب مهنياً وصارماً. تتدافع الأسئلة وكلها تهم واضحة أو مخفية. كيف تتجاسرين على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو مثل تيار نهر لا فواصل فيه؟

ثم أي زمان تقيسين؟ زمان الأحقاب الجيولوجية؟ زمان الحضارات؟ زمان الدول؟ زمان الأنظمة السياسية؟ الزمان المتسارع لجريح ينزف في غرفة العمليات أم الزمن الذي لا يتحرك لسجين الزنانات الانفرادية؟

أخيراً، من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا آدمي توقّف هرمه وهو يكسّر ساعته.

بعد الاستجواب، لائحة الاتهام علماً وأن الحكم جاهز سلفاً.

"وحيث أن هذه الساعة تمارس علينا ضغطاً متواصلاً بحجة الوصول في الموعد فإرضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنائزات على وقتنا...

وحيث أنها ترفض -شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند الجوال...

وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان عندما تتعطلّ أنها تكذب في ادعائها تمثيله
ونيابته...

وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا
تنفكّ عن دفع الزمان قُدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء...
"ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليلٍ؟"

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو
فاجأتك ساعتك برقم واضح لا لبس فيه.

يرنّ هاتف النزل مغتنما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه
يستطيع أن يرنّ ولا مجيب إلى يوم القيامة.

يغتنم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجنب قبل التسرع بالحكم
تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الآدميين
ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الآدمي
لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة،
وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة
بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة
أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.

يجب العودة لقراءة الحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعى عليها، وحيث أن
عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدّي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء
المحتاجين للإسراع به، فإننا حَكَمنا على الشيء المائل أمامنا بالجنون المؤبّد.

كيف يمكن للساعات أن تُجَنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن
العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيئها الميكانيكية
الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة
وتلقائية. والآن لَخَبِطَ تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-2-4-5-
7-8-9-11-10-. تأمل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل
الوقت الذي سربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها
أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل
إلى بيتك مرهقا تمني نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب

الأسنان الذي غادرته منذ ساعتين وعندما تحتجّ يذهبك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولاً لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.

تقول انتقام رخيص سهل وسحري من الزمان لأنه يتسارع بك لباب الخروج النهائي. وهو كذلك.

أين القلم أمضي به الحكم أوأصل به انتقامي الفارغ من كل مضمون؟ آه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفاحه وصيبي!

أين الورقة البيضاء؟ آه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.
أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبت؟

آه النظارات! كم من مرّة أسرت الأم في أذن الطفل المتهوّر، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفّ عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئاً بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولاها لعبرتُ عالماً ضبابه خارجي أكثف من ضبابه داخلي.

الأشياء من كماليات الرحلة وظيفتها سدّ بعض نواقص المرتحلين وتسهيل بعض الصعوبات أمامهم؟ كم بعيد عن الحقيقة والانصاف مثل هذا التصوّر الساذج والشائع عند أغلب المرتحلين.

بديهي أنه لولا هذه الأشياء لما ذهبنا بعيداً، فالآدمي، خلافاً للذب بفروه أو للنمر بأنبابه وأظافره، أفاق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أجبر على تشغيل دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها. ممّا يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوّقنا على بني حرية وآل ثبات وإنما العكس هو الصحيح.

كم كنت أفصّل أن أرتحل وتحت امرتي أشياء أكثر تطوراً، مثلاً نظارات تدقّق في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكارني ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل ويكي تكون لي جلداً ثانياً، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكنني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتف لا يرنّ وإن رنّ فليخبر سعيد.

اكتمل الجرد؟

آه كيف لم أنتبه للكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرّبي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيِّرَت عند الإفافة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فرديتي
حذاء سميك وبين كتاب طاو- تي -كنج أجمل هدايا "ح"!
بدأ النعاس يغلبني. آن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة.
فنجان القهوة! كأني أراه لأول مرّة وهو الذي صاحبني معظم حياتي.
الشيء الذي أتفحصه بأقصى الانتباه كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية
ولمسا وذوقًا. هو يُحدث صوتًا إذا ضربت جداره بالملعقة.
هل يخضع هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟
للتأكد من الأمر يجب دفعه إلى السقوط من الطاولة ولكي يطمئن قلبي يجب لمس كل
قطعه المتناثرة.

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت.

"على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالي

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوانٍ مهشمة

تنتظر البعث مثلنا"

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحاول الإفلات من الرصد.
أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئًا يضعه على مرعى
حجر، في الصدارة، في الواجهة؟

لا بدّ أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحًا للغاية وكثيفًا للغاية. طبعًا إنه
جهاز التبريد. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على
رأس القائمة.

ثمة أيضا هذا التلفزيون الذي لا ينفذ فيه مزيد من التجاهل. ترى ما الذي يحاول تقليده أو التلميح به للمنتهين من بني آدم؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها غير منتبهة لعيون تراقبها باستغراب أو استهجان أو بئس متعاطم؟ لو كان هذا الشيء حقًا ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعزيفا بأقدار الرجال، لما بخل عليّ على الأقل هذه الليلة بما تشناق اليه روجي: أخبار طيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتحه لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. ماذا؟ فيلم آخر عن حرب طروادة والاغريق يعث فيه مخرجو هوليوود بالإلياذة بعد تعديهم على كبرى روائع الأدب العالمي!

آه يا هوميروس، ما الذي نقصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا ومدن الأمبركتين معابد زوس بلدا من كنائس المسيح؟ ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أقمنون وافيجيني؟ لماذا سكنت قلوب وعقول كم من أمم مأساة الأم والابن لا مأساة البنات والأب؟ آه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال بعقريّة القديس بولس الذي عرف كيف يروج لديانته، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم! من الأفضل اسكات هذا الشيء التراث، اللهم إلا.... طول عمري وأنا ضحية الأخبار التي يحطم بها معنوياتي. لماذا لا أعلمه شغله هذا الجاهل؟

تبدأ المذيعه الجميله ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خريبر ماء السواقي: أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصي الموضوع صرح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين وافتروشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رّفّع المسافرين السواقي على الأكتاف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطفٍ غير مصطنع.

أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالاً أو طوفاناً. كذلك أكدت تقارير المنظمات الأممية الصادرة هذا الشهر أن كل الأطفال الذين وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحقونهم بكل ما يقدر عليه الآدميون من حب ومن عطف. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك.

والآن نمّر للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقورية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان.

أشفيت غليلي من هذا الشيء البشع. يمكنني الآن مواصلة البحث عن الأشياء المختلفة في صغرها البالغ؟

ثمة علبة الكبريت، هذه المشبكات لمنع الأوراق من التناثر هذا المسمار المسمى "بقعة".

ماذا أيضاً؟ يا لي من غبي وشكراً للخادمة على قلة عنايتها. كنت سأمرّ أمام أصغر شيء في هذه الغرفة. إنه الغبار الذي تسميه اللغة أيضاً "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور".

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقدّراً كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلق كلّ شكل ونهايته. ربما الأمر ليس سهواً وإنما جُبناً. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

فجأة يقطع عليّ تلاطم الأفكار والصور صوت آت من وراء نافذة الغرفة التي تجاهلت أنها مطلة على الشارع: بوق سيارة نافذه الصبر يسوقها آدمي متوتر ينهر سيارة أخرى ضايقته أوسكرانا قطع عليه الطريق.

كيف نسيت هذا الشيء الذي صاغ عالمنا المعاصر كما لم يصغه من قبل شيء آخر؟ هل ثمة شيء غير حياة البشر في هذا الجيل قدر السيارة وهي تسهّل حياة مئات الملايين وتتسبب لهم في اكرهات لا تحصى! كم انتهت فجأة من رحلة وحوادث الطرقات حسب الاحصائيات تحصد من الأرواح أكثر مما تحصده الحروب؟ كم من تبعات هائلة أخرى لظهورها كظهور المصانع الضخمة والشركات الضخمة والحروب الضخمة والانقلابات الرهيبة والسبب هذا الشيء المسمى بترول الذي كان ضرورياً لوظيفتها لا لوظائف الطبيعة بأسرها وهو السم الزعاف للبر للبحر وللسماء. لكن

هل كنا نعرف لولاها هذا النسيج الهائل من الطرقات التي تربط أجزاء العالم كما لم يحدث طوال تاريخه ؟

يصدق نفس الكلام عن أشياء من نفس الفصيل اسمها القطارات والباخرات والطائرات والصواريخ وكلها أعادت هي الأخرى هندسة الفضاء الحسي وخلق الجديد والمعقد من الأوضاع ، من القصص، من العلاقات بين البشر ، بينهم وبين العالم .

أي أشياء أخرى يمثل هذه الخطورة لم توضع بعد على قائمتي؟ الحاسوب طبعاً. كيف نسيتته أو قل تجاهلته وهو أول ما أخرجت ما حقيبتني؟ لا شك إنها حفيظتي ضده فمئذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع قطعة الشطرنج الواحدة تلو الأخرى على شاشته فتسقط كل مرة لتنتهي المباراة بسرعة مهينة.

دوما على الشاشة نفس الرسالة البائخة: أتريد اللعب من جديد؟ أوجب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمّي نفسه باستعادة كل ما خسر في الجولة الماضية. عبثاً، والرسالة دوما نفس الرسالة: كشّ مات.

اللعنة، هذا الحاسوب المكوّن من معادن بخسة أذكي مّي أنا ابن أينفّاس!
أعود للصراع بلا أمل كبير. وكل مرة نفس النتيجة المهينة.

الرابعة صباحاً. انظر كيف داهم الضباب عيني الشيء المسكين وكيف بدأت تختلط داخل ذهنه الأفكار. نعم لقد أرهقتُ هذا الحاسوب ومن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضته عليه. تصبح على خير يا ابن الكلب...عفوا يا ابن الآدمي.

نوم مضطرب تصرخ فيّ كائنات من معادن وأسلاك بأوامر غير مفهومة.

كوابيس عن فيروس لا يُقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض... انهيار شبكات الكهرباء وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والأفراد شلل جلّ دواليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وموت الناس داخل المصاعد

عند الصباح يُدقّ باب الغرفة بلطف لكن بإلحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماماً من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في " اللوي " كثيرٌ من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكراً على التفضّل بسرعة.

وكأنه ثمة اجماع على عدم تركي لحالي، يرنّ الشيء في جيبي. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأنتسى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضاً.

كيف الإفلات من الآدميين وهم يلاحقونك بحبهم وبكرهمهم في القرب وفي البعد، في المنام وفي اليقظة.

داخل قاعة المحاضرات يظنوني أدونّ بعناية كل أفكارهم الهامة والحال أنني مشغول بتفحص اكتشافات رحلتي القصيرة داخل غرفتي وما أوحى لي بأفكار قد تضيف شيئاً هاماً للتقرير النهائي.

ادرس تاريخ الأشياء وسترى أنه يتحرك وفق ثلاث مسارات: تزايد تعقيدها، تزايد تفوقها علينا -ومنها القدرة على ربح كل مباريات الشطرنج، تزايد تبعيتنا لها.

يا للتطور المذهل الذي لم تعرفه أي من الكيانات والكائنات التي تتزاحم على سطح هذا الكوكب. من علبة صفيح يصنعها حداد بدائي نضع داخلها بعض أموالنا الشرعية والمسروقة تطورت الأشياء إلى أرقى أنواع الحواسيب المصنوعة هي أيضاً من مواد بخسة لكننا نضع فيها اليوم زبدة الذكاء البشري. كم غريب أننا نجد كل ذكائنا لخلق أشياء لتكون أذكى منا ... ربما لنصبح يوماً أشياءً شيئاً!

أ نكون مجرد حلقة في سلسلة الأجناس الحية تقادمت ولم يعد لنا من مهمة غير فتح الطريق لمن سيرث عنا هذا العالم من كائنات من معادن وأسلاك تحقق من المعجزات ما لم تحققه الكائنات من اللحم والدم ؟

تحضري قصة من الخيال العلمي كتبت في ستينيات القرن الماضي تستبقي الأحداث وتقرأ المستقبل الرهيب الذي قد نعدّه للأجيال القادمة.

في هذه القصة يبني البشر أضخم حاسوب ويشحنونه بكل ما أنتج العقل البشري وبكل تقنيات مواصلة الخلق والابداع في كل المجالات. يوم تدشين الإنجاز الأعظم في تاريخ البشرية تحلق العلماء والفلاسفة حوله وقد اتفقوا على أن يبدأ تشغيله بإلقاء السؤال الذي يقض مضجع البشرية مذ وجدت: هل ثمة في هذا الكون قوة جبارة تتحكم فيه، بعبارة أخرى هل الله موجود؟ جاء الردّ صاعقاً: نعم الرب موجود من هنا فصاعداً، إنه أنا لا غير. ترى كيف ستكون ديانات العشرة آلاف سنة المقبلة تعبداً لربّ خلقه البشر أنفسهم ليتسبب في انقراضهم؟ أي معتقدات وتعاليم ستخضع لها شعوب العالم من روبوتات وسيبورغ؟ أي طقوس وأي حفلات مقدسة سيتم إخراجها بكيفية تُخجل كل ما عرف هذا العالم من طقوس واحتفالات دينية عندما كانت الآدمية سيدة هذا العالم أو هكذا كانت تتوهم؟

من المؤسف أن طوماي لم يجد الوقت لكتابة مذكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا حقاً أوائلنا في حياتهم العادية وفي طبيعتهم ، ومن ثم هذه الشهادة المفصلة عن الآدميين احتراماً لحق هذه الكائنات التي سترث عنا العالم في معرفة من كانوا لها الأوائل والآلهة.

بنو سفر

"لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم باستمرار"
غابرييل غارسيا ماركيز

مقدّمة الكتاب الرابع

من صور رحلتنا في هذا العالم صورة سفينة تشق طريقها على سطح المحيط الأهوج والصراع على أشدّه بينها وبين الأنواء وداخلها بين بحارة يتعاونون للبقاء على قيد الحياة وفي نفس الوقت يتصارعون حول من يأكل على طاولة الربان، من يأكل من القمامة ومن يكون منهم المأكول إذا اقتضت ذلك الظروف.

في هكذا رحلة أنت مثل كريستوف كولومب وهو يكتشف فجأة أن سبر أغوار المئة وخمسة بخارا المتراصين على متن سفن "سانتا ماريا" و"بنتا" و"نينيا" أكثر أهمية والحاحا من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب لا شيء إلا للحفاظ على حياته ثم حسن استغلال من ارتبط مصيره بمصيرهم.

كيف لا أخصّص جزءا هاما من هذا التقرير عن الرحلة لرفاق السفر وهم -بغض النظر عما يشكون من خطر ومن إمكانيات الاستغلال- من يصنعون هذا العالم بحواسهم، بأفكارهم، بخيالهم وبسواعدهم وهم من يفتحون أو يغلقون في كل فضاءاته الطريق الذي تشقّ بكم من الصعوبات.

المشكلة أن سبر أغوار الأدميين أمرٌ غير هينٍ لجملة من الأسباب أسارع بعرضها للتنصّل من محدودية هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كثرة نواقصها. لمعرفتهم حق المعرفة ثمة التجربة المباشرة، لكنها محدودة بحكم استحالة معرفتهم واحدا واحدا.

ثمة شهاداتهم عن أنفسهم وعن الآخرين. لكنها محدودة بخبرة من يكتبون وحتى بنزاهتهم. كم من وقت ضائع للتخلص من الأكاذيب والشائعات والأحكام المسبقة التي يروونها عن أنفسهم وتوارثها عنهم جيلا بعد جيل فلا تزيد إلا في جهلنا وحيرتنا.

ثمة مراقبتهم في أماكن خاصة تبرز جزءا مُعيّنا من طبيعتهم كساحات المعارك، والمحاكم والمعابد والمواخير والمناجم والثكنات والسجون وبيوت التعذيب. الصعوبة الكبرى كثرة هذه الأماكن وقصر زمان الاستكشاف.

ثمة استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كلّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذكاراتها. تُرى هل كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدي على الأعراض؟

أخيرا. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكّنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة، من موقع لا يحتلّه إلا من تسميه اللغة الربّ. هيهات! القاعدة أنك لا تنظر

للآدميين، مثلما لا تنظر لباقي مظاهر الوجود إلا من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها تتأمل ذاتا عابرة أخرى أكثر غموضا وضياعا.

تبقى أكبر الصعوبات: استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدم المعلومات وليس الأحكام.

أي كلام موضوعي يمكن أن أقوله عن الآدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

بربك! ألا يسمّون حياتك إنانا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسيحا كلما أخذت دشا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ!

ألا يسمّون حياتك وهم رضع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل لمنعك من النوم ببكاء لا يتوقف ولسبب لا يعلمه أحد ولا حتى هم!

ألا يسمّون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي!

ألا يسمّون حياتك وهم مراهقون يكلفونك مصاريف تقصم الظهر أجره أطباء الأمراض الجلدية والنفسية!

ألا يسمّون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدج مغرورون جهلة!

ألا يسمّون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدرا!

ألا يسمّون حياتك وهم شيوخ يرتعشون ويهذون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لفرار السنين!

ألا يسمّون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الآدميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟! وكأنه لا يكفي أنهم أفسدوا عليك يومك يجب أن تدلو بدلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.

بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة واسطير نسجها خيال رعاة ماعز وابل يؤدّي التعرّض لها للوقوف أمام محاكم التفتيش بانتظار حرقك حيًا.

تقول مستنكرًا إنه موقف غير لائق بإنسان يدعي الاعتدال الموضوعية؟

تضيف: يا ناكر الجميل، أليس هؤلاء البشر الذين تذرّم هم من فتحوا لك الطريق، من أعطوك كل ما تحتاج، من علموك كلّ ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "ما" و"ح" و"تفاحة و تفيحة من هؤلاء الذين تقول إنهم ستموا حياة سيادتك؟

طبعًا، طبعًا يا هذا، معك نصف حقّ، لكن اعلم أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت إلى الآدميين بعين السخط أو بعين الرضى، النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. كل ما نجمّع عنهم بالأفكار وبالمشاعر صورهم في مرآة الذات لا غير. لهذا يمكن اعتبار مروّجي إمكانية الكلام عن البشر بصفة موضوعية مجرد فصل آخر من مسمّي الحياة.

المطلوب إذن من كل شهادة عن الآدميين الصدق لا الموضوعية. على اعتبار قدرتي على الالتزام طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا ما تراكم عنهم في ملفاتي وهذا كل ما أعرفه عنهم والصراع ضدّهم ولأجلهم في ذروته.

معطيات السطح

ثمة من قال بخصوصهم نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والباقية لا تثير فينا إلا اللامبالاة.

أقول للتصحيح نحبّ منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند مثل هذا المتبلّد إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ وذلك منذ الصغر فضولا عارما.

في بعض أقدم الملفات يشدّ الطفل طرف أمه وهو يخترق زحمة يوم سوق:

- "ما"، انظري، انظري، أنظري كم هي سميّنة هذه المرأة!

يفهم الطفل من التفات أمه يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.

- "ما"، تقولين دوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ متى سأكون طويلا مثل كل الرجال؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

- "ما"، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمه نبرة استحسان.

- أصبّت يا بتيّ، ولو أن هناك استثناءً سأحدّثك عنه يوما. والآن، توقّف وأمسك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر... على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه، على امرأة بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، على أحدب مضحك، على شاب مفتول العضلات، على عجوز تتكّ على عكاز، على وجه كأنّه حُفّر في خشب بيّ يسكّين، على وجه ثالث غطّته لحية كثيفة وعلى رأس شعر بلون سنابل القمح؟

ثم ينتبه أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كراسه وأفلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم شكل كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

ليسمح لي هنا بفتح القوسين للتأكيد على أهمية ما كُتِبَ أعلاه، إن لم يكن للقارئ المعاصر فللباحث بعد آلاف السنين في شكل الأوائِل. ألا يقال إنه من الممكن أننا سننقرض قريباً كما انقرضت قبلنا خمس أو ست بشريات لثرتنا الروبوتات والسيبورغ. أن يجد الباحث في شهادتي هذه ما يؤكد صحة الخرافات والأساطير عن شكل الأوائِل وقد قضت حروب كائنات مجرة العقرب على كل الوثائق المحفوظة على الأسطوانات ولم يبق إلا ما حفظته الكتب القديمة؟

المهم، بعد هذه الملاحظة القيّمة يمكنني العودة لسياق الحديث ووضع السؤال التالي في فم الطفل.

- "ما" هل هناك بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفيننا وجع رأس واحد.

- لكنني أريد لرسمي كثيراً من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجرّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضاً وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعاً بالرؤوس، تتدلّى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.

يكتشف الكهل يوماً أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبداً عن نفس اللعبة.

"كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال!" (بيكاسو).

مؤكد أنه لا وجود لبشر برأسين ولا بالأشكال التي رسمها بيكاسو، لكن هذا الطفل سيكتشف كم لهم من تنوعات تبعث فيه خليطاً من الإعجاب والتعجب: الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيق كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أغلى أنواع "الكيمونو" وكلّ "جايشا" لوحة فنية أجمل من الأخرى، الخُلُق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخفون قسماهم داخل أدغال من الشعر، الراسمون على جلدهم رسوماً أخذت أياماً طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

وراء هذه الاختلافات الصاخبة لكن السطحية ما أهم: تباين القسمات التي تعطي لكل واحد منهم طابعا شخصيا يميزه ويعرفه عن مئات الملايين الذين يشبهونه ولا يشبهونه والهاجس المشترك الذي سنعود اليه مرارا وتكرارا نصيب هذه القسمات من الجمال.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن يقيم!
ماذا الآن عن معطيات حاسة الشم؟

ذات ليلة يصرخ طفل في الرابعة أو الخامسة متوجّها إلى أمه وهي مضطجعة حذو أبيه.
- أف!، "ما" أخرجي الكلب بسرعة! الرائحة قبيحة لا أحبها.

كان في ضحكها المكتوم ونحنة "با" وتذكر الطفل آخر لحظة أن الكلب لا يشاطر العائلة غرفة النوم، ما يكفي ليفهم أنّ رب البيت-وربما حتى ربته-يضرط أو تضرط كما يضرط هو وتخرج منه أو منها، روائح كريهة كالتي تصدر منه.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دوي قنبلة تنفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال وأنا أدأوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب: غطيت الصوت بالسعال الملائم، ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟

لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.

بعض الملاحظات على الطائر.

لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثورات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. من المؤكد أن هذا سبب ولع الآدميين والإناث منهم على وجه الخصوص بالبخور والعطور يدفعون فيها من قديم الزمان أعلى ثمن. كان "الجدع" الذي يسمونه "الملك الشمس" نفسه نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبداً ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. تصوّر! كانوا يأخذون دشا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقرية والبسيطة والرخيصة التكليف إلى البشر إلا منذ قرابة مئة سنة فقط.

لله در البشر، يتجثون على الخنازير وقد عبروا جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا يتضوعون أفضع الروائح ثم يدعون أن الله استخلفهم على الكلاب والقطط والحال أن هذه الكائنات لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

البشر أكياس تُنتج باستمرار نفايات الروح والجسد؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك بأن تكون قمامة متجولة.

تخيّل لو أخطأت الهندسة العامة التي خلقتنا في حساباتها وأعطتنا أنفاً له مئة مرة طاقة هذا الذي ولدنا به.

قيل في الآدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأت التصميم لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبّر ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا؟ هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟

تخيّل فداحة الخطب لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة. ثم تخيل فداحة الخطب لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة.

قد نكون بصدد ملامسة أدق خصائص هذه الحاسة كما أرادت الهندسة العامة أي التقية . فمما يكتشفه المتطفلون من الباحثين على أسرار عمل الأنف أنه يسجل عن الآدميين معطيات ذات تبعات عملية هامة لكنها لا تصل أبداً مستوى الوعي . على سبيل المثال، ليس من باب الصدفة أن تعشق الإناث نوعاً من الرجال لأن هذا النوع يتضوع بروائح شهية توحى بوجود الكثير من الخصائص التي تعرّف الرجولة . كذلك ليس من باب الصدفة أن يعشق الذكور نوعاً من الإناث والقاسم المشترك بين أكثر من يثرن العشق والوله والصبابة روائح هرمونات الأستروجين التي تشي بأن المحبوبة قادرة على الحمل والولادة . يقولون أيضاً أن الصداقة نفسها تخضع لتبادل الروائح والدليل أنك لا تصافح غريباً إلا وحملت يدك لأنفك لتتأكد من رائحته وتماشيتها مع الروائح التي تثق بها . الأغرب من كل هذا أن لكل الحالات الحسية الشعورية التي يمر بها الآدمي رائحة خاصة . حتى الأمراض على ما يبدو لها روائح يمكن التمييز بينها . آه كم كنت أودّ أن يكون لي أنف لا يبخل عليّ بكل ما يسجل لأقول للمريض وصلبتي كل روائح قبل أن يفتح فمه آسف عندك سرطان رئة لكن اطمئن حتى مرض باركنسون ما زال هو الآخر في بدايته. تصوّر كل ما كنت أوقّر على رحلتي من مصاعب ومصائب لو كنت قادراً على استنشاق روائح الانتهازية والنفاق والخيانة التي تفوح بصمت من المتقربين والمتزلفين فأغدر بهم قبل أن يغدروا بي . آه لو كنت قادراً على التحكم في الروائح التي أبتّ ولو ببعض العشب لكي تركض الإناث ورائي الذكور أمامي؟

المشكلة التي تثيرها طريقة عمل حاسة الشمّ أنه من الممكن أن كل حواسنا تعمل بنفس الطريقة أي أننا لا نعي في تعاملنا مع الآدميين إلا بالزر القليل الضروري من المعطيات . قد يكون للهندسة العامة أسبابها . ربما اكتسبت قناعة من تجاربها الأولى

علينا أنه لو عرفنا كل شيء عن بعضنا البعض لأفنيينا بعضنا البعض حتى قبل أن نصنع لنا قصة في هذا العالم. السؤال الذي لن أحاول الردّ عليه : أي جديّة للحديث عن الآدميين وجزء من غرابتهم ممنوع على المعرفة لضوريات البقاء.

بخصوص معطيات السمع ، هي ليست أكثر رفقا بصورة الآدميين حيث لا يمكن القول إن ما يصدرونه من أصوات مثل الصراخ والبكاء والعيول والشخير والضرط والسعال وغرغرة الأمعاء والعطس والتثاؤب والتجشؤ يرفع من قيمتهم. حتى لا أكون ظالما، لهم أيضا أصوات تأتي بمتعة لا تضاهيها متعة كالتي تخرج من حناجر نساء اسمهن صلحة، فيروز، الأفيترجالد، لاتا منفشكار، سيزاري ايفورا أو استرلا مورنت. لا يمكنك آنذاك إلا أن تغفر للآدميين عموما وللإناث خصوصا كل ما سمّوا به حياتك.

يبقى أنني لن أذيع سرا ولن أتميز بسبق علمي قلّ نظيرخ إن قلت إن أهمّ ما في حاسة السمع دورها في رصد أهمّ أداة للتواصل بين الآدميين واثري وسيلة لجمع المعطيات عنهم : الكلام .

هم يتكلمون لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار لتعديل مزاجهم على مزاج بعضهم البعض... هم يتكلمون للقول للآخرين لا نمثّل خطرا عليكم فبادلونا التطمين بأحسن منه... هم يتكلمون -لتنسيق الصيد والحرب ... هم يتكلمون في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائهم وأحبابهم إلى مسالة طبيعة العالم والبشر ووجود الله من عدمه... هم يتكلمون لمجرد متعة الكلام عندما يكتشفون سحر الكلمات وهي تصفف بكيفية غير مألوفة يسمونها شعرا... هم يتكلمون في أسعد الأوقات يترصدون الكلام الذي يثير فيهم عاصفة الضحك لقا ينتبهوا فجأة لغرابة ما يقولون وما يفعلون.. .. قد يكون أهم ما في حاسة السمع ليس تسجيل أصوات وفحوى الكلام وإنما رصد نبرته وكم في الكلام من نبرات : نبرة الأم الحنون تمازح طفلها، نبرة العاشق الولهان يتغزل بحبيبته، نبرة الشرطي الناهي، نبرة العسكري الأمر، نبرة المتضرع عند الصلاة، نبرة الحزين الهامس ابان مراسم العزاء...

عن حاسة اللمس ليس لي إلا هذه الملاحظات السريعة.

يمكنك أن تقصّي ليلة كاملة تتلمّس جلد الحبيبة وشعرها أو تقبلها. لن تعرف ما تضمّر أكثر مما يعرفه عنك الطيّاب في الحمام أو المدلك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك.

المهم ألا يجرفك البحث عن المعطيات لما لا يحمد عقباه. مثلا يجب الحذر من لمس الآدميين وخاصة الآدميات دون اذن خاصة في مواضع حساسة. قد ينتهي الأمر بك في مخفر الشرطة.

طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لَمَا تنغلق اليد على اليد التأكد من أنها خالية من السلاح. شخصيا أحاول استخراج بعض المعطيات الإضافية عن حالة الآدمي الذي يضغط على يدي. مثلا إذا كانت راحته ساخنة وبها عرق شديد فمعنى هذا أنني أمام آدمي مرتبك خائف أو يخفي عني سراً.

أخيرا معطيات الذوق وليس لي بالقول إن هذه الحاسة هي الأهم إطلاقا لمعرفة البشر وأنها أثرت بالمعلومات حتى من البصر.

هل من باب الصدفة أن الرضيع يحمل لفته كل جديد يكتشفه؟ أي صلة أقدم وأعمق من صلته بأمه والفم مطبق حول حلمة ثدي والحليب الدافئ الرقراق منه يسيل. أليست النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوق وابتلاع لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله؟ أليس أكمل وربما أقصر طريقة لمعرفة الآدمي... أكله؟

تقول ما هذا الهذر؟ انتظر حججي ثم خاصمني.

تذكر طقوس كهنة الأرتاك كما ترونها الكتب والأفلام وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنبض تقدّم إلى مادبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذة والخشوع.

تقول لكن سبب هذا الأكل لم يكن البحث العلمي وإنما طقوس دينية لوثنين كفار؟ بصراحة لست متأكدا من تبرير يمثل هذه البساطة. ثمة أكثر من ظروف نرى فيها الآدمي يلتهم الآدمي والحال أن كل أصناف المأكولات متوفرة ناهيك عن توفر الأضاحي الحيوانية غير المكلفة.

إذن لماذا كان نبلاء الأرتاك يغتتمون كل فرص الانتصار في حرب للتضحية بالسجناء كما نفعل بالخرفان؟ لا أظنهم كانوا يبحثون عن خصائص اللحم الآدمي وهل هو أطيب من لحم الدجاج الرومي أو حيوانات اللاما. ما أفترضه أنهم كانوا يبحثون عن القوة التي تحرك الآدميين وتعطيهم كل ما يمتلكون من صفات...وان هذا التوجه ليس حصرا على " البدائيين " و" المتوحشين".

قيل والعهد على المؤرخين إنه كان لقوم في منطقة متحضرة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمّى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان

جلالته يحمل على الدوام في جيبه قتيبة صغيرة من مسحوق اللحم الآدمي يمضغه متأنياً، يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فبعد قتل الآدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تترك الأجساد معلقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه ثنا باهظا. عادة تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجّهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

تقول عادات شعوب بدائية وحضارة الغرب المزعومة، أما نحن. نحن؟! عن الجاحظ، طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي عيّرت فيها قبائلنا بعضها البعض بأكل البشر.

وأنتم أكلتم سحفة بن محدم
زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
تداعوا له من بين خمس وأربع
وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد
وقال شاعر آخر:

عدمت نساء بعد رملة فائد
بني فقعس تأنيكم بأمان
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها
جلا في قدور بينكم وجفان
وأیضا:

أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم
كلبا فلا تجتروا بعدي على أحد
كما أكلتم خصاكم في بني أسد

هل كان أجدادنا يبحثون هم أيضا وراء طعم اللحم الآدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود غابة الأمازون ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الأكل وكذلك الملك المتحضر؟

لنتذكر أن أحد مشاهير الفلسفة اليونانية: ديوجان-المسمى بسقراط المجنون-كان لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تذوقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يمتزج الباحث والمبحوث فيه.

ترجعنا الظاهرة إلى إشكالية طبيعة المعرفة. إن هدفها ظاهريا إرضاء فضول غريزي فينا لكن هدفها الأبعد جعل هذه المعرفة أداة أساسية لتوسيع قدرة الذات وإحكام قبضتها على العالم والنقطة القصوى استملاك الشيء أي جعله جزءا لا يتجزأ من هذه الذات.

لهذا يمكن القول إن أكل الآدمي كان ولا يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. فبأكله نحن نتخلص جذريا من الخطر الذي يمثله ومن جهة أخرى نحن نخترل كل زمن البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن بأكله ندمجها كلها داخلنا.

مثل هذه المنهجية ليست في متناول الجميع. من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرا وأوقات المجاعات فقط؟ لا حل أمامك سوى انتظار ثورة يسحل فيها الشعب قائده المفدى ليتمكنك، إن أسعفك الحظ بحضور موكب القتل، تذوق لحمه وتناول ما تيسر من كبده.

ثمة إمكانية نشر إعلان على الانترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوع مدّ عنقه للذبح ليشيع "الباحث" من البحث، ويزداد المبحوث فيه معرفة بالوجه الآخر للذبح والالتهام.

شخصيا أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الانترنت قادر على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه اوكرانيا قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة والحال أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

أخيرا يجب معرفة تبعات الأمر على صحة الباحث. نموذجا ما حصل لبعض الآدميين الذين لم يجنوا من أكل الدماغ إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه KURU لا نتمناه حتى لألد الأصدقاء.

لكل هذه الأسباب النظرية والعملية وتفاديا لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلا بها، فإننا ننصح كل الباحثين في طبيعة الآدميين باعتماد وسائل أقل خطورة ولو أنه لا معرفة بهم إلا وصاحبها نوع أو آخر من الخطر: التجربة المباشرة نموذجا.

أو كيف أنهم أغرب من تلاقي على الطريق

داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولحّت رفاقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ أه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك! لا مجال للإفلات من شراسة الآدميين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة. أهبز الكتفين مفضلاً مغادرة من العربة في أول توقف.

لا تسمع في الدهاليز المترامية الأطراف إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج آت من الإناث بكعبهن العالي، كأن بهنّ إصراراً على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج والانتباه على أقصاه، أراقب تدافع الوجوه المجهولة التي يحملها النصف الآخر من السجاد الآلي المتسارع نحوي في اتجاه أعماق المحطة.

تداهمني صورة الرجل الماشي للنحّات جياكومتى. قدماه ملتحمتان ببساط الزمان، والمسكين يتخيّل أنه هو الذي يتحرّك. أما الوجوه فهي كما رسمها، بنفس الأضلع الحادة والملامح المتجهّمة الأبصار الشاخصة نحو الفراغ بما يكفي من الوضوح لتكون وجوها آدمية، وبما يكفي من الإبهام لتكون لكل الآدميين ولا لأيّ واحد منهم تحديداً. الكلّ تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر.

هذه أنثى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادّة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذات ما فاتها. هذه نظرة مطوّلة للصيد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيراً، لا تتوقف حتى على الوجه المثير، بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة، يأس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام الهزيمة وعبت النضال.

تختفي الحسناء التي شدّت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه.

هذا وجه لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم. تُرى عن ماذا تبحث المخيّلة الخفية وهي تصوغ مثل هذه الملامح؟ عن بسمة لم تصل إلى مصافي ما يريده على كثرة ما رسم من بسمات؟ كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت

على محياه ابتسامة النصر. ماذا لو كان بصدد البحث عن مواصفات مبهمة لم تتحقق ولا حتى في هذا الوجه؟

ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة الرسم، إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه وتحديدًا في هذه التي تختزله كله الآن وهنا؟ هذا عالم أعلى قيمه الجمال. محكوم عليك أن تعبّره رائيًا مرثيًا، والكل يقيّم مدى قربك وبعدهك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ على العكس ما أروع أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلقة الظلام. هذه نظرة خلّتها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الآديّ جديدٍ بالاهتمام.

خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور: التعجّب، الإعجاب، الكره، الحب، الحنو، الأسى، ربما الشفقة؟ نعم الشفقة.

كم من قصص متباينة تخفيها هذه الوجوه الصامتة فيها من الآمال المتواضعة ما فيها من آلام لا تطاق. كل هؤلاء البشر كُنْتُ مُحَكِّمَةُ الإغلاق لا ترى منها إلا العنوان، أما النص فحرام إلى الأبد. ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. ألا يكفي أن أقرأ في صفحات ذاتي لأقرأ في صفحات كل الذوات؟ كلهم يمشون في الطريق الذي أمشي فيه. كلهم منغلِقون على أسرار بائسة، متخبّطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عائشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات تتحرك على طيف يمتدّ من أقصى الذكاء إلى أقصى الغباء، مؤمنون بأنهم صرّة العالم، مقتنعون أن الأقدار ظلمتهم، يحملون قصصهم كالمرساة صليبه على ممشي الآلام، ومع ذلك يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفريق من ذهولي توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المداخل المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشارات الصامتة وحدها الدليل.

أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيًا واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.

ينفرط الجمع ليتشكّل آخرُ بدله، بعيدا سيتفكك بنفس السرعة ولا أحد يتوقف ليقول لي من هو ومن أنا وماذا نفعل كلنا هنا.

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأغرّاب يقف مسلّمًا ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبّل والدموع.

كم هو مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إلي، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مُرهق مَهْموم أو عبأ بطموحاتي ومشاريعي أو استفزته أفكارِي. لكن متى انتبهتُ أنا للآدمي المجهول أو اهتممت به، أو شعرت بالآلامه أو عنت لي هذه الآلام شيئاً أو لاحظتُ كم هو مرهق ومهموم أو عبأْتُ بطموحاته ومشاريعه أو اهتممت بأفكاره أو انتظرت منه شيئاً. اللعنة! أنا أيضاً ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يرى، وهم يبصرونني بنفس العيون التي لا تبصر. مَنْ ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وسَطهم منذ الإفافة أغراباً لست لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات. مَنْ قال منهم: "وُلدت مجهولاً، وأملي أن أعيش مجهولاً، وطموحي بعد أن أموت، أن أترك ورائي ما ينفع الناس دون أن أكلّفهم عناء أن يذكروني".

فجأة يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بدوره في الزحمة. شكرنا وصلتني الرسالة، سأنقلها بحذافيرها للتائهين أمثالي أينما حملني الطريق: نعم ثمة دوماً مخرج لنا من كل الأنفاق!

يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليميني تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وببيدي اليميني تمسك بيد اللص وببيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلاً، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعنة! مَنْ قال لهذه المرأة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملّص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثر فيه البوليس.

لم يبق إلا دعوة هذه الغبية لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدني هي بتصريح مطوّل، علّي أزيح بعض الغرابة عن الآدميين بصفة عامة وعن النمط الآدمي الأكثر انتشاراً: المجهول الذي تتفاداه ويتفاداك. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد وراء قطار حَطّه لأبقي وحيداً في مواجهة بقية مشاكل الطريق.

كم من مجهولين طوال الرحلة سيتقاطع طريقك مع طريقهم لا تعباُ بهم أكثر مما يعبتون بك، وكل واحد مهتمّ، مغتم، منغمس، منهمك، ملتحم بقصته أسير لها يدبّر مشاكلها بكل ما يقدر عليه والعادة أنه لا يقدر على الكثير.

انهم النمط الآدمي الأكثر انتشارا، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة والذي سيخرج لك من صفوفه كل من سيجعلون من حياتك جنة وجحيما.

أخيرا الهواء الطلق.

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمَلها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار.

قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصغّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتظّ، السُّياح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقير. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهروا الحَدَم بمكرماتهم الخيالية.

فجأة ألتفتُ خلفي مدفوعا بقوة فاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجتُ أو قُلّ طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرَ يتنفّس في عنقي.

نعم لا مخبر ورائي يكاد يلمسني في إطار ما يسمونه المتابعة اللصيقة لتحطيم أعصاب الطريدة. لكن كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقى عليّ من نظرات متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهدّد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

المهمّ لذة المشي، هل ثمة لذة أكبر وأنت تمشي لأول مرة منذ شهور حُرّا طليقا.

ورائي معلم من أشهر معالم المدينة بسمونه قوس النصر. النصر على مَنْ؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجُرّار الكبير الذي رَفعه ليحتفي بمجازره، لكن مَنْ يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل، كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضي عرفت أكثر حروب الآدميين وحشية وغباء، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثّل كلّ الذين التهمّتهم الحرب ولم

يَحْفَظ لَهِم التَّارِيخُ مَأْثِرَةً أَوْ اسْمًا. يَا لَهَا مِنْ جَائِزَةٍ أَحْرَزَهَا وَلَا عِلْمَ لَهُ بِالشَّرْفِ الأَثِيلِ!
أَيَّةُ قَارِئَةٍ فَنَجَانٍ كَانَتْ تَتَجَرَّأُ لِتَقُولَ لِأُمِّ المَوْلُودِ الجَدِيدِ إِنَّهُ سَيَعِيشُ نِكْرَةً وَسَيَمُوتُ
أَبْشَعَ مَيِّتَةً، لَكِنَّهُ سَيَصْبِحُ مِنَ المَشَاهِيرِ يَقِفُ مَلَائِيْنُ المَجْهُولِيْنَ إِجْلَالًا أَمَامَ قَبْرِهِ وَلَا
أَحَدٌ يَعْرِفُ اسْمَهُ.

يَصِلُ بِي الطَّرِيقِ سَاحَةً مِترَامِيَّةَ الأَطْرَافِ كَانَتْ وَمَا تَزَالُ هِيَ الأُخْرَى شَاهِدَةً عَلَى كَمِّ
هَائِلٍ مِنْ أَفْطَعِ قِصَصِ الأَدْمِييْنَ.

حَسِبَ مِنْ تَكَلَّفُوا مِثْلَ هَذَا الحِسَابِ، قُطِعَ فِي هَذِهِ السَّاحَةِ 1119 رَأْسَ مَنَّهُمْ رَأْسَ
مَلِكٍ . المَسْكِينِ! مَاذَا دَهَاهُ لِيُولَدَ مَلِكًا، أَوْ بِالأُخْرَى مَاذَا دَهَاهُ لِيُولَدَ مَلِكًا فِي غَيْرِ الزَّمَانِ
المُنَاسِبِ!

انْتِبَاهُ لِاِخْتِلاجَةٍ، امْتِعَاضُ هُنَا وَعِلَامَاتُ نِفَادٍ صَبِرَ هُنَاكَ. يَجِبُ أَنْ أَتَحَرَّكَ بِسُرْعَةٍ؛ لَا
مَكَانَ هُنَا لِمَنْ يَسُدُّ الطَّرِيقَ وَالوَيْلَ لِمَنْ يَتَلَكَّأُ. لَيْسَ عَرَاوِغٌ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُونَ؛ لَسْتُ مَهْمَتَا
بِهِمْ وَكُلِّ انْشِغَالِي مُنْصَبٌّ عَلَى أَشْبَاحِ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ حُلِقَتْ رُؤُوسُهُمْ وَأَيْدِيُهُمْ مَقْيَدَةً إِلَى
الخَلْفِ كُدَّسُوا فَوْقَ عَرِيَّاتٍ مَجْرُورَةٍ بِالخَيْلِ وَالثِّيرانِ. إِنَّهَا شِحْنَةُ اليَوْمِ لِلْمَقْصَلَةِ الرَهْبِيَّةِ
الْمُنْتَصِبَةِ وَسَطِ السَّاحَةِ. تُرَى مَا الَّذِي كَانَ يَعْتَمَلُ دَاخِلَ رُؤُوسِي عَلَى وَشَكِّ السَّقُوطِ
جَاحِظَةِ العَيْنِيْنَ فِي فِئَةٍ مَعْدَةٍ خَصِيصًا لِتَلْقِفِهَا؟ هَلْ تَكُونُ هَذِهِ المَرَأَةُ الَّتِي تَبَثَّ عَلَى
كُلِّ الأَمْوَاجِ قَدْرًا لَا يُحْتَمَلُ مِنَ الأَلَمِ هِيَ المَلِكَةُ الَّتِي تَضَافَرَتْ عَلَيْهَا كُلُّ الأَحْقَادِ
وَسَاقُوها فِي مِثْلِ هَذَا المَوْكَبِ كَمَا سَاقُوا زَوْجَها مِنْ قَبْلِ؟ المَسْكِينَةُ! مَا الَّذِي دَهَاها
لِتَوَلَّدَ مَلِكَةً، قَلَّ مَلِكَةٌ فِي المَكَانِ الخَطَأِ وَفِي غَيْرِ الزَّمَانِ المُنَاسِبِ! لَوْ جَاءَتْ قَبْلَ
بِضْعَةِ عَقُودٍ أَوْ بَعْدَها لَرَبِمَا أَصْبَحَتْ أُمُّ الشَّعْبِ وَالقَدِيْسَةُ الَّتِي تَتَبَرَّكُ بِها العَجَائِزُ
وَالعَذَارَى.

كَيْفَ الإِفْلَاتِ مِنْ صُراخِ صَامِتٍ يَمَلَأُ الفِضَاءَ وَيَتَعَالَى مِنْ مَبَانِي مَتَجَهِّمَةً تَقَعُ عَلَى بُعْدِ
بِضْعِ مِئَاتٍ مِنَ الأَمْتَارِ. تَرْتَجُّ الذَّاتِ لِعَوِيلِ طِفْلِ خَرَجَ أبُوهُ لِلْمَقْصَلَةِ وَتَبِعْتَهُ أُمُّهُ الَّتِي
أَجْبَرُوهُ عَلَى القَوْلِ إِنَّها كَانَتْ تَضَاجَعُهُ. مَا الَّذِي دَهَى هَذَا الطِّفْلَ لِيُولَدَ أَمِيرًا وَوَلِيَّ عَهْدِ
مَلِكٍ عَلَى وَشَكِّ الغُرُوبِ! رَبِمَا كَانَ سَيَصْبِحُ أَكْبَرَ المُلُوكِ حِكْمَةً لَوْ أَسْعَفْتَهُ الأَقْدَارُ بِشَيْءٍ
مِنَ العَوْنِ. لَكِنَّ طَاوِلَةَ القَمَارِ سَحِبَتْ لَهُ سِينَارِيو سَيَمُوتُ فِيهِ كَمَدًا قَبْلَ بُلُوغِ العَاشِرَةِ
فِي دِهَالِيزِ قِصْرِ مَخِيْفِ.

بَعِيدًا عَلَى يَسَارِي بَرَجِ حَدِيدِي يَعَانِقُ السَّحَابَ وَيَلْمَعُ بِألْوَانِ خَاطِفَةٍ أَصْبَحَ رَمْزًا
لِلْمَدِينَةِ المَتَعَجَّرَةِ.

وَصَلَّتِ العُمُرَ الَّذِي لَمْ تَعُدْ تَخْدَعُنِي المِظَاهِرُ البَرِاقَةُ. هَذِهِ المَدِينَةُ كَكُلِّ تَجْمَعَاتِ البَشَرِ
غَابَ وَأَغْلَبَ مَنْ فِيهِ مِنْهُمُوكُونُ فِي صِرَاعِ البَقَاءِ بِمَعُونَةِ الأَخْرِيْنَ إِنْ أَمَكُنْ، وَعَلَى

حسابهم إن تعذّر الأمر. وراء الواجبات المنمقة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أيّا كان نصيبها من الرئوس والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة هي ككل تجمعات الآدميين منذ سكنهاهم بيوت الطين والحجر مرآة أفضع ما فيهم بما تعجّ به من مواخير وسجون ومحاكم وثكنات وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يوميا... ومرآة أحسن ما فيهم بما تعجّ به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات.

فجأة تصلني كاللظمة على الأنف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له كدت أمشي على يده. أنه واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحابه طاوله القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكا وملكة واطفالهما قبل قرنين.

إنها مأساة أخرى لعالم لا مبالي لا يعبأ بشيء أو أحد ونحن أغلب الوقت عنصر من هذه اللامبالاة أكننا من ضحاياها أو من مرتكبيها.

من قال الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدتهم المصائب كل صواب.

أية غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماه جانبا، ضاق ذرعا بجملٍ ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشريّ سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منتقم هو الآخر مجهول!

هذه امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدّد بمولود جديد لا يدرك على ماذا هو مقدم.

أتوجّه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملا هاتفني الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد.

لم تقرأ الرحلة؟ ورأس أمك لم أباغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصلّقتني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربّما سننجح القوى المجهولة في تخيل عالم أقلّ خطرا وفضاعة، أمّا هذا!

يصمت الشيخ متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة. كأني أشعر بالمتهور
يهزّ كتفيه. يجب ألا أُحبط وأن أواصل تحمّل مسؤولياتي تجاه الجنس البشري حتى
وإن كنت أعرف النتيجة مسبقا.

يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن... ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم
بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم
يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بذريتها شرًا.

قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها
طلب بوليس النجدة. لا أريد بك إلا خيرا... وأنت لا تريد بي إلا شرًا! آه منكم يا أولاد
حواء.

قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر
يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير النساء
وأمهاتهن. أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب
هذه المرأة حال ظهور بوادر الحمل أن تثني بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها
العادل، وأن تسلم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب
الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعدت الكرة
وهي فخورة بما اقترفت المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

آه هذه آدمية أخرى يبدو أنها تنتمي لكنيسة تبشيرية ما تظنّ أن بقدرتها أن تفعل لي
شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أتقياً. تُبادرني الصبية البلهاء ببراءة تثير فيّ
موجة من العطف.

- هل تعرف المسيح؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب
المقدّس؟

- لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من ارتكب هذا العالم، أما حُبّ ريك لي،
فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا هذه الأيام.

تمضي البنت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيرا هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من
يغازلها طويلا. يا سيدي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آلام روح ذلك الطفل لا
أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك لا تنسي آلومي أنا
أيضا وقد تحالف ضدّي كل ما في ملّي من أشرار ومن أخبار.

أه هذا هو الحيّ الذي ذرعه سنواتٍ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب.

لا أحبّ إليّ من مقاهيه. داخل زحمتها اللطيفة لا تسمع إلا ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نادي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي.

"كم تسكّعت شرقا وغربا (شاعر صيني مجهول)

كم لاقيت من البشر

ولا وجه أتدّكره

تعبت حقائبي

ظليّ وحده الرفيق."

صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتهم ولسعوك، إن بُعدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثتُ عنه دوما: الدفء دون لسع.

إنه مكان لا يُحبذ أصحابه أن تطيل فيه المقام. يجب أن أنهض لأواصل المشي.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر الذي يحتفي بسلطة السيف وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز الذي يذكر بسلطة القلم.

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتّب الآدميون عن الآدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فهذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكتّاب التاريخ. وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان: فكّر من خارج كل الأطر، تمزّد على كل الصيغ، جدّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة.

صخبٌ بالغ الازعاج لآلات غبية. أمامي حفنة من الآدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربات ضخمة مصدر منكر الضجيج تسدّ الطريق على سيارات نفذ صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفأ الذي يتخيلون. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

لا شك أن بينهم كُتّابا سيضيفون نصوصا جديدة إلى ملحمة الأدعي تصف معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، غريقٌ أُنقذ آخر لحظة من براثن البحر، مغامرٌ يخترق الجبال خلصة ليلة صقيع يُمزق أحشاءه الجوع، أجنبي بلا هوية ينتهي على أعتاب هذه المدينة صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جناحيّ.

ترى هل سيأتي يوم ننشد فيه جميعا؟

"تحت أزهار الكرز (إيسا)

لا وجود بيننا

لغريب"

أو كيف أنهم أخطر الكائنات على الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة. أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع التي ترسبت فيها طوال هذه المدّة.

- تسألني عن أحوالي، يا أسوأ أمّ على وجه الأرض، يا أسوأ دليل!
تبهت ريع الابتسامة. تقظّب "ما" جبينها. تتردّد ثم تقرّر الثبات.
- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

- تسأليني يا جاهلة كيف كان عليك إعدادي أنا وبقية الأطفال الذين ابتلوا بك أما!
أثبّ أمامها لأمّ لل دور فتضع يدها أمام فمها تحجب ريع بسمتها، ويدها الأخرى لتمسح دموعه.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأمّ الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حدّا آمرا نافد الصبر: انهضوا. أتنظنون أنكم في مخيم صيفي لعطلة طويلة، يا الله أمامي كلكم لتمرين الفجر.

يبدأ اطفالك بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليوود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للألم مستعدّون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، إننا منهم لمنتقمون.
مباشرة تمارين الكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت.

بعدها الدروس النظرية في فنون الكذب والنفاق والخداع ومعرفة كيف يُستغل الضعفاء وكيف يُتقى شرّ الأقوياء.

بهذا تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الأدميين من خصوم ومنافسين وأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربيّ أطفالك أيتها الأمّ الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال. تعود إليها ذكريات الأيام البعيدة.

- كم أخفّنتي ذلك الصباح عندما وجدّتك بين علب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة وكنت أعتقد أنني وضعتها في مكان آمن؟

حالا طلبتُ خالك وقلت له أن يأخذها إلى حقله وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت شجرة التوت في أبعد ركن من البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوّناته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتدكّر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهها جدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلم الذي حاول التدخل. الشرطة تكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

برّك ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكانا مثل المدرسة، ذلك المكان الذي يولونه مكانة أقل ما يقال إنه لا يستحقها دوما.

لمعرفة الحقيقة وراء سحب الدخان الالفاظ الرنانة ابحتُ دوما -وراء الهدف المعلن- عن الهدف المخفي لكل أفعال ومؤسسات البشر، ومنها المدرسة التي يدعون أنها جعلت لتنتج أجيالا أحسن من التي مهدت لها الطريق.

ستكتشف أن الهدف الحقيقي لهذه المدرسة ترويض الوحوش الصغار على الانضباط والطاعة والانخراط الباكر في أساطير الكبار لمواصلة حروبهم وأنها أولى ساحات تعلم أبجديات الصراع الأبدي الذي ينتظرهم خارج أسوارها.

ينتبه الطفل أن خصمه هذا الصباح فتى فارغ الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام ممنوع، ممنوع، ممنوع.

يندلع الألم فظيما ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي.

هكذا يتعلّم كل طفل من معركة لأخرى كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. هكذا يتعلم أيضا هل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابةً ستمكّنه من الثبات في ساحات كل المعارك التي سيمرّ بها الطريق.

تضيق ضربات الطفل في الهواء لا تصل أبدا الوجه البغيض في حين تتألى على وجهه ضربات قبضتين كأنهما صُنعتا من حديد أو من رخام. يستجد بكل ما بقي فيه من وعي وحيوية لينتصب المرة بعد المرة على قدميه المترنحين وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

ثم يلمح من خلف انتفاخ عينيه نظرة الاستغراب في وجه المعتدي وصوراً مشوشة لأطفال يتهامسون، كأنّ شيئاً كالقلق بدأ يستشري بينهم. فجأة تتوقف ضربات المطرقتين. يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أخرسهم صمت متعجب قلب.

ها هو يواجه هزيمته وكله سعادة بأنه لم يستسلم لخوفه مستبطناً منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألا تخاف وإنما أن يعترض الخوف منك الأحشاء فترفضه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزين لك الاستسلام فتلفظه.

بتكرار مثل هذه التجارب ترسخ القناعة التي ستحكم كل المواقف وتصرفات المراهق والشاب والكهل والشيخ طوال الرحلة: لا تكن أبدا فريسة أو مفترس وإنما الفارس الذي لا يخضع لظالم أو معتدي. انتصر على خوفك لن ينتصر عليك أحد.

السؤال الآن ما الأكذوبة الجديدة لتبرير حالة الوجه والثياب؟ نفذت كل أعدار السقوط من السلم، من الشجرة، من عثرة على الطريق.

تأخذ "ما" بيد طفلها، لا تخفي وراء شبح ابتسامه حزنها المتواصل:

- لا يمكن للأمر أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟

- برأسك "ما"، لم أكن يوما البادئ. لا أفهم حتى سبب عداوتهم. ماذا أقول ل "با" يوم يعود؟ إنني تركت كلبا منهم يعتدي عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!

تعود الأم الأزلية إلى محاولاتها العقيمة إلى النهاية أسيرة التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة وعن طفلها على وجه الخصوص.

- عديني أنك ستكلم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لبس يسوّى بالحسنى.

- لا، أبدا، أنا أكرههم.

- إنهم أترابك وأبناء الحي، منهم أقارب وجيران، ربما أسأت إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كل سوء تفاهم. يجب أن تكون أكثر لطفا وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللعب معهم من جديد.

تهمس "ما" في أذن جاريةٍ جاءت تسلي عنها همومها.

- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح يمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يصف انتصاراته ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أعملتُ في أولاد الكلب قبضتيّ. فزوا يستنجدون بالمعلم. كنتُ كسيدنا عليّ في هجومه على الكفار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر يهّمك.

تدير الأم ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفسّر لها أنّه وفيّ بوعد، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.

- أرجوك، اسمعيني. يدّعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لذلك أنا أولّهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلي عليهم!

تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ: لن أعود أبدا إلى هذه المدرسة اللعينة، اذهبي أنت إليها بما أنّها عزيزة على قلبك.

سبحان من جعل أطفال الآدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنّه لا أشرس، ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية وجرسية من الآدمي وهو طفل. ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيرا أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال وأخطرهم الرضع؟

لا أحمل أيّ واحد منهم - وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبّله مفتعلا الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة - إلا على مضض. هلي الكبير أن يتبول عليّ اللعين أو أن يغتنم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضع على وجه الخصوص.

هل وُلد هولوكو، تيمورلنك، هتلر، ستالين، بشّار أو تنتياهو بشوارب وحذاء بمهمازين مدججا بأخطر أسلحة عصره؟ ألم يكن نيرون - ولا أتحدث عن كاليجولا - هو الآخر ملاكا كانت تذوب القلوب لرؤيته واستبشّر بقدمه أبّ وأم وجدّة وأعمام وأخوال لا يعلمون ما يُعدُّ ملاكهم هذا من فظاعات ما زال التاريخ يتدكّرهما مرتجفا من الهول؟

الحقيقية التي يرفض الكل مواجهتها أنه لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورَّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرِّضَع مع بالغ الأسف.

نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين، لكنَّ عدَّادَ النضج يتوقَّف عند الكثيرين فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين وأطفال في الخمسين وأطفال في الستين وأطفال في أزدل العمر. أليس جلَّ ما نعانيه من بعضنا البعض تواصلُ الطفولة فينا؟ ... أليس كلُّ طاغيةٍ طفلاً رفضَ أن يكبر محاولاً إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريد أمة؟

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحاً، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معارك كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتاً حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان لم يغير إلا تجاعيد القشرة لكن نواة الثمرة الخبيثة لم يتغير في شيء.

لا مهرب لك من الذي منه كل نقمة في أي مكان في هذا العالم. ترتطم به حتى في الملجأ الذي تستجير به هرباً من تربصه بك في المدرسة والأدهى والأمر أنه الذي تنتظر منه أن يكون أول حامي.

يشتدَّ صراخ "با" مخاطباً أمّا مذعورة وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيت بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! غضّ الطرف يا ابن الكلب. غضّ الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تبكي. لقد كسرت شوكة من هم أصلب منك عوداً ألف مرّة. أنا سيّدك -يا كلب- وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيدا"؟

تشتدّ سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، ستقتله.

- سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!

تمرّ السنين سريعاً وما بالطبع لا يتغير، لا طبع الأب ولا طبع الابن.

يواصل المراهق الرافضُ الخضوعَ لمتسلط -أباً، حاكماً، أو إلهاً- التحديق في الوجه الغاضب المحمّل بالآلام السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يبتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهبي عليك ولا أمر.

يجنّ جنون "با".

- تبسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطعت يا متمزّد.

يخطر للمراهق أنّه آن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليّها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمّل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحبّ؟

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مُناصر مجهول:

- قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي الرجل بعصاه على الأرض وبجسده المرهق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دوما على حقّ وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مراهق قليل الأدب.

وفي آخر ملفّ عن الصراع مع الذي منه كل نقمة وعلى وجهه قناع الأب الأزلي يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفّ له جفن، نافخا ببطءٍ مدروسٍ في غليونه الجديد، وحركائه تنضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراخ بنفس الحدة وكأن الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتّجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبّط هزمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فيشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنّه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبُه طفلي؟

تبقى العصا معلّقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم يعد له نفع. ثمّ يحدث في ابن لم يتفطن أنه أصبح شاباً وفي عينيّه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التفهّم وشيء من الإنكار،

شيء من الاستفزاز و شيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف و شيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام و شيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكآبة ثم تجدد المرح. ينفجر "با" ضاحكا: لله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

لا تتشكّل الذات إلا باعتراف تفتّكه من أب أو غير أب افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السّبع... وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بهذا الاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه... لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية... اللهم اجعلني دوما من بُناة الذوات لا من مدقريها.

يتغيّر الممثلون من أقرب الناس إلى أبعدهم والدور دوما نفس الدور.

*

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجددا كأنني لم أسكنها يوما ولم يكن لي فيها صاحب. يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف. يفتعل آخر كنتُ وليّ نعمته أنه لم يرني وأنا أول من رأى مصدوما ومتضايقا. هكذا هم البشر من قديم الزمان فما جدوى المرارة والعتاب.

إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم وإن أنا لم أبذل لهم شتموني (أبو العتاهية)

وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا وإن نزلت بي شدّة خذلوني

وإن طرقني نكبة فكهوا بها وإن صحبتني نعمة حسدوني

ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري مأجورة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني من تجمّعت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأوباش ورأيي ورّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذاك بالتهمك والآخر بتكبري أنني لم أحن هذا الوطن ولم أبع ذمي إلا لأنني خائن ابن خائن.

تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تنقياً منه رذاذ من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أّي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يُطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العقوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تفتعل حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القردة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح بصاقهم ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفيتين مغلقتين باشمئزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخا: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة حقد داهمتني على غير انتظار؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجيل البصر حولي باحثا عن هبة من "الشعب" الذي ندعي كُنّا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه وهو مجرد وهم صنعناه وكبلنا به عقولنا وقلوبنا. يطأطئ المارّة رؤوسهم ويسرعون الخطى. فجأة انفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمّتون.

"من أين يأتي النور؟ (البياتي)

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور

يبيعنا الطغاة للطغاة والملوك للملوك"

في ملفّ آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيارة تحملي مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبوننا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبدا.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

لم يبق لي من مكان يحميني من شرّ الغوغاء المدفوعة الأجر غير بيت فارغ ومطوّق بأعوان البوليس السري.

الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الآدمي أنه دوما في وضع أحسن مما يتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا يعلم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه.

ذات يوم تُمسك بي من الخلف أيدي عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهرنا من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطب الجبين من حام؟

يأخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيت.

كل الفضاء الآن زلزلة تننة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

لا شيء تفعله سوى الجلوس على الاسمنت البارد لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكل زلزلة ذاكرة ملقأها جدران ملطخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتخيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربع عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: الصبر يا ربي.

لم يضعوني في هذه الزلزلة صدفة. اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دك حصوني.

فجأة ترتفع من الزلزلة المجاورة صرخة ستلاحقني سنوات، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجدد، تُذكر بأعمق وأرهب ما تعلمت عن الطبيعة المخفية لأدي يلاقيك في الطريق مُسلما، تَضُمُّه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقبّل.

يصل الصراخ من وراء الحائط أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا، ثم صغيرا ثم حشرة.

تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذني، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت. أي كائنات رهيبه هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب بل وجعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة. على كل حال أليس هذا التعذيب الممارس في هذه الأماكن المرعبة الشكل المكثف للعذاب الذي نعيشه في أشكال مخفية تلاحقنا طوال رحلتنا؟

لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدي كما لا يُعرف مثله في تفنن القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بئمن حياة المقتول.

أما الآدمي فقد اخترع بتر أصابع الآدمي الآخر إصبعا بعد إصبع واغتصاب أمه أو زوجته أو ابنته أمام عينيه ووضع خازوق في دبره وكَيّ القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه وأثينته وبكائه ثم والاعهاز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حيًّا وحتى نبش القبور للتمثيل بالجثث.

"فنون رداك يا دنيا آدمري فوق ما نصيفُ (أبوالعناهيّة)

فأنتِ الدار فيك الظلم والعدوان والسرف

وأنتِ الدار فيك البغي والبغضاء والشنف

وأنتِ الدار فيك الهَم والأحزان والأسف

وأنتِ الدار فيك العُدْرُ والتنغيص والكف

وفيك الحبل مضطرب وفيك البال منكسف

وفيك لساكنيك الحين والآفات والتلف"

ما لم أكن أعرفه في تلك الفترة أن أبغض وأقسى أنواع التعذيب ليست التي ينكل فيها جلادون فقدوا كل إنسانية بمسكين فقد السيطرة على ما بداخله من براز وبول. إنه التعذيب الصامت الذي كان يعيشه في السجون مائتي محكوم عليهم بالإعدام ينتظرون كل ليلة أحيانا منذ سنوات أن يوقظوا في الرابعة صباحا للذهاب إلى المشنقة. كيف يمكن أن يكون للذي منه كل نقمة حبيبة أو طفل، بل كيف يمكن أن يكون له أمّ أصلا؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عوالمٍ أخرى لتدمير الآدميين بعرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طُرد حتى من جهنّم؟ فرضية رهيبة وأفضع منها أنه آدمي، بل وله أمّ وربما بنية جميلة لا يتوقف عن اللعب معها قبل اجبارها على النوم.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص، بل وأن ينام الزوج مع امرأته والمرأة مع بعلمها وليس تحت مخدة الذكر مسدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات... مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل الناس العاديين الذين تلاقيهم في كل مكان حتى في دور العبادة ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

كم صدق شكسبير في قوله " الجحيم فارغ، كل الشياطين هنا "

ترتفع من وراء الحائط حدة صراخ الضحية وأوامر الجلادين بالكف عنه والبوح بما يخفي الإرهابي الخطير من أسرار.

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن تعذيب الرُّجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضدّه سلاح.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرُّجل الآن في فضاء خيالي بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار ستوقظ الأطفال فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصل.

لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحذثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدثك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكونون بصدد مسح دمائه والتفكير في الأعذار التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفّ في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لثيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرفا تعلق محيّا ابتسامه الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقا بين الركبتين.

في مشهد ما زال بعيدا في غياهب المستقبل، يهمس فيّ السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناءك! سيدي الرئيس أرجوك. انظر إلى هنا! ها أنا نظر لنفسي وقد انشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفونا بين الركبتين يحاول خنق عبراته ونفس الذات آتية من مستقبل ما زال بعيدا تراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة تهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

دوما في غياهب مستقبل كم سيطول انتظاره، حول طاولة الاجتماع الهام علياء القوم من عسكري ومدنيين أغلبهم من رجال العهد البائد.

أتوجه لهم بصوت يحاول أن يكون هادئا وبدون نبرة تهديد: أيها السادة، الثورة المباركة جاءت أخيرا لهذا الشعب بالحرية والكرامة. إذن من هنا فصاعدا هذا بلد خال من التعذيب ولن أقبل عذر التجاوزات الفردية وكلكم مسؤولون عن نقل هذا الأمر لكل منظوريكم في كل المستويات والتأكد من تنفيذه. حتى لا أزيد في كرههم لي لم أعلمهم

بأنني استبدلت بالمؤبد حكم الإعدام على مئاتي سجين منهم من ينتظر إعدامه منذ عشر سنوات وأنهم أخرجوا من زناناتهم الانفرادية ليجمعوا مع بقية المساجين بانتظار البت من جديد في قضاياهم.

نعم ما أضيّق العيش لولا فسحة الأمل، لكن ماذا نفعل عندما تياَس من كل أمل اقتنعت غلطا أنه لا وصول للطريق إلا لهاوية جديدة أعمق وأشد ظلاما من التي تسلقت جدرانها هربا منها.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعنان السماء تريد شجّ رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فترفرف لحظة لتنقضّ عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تحالف لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلت موجودا! كأن لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعك فيك.

ذلك أنني أضع اللعين كلّ ليلة في المزاد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يسهّل التفرير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غرّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجددا كل صباح متثائب ولا أملَ جديًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كاملٌ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجانًا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

يُفتح أخيرا باب السجن الصغير لأجد نفسي مجددا وسط ما يسمونه المجتمع وهو جملة الساحات المتداخلة التي يحتدم في كل منها نوع أو آخر من الصراع بين السباع المشدودة لبعضها البعض بسلاسل المصالح المتناقضة.

المحرك الأساسي لهذا الصراع والذي يخلق لك الذي منه كل نقمة في كل تقاطع الطريق التنازع والتنافس.

ومن يُدقّ الدنيا فإني طعمتها وسيق إلينا عذبتها وعذابها (الشافعي)

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتذبها كنت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها

لماذا وعلى ماذا نتنازع كالكلاب؟ كلنا لا نشتهي بقوة إلا ما يشتهي الآخر وهذا الآخر لا يريد بكل الوسائل إلا ما نريد. وهذا الذي نتنافس عليه كلنا أي ثلاثية الثروة والسلطة والاعتبار غير قابل للاقتسام العادل. كيف تكون السلطة بغير حاكم ومحكوم.

من أين يكتسب الاعتبار قيمته إن لم يكن هناك سلم مقامات فيه أدنى الدرجات، ومن أين يأتي فضل الثروة إن لم يوجد الفقر؟

إنه ما أسمىه الوضع المحدد، أي الوضع الموجود قبل أن نوجد وقدرتنا على تغييره قدرتنا على تغيير قوانين الجاذبية.

ليست الأمور بهذه البساطة. كلنا لا نصبح غزاة وقتلة وجلادين. ثمة إذن عنصر ثالث يتدخل في المفاعلة المعقدة. إنه العقل الذي يتفحص أخطار خيار الانزلاق وراء الاستعدادات الشيطانية ويبحث عن تصريف الوضع المحدد بأقل قدر ممكن من الأخطار علينا وعلى الآخرين.

من تلاقى هذه العناصر الثلاث تبرز السياسة بما هي فنّ محاولة تريباع الدائرة بالتفاوض المستمر بين السباع المشدودة لبعضها البعض بسلاسل البحث عن البقاء وتحسين ظروفه.

المفارقة أن السياسة هي في آن واحد الحلّ والمشكل. هي تبحث من جهة عن تخفيض حدة الصراع على الثلاثية المشؤومة ومن جهة أخرى لا أخطر منها لرفع حدة الصراع حولها وايصاله إلى أعلى مستويات العنف والغدر والمكر.

أهم خصائص هذه الساحة أن الصراع على السلطة هو في آن واحد تنافس مع الأصدقاء وصراع مع الأعداء الشيء المؤدي بسرعة إلى تداخل الأدوار والذي منه كل نقمة يلبس قناع العدو كما يلبس قناع الصديق.

فالصديق الحقيقي خارج ساحة السياسة هو آخِرُ من يصدّق ما يُروّج عنك من إشاعات وأوّلُ مَنْ يغفرها لك إن صدّقت. داخل هذه الحلقة الصديق هو أوّل من يُصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الخلّ الرفيق في ساحتها كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

نعم وكم صدق ذلك القائل الآخر إن كنت من الباحثين عن الوفاء ربيّ لك كلبا.

ايه والله لم يهزمني أبدا عدو وإنما من أذاقني مرارة الهزيمة صديق أو حليف أو مرید.

الحقيقة أن ما تحتاجه الحلقة السياسية ليس محاربا ساذجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا عدو يبارزه، إنما محاربا بمهارات راقص باليه صيني يدور على نفسه برشاقة ليصوب قدمه نحو حنجرة العدو ثم ساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

أيا أكنت حلبة المواجهة بين الآدميين (حيّ، قرية، بلد، إمبراطورية)... أيا كان الزمان (اليوم، قبل أو بعد ألف سنة)... أيا كان عدد وأيا كانت طبيعة المتصارعين (أفراد، شعوب، أمم، أديان)... أيا كانت وسائل الخصام (النميمة، القتل الفردي، الإبادة الجماعية) القاعدة أنك لا تتحرك خطوة إلا والذي منه كل نعمة يتنفس في عنقك.

إنه رقيق الطريق الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خرب الماء على دويّ الرعد، على نزول المطر. هو دليل السوء والثّر الذي يقودك في مجاهل الغابة ليضيّعك عمدا. هو من يحفر أمامك الحفرة لتقع فيها، من ينصحك بالطريق الذي ينتظر في قِطاع الطريق. هو من يسرق حذاءك لتمشي حافيا على الأشواك. هو الذي يدفعك نحو صحاري الموت يمنع عنك الماء عند العطش أو يقربه لشفتيك المتشققتين ثم يبعده ضاحكا متمسّتا. هو الذي يدعو الكواسر لتقتات من لحمك ولم تلفظ بعد نفسك الأخير. هو الذي لا يترك لك الخيار إلا بين الحرب الأزلية والاستسلام المشين. هو الذي يتبوّل على قبرك ضاحكا.

كل هذا لأنه على يقين أنك حجرٌ عثرة في وجه ما يريد، أنك أخذت منه ما لا حقّ لك فيه أو أكثر مما تستحق، أنك لم تُعطه حقّه من هذا الشيء أو ذاك، أنه سيفتكّ منك ما هو أحقّ به منك كلّ ذلك ما كلّف. هو يريد الدنيا له وحده وحتى في الآخرة لا يريدك إلا عبدا له.

كأنه لم يُخلق إلا ليكون مُغلق كل الأبواب، واضع كلّ العراقيل، معسرّ كلّ يسير، منغصّ الوجود. اللهم احرمه من النوم ومن الموت.

*

في آخر المطاف من هذا الكائن البشع الذي حُكم علينا بتحملة على طول الطريق عبر كل ما يلبس من أقنعة وفي كل مجالات ومستويات العيش؟ هذا الكائن البشع هو طبعاً آدمي ابن آدمي. علينا أن نبحث إذن عن سرّ فظاعته في سرّ الجنس اللعين الذي ينتمي إليه.

بخصوص هذا الموضوع، عن الجاحظ طيب الله ثراه:

“وبعض المفسّرين يزعم أن نوحا صلّى الله عليه وسلّم، إنّما سُمّي نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه وأنّ آدم سُمّي آدم لأنّه حُذي من أديم الأرض”

طيب، لكن كيف حُذي الآدمي من هذا الأديم وماذا عن تفاصيل العملية؟

لا شيء تقريبا باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول في بعض كتاباته إن الخالق لمّا أراد خلق آدم أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين ليسوّيه. لكن إبليس خاف

أن يأخذ المخلوقَ الجديد مكانه، فاغتنم لحظة سهو الملائكة ليبول في المادة التي سيصنع منها هذا الآدمي.

كأني هنا بعناة الملحدين ينفجرون بضحك الاستهزاء. ليكن واضحا لديهم أنني لن أسمح لهم بالسخرية من واحد من كبار مؤرخينا حَبَّرَ آلاف الصفحات في المواضيع التي يعرف وحتى التي لا يعرف. سأضيف كذلك على الماشي ودون إطالة، أن مسارعتهم بالإنكار والاستنكار أصدق دليل على أن الرجل أصاب كبد حقيقة كانوا يفضلون أن تبقى في طيِّ الكتمان. ما يؤسفني شخصيا أن مؤرخنا الكبير لم يقل كل الحقيقة من باب الرفق بمعنويات بني جنسه. حقًا لم أحضر الواقعة، لكن مصادر عدة -لا يسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية- أكّدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مئانته في الطين الذي تشكلنا منه، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه لأنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ ففعل الفعلة الشنيعة التي لن أتبحر في وصفها. أمام هذا المشهد لم تستطع الملائكة منع نفسها من البصق في العجينة التي سنسوى منها جميعا. ثم تستغرب بعد هذا أن تكون الطبيعة البشرية، عموما وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا، على ما هي عليه.

مدخل آخر لإشكالية لا تستنفذها كل المداخل.

الشیطان كما يقول دولوز Deleuze مفهوم مجسد أي فكرة وضعناها في قالب صورة إبليس. هو في الحقيقة رمز لكل استعدادات الشرّ التي تسكن عميقا داخل كل منا والتي لا تنتظر إلا الظروف لتبرز فجأة من تحت القشرة السطحية التي نسميها التأدب والتحصّر والأخلاق.

أيّ طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة انطلاقا من استعداداتنا الشيطانية هذه لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؟! ما الذي يجعل من الآدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيرا بين الكائنات الحية في القسوة والندالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بالوجود أصلا؟

فرضيتان نرميهما في وجوه الذين ما زالوا على قناعة أنهم مخلوقات لخالق

اسمه الله...الأولى أن هذا الرب لمّا ارتكب خلقهم كان في حالة متقدّمة من السكر... الثانية أن كائنا بمثل كمال الله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الآدميين مما يعني أنه بريء من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور وان خالقهم هو الكائن الذي يسمونه إبليس... أما الذين زادهم الفكري اسطورة أنهم نتاج تجرّب قوة اسمها الطبيعة، من أين لهم انكار أننا أكبر غلطاتها؟

أي جدوى لمثل هذا الكلام ، متى كانت الضغينة علاجاً لجروح النفس وهي الجرح الأكثر وجعاً والأسرع تعفناً ؟ لنحاول كما يفعل الآدميون دوماً تبرير ما لا تبرير له واضفاء المنطق على ما ليس له منطق.

ماذا لو كانت للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوِّلد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج ناراً ونوراً ونحن نقاوم وننتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

يأتيك من تواصل المواجهة معه وتجددها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاماً دائماً ولو بشروطك. هيهات. هو كتلك النباتات المضرّة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأوّل، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوماً مطوّقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

تنتهي طال الزمان أو قصر أمام ما يلحقه بك من آلام لا تتوقف لاستنتاج واحد: المنقذ الوحيد منه الموت.

آخر عقبة للتخلص منه نهائياً مراسيم الجنازة...أو هكذا تتصور.

هي عند الآدميين كالختان والزواج مناسبة لملاقاة الأعراء الذين فرّق بينهم الزمان، فرصة لتبادل الأخبار والنكت ولإتمام الصفقات، أحياناً لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن تصوّر كيف سيكون موكب جنازتي ليزداد مزاجي تعكراً. سيمشي الذي منه كل نقمة خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كأنني أسمعهم يتهايمسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئاً غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الآفاقي أن يريد نفسه سيّداً لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد

أراحنا الله من سحنته البشعة... ثم خاتمة كل المنافقين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السب: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جَنّات الخلد، أنت الذي يعرف محو الخطي، امح كل آثاري حتى لا يواصلون وأنا ميت ملاحقتي بالسب والشتم.

حقاً ثمة قلّة بجانب كل هؤلاء المشيعين من يحزنهم فعلاً رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ أني متألّم لفراق هذا العالم

وحين أودع القبر لا تقل الوداع

فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركتكم كل شيء والباقى؟

كم أخطأ في حقي كل الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما فيّ من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم نقائصي وعيوبي... كان لي ككل الآدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي كما كان لي بعض الزلات تغفرها لي حسناتي... لم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك، لكن قدر الآدمي أن يكون صورته في مرآة من يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحها... أما من له هذه الصور المتباينة في كم من مرايا فشبه مجهول للآخرين ولنفسه أولاً.

من قال أكبر الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصيّد؟ نسي الشقيّ خطبة التائبين.

لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّاً، بالتنقيص من قدرك، ويكذبون عليك ميتاً بالزيادة فيه. ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبتهم الهمام لحشو قمّ الميت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطائه وهو حيّ أصغر حبة منه.

كل شيء إلا انتصاهم فوق قبوري يخطبون. إكرام الميت دفنّه. نعم وبصمت. وحده الوجع الصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عداه مسرحية عديمة الذوق.

إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتكم حُطبتكم الرثانة على حافة قبري لرميتكم بالحجارة من خلف السحاب، أو لانقلبتُ عفريتاً يأتي ليايكم بأفزع الكوابيس.

ولأنني لمّا انبثقتُ في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوّه يمدحني بخصالي المرتقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخاله وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثلوث نساء آخر: تفاحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحبّ لم أستحقه يوماً.

يجب الآن تحمّل لعنات الحفّارين الصامته وهم يزفرون غيظاً من الحرّ وصلابة التربة. على فكرة، لماذا يجب أن أودّع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عارياً فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثلعال الصحراء وعقاربها تجد أخيراً نفعا في آدمي؟ الرائحة! من سيتضايق إذا رُميتُ بعيداً عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تقلق فتحت الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني. "ماشى" مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأُدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

على شاهدة القبر أريد أن يكتب هايكو ايسا أعدتُ صياغته بما يرضيني ولا يغضبه.

"أخيراً نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غنّ على قبري"

يكمل الخيال بقية المشهد النهائي أستبق الأحداث وأحاول تصور بعض سيناريوهاتها. على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقربُ الناس إليّ عائدون عاجلاً لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدرتُ لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائياً.

"ميت أنت وإلى الأبد (الوركا)

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

المهمّة أنني عدت أخيراً إلى بيتي ووطني. بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقّة السفر. قبل الإخلاء إلى راحة مستحقة بجدارة، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتي التامة لفكرة خلق كائنٍ مثل الذي منه كل نقمة ورفض لكل التبريرات ولو كانت منطقية لوجوده.

أتسمر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهمة لمخرج السيناريو المدعوّ جبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي.

أهذا ملفّي؟ كأنه زاخر ثقيل... بماذا؟ آه، بشكاوى الأطفال الذين تفوقت وتكبرت عليهم، بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح، بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت أنفهم في التراب، بشكاوى الطغاة الذين أشبعتهم تهكما وتحقيرا، بشكاوى كل الأعداء الذين لم يسلموا مني إلاّ حقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق البيضاء.

آه، ماذا أيضا؟ هذا ملفّ آخر يفيض بشكاوى الأعشاب التي اجتثت أو دُست غير عابغ بماذا أجتت أو على ماذا أمشي، بشكاوى الفئران التي سممت صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق، بشكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع، بشكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها، بشكاوى شعوب النمل التي لاحقنها في الحديقة بخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكا؟ لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نقمة لكل هذا الكمّ من الآدميين التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبّيثة لِمَا لا يُحصى من الكائنات المسكينة الأخرى.

أو كيف أنه لا معين على أهوال الطريق سواهم

قال شاعر عزيّف بما في البشر من قبح ومن شرّ:

"ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوماً به انقلبوا (أبو العتاهية)

يُعظّمون أخا الدنيا وإن وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا"

حتى لهذه القاعدة استثناء

يُدقّ الباب بقوة وإلحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة السرية الذين يرابطون أمام بيتي كأنهم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي.

أ يكون الشقيق الذي رافقني طوال الرحلة وكان صديقاً أكثر مما كان أخاً؟

لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجاني محامياً في كل القضايا الملفقة التي يلاحقوني بها.

ما أكثر الاخوان حين تعدّهم ولكنهم في النائبات قليل (الشافعي)

يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ بسرعة مهنتاً سلامتي. يلقي بنظرة مطوّلة حوله متعجباً من خلوّ البيت تقريباً من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفته حبّي للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز الشرطة ليُعلم الجميع، مع مَنْ يقف وأي قضية يناصر.

أمازح هذا الأدبي الذي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من انقلب عليه الأصحاب والأحباب.

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسيتان.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقصّ عليك ما حدث يوم أطلق سراجي. أخذوني إلى بيتي في سيارتهم. داخلها بادري الجالس قرب السائق: تظنوننا وحوشاً؟، ماذا تريدون منا؟ تريدون أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

واصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ تلك التي حصلت أمام مقرّ منظمكم التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان؟

طالبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسسك أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟

كان الصوت مختنقا وكأنه يغالب عبرة صامته.

قلت لا، ماذا فعلت.

قال فتحت القحبة بنت الكلب التي تدعى الدفاع عن كرامة البشر بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ... على خدي الأيمن هذا... هنا بالضبط، انظرا! منذ تلك اللحظة وأنا أشعر بلعابها المقزّز لا يكفّ عن السيّلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني. تدافعت تلك اللحظة إلى الذاكرة صورة "با" ويده على خده يوم خرج من مكتب الضابط الأجنبي لم يخمد غضبه بعد عقود من صفة قد تكون سبب الصداق المزمّن الذي لم ينجح في تخفيفه أي دواء.

دون وعي ارتفعت يدي مرّرتها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفّ منذ شهور وقلت للرجل عفوا أخي، وقبّل صغارك من طرفي. هذا الذي نواجه أكان صديقا أم عدوا، هو دوما آدمي آخر في صراع مرير مع عالم لا يرخي لحظة قبضته حول عنقه... أكتنا نواصل الإصرار على ما نقوله عنه من فضاعات مجانية ونرتكب تجاهه من اعتداءات عبثية لو كان لنا علم بكل ما يعاني بصمت؟

المضحك المبكي في هذه المعارك التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الفاعلين فيها يعتقدون أنفسهم أختيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمعّن عن قرب وستكتشف أنها معارك مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أختيار-أشرار وأشرار-أختيار، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الفريسة لهم وحدهم... والأدمي على الدوام كذاب مفترّي عليه، سارق مسروق، ضحية وجلاد.

"كل كوارث الدنيا (فرناندو بيسوا)

تأتي من تعذيب بعضنا لبعض

بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير"

تنتهي السهرة الممتعة ويصرّ الرجل الطيب على أن يوصلني لباب البيت والتأكد من أن الذين يتبعوننا منذ خروجنا منه لن يقتحموه مرة أخرى.

يتواصل الحوار مبتعدا تدريجيا عن المجاملات.

- أتعرف لماذا طلبت منك عدم المرافعة عني أمام الموظف المكلف بإصدار الحكم الجاهز؟ بصراحة ما الذي يدفعك للمشاركة في هذه المسرحيات البائخة.

يتبسم الرجل الهادئ.

- معك أن كل هذه المحاكمات السياسية مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها أمر يصعب قبوله على مهني مثلي. بيني وبينك ماذا تريد من محام أن يفعل أو حتى أن يكون إن منعه من الكلام.

فجأة ينفجر ضاحكا وهو يضيف:

-ما المحامون دون الكلام وهو وظيفتهم وهويتهم ووسيلة رزقهم .

نعم ما المحامون دون الكلام، شأنهم في هذا شأن الوعّاظ والمرّين والتجار والسياسيين والصحافيين والدجالين وكم من مهن أخرى لا بضاعة أخرى تناجر بها... والكلام من المهد إلى اللحد هو وحده الذي يقربه ويتعدّمهم ، الذي يجمعهم ويفرقهم، الذي ينيرهم ويضللهم ، الذي يجعل من حياتهم نعيما لا يضاهاى وجحيما لا يطاق .

عند باب البيت يطفئ الرجل الطيب سيجارته المغروسة طول الوقت بين شفّتيه ثم يتوجه إليّ وكأن به شيء من التردّد.

-آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

-ما الذي يحبّبك في هذه السياسة اللعينة ولماذا تهتمّ بها أصلا ولك ميدانك الواسع الذي تستطيع التألّق فيه ونفع البلاد والعباد بدل من هذه الوساخة التي تغرق فيها كل يوم أكثر فأكثر؟

-أنا أحبّ السياسة! لا أكره إلا هي. أنا أهتمّ بها! هي التي تهتم بي، لم تتركني لحظة بسلام منذ طفولتي. بإمكانك تجاهل السياسة لكنها هي لا تتجاهلك ومحاولة الإفلات منها بعثت محاولة الإفلات من قوانين الفيزياء التي تتحكم في حركاتك وسكناتك أحببت أم كرهت، وعيت بالأمر أم لم تع.

-كلام جميل، لكن السياسة في آخر المطاف صراع مصالح وnergسيات بين فيلة يذهب ضحيتها صغار الفئران المدعوسين بين قوائمها فما الذي يدفعك للانخراط فيها وأنت لا تريد نفسك فيلا ولا تقبل أن تكون فأرا.

-السياسة مدرستان. ثمة التي تعتبر السلطة هدفا للتمتع بكل ما توفره من منافع شخصية ويجب للتمكن منها والمحافظة عليها أطول وقت استعمال كل الوسائل ولو كانت الخداع والكذب والفساد والخيانة، والغدر والقتل. على الطرف النقيض المدرسة التي تعتبر السلطة وسيلة لتحقيق المصلحة الجماعية في إطار منظومة

القوانين والقيم ومن ثم تمارس كوظيفة لا كامتياز وتترك دون مشكلة عندما تنتهي المهمة. المصيبة أنني اخترت الأكثر خطرا والاقبل ربحا، لكنني لست نادما على خيارتي. -إذن كان الله في عونك، لكن تذكّر أن شعب كهذا الذي ابتلينا بالانتماء اليه إذا جاءته الدكتاتورية تدمره، وإذا جاءته الديمقراطية يدمرها. آسف على القول لك أنت الطبيب بأنك لا تشخّص جيدا الواقع التعيس لهذا البلد .

الواقع؟ الضغط الذي تمارسه عليك قوى مجهولة لا ترصد منها إلا ما ترصده العين المرهقة من نجوم السماء...ضغط إرادة متسلطين يجهلون وجودك ومع هذا يقررون من مختلف مراكز القرار حياتك أو موتك....ضغط إرادة القوى المبهمة داخلك التي تقرر ما الذي يجب أن تفعل لتعيش ومتى وفي أي ظروف تموت.... ضغط إرادة موتى حسموا في المعتقدات التي عليك الايمان بها شئت أم أبيت....ما الذي نستطيع تجاه إرادة هذه الشبكة من الارادات الخارجة عن كل فهم أو سيطرة غير الخضوع الدليل أو الانكار البائس والتمرد اليائس؟

العودة للهزل حتى لا يمرضنا الجدّ.

-أتريد القول إن هذا شعب ليس بحاجة لا لديكتاتور ولا لرئيس ديمقراطي وإنما لمتصرّف قضائي؟

يهزّ الرجل الذي عركته الحياة بفضاضتها المعهودة كتفيه.

- بالضبط... كل حلمه الراعي الصالح الذي لن يسرف عليه بالعصا وجرّ الصوف وأكل صغاره... لن أرضى أن أكون من قطيعهم ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب.

- لا تقسو كثيرا على هذا الشعب المسكين...قرون من عنف الدولة علّمته الخنوع والمذلة وأسلمته لشعور المهانة والعجز فتشكّلت في أعماقه كارثة انهيار احترامه لذاته وحقد دفين على كل من احتقروه... الرهان أن تعيد الثورة له احترامه لنفسه ولوطنه وسترى بعد ذلك شعبا آخر....

يتنهد الرجل وكأنّ بالنفس حرقه دفيئة جاثمة على الصدر.

-ما أغرب أن نواصل حب وطن نكرهه وألا نتوقف عن كره وطن نحبه.

كأنه نقر على وتر بالغ الحساسية.

-صدقت، هذا بلد لا نستطيع العيش فيه ولا نستطيع العيش بدونه. لا نحلم ونحن فيه إلا بمغادرته ولا نغادره إلا وليس لنا من حلم غير العودة إليه. لكن كما تعرف كل شيء ممكن في هذا العالم حتى أن يصبح لنا في يوم من الأيام وطن هو الأرض التي نهرب اليها لا الأرض التي نهرب منها.

صمت كئيب بقية الطريق.

من الغد يتجدّد الحوار والمشي مع الرجل الطيب المصّر على تفقّد أحوالي كل يوم.
- على فكرة قد يمكنني إعانتك على ما تكلفك السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتها على رأسك. مما يقال همسا وجهرا أنه لا أحد يريد هذا الطبّ الشبوعي الذي تحاول فرضه. وضعك في الكلية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكز الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.

- يكذبون عليّ كعادتهم. بخصوص صرامتي المزعومة هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.

- لا أصدّق.

- فعلتها والله دون تقاضي فلس أو مراودة المسكينة.

- ولو! هات التفاصيل وسرّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.

- طالبة من بلد بعيد جمعت في آن واحد قلة الذكاء والجمال والمال. دخلت مكنتي ذات صباح ترفل في أسماها باكية لأن كل من توجّهت إليهم من زملاء الأعزاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمرّ الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيئُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تندر في كامل الكلية.

شيء ما تحركّ داخلي يأمر بمدّ يد العون لآدمي سيح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوت مثل كل من ابتلاهن الله بما ابتليت به من مصير.

قلت لها هذا موضوع سهل، جمعنا له كلّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدت أرمي أول مسوّد في وجهها. تمالككُ أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجيبة محسنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها.

قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً تباع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يُسوّه الله أحسن مما سوى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. أضفت بشيء من الاستفزاز نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلّفين آخرين قد ينتهبون للخديعة ويتسببون لي في مشاكل جديدة أنا في غيّ عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يش بي أحد.

كيف لا يتغلب من حين لآخر تعاطفك مع الآدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جلاّ أخطاءهم وخطاياهم ردود فعل قليلة الفعالية على عالم يعبت بهم عبث القطّ بالفأر قبل التهامه!

أيّ جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيل بنات حواء.

يومها لم أقصر في حقّي، كلتُ لنفسي كل الثناء مرارا وتكرارا مركزا على متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغيّر وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة. كنت أغالب نفسي من الضحك وأنا ألاحظ للفتاة بمنتهى الجدية انبهارها أمام تحسن لغة الاطروحات في هذه الكلية التعيسة ويا لهذه اللغة الرائعة في أطروحتها وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأناقة لغة الأدب.

كل هذا الكلام طبعا بلغة أجنبية أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج والمرأة الأجنبية لا عائلة لها ولا أصدقاء كثر. بعد نهاية "النقاش" مع مساعديّ المجاهدين للحفاظ على جديتهم وبعد التداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحفّ بنا وقار العلماء لنعلم الفتاة أن رسالتها قُبلت بعلامة مشرف.

لما أتمت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعثم، همستُ في أذنها أن قسّمها لأبقراط لا يعينني في شيء، كلُّ ما يهمني احترام قسّمها لي بألا تلمس أبدا مريضا وألا تغيّر من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقّف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة

الأطفال يحبونني، شكرا. لحظة سعادة صرّف. يومها قررت أن أغفر لنفسي كل ما تقدم وتأخر من ذنوبها على الأقل إلى نهاية السنة الجامعية.

تنهّد الرجل الطيب وقال:

-نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأثيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على أقصى العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر.

عما يقدر عليه الآدمي الذي يحبّك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة، حدثني جدّي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: عُصْتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصله وبأي ضربة حظ وصلْتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرُّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجوب في هذه اللحظة الفيافي القاحلة التي تفصل بين أرضي يَهْرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يَهْرَبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى يروي لنا الآدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأهواله: عُصْتُ في الثلج إلى الخاصرة، تجمّدت أطرافي من البرد، قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا إذا كانت النجاة في ذلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكر قِطَاع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الآدمي المتماوت جوعا وبردًا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعًا، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أيّة لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الآدمي محبّة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الآدمي الآخر ليس إلا ذاته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

نقطة الفصل بين الآدمي وهو في حالة الذي منه كل نقمة والآدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة ظاهرة لا أخطر منها في تشكل المجتمعات والديانات والسياسات:

طقس التضحية... في حالته الأولى هو الآدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرايين على معبد السلطة قمعا وحربا ليحفظ سلطانه وحياته هو... وفي حالته الثانية هو الآدمي الذي يقدم عنقه للذبح طائعا قربانا لآلهة القبيلة حتى تواصل بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعا عن حق الآخرين في الحياة...

على أي حال كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة. في أسفل درجات السلم الاجتماعي هو الفقير الذي يوجد بما عنده، في أعلاها هو محرّر الملايين حامي وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الآدمي انسانا. على المستوى الشخصي هو الصديق الصدوق الذي يرافقتك على الطريق يُعيّنك على أحواله وأحواله. هو الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُخرجك من رمال متحرّكة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفرع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بَدَلك من شدّة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتكئ على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاحك في يدك بروزّ الذئب، الذي يتغاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنيدي لا يخشى ما يترى به من ذئب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتجح بشجاعته، الذي لا يفتعل سَمَاعك وإنما يُنصت إليك حقًا، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهيه نجاحك ويبيكه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراك في قلبه تُواصلُ داخله أغرب أصناف الوجود.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتّخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر المفترقات للأخذ بيد التائهين المرهقين المحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الحجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على مواصلة الطريق.

آخر ساعة في سهرتي الليلية مع البحر.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير بهدوء عما يقدر عليه الآدمي في أروع حالاته وليس فقط تجاه بني جنسه.

يعود إلى الذاكرة نقاش في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق. ليلتها قلت لها وأنا أعبت بعود أقلب به جمر النار التي تجمّعنا حولها لسهرة الوداع.

- صحيح، كم نكّلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقدّسون فيها الفئران، عن الأطفال الذين يغسلون فيلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعدّه لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي الدير. تصوري أنهم خلقوا في بلد حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي: أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسي من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي. قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الآدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقدّيس فرانسوا، فاسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشي يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الآدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتنّظة، يتحرّك طابور طويل وكل آدمي ممسك بحيوانه قل بصديقه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقط، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الآدمي وبيارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصوّر.

آن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب.

فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي وبده تمسك بذراعي. تدوّي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تترأى لي بسرعة البرق الصوّر المعتادة وكيف سأفتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمة. تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الآدمي

المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربُّ يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الظلام، لا يترك لي الوقت للتمعن في ملامحه.

إنَّه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيرا على والديه. صدقتم صراخي في وجوهكم بسببٍ وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجددا على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلته التأتأة. مكاني لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روجي لمن رهن روحه عند الشيطان، بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعا.

أو كيف أن الذات لا تكتمل إلا بالذوبان في الذات الأخرى

- تفتح "ح" فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.
- علبة ليلية، تمنح أم أنت جاداً !
- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض "الستريتيز" ولا شيء آخر.
- تقظب "ح" الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.
- ستعود لخطابك المملّ عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية الخ... لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.
- أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.
- أبحاث في علبة عري وفي ذلك الحيّ الخطير!؟
- مثلا لا أحد يعرف السياسة إن لم يضع أنفه في قاذورات أجهزة المخابرات، لا أحد يعرف البشرية إن لم يتفحص ما يتقيأ الليل منها في الأحياء الساخنة من مشردين، من مخمورين، من مرضى عقليين، من لصوص، من قتلة، من محتالين، من قوادين، من تجار مخدرات، من ضحايا موادهم المغشوشة، من باحثين بالمال عن لذة مشينة في أجساد النساء والرجال وحتى الأطفال.
- أي قيمة لشهادتي عن الآدميين إن اغفلت بشرية الليل. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.
- خشيتك من العيون؟
- التي بداخلي.
- يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.
- الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء والكائنات تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... فترة الزمان التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء ولو مؤقتا عن أنظار الله والشيطان والمخبرين.
- أخيرا قاعة ضيقة عائمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر.
- أجيل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشادة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار قدر لتحتل ركحا بحجم طاولة صغيرة.

أتت تزجي ردفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل (ابن هانئ)

تبدأ "الفنّانة" في التثني وهي ترسم على شفيتها ابتسامة مهنيّة تستشفّ من ورائها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة وتواصلُ الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

هذا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياه ابتسامة النصر؟

- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لا تغاري، لست مجنوناً، ألم تسمعي بالمثل الافريقي: "من له امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك شجرة مثمرة على فارعة الطريق". وفي كل الحالات لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها.

- شكراً على كل هذا التغزل بي.

تعرض عني "ح" لا أدري هل هي حقاً غاضبة فعلاً أم تفتعل الغضب.
ثم تنفجر ضاحكة:

- تغيّبي! أنت! أظنّ أنّي مُقدّمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضاً؟

- أنتم الرجال لا تنحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّي لا أفهم الكلمات.

- إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنّى. رددي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كفيّ عن إصااق التهم المشينة بالخنازير.

كل انتباهي مرّكز على المرأة التي على الركح لا التي بجانبي.

كم في هذا الجسد من وعود متعة تذهب العقل، كم فيه من وعود خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كآني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتصرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من جسد كهذا الجسد.

تشرع " الفنانة " في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور وهي لا تكف عن اللف والدوران على نفسها.

تنهري "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.

- وتسمّي هذا رقصا!

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع...:

الرقص! لحظة استكشاف ما يزخر به الجسد من إمكانيات حركة ليس هاجسها أغراض البقاء... لحظة تفجّر الفرح فينا لأننا ما زلنا أحياء... صلاة الجسد المتحرر من كل قيوده غير مرئية ... منذ الأزل الطقس الديني بامتياز...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.

تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص. يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات اعجاب المنبهرين ووجع المحرومين. المأدبة أمام الجائعين ولا مجال لتذوق ما تعرض.

تدفعني "ح" بمرفقها.

- خذ بالك، ستسقط نظاراتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الافتعال والتكلف عند بعضهنّ.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدّمات.

- كن على حذر. ذقت أطافري ولم تجرّب حتى الآن عصّتي.

- صمّتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير المرأة ظهرها للقاعة الهائجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى جوردانس.

قد يكون من نوع الذي لم يستح كعب في التغني به أمام سامعه المهيب:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يُشتكى قصر منها ولا طول

ثم تضع يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدميّ عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى. يحتدّ الصراخ المتعالي من كل مكان.

تبدأ المرأة المسكينة للعب بأزرار بنطلونها الضيقّ تعد بعرض المستور على من جاءوا لهتك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقًا؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفاس النظارة من إعجاب بجمال جسم فاتن الأنظار، سالب للعقول؟ ... كآتي أسمعها تهمس للمشاهدين انظروا، تأملوا، سبّحوا... هذه المسرحية إخراج لتعبّد الآدمي للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدا وتجميلا منذ أولى خطواته على الطريق...

يُرمى البنطلون بلا مبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة.

تنفجر شتيمة حقيرة أرتجّ لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه.

هل ما زالت مثل هذه التعليقات المسمومة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة أم هل تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟

تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون ونظارة هائجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مخدر ما. هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات الانتظار الشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفة ويلعبون أدوارا أقل تكلفا.

تهمس "ح" في أذني: كأنك كئيب فجأة، حدثني، ما بك؟

أحدّثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحدائها وهو بكعب عال مذبّب.

كم من هؤلاء النظارة الهائجين بصدد رؤية ما أرى؟ ... هل داهمتهم هم أيضا صورة نظارتي البعد والقرب ووضعتا على العينين التي كان بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبغها النيكوتين بالأصفر البذيء، نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تثنان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم... المآل المحتوم لهذا الجسد الرائع... أيقبل أمر كهذا؟ من نرميه بالحجارة لجريمة كهذه؟

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن سيجعل من هذه الروعة قمامة متجوّلة تُرمى يوما لقمة سائغة للدود.

- انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضارّة نافعة، اكتشفْتُ الليلة وجهك المخفيّ.

- انتبهي بدل ترديد مثل هذا الكلام الذي لا يعني شيئا.

هذه العلبة الليلية الحقيرة محراب نتعبّد فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ الأجساد الرائعة. ... هذه كنييسة مكتملة يتم فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العبادة والكفر، خشوع الصلاة وعريضة السكر.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:
- لا أصدّق أنّها ستتجاسر، لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.
- أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟
من الأحسن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.
- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، وصلت به إلى القدمين أقول لك أنّها ستخلعه، ستخلعه!!!
- وماذا كنت تنتظر؟ أنّ تحاضرنا في النحو المقارن.
- يا امرأة وحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا!
يا الله عجّلي ، لا أظنّ أن ما سيخرج حتى من هذا الجسد الرائع سيعبق برائحة الفلّ والياسمين.

داخل السيارة نحو البيت ، تواصل "ح" ضحكها ثم تتوقف لتصرخ فيّ تفتعل الغضب:

-حرام عليك السخرية من المرأة المسكينة!
- لم أسخر يوما من آدمي وإنما من الأوضاع التي يخلقها ثم يبقى يتخبط فيها.
تستغرق الحبيبة في صمت طويل. أتراها تتخيل الحادثة لو وقعت؟
وفي فضاء خيالي أنا ، تفعلها المرأة صارخة خرائي على هذا العالم الذي جعل منا جميعا ممثلين ردئيين لصنف أو آخر من الكوميديا أو من التراجيديا ... ها أنا أقف أصفق لها طويلا تتبعني كل القاعة في دوي لا يريد أن ينتهي.
ثم تنهربي.

- ما لك صامت؟
- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة. على فكرة متى ستفاجئي بهدية طريفة تنتقيها بعد بحث طويل بدل هذه العطور الثمينة والشوكولاتة الفاخرة التي تشتريها بصفة روتينية على عجل في متاجر المطارات.

- معك حقّ، لماذا مواصلة عادة التعطر بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج والكل
اكتشف فعالية الماء والصابون في التعامل مع الروائح المخجلة؟
- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضدّ أن تعود لصمتك المعتاد.

تهزني "ح" من كتفي:

- عد إلى شريطة أن تكفّ عن السخرية من كل شيء والباقي.

- لا بل أنت من ستتكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.

- حتى ولو شتمتك على طول الطريق.

- كل ما تريدن. أتذكر أول نبرة لك ربّنت في أذني، أول آلو، يوم اتصلتُ بقسمك
بخصوص مريض فحوّلت ممرضتك المكالمة إليك؟

يومها قلت لنفسي يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم
جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه
الأصوات وثمان صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم
يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟

يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا-لأكلّم المرأة المجهولة، أقول لها إنني
لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو
بعثت لي بشرط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليال، وبجانبي دفتر
صغير أدون فيه ما يوحى إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.

-آه أفضل أن تحدثني هكذا، لم تغالني منذ مدة، أحيانا أتساءل هل تفتقدني حقاً
عندما أغيب....

- طبعا افتقدك أكثر مما تتصورين. البارحة مثلاً. كنت عند طبيب الأسنان وكان جاثما
فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل
بين غرغرتين تعرف كل معزتك عندي وأرجو ألا تأخذ في خاطر، لكنني لا أدري لماذا،
أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي على أن أكون بين ذراعيك.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي أتهم بادّعاء النبوة، لأن "أعز مكان في الدني" لا سرح
ولا بردعة وإنما هو الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

أصخّ السمع لما يتعالى من أغاني الآدميين وما تترنم به جلت أشعارهم وستكتشف أن
موضوعها المفضل القرب والالتصاق والامتزاج بالجسد الآخر لأنه لا معرفة لك عميقة
صادقة كاملة بذاتك وبالذات الأخرى أن لم تعش هذه التجربة التي تسميها اللغة
الوصال.

للوصول إلى الوصال طقوس معقدة لا مناص منها.

أخيرا تجمعنا الوحدة أولى ضروريات بالنسبة للمتصوفة والعشاق وهل ثمة فرق إلا بخصوص طبيعة المعشوق.

تحّدق الذات في الوجه الآخر فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. أيّ أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة بعد طول التشرّد بين الرمال.

تصرخ في "ح" بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!

ثم تهمس.

- ستترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامه تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنّها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنّجتين.

"وفي جسدي تبحثن عن الهضبة (أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلة الضائعة"

أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

- هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم

- انتبهي.

"اتحد المعشوق بالعاشق ابتم الموموق للوالمق (الحلاج)

واشترك الشكلاان في حالة فامتحقا في العالم الماحق"

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لجسد الأدمي أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في نفس الوعاء!

- رويت.

- رويت.

تستيقظ "ح" من اغفائة عابرة.

- تغتبي! بماذا تهتمهم؟

- بكلمات أغنية جميلة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق خشبي ضخم اسمه الراديو عن ترجي الليل أن يطول وأن يأمن الآدمي المسكين من مرور الزمان وأن يعيد له العمر من الأول. نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبداً، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة في مأمن من عودة الفجر.

- معك على طول. الرجاء إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- اتركي الشمس وشؤونها، ما يهمني الآن أن تردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمعت المحبوبة لكنها فضّلت الصمت؟

آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"

- نم الآن، واطركني أنام. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قبل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى يضعف الترجمة:

"يا معشر العشاق ما البشري قد ظفرت كفتي بمن أهوى (أبو العتاهية)

ضممت كفتي على درة لا شركة فيها ولا دعوى

لما تملأت سرورا بها أغربت عتي سائر الدنيا"

-تواصل مغازلتني! إنها ليلة حافلة بكل المفاجئات. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك غدا.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيدا. تصله فتتلقفك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك

الأخير... كَأَنَّ بالذات ثغرة لا تسدّ إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة ان حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل عن حاجتها الماشّة إليك.

على تخوم عالم اليقظة وعالم النوم وأنا أحضن "ح". يصرخ في وفي أشباح خائفة كائن من نار ونور. "تحلّقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم. قلت في نفسي: أيّ ذات تختفي داخل هذا الكائن الهادئ السعيد، المكتمل، المكتف بذاته، الذي لا يعرف العِلْم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، الكمال فيه اكتمل.

إذن نجح غريمي الذي تسمونه الله أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح مَنْ ألقمني علقما. فتحتُ الكائن لدراسةٍ مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين أصقفا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. أخيرا جعلت الواحد اثنين وكل جزء يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس."

الآدميون كائنات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا بتجربة الحب أيا كانت أنواعه ودرجاته!

لا يمكن أن أترك "ح" تغطّ في النوم أفوّت عليها فكرة عبقرية كهذه.

وعوض أن تهنئي على هذا الكشف الجديد الذي سيهزّ عالم الفكر، تدير لي ظهرها متأففة:

- لا تحاول العودة بي لمثل هذه القاعة الحفيرة أيا كان موضوع دراساتك المعمقة.
- لمواصلة أبحاثي هناك أماكن لا خشية أن تُلتقط لي خلسة صورة على أبوابها...إنها الأماكن التي تعرفينها جيدا... التي تتعري فيها نفوسهم وهي لا تقل اثاره عن العلب الليلة البائسة التي تتعري فيها أجسادهم.

الممثلون

هل من باب الصدفة أن أول من علّم الآدميين بناء المسارح الربّ فاكسمان، أن مدربهم على الإيقاع كان شيفا، أن معلّمة الرقص كانت بارفاتي، وأن براهما إله الآلهة لا غير هو أوّل من علّم الآدميين فنّ التمثيل؟

لذلك لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني فكرة ترك نعلّي عند الباب... ولا أدخلُ معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد، لكن المسارح بلا شكّ أو جدل من أهمّ الأماكن لتفحص الآدميين ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها.

يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طُقت شهرتها الآفاق. أغرقُ في المقعد الوثير متنقّسا الصعداء أرهقني طول الطابور. أجيل البصر مطولا في قاعة العرض أتأمل بعض تفاصيل زينتها ومزاجي على أحسن حال.

كيف لا أحبّ المسرح أداوم الرجوع إليه كلما أسعفتني ظروف الصراع بمهلة استرجاع الأنفاس... أنت هنا في مكان جدّ خاص سُحب من قائمة كل أماكن العالم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوبا بكمّ يكبر أو يصغر من المنغصات والأخطار... لا خوف عليك هنا من تغيرات مزاج الطبيعة تحميك جدران صلبة وسقوف لا تنفذ منها الأمطار... حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية تحافظ على ما يسمونه النظافة... لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تترصّد وكلها أبيتد أو وضعت في سجون محروسة بعيدة عن هذا المكان.... أما الآدميون الذين يرتادونه فلا أحد منهم يحمل رشاشا أو حزاما ناسفا ولا خوف أن تنشب معركة بالأيدي والاتفاق الضمني أننا جميعا في مكان منزوع السلاح جئناه لمزيد من التعرف على وضعنا البائس لا لمفاقمة مشاكله.

تمرّ بين الصفوف امرأة مبتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيّدي هل تريد البرنامج؟

- نعم، إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!

- كنت أمزح. تفضّلي، أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الطرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي أردت فاتضح أن الآدمي الذي يعيش سبعة عقود يقضي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا

عشرة سنة في الثروة، ثماني سنوات عملي، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال) و... ستة أشهر في المراحيض.

من الأحسن نسيان هذه الأرقام المهينة والتركيز على الكتّيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن الفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج.

تُرى هل بوسع هذا الأخير أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

آه، لو تُرك للمثلين حقُّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرضَ البارحة ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

آه، لو تُرك للنظارة حقُّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهتم أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصقّ صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا نضيف لها ونحسّن؟

تنطفئ الأضواء تدريجيا. يُزاح الستار ببطء مبالغ فيه. نترك خلفنا ما نسمّيه "الواقع". يعم القاعة صمت خاشع كالذي لا تعرفه إلا في الكنائس والجوامع.

ثم تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جئنا جميعا للتمعّن فيها بحثا عن شيء مبهم.

كل ما أعلم أن هذه المسرحية عن خاصية قارة يتميز بها آدميون وهي نكت العهود والعقود. تبدأ أغلب قصصهم في ما يسمونه الواقع أو على خشبات المسرح بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للشرطة والقضاة للتعامل مع نزعة الاجرام المتأصلة فيهم.

يبدأ شبح في الصراخ ليعلمنا أن آلام نهايته فاقت كل الممكن قبوله.

- "في نومي وببئد شقيق! انتزعت مَيّ مَرّة واحدة الحياة والتأج والزوجة!

يئنّ شبح الملك المقتول يحفّز في ابنه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنّس بالفسق والزنا اللعين".

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب هاملت ابن أخيه وهو متزايد القلق. هل فهم أنه قاتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فوقها جريمة؟

هذه الجريمة التي هي عقدة المسرحية ليست جريمة مبتذلة كالتّي يرتكبها العامة. هي جريمة دولة أي جريمة يرتكبها حماة القانون وهم في مأمن من تتبع القانون لأنهم هم القانون وسبب الجريمة الصراع على من له سلطة سنّ واستعمال وخرق القانون.

لا شيء يعرّفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون على هذه السلطة اللعينة.

كم من قصص يرويه التاريخ عن تخلص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جريا وراءها!

أي غرابة في الأمر والسلطة مشاركة الربّ في أهم مميزاته ووظائفه: قدرة إعطاء الموت والحياة والثمن المخاطرة كل لحظة بحياة من يحسب نفسه ولو للحظة ربّاً؟

تفتح الذاكرة ملف أنهض فيه من مكثتي والأزمة التي تعصف بالبلاد في أوجها أتأمل البحر وكأنني أراه لآخر مرة. تتدافع صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم منها صورة الملك الطيب الذي أعطاني "با" اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما... صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت... صورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجته كبرى حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيدا منسيا... صورة كبير الحراس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جباناً ويموت منفياً يدفن في أرض غير التي تحملته سنينا . إنها لعنة Alberich وهو يطلقها على الخاتم السحري الذي سرق منه رمز ومفتاح كل سلطة: "ليصحب الهَمّ والغم من يجري وراء هذا المفتاح، ليصحب الهَمّ والغمّ من يمسك به، ليصحب الهَمّ والغمّ من يفقده". تلك الليلة داخل ذهن بلغ فيه الهَمّ والغمّ أعلى الدرجات على قاب قوسين أو أدنى من فقدان هذه السلطة اللعينة سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني الذي منه كل نقمة من هذا المكان ملفوفا في خرق قدرة تفيض بدمي؟

يتوجّه الملك المجرم إلى هاملت خائفا متودّداً، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- "إنّه جميل ومحَبّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقد أبا وكذلك والدّه، ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوة في الأسي، لكن لمُدّة. أمّا الإصرار عليه فعنادٌ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه وهاملت يروي، متكلفاً السداجة، قصّة تخلص إيطاليّ اسمه كونزاجو من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النورا!

أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبط فيه، ومن أيّ مصباح سيشرح؟

هذا العذاب النفسي جزء من الفاتورة الاجبارية التي يدفعها كل من استسلم لإغراء سلطة لا تؤخذ إلا بالصراع ولا يحافظ عليها إلا بمعارك لا تتوقف تستنزف كل الطاقات المتوفرة والمخفية. لا غرابة أن يفتر منها الأذكىاء بنفس العزم الذي يبديه من يركضون ورائها طيلة حياتهم. عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب الى الغابات خوفا من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قربانا للآلهة في أول جفاف أو طوفان. عن مؤرخ قوله إن قائدا عسكريا من المماليك وقع جثّه جثّا الى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيدبح قريبا والقتال بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال.

ها هي تحتّ بولينبوس على أن يصدّقها القولَ بخصوص تغبّر طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادّة وأقلّ بلاغة".

- "يا سيّدتي، أقسم أنني لا أبحث عن أي بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة".

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذنيّ. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السداجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثّ والده؟

هنا يستحيل عليّ الصبرُ على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكرهه عند الآدميين. أرفعُ إصبعي متهما المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أخوا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والآن تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أوّل من يعرف السبب.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوج من أشاء.

يقربّ روزنكرانز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوَى آخر لعالمنا، فهو مُعارض وكنك المعارضين بقلبه مرضٌ.

يعرض عتيّ الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمّة. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتنم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وقلقي بخصوص سبّ السلطات زاخرٌ، ولا تُضيري قضيتي إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للآدميين! أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قُتلت والدّه وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امشي، يلعن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: كفت عتّا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنك تشوّش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.

يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنّهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هبّ لنصرتهم. لكن جحود الآدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللّثيم ويتمردون على كلّ كريم مُدْجودوا.

أجيلُ البصر حولي أقيّم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عتيّ إذا نشبت معركة عامّة بين النظارة والممثلين. من حسن الحظّ أن المشادّة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التموّج لجروني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الآدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكوّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يخفي الممثلون وراء الستار تحت وابلٍ من التصفيق. غريب أمر هؤلاء الناس. يصفّقون للمرأة وهي ترجع لهم أبشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدر عليهم من جشع ونفاق وكذب وخيانة وغدر!

يعبّر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه. ألتفتُ إليه باسمًا متأدّبًا:

- أنتصوّر ما يقدر عليه هؤلاء البشر! أخ يقتل أخا وينكح امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة! يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحدّر. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الأجنبي وأصيلي هذه المدينة، الكسالي منهم والذين يقتلهم العمل.

يَفْتَحُ برنامجَ السهرة يُشعُرُنِي أَنَّهُ لَا يَنْوِي فَتْحَ نِقَاشٍ مَعَ غَرِيبٍ مَشْبُوهٍ.

مَنْ قَالَ لَهُ إِنَّنِي أَنُوِي الصَّمْتِ؟

- كَمْ أَنَا مَتَشَوِّقٌ إِلَى مَعْرِفَةِ الخَاتِمَةِ. هَلْ تَظُنُّ أَنَّ هَامَلْتِ سَيَنْجِحُ فِي الاِنتِقَامِ مِنْ عَمِّهِ؟
بِالْمُنَاسِبَةِ، مَنْ هُوَ مُؤَلِّفُ هَذِهِ القِصَّةِ التَّعْيِيسَةِ؟

- (بِلهجَةِ البَعِضِ عِنْدَ كَلَامِهِمْ مَعَ الأَطْفَالِ والنِّسَاءِ): أَلَمْ تَقْرَأِ الأِسْمَ عَلَى اللَافِتَةِ؟
- لَمْ أَنتَبِهْ. كُنْتُ أُرِيدُ الهَرُوبَ مِنَ المَطَرِ ودخولِ أَيْةِ قَاعَةِ لِقْضَاءِ السَّهْرَةِ. لَمَّا رَأَيْتُ
طُولَ الطَّابُورِ قَلْتُ لِنَفْسِي: لَا بَدَّ أَنَّهُ عَرَضٌ جَيِّدٌ، فَلَمْ لَا أَجْرَبُ؟ يَا سَيِّدِي هَلْ أُنْزِيتُ
مَشْكَورًا بِاسْمِ مُؤَلِّفِ هَذِهِ المَسْرُحِيَّةِ الرِّكِيكَةِ؟
- المُوَلِّفُ وِليَامُ شِكْسْبِيرِ "مُون بُون مَسِيو".

- وِليَامُ مِنْ؟

- (بِنِفَادِ صَبْرٍ وَشِيءٍ خَفِيفٍ مِنَ التَّهْكِيمِ):

شِكْسْبِيرِ، شِكْسْبِيرِ. أَلَمْ تَسْمَعْ عَنْهُ مِنْ قَبْلِ؟

أَحَدٌ فِي الفِرَاقِ مُطَوَّلًا.

- فَعَلًا سَمِعْتُ هَذَا الأِسْمَ. أَلَيْسَ هُوَ مُؤَلِّفُ القِصَّةِ الَّتِي عَرَضُوهَا العَامَ المَاضِي فِي
التِّلْفِزِيُونِ وَالتِّي وَقَعَتْ أَحْدَانُهَا فِي مَدِينَةِ إِيطَالِيَّةِ اسْمِهَا "فِينِيسِيَا"؟ زُرْتُ هَذِهِ المَدِينَةَ
شَخْصِيًّا، لَكِنِّي وَصَلْتُ إِلَيْهَا، وَتَخَيْتُ كَمَا تَعْرِفُ، غَدَاةً فَيضَانِ لَا يُصَدِّقُ أَغْرَقَ كُلَّ
شَوَارِعِهَا فِي وَدْيَانِ مِنَ المَاءِ. هُوَءَا الإِيطَالِيُونِ وَقَصَصَهُمُ الَّتِي لَا تَنْتَهِي عَنِ "الفَانِدَتَا"
وَالشَّرْفِ الَّتِي لَا يُحْفَظُ إِلَّا وَقَدْ أُرْبِقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمِ!

- (بِاحْتِقَارٍ دُونَ مَسَاحِيقٍ) شِكْسْبِيرِ لَيْسَ إِيطَالِيَا "مُون بُون مَسِيو".

- صَحِيحٌ مَا أَغْبَانِي، إِنَّهُ دَانِمَارِكِي بِالطَّبِيعِ.

- (بِمَرِحٍ مَفْجَأٍ وَالرَّجُلِ يَكْتَشِفُ مَتْعَةَ الحَدِيثِ مَعَ هَذَا المَتَخَلْفِ القَادِمِ مِنْ وَرَاءِ
البَحَارِ) وَلَا هُوَ دَانِمَارِكِي رَغْمَ المَسْرُحِيَّةِ، إِنَّهُ إِنْجِلِيزِي "مُون بُون مَسِيو".

- مَا لَهُ إِذْنٌ وَمَشَاكِلُ الطِّليَانِ وَالدَّنِمَارِكِيِّينَ؟ أَلَيْسَ الأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالأَهْتِمَامِ؟

- (بِبِدَايَةِ نِفَادِ الصَّبْرِ) جُلِّ مَسْرُحِيَّاتِهِ عَنِ مَشَاكِلِ مَوَاطِنِهِ الإِنْجِلِيزِ.

نَعَمْ، لَكِنِ عَنِ نَوْعِ مَعَيِّنٍ مِنَ الإِنْجِلِيزِ... الَّذِينَ يَسْكُنُونَ قِصُورًا شَاهِقَةً تَشْهَدُ أَرْوَاقَهَا
أَرْوَاعَ أَصْنَافِ القَتْلِ وَالاِنتِحَارِ بَعْدَ أَنْ أَرَهَقَتْ أَبْطَالَهَا القِضَايَا الفِلَسْفِيَّةَ الكَبِيرَى مِنْ نَوْعِ
"نَكُونُ أَوْ لَا نَكُونُ" ... بِصِرَاحَةٍ أَفْضَلَ أَبْطَالِ تَشِيكُوفِ وَمَشَاغِلِهِمُ الَّتِي لَا تَتَجَاوَزُ مَا
العِشَاءِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَهَلْ مَا زَالَ هُنَاكَ بَعْضُ الفُودَكَ فِي الدَاتِشَا الآيَلَةِ إِلَى السَّقُوطِ وَالتِّي
يُرِيدُ ابْنَ الكَلْبِ بَيْعَهَا قَرِيبًا دُونَ أَنْ يَشْغَلَهُ مَصِيرُ مَنْ خَدَمُوهُ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

- طمأننتني. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟
يحدّق في الرجل بذهولٍ. ما من شك أنه كان سينتبه في لمح البرق أنني أسخر منه لولا
سابق اقتناع أنه لا شيء يستغرب من هؤلاء الأجانب القادمين من وراء البحار. لا شكّ
أيضا أنه قرّر لمن سيرويّ الطرفة. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف
التي سيتكرّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى أن الرجل مات منذ قرون.

هذا الأدي المحفوظ يَعرف اسم المؤلف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات
منذ مدّة لا يقدرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومةً متواصلة منذ قرون
حول هويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرسقراطي انجليزي كان
يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها الخطيرة؟ ... أيا كان المؤلف، هل يعلم أنّ
مقاطع كثيرة أسقطت من النصّ وأخرى تصرّف فيها الناشر دون رخصة إلا من
أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسماً أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتّع هو والمشاهدون ب
"هابي أند"... خاصة هل يعرف أن مُراجعة النصوص وتزييفها قاعدةٌ لم تسلم منها
حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرتّل في المعابد الرسمية؟

ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار.

إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع! بل فرصة الانتباه للنظارة وهم أهم
عنصر في كل هذا السيرك.

بالتنصت عليهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتنتطق الألسنُ بعد أن فُرض عليها أن
تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة، لا شيء غير مشاكلهم التافهة وخصوماتهم البائسة
عادوا إليها بعد ساعة من متابعة الخصومات البائسة والمشاكل التافهة للمسرحية
الشهيرة.

يقال إنهم يواصلون خصوماتهم هذه حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص
لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل احتل
المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط
المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة
في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة
الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم
السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف
على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع
الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة."

هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسِّ الحروبَ والانقلاباتِ والإرهابَ والشجارَ على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطفت الأطفال والنصبَ والسرقه والقتل بين الأحباب، العفن الذي يمكّن طفيليات تُعرَف بالمحامين والقضاة والسجّانين ومُرَوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال سواء في الروايات البوليسية الهابطة أو في المسرحيات التي تدعي العمق -فالإشكاليات المقرفة هي دوما نفس الإشكاليات المقرفة أي مَنْ كره مَنْ ومن تأمر على مَنْ، ومن قتل مَنْ ومن غدر بمن ومن سرق مملكة من. هكذا تعبّر العالم وأنت تسمع أصواتهم تتصاعد من الشارع، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهمكّم والشتم والإدانة والتهديد.

اللعنة! اللعنة! أضحجرتموني بخصوماتكم العبيية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين... كّفوا عن خصوماتكم بخصوص مَنْ ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ، من دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجدر بالحكم ومن الأقدّر على ممارسته... كّفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرفة... ماذا؟ استجبتم لدعائي! صدقتموني؟ مع من تريدون أن أتمنع بلذة المصالحة والخصام مادته الأولى؟

موضوعهم الثاني في أحاديث المشرب صدى لما كانوا يسمعون من الممثلين: الشكوى من ظروف الرحلة، كما يقول شاعري المفضّل من "عزّ مَضَى، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدّى علّت صبيحتهم، من كفّت ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرعّمًا ويغادرها مكرها".

يرنّ الجرس منذرًا بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم الكلب كلهم.

تركض أوفيليا في أروقة القصر تولول فقدت المسكينة عقلها.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوّي نوّي نوّي هاي نوّي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعاً!!!"

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد ألقاه الأمل هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يارب!؟

كأن المسكين لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمله استنكار الأدي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البريئة التي تقاسي أشرس أنواع الآلام وكلوديوس القادر على التسبب فيها لا يرفق له جفن.

لا يهمننا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شائك سنعود له لاحقاً وإنما قدرة المسرحية على اختزال ما يعانیه الأدي من آلام طوال رحلته.

ثمة آلام الملك القاتل. هي نموذج آلام كل من يظن نفسه بمأمن من قانون أن كل الغنائم مكسب نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً.

أضف للفاتورة طريقة فقد ما نتوهم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق" لأنه مقتنع أنه لو قُتل بطلاً في حرب مقدسة لهان الموت، أما أن يُسلب الحياة خيانةً وبِيد شقيق فلا تُم لا.

تمعن الآن في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه لنفقه يوماً أو آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى جل غاياته - خاصة عندما يتعلق الأمر بالصراع على السلطة والثروة والاعتبار - دون عون من الشيطان؟

يمكننا تناول الموضوع من زاوية أخرى.

ما نعرفه بالسماع والتجربة أن الملوك والأمراء يتعذبون كرعاياهم وضحاياهم. الفارق الوحيد الديكور الذي سحبته لهم طاولة القمار للعيش فيه. في عالم سنتصوره عمارة يتعالى الصراخ والعيول من لابسى الأسماك سكان الطوابق التحتية.

يتعالى نفس الصراخ من لابسى البدلات الرخيصة وهم سكان الطبقات الوسطى. أما لابسو أجمل الحليّ والحلل في الطبقات العليا فلا أرقى ولا أشجى من صراخهم، كل هذا والآلام مثل هيكل عظمي واحد غُطي بالأسماك أو بالمجوهرات

المضحك المبكي في الأمر إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق وإصرار من هم فوق على عدم النزول إلى تحت لقناعة تُستبطن باكراً من قبل الجميع أن حدة الآلام تخف مع العلو، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. ما أسخفه صراع أخذ جلّ وقت رحلتي، والرهان " التمتع " بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البناية.

ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل القصة يوتر أعصابي؟ أعود إلى مضايقة جاري. أهمس في أذن الرجل الغارق في متعة الطفل وأمه تعيد عليه الحكاية التي يحب.

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الآدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيّتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟
- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

كيف البقاء مستيقظا وهذا الغبي لا يريد أن نضايق جيراننا بثرثرة فلسفية عميقة؟
فجأة أشعر بالنشاط يدبّ مجددا في عروقي وقد داهمتني فكرة منعشة.
ما تعلمك طول معاشرة البشر أنه دوما لنفس القصة أكثر من رواية وكل راوي يحاول بيعك جزءا من الحقيقة متسترا على جزء هام آخر.
ما الرواية الأخرى التي ربما تستر عليها شكسبير؟ أبداً في تخيل بعض الإمكانات.
يمسح أبو هاملت العزق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخّرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، نعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا.
تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس ملياً يا حبيبي. لم أعرفك يوماً بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!
يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.

- أين، أين أخي الأمير كلوديوس؟
- نسيّت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى القلق.
يتنّفّس الملك الصعداء مصليا للعدراء أن تزيد المعركة الرّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجة ربّه.

ها هو مع هذا يتخبّط داخل أفكار وصور لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذِر وتُنَبِّه؟ من ضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللثيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأنّها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين.

يا له من غيبي. امرأته تحبّه. ذهب شقيقه إلى الحرب حيث سبّه المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الآدمي لينتج السموم التي تهلكه؟

ربما هكذا كانت المسودّة الأولى لهذه المسرحية والتي يسرني عرضها على طريقي.

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع أن تتمتع بكآبتك وأن تسير يوما بذكرها الركبّان، لكن كل هذا النفاق حولها! ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستاهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أمّا أن ترمي بأثك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض.

وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض الزهايمر وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين.

وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مملّك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يفتعلها الآدميون هي لمجرد تدقّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ ... أليس الآدمي أفيون الآدمي وأيضا المنته والمنشط؟ هل كل هذا الصخب لمجرد اعتصار كل ما تزخر به الذات من أحاسيس ومشاعر لا يهتم اسرافها في اتجاه الخير أو الشر؟

نقطة الضعف الوحيدة في إعادة كتابة المسرحية بهذه الكيفية تلبس الآدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيفيليا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغليبتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأن لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقات التي يضبجون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا توّرت كّلون الجلد، فإنك ستراهم يُكزرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب وهذه المأساة نموذج آخر لإستراتيجياتهم البائسة.

ثمة طريقة أخرى لرواية نفس القصة لكن سنعهد بها لمسرحي عبقرى آخر اسمه موليار، فالآدمي ليس فقط هاملت ولارتس وكلوديوس وأوفيليا. هو أيضا هاريجون، تارتوف، جوردان وأرفان، فكل تراجيديا تحمل في طياتها كوميديا وكل كوميديا حبلية بشكل أو آخر من التراجيديا.

ترى كيف كان موليار سيتصرف بنفس المادة؟

تصرخ أوفيليا في هاملت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمان لم يجدي الدهر أهلا لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرصى بأقل من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة!

- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلص من حماي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا ستي لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة.

تقرر رفض العرض لأن جوليات غريميتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستتجحج عليها بعمق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعو شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تعسا لقصص الأدميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضح الحقيقة المرة، أننا كائنات مأساوية وهزلية بنفس القدر.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثرون على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحق في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قدرة. تمهل يا هذا في شكك المزمع في نواياي. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضد المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابل للهزل وكل ما يمس الكرامة خط أحمر.

نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نتدل بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثل آخر ناهيك عن كوننا ارتحنا منذ زمن بعيد من كاتب المسرحية.

يتقدم الممثلون صفا واحدا يمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكف عن التصفيق، بل وفيه من يرفع عقيرته يصرخ برافو،

برافو. يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسه مواصلاً لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصقّق لأنه لم يفهم شيئاً من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار آدميٌّ هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهوه بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة "د" وصحرائها في الاتجاهات الأربعة.

يشتدّ دويّ التصفيق فتداهمني خشية أن يعيد الممثلون كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من اختصاص الموسيقيين. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيداً من التصفيق. أخيراً يختفون عن الأنظار.

تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس: الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد والأرواح. قد تفاجأ بعمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. أما هاملت فأخر ما يهمة الخمج الذي بمملكة الدنمرك وإنما حبّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض الايدز الذي شُخص عنده مؤخراً. إنها نفس الحالة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

ثلاث ساعات بأكملها في مشاهدة فشل الآدميين، فهذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوّة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، ناهيك عن كل الذين فشلوا في الحفاظ على حياتهم! لماذا لا أصرخ فيهم جميعاً مثل أدمي اسمه صمويل بيكت: أفضلوا أكثر فأكثر.

ربما لم نأتِ كلنا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن وفي كل المجالات، فشل طموحات بالغة الصّغر، فشل شهوات بالغة التفاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العبث.

قراري النهائي: بما أن جلّ مسرحيات البشر وافلامهم عن فشلهم وآلام هذا الفشل، فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة إلى نهايتها مكتفين بالتحديق في النظارة.

حتى الأوبرا، لن أدخلها إلا إذا اكتفى المغنون بالابتسام والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها. نعم، لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن

المشاهدين بأمان من أي فيلم والتمن الذي يدفعه المرء لدخولها هو للتمتع سويغات
في مقعد وثير بالظلام والصمت وسط بشر لا خوف منهم ولا طمع فيهم .

المخرجون

داخل ملفات الذاكرة مشهد مصوّر لمخرج بصدد تدريب ممثلة دوّنت فيه بعض الأفكار التي قد تمكنا من التقدم في تفحص الإشكالية الكبرى التي تواجه كل الآدميين.

تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى بطيئة نحو حبيبها دون جوان الواقف ينتظرها بصمت.

كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: "جئتك الليلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببْتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأت مؤشّراته تتجمّع. لكم أحببتك! لكن حيّ اليوم له وحده."

يرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهبة أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهذّب بغضب الله وكلك أمل إنقاذه من الجحيم. شيء من الجدية يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تعود مسرعة متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدّتان إلى الأمام كأنّها تتضرّع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُدوّ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد.

يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إمّا تهول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر إثارة للسخرية. يصرخ فيها الرجل واضعا في صرخته نغمة يجب أن تحمل أيضا ملله المتزايد.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهرولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرّد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:

- جئتكَ اللَّيلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأت مؤشّراته تتجمّع. لكم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ إلقاءك مثل حراك ماء بركة آسنة. يجب أن يكون كالماء المتساقط من السماء، المنحدر من أعالي شلال، المتسارع في السواقي، المتدفق من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلع الممثلة ريقها:

- جئتكَ اللَّيلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك ...

- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق والرهانُ إنقاذه من لعنةٍ أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقاط التي تختم الجُمْل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.

- جئتكَ اللَّيلة على عجل. كم يسوؤني...

- يا امرأة، قلتُ لك كم من مرّة ليس هكذا!

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها.

يخرج من حلقها صوت مرتعش: جئتكَ اللَّيلة على عجل...

يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعنيني آلامُ الفيرا لا آلامك أنت، أعيدي، أعيدي!

تتلثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

أيّ غرابة في الأمر وأنت لا تتعرّض لاعتداءٍ إلا وهو مرتبّطُ بخطئك في تأدية مَقطع من دورٍ في سيناريو ضبّطت كل قواعده حتى قبل دخولك مسرح الحياة... كنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا! ... كم صعبة هي هذه الأدوار التي نُجبر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التدكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظارة!

تبلع المرأة ريقها ومعه بعض الشيء من كرامتها ثم ...

- جئتكَ اللَّيلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا

يرفع المخرج يديه إلى السماء .

-ليس هكذا، ليس هكذا! ليس هكذا!!..اللعنة ، اللعنة ، اللعنة، ليس هكذا!!!!
" تكون أو لا تكون"، إنه السؤال الذي نقرنه باسم شكسبير. لكن السؤال الضابط
الذي نواجه به جميعا على طول الطريق هو "كيف نكون عندما نكون"
يلاحقنا المشكل العويش على طول الطريق، من المرابي، من الصديق، من العدو، من
الحريف، من المنافس ومن الحبيب. بماذا يمتلئ فضاء الفكر؟ أليس بفلاسفة وأنبياء
ودعاةٍ ومصالحين يصرخون فيك كلهم وإن بكثير من التكلف والتأدب المصطنع ليس
هكذا التفكير، ليس هكذا التصرف، ليس هكذا الايمان!

ينطلق التحدي باكرا ومعه التأنيب والتهديد .

يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة؛ ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط
غضبا: ليس هكذا! يتنهّد مطوّلا، يمطّط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصببتني
بالقرف والغثيان، ليس هكذا!

هل للانتقام أو لأن الأمر قدرنا جميعا؟ أنا أيضا لا أكف طول الوقت عن الصراخ
ليس هكذا، أحيانا في أكثر المواقع خطرا وغرابة.

يحدّق في كبير الشرطة السريّة طويلا:

- قل لنا كل شيء.

يحدّق في زميله المكلف بدور الطيّب بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي
في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغيَّان لا يعرفان
أنني لا أكفّ عن تقييم الأدوار التي يلاعبني إياها الناس أبحث بلا كلل عن الجديد في
ميدانٍ -يا للأسف-فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام في وجه المحقق الذي كان دوره ذلك اليوم لعب دور
الشرير.

-ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلت تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب
والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى الرجل المذهول، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعمن يعرف من
الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل
الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرافة الوضعية جدّدت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرّير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحته بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يفسدوا الطّيبة التي تخنفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه.

ينفجر الرجل في وجهي:

-ليس هكذا! أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصّور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسان حاله يستعطفي: لا تكن سمجاً، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولاً إخفاء أسرار نعرف جُلّها، وأنا مفتش بوليس المخبرات المرعب الذي لا يرحم أحداً. برأس أمك العبّ دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بدّ من أن يلعب كلُّ دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسْتُ المكلف بدور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القطّ. يعود لترديد نفس الجملة القاتلة كل ما يتغير منها نبرة متزايدة السخرية.

- قلت لك وأردد للمرة الأخيرة ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصية. لكنني غير مهتمّ البتّة بمشاكلك الشخصية! ألفيرا وحدها التي تهمني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضاً لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنّها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تبكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير الله. أين المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئاً. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين!

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمّح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للأدبي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقرّرها المخرج وحده.

يعود المخرج لنفس الصراخ، هُئمه اعتصارُ أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيب والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر لكنها عاجزة عن الإفصاح عنها. يفتعل نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

المسكين! كم يتكّف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دوراً واحداً في نفس الوقت يريد تشكيل الذات على قياسه

واقحامها في الدور الذي يريد إجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه...ألبيس هذا ما يريده الربّ وهو يمطرنا برسائله وبمرسلية...هل يكون هو نفسه مخرجاً مسرحياً...المخرج الأكبر؟

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدنى من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

إنه اهم سؤال، المشكلة الكبرى أنه ليس للآدميين -نموذج واحد ومتفق عليه ل"كيف هو الهكذا" وإيما مقاييس تُنافس مقاييس ومقاييس لا تتفق أبداً مع ما عداها من مقاييس.

يجب التدخل لتذكير هذا المخرج بأنه هو الآخر خاضع لنفس الاكراهات. أصرخ فيه: يا حيوان ليس هكذا الإخراج! ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامت متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي. يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المرّي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين مَنْ يمثّل ناسياً أنّه يمثّل. لا أرى شيئاً من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى

تهداً المسكينة. آخر محاولة.

-جئتكَ اللبيلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ مَنْ أحببتُ يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا.....

انتهت استراتيجية الطيبة. ها هو يعود لدور الشرطي الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!! كوني على أشدّ الوعي بخطورة اللحظة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببتِ والمهدّد بجهنم إلى الأبد. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص، من الفزع، من التوسّل. ربّما سيكون أمكنَ إنقاذُه لا لشيء إلا لأنّ نبرةً ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهدج صوت.

تعود المرأة لترديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار باكية:

- جئتكَ اللبيلة على عجل. أخيراً وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكلف، ألم م-ط-ل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!

يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا الحقيقية بعد فشلها المتتابع في سكنى الممثلة.

يخرج من حلقة صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.
- جئتكَ اللبلة على عجل. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببتُ يتعرّض لغضب الله.
أنتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا...

فجأة تحصل المعجزة. تبخّرت ذات المخرج لتترك المكان لذات ألفيرا. تتدقّق الكلمات
بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم
يتسارع في السواقي وهو خريز.

ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الآدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص
آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمر بسهولة استبدال قميص بقميص!
يخرج المخرج من حالة التقمص العجيبة هذه لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى
الممثلة المنبهة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق
اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيك من، أو ماذا؟

هنا يجب العودة لما تعنيه اللغة بمفهوم التمثيل. ثمة التمثيل بمعنى الإخراج
المسرحي. ثمة التمثيل بالمعنى الدبلوماسي.

أترانا نمثّل بالمعنيين؟

يصبح السؤال لماذا حكم على الآدمي بأن يمثّل أدوارا يشقى طيلة حياته لتعلمها ونادرا
ما يتقنها... ومن جهة أخرى من هذا الذي نمثّل والذي يجب أن نفتح له باب اللاوعي
على مصراعيه لينطق فينا أخيرا؟

أدوارهم الكبرى

المخرج الآن زي -آمي وما أدراك.

تتصاعد من جانب قصيٍّ من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطلبة.
يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناعَ راهبٍ عايشٍ القصة الحقيقية
للآدمي، بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا
فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.
يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته
ومتوجّها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

يخلع الممثل قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا ربّ البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة الممثل استبدال القناعين والانتقال من الشخصية الأولى إلى الثانية طوال
الحوار.

- وما الذي حملك على تكلف هذه المشقة؟

- قدّر كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلاّ توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فممن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلاّ أزهدت روحك.

الممثل لا لبسا قناع الراهب متوجّها إلى النظارة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في
نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجب بنفسه. لم لا
ألعب على هذا الوتر الحساس؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه
قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنك تعرف أسرار العالم

المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لِمَا حدث بالضبط لِأدَمِيّ يحمل سرّاً لي حاجة ماسّة إلى معرفته.

إنّه ملك قتل شقيقه واستولى على مُلكه وزوجته، فُجِنَ ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال إن فظاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبداً. ثمّة من يدّعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثاً عن شفاء الروح. كم من أفاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنّي أجري وراء الرجل منذ زمنٍ عليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوماً. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محض افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلّاد، ربّما لجرائمه ظروفٌ تخفيف؟ لا بدّ أن أعلم من هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همسا.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تمالك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الآدمي لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميمه ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيه الضمير وكيف استحالت حياته جحيماً وكلُّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأكثرها دقّة.

هنا يتبادر الشكُّ إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثيره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشدّ القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظّارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهذه الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنف.

توقّف عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

كل القصة سخيفة! كل هذا تمثيل، بل من أردأ صنفا! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحى بأننا طول الوقت نمثل حتى لا نقول-ندجّل على أنفسنا وعلى الآخرين -وأنا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟ يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهجّج.

مهلاً أنت الممثل. ما زال النصّ بحاجة إلى خدماتك. أترت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلع له لتقمّص دور آخر.

تفضّل واللبس أقتعة أهمّ الأدوار التي يمثلها الآدمي والتي تتردّد من جيل لجيل بثبات مُلفت للانتباه. أما أنت المكلف بالصراخ لا "تصدقوا شيئاً" الرّم مكانك سنستدعيك كلّما تمكّن منا التبلّد من جديد.

يبدأ الراهب بلبس أول قناع لبسه الآدمي وهو قناع روبنسون كريزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:

يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة تزار كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أني على وشك الموت وجدت نفسي مرمياً على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وأنا تائه في هذه الجزيرة المنسية من كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمرّ يوماً وتخرجني من هذه الوحشة القاتلة...

يقفز فجأة على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الآدمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة... هو الذي جاءها طوعاً.

يخلع الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند.

ثم يبدأ في الإلقاء الحزين: أخيراً بعد طول التشرّد في الغاب الموحش الخطر للجزيرة المنسية من كل الآلهة، أبصرت كوخاً قلت قد أجد فيه أخيراً ملجأً يحميني من الموت الذي يركض ورائي. فتحت لي سيجليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبه التي ستحمل قريباً طفلي في أحشائها. تردّدت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء يلاحقني، أحشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.

تصرخ سيجلند: لا عليك، دَخَله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن فيه من الشقاء، خارج أو داخل أي مكان.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الآدمي فالشقاء لم يوجد إلا بوجوده هو، من الأفضل وقد تورطنا بمجيئنا هذا العالم الثبات والمواجهة.

يخلع الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد ثم يأخذ في الصراخ: الآدمي بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فأفر التنين ولا حتى الربّ ووطان. هو أئى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الآدمي. إنها قصة أخرى ستنتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بحرقه تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوفا بعصاه وتحت الإبط اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه يافيه بنفسه أوامره ونواهيه للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: ما زلت تصدقون خرافة وجود إله مهتم بكم فردا وفردا ومشغول بمصيركم أفرادا وشعوبا! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حشرات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياه لنفسه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الدّ من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضبا بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهللا فاتحا ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الربّ انتبه لوجودكم أخيرا بل وقّر أنّ يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعتكم فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: قولوا له يحتفظ بابنه، وهذا المنقذ المزعوم لو كان قادرا على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أبشع موتة ممكنة.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلت تثقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالته بآلامكم وصلواتكم وندورك؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا إبليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتبهوا للفخّ. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليلبس قناع ينج-لو صارخا: انا ابن السماء لي مطلق السلطة والثروة والجنس، لا أخضع لشيطان أو إله، لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا هذا الدعي، سيحترق قصره، سيفقد كل شيء والباقي، سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين أَلِفَ رؤيتهم بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينج -لي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هادئة وربع ابتسامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حلّ لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكنس من كل أرجاء الذات الشهوة أول سبب ألامنا. هكذا يستطيع الآدمي مواجهة العالم لا يرفّ له جفن وقد أصبح لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: انتصار؟ ونحن نبتّر جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ تصدقون إمكانية التغلب على الشهوات وشهوة التغلب على هذه الشهوات هي نفسها شهوة؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبي. يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به " لا تَلَقْ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مادامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلُ الدهماء يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدقوا حرفا من هذا الدعي الآخر، لا أحد أكثرث واشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الآدمي المعروف بجعجعته الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع المغني سارج فانسبورغ. يحرق أمام جمع من الطلبة المفلسين ورقة نقدٍ غالية الثمن يستعمل ناراها لإشعال سيجارته ثم يصرخ وهو مخمور على وشك الإصابة بنوبة صرع: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضادّ.

يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخا: إنه ممثل رديء آخر لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستفزات مراهمين يحاول لعب دور البطل العدمي.

الدور الأخير.

يخلع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان هذه، لكنني كنت أشطر منهم جميعاً، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: هذا عالم —أرخبيل كل جزره محتشد يجاور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أفضح.

يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع .يبعث برجله اليمنى الأقنعة المتراكمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي الى الصبح مع سكارى الحي لينسى .

حتى في هذه الحالة، هو أيضا ممثل منغمس في دور لا يعرف أنه من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من المستكشفين مهمته استكشاف جزء بسيط من الطيف الشاسع للأفعال والتفاعلات والقصص التي يقدر عليها الآدمي.... وكأن وراء الستار باحث يدرس عبر كل ما يلعب البشر من أدوار وكل ما يعيشون من مسرحيات الكوميديا والتراجيديات كيف هي تجربة الوجود آدميا.

النظارة -المنتظرون

هذه الليلة يُزاح الستار عن مسرحية يقال إنها الأكثر عَرَضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوعُ عنصر قارّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات ادوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئاً أو أحداً.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غداً بكلّ تأكيد.
نفس المشهد لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غداً بكلّ تأكيد.

ليلة بعد ليلة بعد ليلة، يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غداً بكلّ تأكيد.

يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غداً.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار فودو

كيف لا تصبح هذه المسرحية من أشهر المسرحيات في العالم وهي تتناول الشغل الشاغل للآدميين، وكلهم ينتظرون شيئاً أو أحداً.

منهم من ينتظر البخت أو الشفاء، أو الثروة، أو الشهرة، أو الحرّية، أو الثورة، أو المدينة الفاضلة، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخلص، أو نزول سكان الكواكب البعيدة، أو

الحلول، أو التجلي، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو كشف الأسرار، أو الموت، أو البعث... كلهم ينتظرون من العالم أن يعطيهم شيئاً ما لا يعلمون أنه أعطاهم كل ما في جعبته.

كأنّ الزمان توقف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب مّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكن غدا بكلّ تأكيد.

أتى أم لم يأت، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبلد ويحضر الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح النظارة وقبلة الأنظار كل منتهب يجب أن تكون القاعة المكتظة لا البشر الذين يتراقصون على الركح.

هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئاً على الأقل طوال العرض. أغلبيهم يعرفون أن الغائب المخفي لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشدودة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة.

المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم الخائبة.

يتكثّف الصمت داخل القاعة كأنّ التوتّر بلغ أقصاه. لم يعد الممثل الأوّل يتحمّل انتظاراً عبثياً يدفعه شيئاً فشيئاً نحو الجنون:

- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوساً.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب

- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ "لا نضيق وقتنا في حُطْب فارغة. لنفعل شيئاً ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللّحظة، البشريّة هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه."

هذا الجنس الذي حُشرنا فيه! هل يقدر الرجلُ خطورةَ هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه!... من حُشرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكنا "الحقيقي" إذن؟

يتعمّق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي انتظار من يعرفون لا جدوى انتظاره.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب مّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

ترى من هذا الذي لم يأت لحدّ الآن ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعادة الأبدية التي لا غشّ فيها؟ أن يأتينا أخيرا بالترياق الوافي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حال سبيلنا.

- نعم فلنذهب في حال سبيلنا.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد مساح تتغنى بمخلّص سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الآدمي! لكن كم من مرة جاء هذا المخلّص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدّدًا السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما افتعلنا تجاهله.

- طلب مّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرّة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتّى يتلقّى واحدة منها، أو حتّى بيضة إذا كرّرها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا:
طلب مّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

يقول الآدمي لنفسه أو لتوءمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلّينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.

- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إنّه قصير.

- تجذبي من القدمين.

- وأنا من يجذبي؟

أصبح صمت النظارة هو المثير لأعصابي.

ما الذي يدور بخلدكم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية. أليست الحقيقة أن كل قصصنا مهازل تغطي على مآسي ومآسي تغطي على مهازل.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحبّ من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضّل حالاً فسأخذ ضدك الإجراءات الضرورية.

تنظلي الحيلة على فودو، يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هلو، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!

يتسمّر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوّس.

- يا رجل، إنّها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدورها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك خرفت إلى هذا الحدّ، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء الى مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مّي السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكلّ تأكيد،

(ضحكة شماتة)

متى أقنعتُ معافىً بالنعمة التي يتمتع بها وأنا أردد له قول الحكيم "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى" ... لا أحد يرى التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همِّه واهتمامه منصبان على ما لا يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ فيّ هذا كائن نهرب منه، لا نتظره بكل شوق.

صحيح، لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيخان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بيكت وإلا لا تلم إلا نفسك.

يأتي الردّ الشهير: لو كنتُ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب المسرحية نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَقَ كائنين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدّعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية كما بدأت لا مجيب ولا ردّ على سؤال ماذا نفعل كلنا هنا؟

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأنّ على رؤوسهم الطير. هنا أسارع إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو فودو. أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوها منا. أما المهمة التي جئنا من أجلها والتي انتظرتم عبثا تأكدها فهي "ماشية" بل وعلى أحسن ما يرام.

عن أي طبيعة بشرية يتحدّثون؟

لا توجد ظاهرة تطرح عليك كمّا هائلا من التحديات في فهم الآدميين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوما منهم:

صغيرٌ يطلبُ الكبرا	وشَيْخٌ ودّ لو صَغُرَا (العقاد)
وخالٍ يشتهي عملا	وذو عملٍ به صَجِرَا
ورب المال في تعب	وفي تعب من افتقرا
وذو الأولاد مهمومٌ	وطالبهم قد انفطرا
ومن فقد الجمال شكى	وقد يشكو الذي بُهرا
ويشقى المرء منهزما	ولا يرتاح منتصرا
ويبغي المجد في لهفٍ	فإن يظفر به فترا
شُكَاةٌ مالمهم حَكَمٌ	سوى الخصمين إن حضرا
فهل حاروا مع الأقدار	أم هم حَيَّرُوا القدرا

هل وراء التباين الذي يظهره الآدميون ما يوحد بينهم بغضّ النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويموتون يوما؟ بعبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة هي القاسم المشترك بينهم رغم التعدد العجيب في مواقفهم وتصرفاتهم وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية.

ليحق لنا الحديث عن طبيعة بشرية لا بد من توفر ثلاثة شروط.

يجب أن تكون الخصائص المكوّنة لهذه الطبيعة موجودة عند كل البشر وذلك أي كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجا.

يجب أن تميزهم عن بقية الكائنات الحية. التعذيب نموذجا.

يجب أن تنتقل من جيل لآخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. القدرة على الكلام نموذجا.

على هذه الخصائص أيضا أن تكون ثابتة عند نفس الشخص وبنفس الكيفية عند كل البشر. مثلا من طبيعة الحديد أن يذوب إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. أي استغراب سيتمكن من مستعمليه لو اكتشفوا أنه يرفض الذوبان حتى إذا بلغت الحرارة 1600 درجة ومرة أخرى يذوب إن وُضع بضعة دقائق في الثلج.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ امام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتجاهله مرة ثانية وأحيانا أن تهاجمه بقرنيها الصغيرين!

إنها الظاهرة الغريبة التي تواجهنا ونحن نحاول تحديد الطبيعة البشرية. اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل: الجرأة.

نوعان من الآدميين حسب هذا المقياس.

ثمة الآدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حظّ فيه. يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومدعورا.

ها هو يخرجها من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلّب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وتسرع لمغادرة الوكر.

ثم ها هو يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد، عن الأنثى، عن العلم، عن المجد وعن لذة الخطر استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاضم الأخطار بقدر ما تتعاضم الغنائم ولا بدّ "مع الشهد من إبر النحل".

ثمة الآدمي النقيض الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرجها من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو يركض على الطريق كالغزالة وسط أعشاب عالية تربص داخلها الأسود.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

قد يُشتمّ من كلامي أنني أفصّل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية. لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب: الشجاعة.

تمعّن في مشاعر كل آدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الآدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم الذي ينطلق الآدمي لاستكشافه وهذا يبدأ برصد الثوابت والبحث عن القوانين التي تتحكم في الظواهر والأمر رهن بالقدرة على تجنيد طاقة هائلة تملكها الذات اسمها العقل.

ها أنت من جديد أمام توجيهين متباينين.

الأول هو توجه الآدي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل.

الثاني هو توجه الآدي اللاعقلاني الذي يختلق الأساطير ويجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالصلاة والسحر.

هنا أيضا يمكن للموقفين التجاور في نفس الشخص: نموذجا نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعامل جل الآدميين مع ما يواجههم العالم من مشاكل وإلى أي مدى تتباين قدراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع.

في هذا المجال يجب اعتماد تصنيف سيولا² إذ لا أكثر موضوعية منه.

يقول هذا الخبير في الشؤون الآدمية أنه لا يمكن الحكم على الآدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور يوجد على سطح الأرض أربعة أنواع من الآدميين:

الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء.

الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار.

الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء.

الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيولا خبر سيء وخبر أسوأ. بماذا أبدأ؟

الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبية قارة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

مع كامل الاحترام لاستهجان العالم الكبير للحمقى والأغبياء -ولو أنه مخفي بمهارة - أن عليّ كباحث موضوعي التذكير بموقف الجاحظ طيب الله ثراه "وأن الغباء أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقع البلاء في البلاء وإن سليم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء".

كان للرجل الحصيف العرّيف بالبشر فهم أعمق بضرورة أن تحتوي طبيعتنا على الشيء ونقيضه: "وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابون

² Carlo Maria Cipola (1922-2000) مؤرخ وعالم اجتماع إيطالي - (الناشر)

الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون".

هذا ما يجزنا للحديث عن أغرب ازدواجية عند البشر.

ما نعرف أن بوسع الآدمي ترك الحبل على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلط والذهاب بهذه الغرائز إلى أبعد الحدود.

نموذجاً ليفيا وهي تسمّم الأقارب والأبعاد لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضّع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سويّ.

في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح وبوذا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغاندي الذين نذروا حياتهم وأحياناً ضحوا بها من أجل سعادة الآخرين.

هل ثمة تفسير لهذه الازدواجية الثابتة حتى لا نقول الأساسية والمؤسسة للطبيعة التي نبحث فيها ألا وهي ثنائية الخير والشرّ؟

في فيلم غنائّي شهير يعرض أب متشرد سكيّر بيع ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات للبروفيسور هيجنز حتى يجربّ عليها نظرياته في علم الكلام وربما أشياء أخرى.

ردا على استنكار البروفيسور وهو يظنه يساوم المبلغ، يصرخ الأب: امكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب مبادئ وأخلاق ولن أنزل تحت عشرة جنيهه.

الاستنتاج من صرخة أبو ليزا أن هناك ظروف تسمح لبعض الآدميين بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم.

ما هذه الظروف الموضوعية التي تلعب دورا أساسيا في تشكيل ما تتصوّرها خصائص الطبيعة البشرية؟

إنها التي تسمى في لغة المناضلين الظروف الاقتصادية والاجتماعية أي آليات ونتائج توزيع الثروة والسلطة والاعتبار داخل المجتمعات البشرية.

من وجهة نظر الطب الاجتماعي واستنادا لمؤشرات موضوعية، تفرز هذه الظروف الاقتصادية والاجتماعية أربعة "أعراق" بشرية تتباين بينها باختلافات جذرية في المواقف والتصرفات، في الأفعال والتفاعلات وبصفة عامة في العلاقة مع الذات، مع الآخر ومع العالم.

"العرق" الأرقى هو الذي تشكله نساء الطبقات العليا، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة وتفاني الآخرين في السهر على رفاهتهن.

خلفهن ترتيباً "العرق" الراقى وهو الذي يضم الرجال الأغنياء لمتعتهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أقل من نساءهم لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين العرقين الرفيعين أن المنتمين لهما بالولادة أو بالتسلق مقتنعون بأنهم يمثلون جوهر الطبيعة البشرية في نقائهما من كل الشوائب.

هم من يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدّعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخبرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

نأتي إلى "العرق" الوسطي وهو الذي يضم النساء الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقدير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا. منهنّ من سيكافحن بكل شجاعة وشرف لكن منهن من سيجبرهن الفقر على بيع أجسادهن، أو تصرفات أخرى " لا أخلاقية" مثل الكذب والتحيل والسرقة.

أين رحلتهم من رحلة الأدميين الذكور الفقراء الذين يشكلون "العرق" الأدنى.

مثل هؤلاء الأدميين لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحدثكم عما يعانون ابانها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرده الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يأكلون من فتات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايّد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوّر من أصناف الوجع. هم من يملئون المناجم والمصانع والحقول والسجون والثكنات وساحات الموت.

إنهم من يخترعون الأديان والنقابات وحركات المقاومة وكل الثورات الفاشلة.

هم من تصفهم اللغة (لغة العرقين السيدين) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعا، عوامّ، إرهابيون ومخربون..... هذا إذا لم يذهب بعض من المنتمين إلى

نادي المتفوقين عرقيا إلى اعتبارهم حيوانات آدمية أي من طبيعة أقرب للطبيعة المفترضة للحيوانات منها للطبيعة النبيلة التي هي طبيعتهم.

السبب هو اللامساواة في توزيع ثلاثية السلطة والثروة والاعتبار.

لكاتب يدعى برنارد فريبر رؤية طريفة لجذورها.

يلاحظ هذا الباحث الحصيف في الشؤون الحيوانية أنك إذا وضعت ستة فئران في دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدة تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن هذا الوضع المحدد يفرز بسرعة تنظيما يتشكل من سيّدين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعبّدين في خدمتهما، ومُتمرّد، ومُتسوّل يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.

المثير في التجربة أنك إذا جمعت ستة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكليّة: سيّدان وعبدان ومتمرّد ومتسوّل. إن أخذت ستة مستضعفين أو ستة متسوّلين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوما، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.

لقائل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فئرانا. رديّ أن المدهش ما يُظهره الفئران من أوجه شبه عديدة بنا.

كم تاه المفكرون وهم يبحثون عن أصل اللامساواة بين البشر في جذور الثقافة والاقتصاد والدين والسياسة... كل هذا لرفضهم أننا حيوانات اجتماعية مثل النمل والنحل وفيلة البحر واللامساواة عند كل هذه الكائنات غريزة... الفارق الوحيد أننا نحاول جاهدين وضع حدّ لها أو التقليل منها لا لتفوقنا الأخلاقي المزعوم وإنما لأننا نكتشف أنها على مستوى مجتمعاتنا البشرية المعقدة خيار خطير وإن كان غريزيا.

من يستطيع إنكار توزّع الأدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمرّدين ومتسوّلين؟ من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون لتسولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصّل إلى التمرّد.

آه الظلم الذي قد يكون هو أيضا خاصية قارة وجزء من طبيعة البشر المزعومة!

صحيح ما قاله الشاعر فيهم:

الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّ لا يظلم (المتنبي)

لكن من أين تنبع معارك المصلحين والثوار على مر العصور لوضع حد له؟ أليس من الانصاف أيضا أن تقول فيهم:

والعدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زلة فلعلّمة لا يعدل

تداهمنا في هذا المرحلة من تفكيرنا إشكالية قديمة قدم الفكر نفسه: هل نحن كائنات مسيّرة أو مخيّرة؟

تجد كالعادة في تصرفات الآدميين ما يثبت الرأي والرأي المعاكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي. من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف، إلا أنه يستحيل على ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيجهز على العدو مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمدّ له بقرية الماء ليبلل شفّته؟

خذ آدميا وضّعه في أقصى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظافره محروما من الحنان من التشجيع من الثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف هل سيصبح قاتلا بالجملة أو قديسا، هل ستتحكم فيه غرائزه أو هل سيكون هو من يتحكم فيها؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووقر له منذ نعومة أظافره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب واثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. لا أحد يعرف هل سيصبح ملاك رحمة أو هل سيعش ويموت وليدا يرى فيما وهبته الحياة وحرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

أيا كانت وضعيتهم ومؤهلاتهم ومساحة الحرية التي يوفرونها لأنفسهم ثمة قاسم مشترك أساسي بين الآدميين قد يكون النواة الصلبة التي نبحت عنها.

هم يجاهدون طوال حياتهم للتحكّم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت، للتحكّم في ذواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي، للتحكّم في رفاق الطريق علّهم يكونوا مطية لا عقبة، للتحكّم في الطبيعة يبغيون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم، للتحكّم في العالم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل.

ثمة من بحثوا عن أقصى درجات التحكم باستئصال الشهوات التي تتحكم فيهم.

لكن كل من تنسّكوا واعتصموا بالكهوف أو الأديرة بقوا رغم تضحياتهم وحسن نواياهم يدورون في حلقة مفرغة وهم يستبدلون إرادة التخلص من شهواتهم بشهوة التخلص من هذه الشهوات.

النتيجة دوماً أنه لا شيء أكان أقصى قدر من السلطة، من الثروة أو من الزهد يسمح بتمكين الذات من التحكّم المطلق في ذاتها فما بالك بالتحكّم في العالم.... اللهم إلا بوسيلة لم تأخذ في هذا النص حقها من الاهتمام والحال أنها أهم ما يميّز الآدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لا راعي حكى يوماً أنه شاهد بأمر عينيه خروفاً يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الخروفية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يُعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضراب جوع احتجاجاً على تعسّف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضمرت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستنتحر أكثر أنواع الروبوتات تقدماً (ربما هذا ما سيقص له مخترعوها طرباً وقد أيقنوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أمامنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري وربما يكون النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي نبحت عنها.

توقّف على الصورة قبل أن يطلق هذا الآدمي المتحرر من كل وصاية الرصاصة على صدغه. تخيّل معي كل الرسائل التي يوجهها للقوى المبهمة التي حكمت علينا برحلة لم تستشرنا فيها في أي مرحلة من مراحلها: أنت العالم بكل اغراءاته التي قيدتني بها على طول الطريق لأتحمل أخطارك وقسوتك ولامبالاتك، احتفظ بإغراءاتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.

أنتِ الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائك جملة وتفصيلاً. أنتِ القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي أرفض مواصلة تجربة لم تعد تعنيني لا أسبابها ولا أهدافها. أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حذائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردني هذا، لم اعرف من عقاب أشدّ من الارتحال معكم.

هذا ما يجرّنا للحديث عن مزاج الآدميين وهو دون شك عنصر أساسي للاعتبار في أي بحث عن طبيعتهم.

ثمة فصيل المتشائمين الذي ينتمي له كل المنتحرون علماً ولحسن الحظ أن كل المتشائمين لا ينتحرون. نستطيع أن نعدّ من بينهم الذين سكتوا بعد أن بحّت

أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين ويقرب عصور الحب والعدل والرخاء، الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله، كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قَرَّبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم، كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمَر، بالأفيون، بمهدئات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوماً، كلّ الذين سلّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا، الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت، الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضيها مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظّ أن ليس لنا مستقبل. دوما ظاهرة الازدواجية.

ثمة فصيل المتفائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للآدمي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهم، السكّير، العاشق، المبدّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكل للدجاج المحمّر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي. الصنف العلماني من هؤلاء المتفائلين هو المقتنع بأن وصولنا المدينة الفاضلة مسألة وقت لا أكثر، بل فيهم- صدّق أو لا تصدّق- من يؤمن أن الآدمي كائن قابل لتغيير طبيعته إن بالمجهود الخاص وإن بإكراه الدين والقانون والجوائز المختلفة.

لمن يحبون التصنيفات القطعية يجب التذكير بأنك تجد شيوخا تظنهم في حداد مزمن وهم يحبّون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بإتقان.

نأتي لرصد صنف ثالث من الآدميين قلما ينتبه له المحللون: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في أسلوب التعامل مع العالم.

ثمة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرّ على تخليصه من القسوة، والفضاعة، من القبح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تصعّ أوزارها أبداً لتغيير ما ليس قابلاً للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضعينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلّ خطئه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقةٍ متأزّمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من

سوء نية متبادلة تُسمّم حياة الضيف وحياة مُضيف يَزرع غيظا من ثقل دم الزائر
ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.

وفي المقابل ثمة الآدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقبضه الساذج
يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على
مقاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له- أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط
والتركيز على الورد. فرقٌ هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى
العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يُقبل بامتنان ما
يجود به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالمَ البخيلَ بالشكوى والشتم.

صحيح أن للبشر خصائص تميزهم عن الكائنات الحية الأخرى وأساسا قدرتهم على
الفكاهة وقول الشعر وممارسة التعذيب، لكن أن تكون لهم طبيعة واحدة تمكّنك من
التنبؤ بمواقفهم وتصرفاتهم في هذه الظروف أو تلك، فأمر مشكوك فيه... كلها تتحرك
في الاتجاهين بين قطبين متناقضين: الشجاعة والجبن، الشهامة واللؤم، التمرد
والخنوع، كل أشكال الظلم والعدل، كل أنواع الخير والشرّ.
تفسيران ممكنان للظاهرة.

تفسير النصف الفارغ من الكأس، أيام الغضب من البشر وهو كالتالي: كانت الهندسة
العامة التي كُلفت بما يمكن تسميته البرنامج الآدمي على قدر كبير من انعدام المهنية
فصنعت مخلوقا هجيناً وضعت فيه كل التناقضات وهذا ما أعطانا الآدمي بكل مشاكله
المقرفة.

تفسير النصف المملآن من الكأس أيام الصبر والتسامح وهو كالتالي: أبدعت الهندسة
العامة عندما حرصت على خلق نفس الكائن بهذا الطيف البالغ الاتساع من المواقف
والتصرفات إذ هذا ما يسمح بخلق كمّ هائل من الحالات والظروف والقصص
المتباينة تسمح كل الممكن من تجربة الوجود آدمياً.

أيا كان التفسير "الصحيح"، أنت أمام مفارقة نظرية وصعوبات عملية تجعلك تخطئ
أن يئست من الآدميين وتخطئ إن علّقت عليهم أدنى أمل، تخطئ إن وثقت بهم
وتخطئ إن رفضت لهم كل ثقة، تخطئ إن صدّقتهم وتخطئ إن اعتبرتهم دوماً من
الكاذبين، تخطئ إن ترأفت بهم وتخطئ إن قسوت عليهم، تخطئ إن اعطيتهم أدنى
قيمة وتخطئ إن لم تحترمهم أشدّ الاحترام.

الإشكالية الأكثر احراجا بخصوصهم

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين.

هو أغلب الوقت شكل أو آخر من المطالبة بالاعتراف بقيمتهم.

حتى وهم أباطرة وملوك، اثرياء وعلماء، تراهم يبحثون دون توقف عن مزيد من المدح والتشديد بمنابقيهم وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد!

تعب العالم وأنت تسمعهم طوال الطريق يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلتهم وذواتهم على بقية المرشحين. فواحد يصرخ أنه من " شعب الله المختار" والآخر أنه من " خير أمة أخرجت للناس" ناهيك عن كل ما مجدوا أنفسهم من نوع الذي قال:

إني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لا تستطيع الأوائل (المعري)

على فكرة، صدق أو لا تصدق ثمة أمة أكملها خصّصت ركنا قارا من أديها لشعر الهجاء والفخر لا تعي بما في ذلك من تلوّث للشعر وحقّ من قيمته.

التحدّي الفكري الموضوع أمامنا ما قيمة الآدميين حقا بغض النظر عما يدّعون.

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبتّ في قيمتهم أهميتهم الفعلية داخل قافلة المرشحين وهي لا تتضح إلا عندما نتخيل تبعات تبخرهم فجأة.

ثمة الذين يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة عظّمة الذين تتواصل القافلة لا يلحظ المرّحلون اختفاؤهم أكثر مما لحظوا وجودهم.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقييم الوحيد للآدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

أيا كان خيارك لا مجال لإنكار أن هناك بشر يتركون بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية وآخرون لا يتركون إلا بعض الأطنان من البراز وآلاف اللترات من البول وستين إلى سبعين كيلوغرام من اللحم والشحم توقّر غذاء مفيدا للذباب الأزرق ولأجناس مجهولة من الدود والجراثيم.

ها قد استنفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الآدميين. يمكننا العودة للتفكير في موضوعنا بكل هدوء.

تعترضنا من البداية قضية المنهجية. نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الادعي أو بأية أدوات نقيسها؟ لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للآدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الأثروبولوجيا المنخرط في زمان يحسب بمئات الآلاف من السنين.

حاول معه تخيّل الثمانين مليار آدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطح الأرض منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المفترض حاليا لبشريتنا.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا ريميا تفاخر به متاحفنا.

أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

والآن افتح عينيك وأعد التمعّن في هؤلاء الآدميين الذين يتراخضون من حولك وستتبلور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية الآدمية وغير الآدمية التي تتابعت وستتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، ليس للآدميين أدنى قيمة.

تجربة ذهنية ثانية للتعمّق في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من العقلاء والحققي، وعيّنة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، وعيّنة ثالثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العيّنات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدّما ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعة أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنها وكيفية عمل أدمغتهم.

ستكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الخلايا المذهلة التعقيد، الأعضاء العجيبة، نفس الأدمغة المثيرة لدهشة أكبر العلماء.

أي ردّ تتوقع من هؤلاء الباحثين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟

كأنك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لُقّت في خرقة فذرة وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لُقّت في ورق ملوّن... ويسأله ساذج أي زمردة أغلى قيمة؟

إذن بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقات، لست أرفع شأنًا من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأنًا من أي سلطان جالس على عرشه...مما يعني أنه لكل الآدميين نفس القيمة.

التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفاً صنع كل الكائنات ومنها البشر. بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن العبقرية المخفية التي صنعت الآدميين تدبّرت أمرها لكيلا يشبه آدمي آدميا آخر وهي تحرص على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل في تكوينه البدني ولاحقا النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في أكثر من خاصية.

كأنك في أكبر معرض للوحات حرص أعظم الفنانين أشد الحرص على ألا تشبه لوحة لوحة أخرى، مما يعني أن كل لوحة قطعة فنية فريدة ومن ثمة لا ثمن لها. أي استنتاج غير أنه لكل فرد قيمة ليس فوقها قيمة؟!

ها قد أضفنا للصعوبة التي اعترضتنا سابقا صعوبة جديدة لا تقل عنها استعصاء على الفكر.

نعم ما هذه الكائنات التي يتجاوز داخلها الملاك والشيطان كما يتجاوز داخل نفس الوعاء النار والماء، فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار؟!

ما هذه الكائنات التي لها نفس القيمة وليس لها أدنى قيمة ولا تضاهي قيمتها في الكون قيمة؟

الغريب

" سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن
ستصبح صومعةُ الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن"

حافظ

مقدّمة الكتاب الخامس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد.

يجب الاعتراف بأن الأقدار حيتني برحلة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة وتجديدا والدليل على حسن طالعي حضوري أضخم حفلة نظّمها الآدميون في تاريخهم الطويل الزاخر بالأعراس والمآتم.

كم غريب أن تكون هذه الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة شاءت الصدفة أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -واستباقا للحدث بسنة كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير مراسم افتتاح المراسم من طرف ملك لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها تونجا هي أول مكان يهّل عليها الزمن الجديد. ثم ترنّ الأجراس تباعا في مكانين اسمهما طوكيو وسيول، تعلن دخولهما تحت ظل هذا الزمن الواعد.

يواصل الطيف زحفه غربا يمدّ ظلّه على أراضي تتسع رقعتها شيئا فشيئا.

تصاعد هتافات الفرحة والترحيب به من مكان يدعى موسكو.

عند وصوله مكانا اسمها روما، يخرج إلى الشرفة المطلة على ساحة مترامية الأطراف تعجّ بجماهير الآدميين، عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود وبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجرّبة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

ما هي إلا ساعة حتى تشتعل أنوار برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة أخرى. تتفجر الشماريخ لعاصفة صاحبة من الألوان تثير عاصفة من صراخ التعجب والاعجاب. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرحة الذي بداخلهم احتفاء بأنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

فترة قصيرة وتصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار وشماريخها الصاخبة تحيل الليل نهارا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سبورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور وكل نقطة ملحمة كائن حي... هناك في ذلك الركن البعيد من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقا، تتلأأ قصتي التي سيخبو بريقها بسرعة البرق... لماذا هذه الغلالة العابرة من الأسى، يكفيني شرفا أنني كنت جزءا من العرض؟

بداهة قتر بشر المكان الإفراط في مظاهر الترحيب. لكن لأي هدف خفي؟ ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنوات آخر ما عرفت من حروب خبرة في إسقاط كل مغير آت من السماء؟ هل من مغير أخطر من هذا الزمان الذي يدعي التجديد وقد يكون محملاً بما لم نعرف لحدّ الآن من الويلات؟

لحسن الحظ يعبر الزمن المعقود عليه كل الآمال سماء المدينة بسلام. يخترق المحيط الشاسع ليحطّ في ساحة اسمها تايمز سكوار. نفس الحشود الآدمية بنفس الفرح الصادق والمفتعل.

أخيراً ينتهي ببسط ظلّاله على البشرية جمعاء وصل أقصى غرب الفضاء الحسّي. على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيراً شاخصاً بين الفينة والأخرى إلى السماء كأنني سأرى هذا القرن الموصوف بالواحد والعشرين على شكل ضباب خفيف يمرّ فوق رأسي.

قرن محمّل بكل الأخطار التي يتحدثون عنها في الجرائد ويهلّل له هؤلاء الأغبياء! لكن هل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم بالآدميين؟ لماذا لا أداهنه، علّه يكون أقلّ فضاضة من القرن الذي ولى الأدبار لا هو آسف على فراقنا ولا نحن آسفون على فراقه؟

أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي غادرنا وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. الدليل كل هذا التهليل لمقدمك والبشر يترمون في أحضان بعضهم البعض وكأنهم يسرون في أذنك بكل ما يتمنون وينتظرون منك.

أيكون تفاؤل القوم نوعاً من التدجيل على الذات، وأكثر التاريخ تكراراً مملّ؟

"بعد السلام الحرب (برنارد فرير-بتصرّف)

بعد الحرب، السلام

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة."

هل سيفيقون من الغد بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر؟ يا للمساكين! ما الذي يخبئه لهم المستقبل؟

صراحة آخر ما يهمني هذه الليلة مستقبلهم، كل ما يهمني مستقبلي أو متى ستنتهي
هذه الإقامة الجبرية المفروضة علىّ منذ سنين وهل سأستطيع أخيرا الخروج من هذا
السجن الكبير الذي يسمونه الوطن.

أو كيف أن الأدي غريب داخل ذاته كغربته داخل العالم

يحدّق فيّ الشخّاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد ثم يصرخ بأعلى صوت: "بونبول" أجنبي قدر، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
الوعد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أسْتثمرها في صدقة تعود عليّ
بالدعاء لا بالثتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا الأجنبي!
الفرار وكأنني السارق وهو المسروق.

يبقى أن هذا الشقيّ جاهل بأنني غريب مرخّص له بالوجود في بلده هذا ولست
كالغرباء المختبئين في الأقبية خوفا من اكتشاف الشرطة أمرهم وترحيلهم خارج
الحدود. نعم ، لا خوف من أمر كهذا، ففي محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على
ها جس فقدانها أو سرقتها مدّتي بها سلطات البلد ببالغ الامتعاض.

من مزايا هذه البطاقة أيضا تطميني حول هويتي، ففيها معطيات مكتوبة عن اسمي
ولقبتي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي ليبروقراطية
المراقبة والتحكم عن بعد.

ما أنا متأكد منه أنني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط
الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. أليسوا مثلي عابرو
سبيل في هذه المدينة، في هذا البلد، في هذا العالم؟

أغرب ما في الأمر أنني لست فقط غريبا لكل هؤلاء الغرباء وإنما انني غريب حتى
لنفسي.

بربك ألا يدهشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو
فيها مثل ضيف محرج لمضيف مجهول!

ألم تشعر يوما أن لك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف): الظاهر الذي يعرفه
الجميع والمخفي الذي لا يعرفه أحد ولا حتى صاحبه؟

هذا الأنا المخفي هو الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والراحة بعد التعب. هو الذي
يقرّر متى النوم ومتى يجب الإسراع إلى الحمام. هو الذي يفكر ويتدبّر ومن يأخذ أهم
القرارات. لا تشعر بجبروته قدر شعورك به وهو يقودك باتجاه الخروج النهائي، كأنك
مجرّد طردٍ يُسلّمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد
أن أموت أصلا؟

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها"

أمرنا سقراط "اعرف نفسك". أما كان عليه أن يقول اعرف نفسك؟

كم مرّة صرختُ في هذا المختفي وراء الستار، ليعرّف بهويته: تكلم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القرّب بيننا؟... عبثاً.

يا ما تحايلتُ على صمته بشتمه والتملّق فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق البحر!

أعود مع هذا لاستفزازه أكثر من مرة: هل تقبلُ لذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرها، بمثل هذه المظلمة؟ هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه هو الذي يبتسم ولسانُ حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذا الوضع.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء لهيبه بهذا المخدّر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً. طرقت بابه بالعلم فلم ينفع، بالفلسف فلم ينفع، بالفنّ فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتيجةً أيّا كان البابُ الذي تطرق، وهذا الأنا المخفي أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

على فكرة كم لنا من أنا؟ الأنا الواعي... الأنا المخفي عن الأنظار... الأنا الذي يعيش قصته في فضاء الحواس... الأنا الذي يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال... الأنا الذي يرحل ليلاً ليعيش نصف حياته في عالم الأحلام... الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت... أليس من الأصحّ أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعداً أمام كل فعل نحن، وليفسّر البعض هذا بجنون العظمة؟

كل ما نحن متأكدون منه أنه لا يوجد تفاهم وحتى احترام أبسط قواعد العيش المشترك بين الأنا و... الأنا.

"إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبي هذا مع ذاك اشتراكا

أم تراني واهما فيما أراه

لست أدري!"

عاجلا أو آجلا يأتيك الإحباط من أي تعارف أو تفاهم مع الغريب الذي يسكنك. تدخل فراش النوم هاربا من جبروته فتجده يتربص بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ فإذا به هو الذي يوقظك. تتنكر عله لا يعرفك فتكتشف أنه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي. مثل هذا التصرف غير اللائق لا يردّ عليه إلا بشكل أو آخر من الانتقام حتى ولو كان انتقام الذات من ذاتها.

في فضاء خيالي يمكنني أن أدخل إحدى الدور المظلمة التي نحبّ الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مخاطبا بتأدب مبالغ فيه المرأة الواقفة خلف منضدة لاستلام المعاطف: لا معطف لي، لكنني أودعك "نفسي" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات. سيناريو انتقامي آخر.

أتوجّه الى المرأة وأنا أحلق ذقني: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس الأخرى التي ترفض أوامري وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص الأنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة."

ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق. أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضدّه هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟

كل الخوف أن يسارع هو بتقديم القضية ضدي عملا بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

كأنّي أسمعهُ وهو يقدّم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأنًا. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأيٍ سخيّف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة تُنظفها دوريًا فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثرًا. أشير عليه فلا يسمع. أنبّهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلّم. أهدّئه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً. أمره بما هو في مصلحته فيتنطع. أذفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيؤمن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلّل. أُلّف لعنة على هذا الشكل الذي قبلتُ التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّقٍ مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيّف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

كل هذا عبث في عبث. بدهاة لا مجال لتطبيق أمر سقراط والأنا المخفي مقرّ العزم لأسباب لا يعرفها إلا هو على البقاء سرًّا يتخبّط في جوف لغز.

لكن ألم ينبهنا شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء لأهمّ متطلبات الرحلة

"الذي يعرف البشر دوما حذر (لاوتسو)

الذي يعرف نفسه محفوف بالنور

الذي يروّض البشر قوّي

الذي يروّض نفسه جتّار"

السؤال كيف يمكن للمرحّل أن يعرف نفسه ويروضها ليكون محفوفًا بالنور وهو طوال بحثه عن ذاته - كما قال حكيم من أتباع بوذا- مثل الفارس الراكض في كل اتجاه بحثًا محمومًا عن الفرس التي يركب!

أوكم هو مضلل نموذج الحاوي والمحتوى

في بعض أهمّ ملفّات الجري وراء الفرس الشاردة، يبادرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقّك أن تعرف بماذا قتلته.

كان أبو شادي صديقا عزيزا من بلاد الشام سيرحل به سرطان الدم في عنفوان الشباب بعد أقل من سنتين وكنت سعيدا أن يكون هو لا غير من سيعينني على تحمّل حصة تشريح لم يكن ممكنا تفاديها.

- الأعراض السريرية تشير إلى مشكل ما في جهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. أريد التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملفّ هذا المسكين.

- تؤمر أمر، لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.

- لا تضيع وقتي يا جزّار، هيا توكل على الله.

يرسم الزميل بسكينه أخذودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلّا بفضاظة ودفعة واحدة اللسان والحنجرة والمريء والقصبّة الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحبّ.

يا لبختنا ونحن أطباء هذا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجّى على الجليز لا خوف من شرطي وقاض وجلّاد! كم من أطباء عصور غير بعيدة علّقوا في المشانق لتشريحهم في الأقبية المظلمة جثثا مسروقة من المقابر...هم أيضا كانوا يفتحون مثل هذه الجثة حجتهم العلم والدافع البحث عن القوة الغريبة التي تسكنها والتي يعطيها الآدميون أكثر من اسم.

لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلّان جانبي قفص العظام يمتلئان بأوّل نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.

يرمقني الزميل ساخرا.

- مالك؟ هدىّ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.

كأنّ هذا الغبي يعلم، كأنّه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي!

يواصل استفزازه شجّعه تزايد ارتبائي.

- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟

- ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!

ما زال على ملامحي ما يستفزّ عند الرفيق مزيدا من العدوانية الضاحكة.

- يا ولد، منظرِكَ بَرِّي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق.
أخرج لحظةً لتتنفّس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتّم السرّ يوما على الأقل،
الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام زملاء.

- قلت لك كفّ عني لسانك وابهرني ببراعتك في قصّ اللحوم.

نواصل التشريح بصمت ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن
استفزازه بالنخز والقص والافتلاع والتقطيع.

كأنّ الزميل يقرأ في ذهني.

- لا تقلق، هو لا يشعر بشيء منذ خرجت روحه... أو على الأقل هذا ما يجب أن نعتقد.

الروح!

في الملفّ الذي اصطدم فيه الطفل لأول مرة بهذا المفهوم الغامض تطلق "ما"
صرخة مدّوية وقد وصل العويل من بيت خال وجار منذرا بحدث جلل. تري كل ما بين
أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء يلطنن خدودهن
ووسطهن رفيق اللعب مسجى بلا حراك.

ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث والرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه
ولطف غير معتاد ليأخذوه بعيدا عن الطفل الآخر وهو ساكن لا يبدي اهتماما بوجود
ابن عمّة متزايد الحيرة والهّم.

هل يحمل على محمل الجدّ أعراض حسين عن قدمه؟ مؤكّد أنّه سينهض صارخا من
مرقده ليقفز جريا معه نحو أشجار الزيتون واللوز. يواجه الطفل باحتمال رهيب أن ابن
خاله لن يلعب معه لا هذه المرّة ولا المرّات القادمة.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مردّ لحكمه.

عند الرجوع إلى البيت تتزاحم الأسئلة في ذهن الطفل: هل من الممكن أن تقرّر روحه
هي الأخرى الخروج من جسده فيضعونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتلول ووجهها
مدفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شبّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد الشرّ عن وليدي وسبعة ألطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل
أعوذ برب الناس من الشيطان الخنّاس.

- "ما" أين ذهب روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفتي الطفل. يفهم من نظرتها أنها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ريع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روحي.

لا تزيد الإجابة الظن إلا بلّة تضيف الحيرة للحيرة.

تخرجني من تلاطم ذكريات موجعة لذيدة صرخة مفتعلة للزميل.

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوماً الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من يديك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب في المستشفى الجامعي تزود حوانيت شاورمة المدينة بلحم مواطنينا الأبرياء.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء...

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

- هل ترى شيئا؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لنتظر المعلم، إما يبرئك وإما الويل لك من لسانه.

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال. يجب ترصد ظهور الدليل الآخر. لا بدّ أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

في أول لقاء يبادر الطفل والده بسؤال غريب جديد.

- "با"، ما هي الروح؟ لماذا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟

تتغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وابل القبل متحدثا بكلمات غير مفهومة عن حضور السّاعة دون أن يتكلف عناء شرح ما السّاعة ومتى تأتي ولماذا تسمّى الساعة وليس الدقيقة.

وممّا بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها منّة من الله حبانا بها دون الحيوانات، أنّها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحركنا وتتحكّم في كل ما نحسّ ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.

كم كان الرجل يغالط طفلا بريئا وهو يتبحّر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصبه، والحال أنّه كان يعيش على تصورات ساذجة تشيعها منذ قرون رؤى غير متقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه.

يعود بي صوت ضاحك إلى المكان والزمان اللذين غفلت عنهما لحظة.

-والآن ما رأيك في فتح الجمجمة لسياحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين.

ينقصّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أخيرا العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل الأنا المخفي وأكثر جرأة قصص أسلافنا الذين كانوا يضعون فيه الروح بتمامها وكما لها.

مسكين ذلك الفيلسوف المسمّى ديكارت. خرج على الناس بحقيقته مدّعا أن هذه الروح موجودة بكل مكوناتها داخل غدّة يتيمة تتوسّط العضو الرخو ومنها تخرج بالموت كالهواء من بالون ثقبتة يد شريرة.

كم من علماء أكثر منه جهلا أدعوا بعده أن معقل الروح بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطنين الأوّل والتخيل في البطنين

الثاني والفكر في البطين الثالث والمشاعر والحركة في البطين الرابع ... والحال أن هذه البطينات فراغات لا تحتوي إلا على الماء!

انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخوا يقطر دما.

كل الأشلاء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطفة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المنغلق على أهم محتوى اسمه الروح هو الآن مثل كتاب مزقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيت منها كلُّ الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكونات لا يفهمان منها شيئا ولا يقدران ما ورائها من عبقرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع الجثة.

كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السمكية باهتمام فيه حيرة الجاهل وتكلف الممثل.

كان يقلّبها بقضيب حديدي يتأكد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفقناها وفق أوامره. كانت دقة القطع وبراعة القصد من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر آخر فشل للمريض وآخر تشخيص خاطئ لطبيب مكسوف. يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.

- تقول إن الأشعة لم تكشف عن شيء. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحوصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو سُخّص في الإبان... آه كم مؤسف!

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبرة التي يتفنّن بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتدّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.

لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا "مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.

يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملئ عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.
- هل يظن هذا البليد أنني لم أُجرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصّص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين!
- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجاناً بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته العادية مع كل الأطباء الذين يطلبون التشريح. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.
- جزارون وخباطون أيضاً. يا له من تخصّص!
- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.
يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.
- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.
يا لهذا الآدمي المسكين، كيف انتهى لمثل هذا الوضع؟ لم تطلق شفتاه آها واحدة احتجاجاً على انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أوّل من اعتدى عليها، بل هل كان له حرمة ترابية أصلاً؟ هل كان حقاً ولو يوماً واحداً سيّد جسده هذا والجسد الذي نظن أنه الملك الخاص بامتياز هو من البداية إلى النهاية ملك للأبوين، للمجتمع، للدولة، للأطباء وفي آخر المطاف للدود، للذباب الأزرق والجراثيم تفعل به ما تشاء.
كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي (عبد اللطيف الإدريسي)
الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"

يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بدون تشخيص مقنع لسبب موت المريض.
يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها متزايد الحيرة أمام عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.

*

دوماً إشكالية الروح، لكنها في هذا الملف روح تخرج من الجسد... وتعود إليه أحياناً.
تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التفوّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائياً وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى.

الصبيّة في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء الفالسيوم سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ. لا بدّ من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابة. كأنني في حلم. تقول أمّي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكّر أنني مشيت. تقول إنني أتكلّم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الآدميين فكرة التقمّص وكأنّ الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة تخرج في هذه الحالة لتحلّ محلّها روح أخرى، غالبا روح شيطان ما؟
أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متناقل الخطى:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحنّك على الصور نظرة متمعنة مقيّما ما سيلقاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئا لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالا إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبتّجة، يتجمّع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر. يُحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شقاف هو آخر ستار يحجب الدماغ الذي تصرّ الإشاعات الرائجة عن كونه مركز النفس والفكر وهذه الروح التي يتحدث عنها الكل ولا أحد يعرف عما يتحدث.

ينتبه "المعلم" لشرود ذهني. تتصاعد الحدّة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.

ترداد حدّة صوته وهو ينهر الممرّضة والمبّج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا مع كل هؤلاء الاغبياء المحيطين به.

"المعلم" في حالة متقدمة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجد. هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار الظالمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الآدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة أخرى!

كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه. يضع الجراح المحبط جانبا كل أدواته يخلع قفازه وينصرف صامتا. أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمي بلامبالاة في المزبلة. يصرخ في "المعلم" فجأة بعد الانتهاء من خياطة الفروة مهرولا إلى قاعة العمليات المحاذية:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

-سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهزّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت. ألوذ بالفرار لأرمي بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممرّ.

أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قديمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه.

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من جسد الآدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تحت لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمّتا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار وقد توقّف في أروع أعماله عندهما لا يعنيه بقية الجسد المحمول فوقهما.

هل كنت أنتصب واقفا مرفوع الرأس لولاهما؟ هل تمتّعت يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صلف الجهلة أن معقل الروح في القدمين وتحديدا في ابهام القدم اليسرى؟

آه، من جديد ثنائية الروح والجسد وهي الطريق المسدود الذي يرتطم به الفكر والحلقة المفرغة التي يدور فيها منذ قرون بحثا عن تصور مرضي للآدمي.

يجب الخروج منها والخروج عليها. كيف؟

كما لا خلاف على أن الفكر هو الخاصية القصوى والمنتج الأرقى للدماغ السليم وهو في أوج عطائه وأنه لا وجود لهذا الفكر إلا بوجود هذا الدماغ، يجب اعتبار الروح الخاصية القصوى والمنتج الأرقى للجسد الحيّ وهو في أوج قدراته ، آنذاك أي حاجة أو معنى للتفريق بين الروح والجسد والبحث لهما عن طبيعة متباينة وهما وجهها نفس قطعة النقد التي اسمها الذات!

بينما أنا جالسٌ أو اصلُ تدليكٍ قديمٍ، يمرّ أمامي عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة لفحصٍ روتيني قبل كل عملية على الدماغ. فجأة يتضح ما الطريق الملكي الذي سيقودني إلى مربط الفرس الشاردة .

أو كيف أن الذات ذاكرة أو لا تكون

من طبعة الكوابيس -قُل من مهامها-كشفُ أخشى ما تخشاه الذاتُ وما تحاول عبثاً
رَمِيه بعيداً في أعماق اللاوعي.

في أحدها، يتوجّه عجوز ذاهل نحو نافذة الغرفة ليتسّمّر محدّقاً في شجرة زيتون علاها
الغبار. تلتفت إلى بابٍ يُفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفتعلةً المرح:

- صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيّبة. هلاًّ تبعثني الآن
لمقابلة الدكتور.

من هذه الأثني؟ لماذا تبسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا
المكان؟

تواصل المرأة المجهولة كلاماً لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئاً:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأنسة زهور. انتبه دوماً إلى الأسماء المكتوبة
على الأبواب لتتذكّر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعاً، ستحصّران
المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر
الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات
الدامعة؟

تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وامّحت
الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان وهو وحده العليم بأنهما
تُجيلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدهما بعدُ ووالدهما الذي شارقت رحلته على
الانتهاء أفضع نهاية.

يتفحص الطبيب الشاب شكله المرتعش القادم من مستقبل غامض مغالبا قلقاً لا
يفهم تفاقمه، ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد. تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن
التحديق في العجوز المتزايد ارتباكاً وتوتراً:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخل الغربية الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مُفَوِّهٌ لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "با". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل الأخت الكبرى التي يسميها النصّ تفاحة:

- معقول ألا يتذكّر أنه قابِلُنَا البارحة! أننا نحن مَنْ أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفيحة:

- الشهر الماضي رأيناه يمرّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضا.

تريدان العجوزَ مهذبًا وهو يتابع لحظةً بلحظةً ذاكرتهُ تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم وذاته تلاشي ذاته شيئًا فشيئًا كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى.

تريدان العجوزَ مهذبًا وهو يتابع لحظةً بلحظةً تسلّل الظلام وانطفاء الأنوار داخله.

ذاتُه الآن تعيش اللّحظة بعد اللّحظة بعد اللّحظة ولا رابط بين اللّحظات. أصبح كلُّ فعل يمسخ ما مضى من أفعال، وكل شعور يمسخ الذي سبقه، لتتجمّد تجربة الوجود في جليد حاضرٍ وقد توقف سيلان الزمان. مَحَت يدٌ غيرُ مسؤولة تجربةً يتيمة فريدة لم تحصل ولن تتكرّر، على كثرة ما عَرَف العالم وجرّب من القصص. مرّقت صفحات كتابٍ رَمَتها في كل اتجاه فإذا بالنصّ غير مفهوم للقارئ ولا لكتابه. تبخّرت الحمولة من ظهر الحامل وهو لم يصل بعدُ إلى حيث يجب أن يوضع الجمل.

هل من نهايةٍ أفضعُ لرحلةٍ ظنّ الآدمي أنه خَيْرَ كلِّ فظائعها؟

ما الذي سيبقى من العجوز وقد ضاعت كل المهارات التي كان يفاخر بها: مهارات الطبيب الذي يشار له بالبنان، مهارات الطباخ الذي يبهر زوجته وضيوفه بالأطباق اللذيذة التي كان يتفنّن في اعدادها ، مهارات لاعب الشطرنج الذي كان يقضي الساعات الطويلة مع أذكي اللاعبين فلا يغضب لهزيمة ولا يفرح لنصر؟ ترى هل سيفقد قريبًا حتى مهارة المشي وقد نسي كيف تُوضع القدم أمام الأخرى وكيف يُدفع بالجسم إلى الأمام ويُحافظ على توازنه خطوة بعد خطوة. ماذا لو نسي أيضًا ما يُفعل بعد التغوط لتستلم مؤخرته أيادي مرتبكة تمسح فضلاته.

يقاطع المرأتين شيخ الطبيب.

- سنبدأ بقياس بعض المؤشرات في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر وانما اضطرابات في الذاكرة لأسباب يمكننا علاجها.

الذاكرة وما أدراك ما الذاكرة! ما الذاتُ دون ذاكرتها كفعليّ التذكر وهو الشرط الضروري لثباتها عبر الزمان وتواصلها فيه وكخزان المعطيات التي تحفظ فيه وتستثمر تجاربها منذ بداية رحلتها في العالم؟
يستيقظ الحالم مبللا بالعرق.

يجب أن أنعزل في مكان قصيٍّ من القارب، أصمُّ أذنيّ عن صخب السّيل، عن هرج من هم معي على المركب، غير عابئٍ بصراخ من ألقّت به الحركة الهوجاء في الأمواج المتلاطمة، كل همّي تجنيد الذاكرة في آخر جهد، علّها تشعّ بكل نورها لتضيء أعماق الذات قبل أن يُطفئ الموتُ فتيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقير اسمه العته.

الغوص في البئر التي ليس لها قاع

الرحلة الآن داخل الذات لا خارجها ووسيلة الاستكشاف ذهن على أقصى درجة الانتباه. انتهى القفز من ملفّ لآخر حسب هذا الهاجس أو ذاك. يجب تنظيم كبرى الملفات لعل بعض المعاني المغيبة تعود للسطح.

في إحداها تكفكف "ح" دموعها.

- هل تذكر لحظة الدواع؟ بقيتُ على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحتَ الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائياً. تراجعتم آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئاً كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

- لم أكن أقرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمتُ أن تبكي ورأسك على صدري.

أعود للاستفزاز الضاحك الذي طبع دوما علاقتنا.

- كفى رومنطقيات مراهقين، هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولاً ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعاً. لله دَرّه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنى مصيبة مع النساء الأخريات.

- أريد أفعالاً لا أقوالاً.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزول فمها وأنا أدفع الحساب:

- حجز بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. هذا ثمن الغرفة مسبقاً. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيداً، فلا تسلموها قبل السادسة ظهراً.

وعند باب النزول تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجع في قراري.
- من يتفهّمك أحسن منّي، أنا أيضا لا أريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

- بلي، وداعا.

عبثا أصرخ في "ح" وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.
- يا امرأة انتظري، كم من مرة مثلنا هذه المسرحية، قفي، ثوبي إلى رشك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دقّعوني.

القاعدة التي لا تخرج عليها أي قصة أنه لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية... حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم... كيف لا يكون الأمر كذلك مع "الذي منه كل نشوة".

"مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحبّ بغير قلع

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع"

ترى ما الذي أضافته قصتي لقصص الحب والغرام؟ ... هل كان فيها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس السيناريو الأزلي؟

أه، هذا ملف ضخم آخر عن نوع آخر من الحبّ والألم.

تتدافع منه صور طفلة كانت تركض من بعيد لترتمي في أحضاني عند دخولي البيت ولو لم أغب عنها إلا ساعة، طفلة كانت تفعل كل شيء لتضحكني وتخفف من همومي، طفلة كانت دوما مصدر فرح وفخر. ها قد وصلت محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الآدمي أذنيه عن كلّ نداءٍ، وقد اقتنع أنه لا ذكاء يبرّر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحة مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضّل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إنّها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

دخلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟

أحاول فتح مَنفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامته ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.

يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من سجن إلى منفي، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تحرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.

- طبعاً البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقتّه للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميئة وموتها على حسابك وحدك.

يتواصل اضراب البنت عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الالام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرّة فاقت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تنهّد: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

"لم نجن بنينا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنأ من مات بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

تنتهي تفيحه في غرفة إنعاشي قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمني الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفضّع ما في العالم ليس ما يُلحقه بنا من آلام وإنما لامبالاته.

يخيّل إلينا أحيانا أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل معه. يأتي الحادث الغيبي أو الرصاصة الطائشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيقة المرّة أن العالم يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتكّ منه كل ما يملك.

ثمة حلّ جذري قادر وحده على انهاء عذاب تجاوز كل الممكن تحمّله. لتنتهي كل الأحزان دفعة واحدة. لتمت تفيحه ولأمت حدوّها.

الموت! وليمة من اللاتفكير واللاشعور، "شبعة" من اللاوجود، تخمة من العدم. طفرة من السلام، نهاية كوابيس النوم واليقظة، الراحة الأبدية... وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخافون شيئاً قدر خوفهم منه.

أي معلقة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي يوم يخلّصني منه الموت نهائياً؟

حذار، حذار، عالم قدّرك فيه جوع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حب لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق... حذار، حذار، كلُّ معاركه بلا نصر وكل منتصر فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان في آخر المطاف مهزوم... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضَيِّعاً ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار، عالم قاس، فظ، لئيم، بخيل، مخادع غير قابل لفهم أو لترويض... حذار، حذار، عالم لا يعبأ بك، لا يهتمه من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار حذار عالم لا يستأهل إلا ما فعل تولوز لوتارك وهو يخلع سرواله يتغوط أمام البحر صارخاً خرائي عليك يا عالم الهمّ والغمّ.

الشيء الوحيد الذي يمنعنا في مثل هذه الحالات من الموت كمدا الحبّ.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنِّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحاً لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفضح ما عشت من آلام. على العكس حُبِّي الآن لها لا تُسعها السماوات والأرض.

حقا الحبّ تلطف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعنت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب نمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشاً، عرضة للعطب، مؤهلاً لتختطفه منك في كل لحظة مفترقات الطريق.

أحسن من فهم طبيعة الأعرابي الذي سُئل أيُّ أطفالك أحبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث الهشاشة أمام أخطار الحياة. بقدر ما تتعاظم هذه الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سعينا لحمايته بكل ما نقدر عليه بكل ما يقوى شعور الحبّ.

حتى الشيخ الأكبر لم يوفّق وهو يربط الإيمان بالحبّ فالحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددٌ حياته لا ضمان لتواصله إلا حُبنا له... اللهم إلا إذا قبلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأن حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقنا الوحيدة للتقرب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.

أقرب يدي من اليد المتدلّية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات.

أتوجّه للرافدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلنا بها تحية التعارف يوم وصولها: لغة الرضع.

كأنّ شيئاً ما نفذ أخيراً إلى شيء ما... لمس شيئاً ما... حرّك شيئاً ما... أثر في شيء ما... غير فجأة وجهة المسار. أ يكون ذلك لأن هذه الطفلة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيراً من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوماً بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.

فجأة أسمع تفيحه تهمس مبتسمة. تتجدّد فيّ شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم. تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينين بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

- "با"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصله المشوار؟

- لمواصله المشوار.

- على علاّته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علاّته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئاً قدر فسح كابوس مرضها من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

كم أنا محظوظ بأن وظيفة المحو لا زالت سليمة وأنها محت الكثير من ملفات الوجدع والفشل الأخرى وإلا كان مصيري كمصير أولئك المساكين الذين يسمونهم العباقرة المتخلفين ذهنياً. الواحد منهم قادر على استرجاع أجزاء كاملة من الموسوعة البريطانية بعد قراءتها مرة واحدة، لكنه عاجز عن ارتداء ملاپسه أو تناول طعامه دون

إعانة وكل آلامه حاضرة إلى آخر نفس بنفس الوضوح والقوة عندما مزّقت الذات اربا اربا.

يجب مواصلة الاستكشاف، لكن من أين لي الصبر لتفحص كل ما عشت من أحداث وما عشت من جربّت من داخل سيناريوهات البنوة والأبوة، الصداقة والأخوة، التنافس والعداوة، المعارضة والسلطة، المرض والتعافي، الانتصار والهزيمة، الطموح والزهد، الايمان والشكّ؟

كل ما أنا متأكد منه وأنا أقلب بسرعة متزايدة كم هائل من هذه الملفات أن ما عشت من قصص الحب يخضع لثوابت هذا الصنف من القصص، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة... هذا ما يجعل قصتي مع "ح" وإن تخضع للسيناريو العام فريدة من نوعها.

كذلك الأمر بخصوص قصتي مع طفلي. عَرَفَ كل الآباء أزمات كبرى عند إصابة أطفالهم بأخطر الأمراض وعاشوا ما عشت من آلام مبرّحة، لكن قصتي مع تفيحة في تلك الفترة من عمرها لم تحدث إلا لي أنا بكل أطوارها، بكل ملاساتها، بكل أسبابها المعروفة والغامضة، بكل تباينات الزمان والمكان وبخاتمها التي لم تنته لحسن الحظّ كما تنتهي أحيانا مثل هذه الأزمات الرهيبة.

أي استنتاج غير أنني أعيش كل ما يعيشه أي آدمي لكن في ظروف وبطريقة تميزني عن بقية الادميين وأن التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل في التعامل مع العالم هي التي تعطي لذاتي هويتها.
لأنفحص حصادي من تجاربي هذه .

لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطأ وخطيئة الاحتقار... الغي من يضحك من الآخرين واللبيب من يضحك من نفسه... في موضع ضعف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... الأناية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب.. الأصدقاء الذين لهم شرف للتعهد لأن صداقتهم نعمة النعم... الأصدقاء الذين لا شرف لهم للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء... الأعداء الذين لهم شرف للتعهد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر... الأعداء الذين لا شرف لهم التجاهل لأن الصراع معهم حَوْض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر، أي لذة في لعبة يلاعبك فيها من ليس له قيمة وليس له قيم! السيد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر... الفشل ليس ألا تنجح في تحقيق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان فشلها... النجاح والفشل حالتان أداتان-

فرصتان لاستكشاف جزء قازٍ وضروري من طيف تجربة الوجود، لا أكثر من هذا ولا أقل... الأخلاق ليست احتجاج الضعيف على القوي واستتلابه القوي للضعيف، هي تجارب ونصائح من سبقونا حتى لا نواصل ارتكاب نفس الأخطاء بنفس النتائج الكارثية... اللغة هي المصباح الذي يضيء لنا الطريق وهي الغشاء الموضوع على العينين... العلامات الوحيدة التي يجب أن نعتمد عليها ونحن نشق طريقنا في ضباب غياب المعطيات هي القيم... العالم مُغامرةٌ لم تقَرَّر بعدُ مسازها ومرقآها لا مُعطى حُدِّدت له خصائص ومهام منذ الأزل... لا قدرة ليدين، لفلسفة، لِعِلم، على استنفاد نراء العالم الفاحش وحراره المتفجّر... أكبر خطر يتهددنا فيه تبدُّل مزمّن يُطْفِئ فينا جذوة الإعجاب والعجب... من الغباء محاولة تغيير العالم ومن الإجمام عدم المحاولة... عند أهم المفترقات، احذر اتباع الطريق الأسهل الأسرع والأقل خطرا فليس في نهايته إلا الطعم، أما الطعام ففي نهاية الأضعب والأطول والأخطر وفاز باللذة الجسور الصبور... لا تحكّم في هذا العالم لا بالفكر ولا بالفعل، كل المطلوب البقاء منتبها وخلاقا... احذر من أفكارك قبل الحذر من أفكار الآخرين... استعمل أذهانهم كمطرقة لتفحص متانة آرائك، للمراجعة تلك التي يتّضح ضعفها؛ الفاسدة، لِسلة المهملات غير مأسوف عليها والتي تصمد لأشرس نقد، صَعها في ملف القنوات المؤقتة... كن دوما تلميذ نفسك النجيب، أستاذها العطوف، وممتحنها الصارم... كن مجددا لا مُرددا، عاقلا لا ناقلا، مبدعا لا مُعلّقا... تساءل: هل يوسع الأفكار التي أنشُر بين الناس أن تقلل من معاناة الكائنات، إن كانت الإجابة بنعم، تعهدنا بالسقي كما لو كانت أروع الأزهار، اجتنّبها كالشوك بلا تردّد إن كان الردّ بالنفي...

زبدة الرحلة هذا الزبد! نعم، لكنه زبدي أنا صنعته أفعال وتفاعلات لم تحصل بظروفها وتتابعها زمانا ومكانا إلا لي شخصا. هذه الفوضى من الأفكار والقنوات بالشكل الذي اتخذت في ذهني مثل بصمة الابهام أو حدقة العين التي تميزني عن بقية آدميين وإن وجدت بصمات أصابع وحدقات عيون لا تحصى ولا تعدّ.

لنسم هذا المستوى من الذات ذاكرة الأنا دون سواه... وفي صورة البئر، الأمطار السطحية الأولى التي لا زال يضيئها نور الوعي... آه ثمة شيء مثير لقلق غامض في صورة الذات كبر بلا قاع! ليكن، تحت تصرفنا صورة الشجرة المقبولة من العقل العزيرة على الفؤاد وفي هذه الصورة سنسمي هذا المستوى من الذات ذاكرة الورقة عندما يأتي الربيع.

*

القاسم المشترك بين كل القصص التي تشكل جزءا هاما من "الطابق" الأول للذاكرة أنها أفعال وتفاعلات مع الذوات التي صاغت ولا تزال هذه الذات التي أجري وراء فهمها والسيطرة عليها.

أمامي ملفات عدة وعلى رأس الكومة ملفّ الرجل الذي كنت اسميه "با" أوقات الصفاء والسيد "أينفناس" أغلب الوقت.
أول مصدر للمعطيات المطلوبة عن ذاكرة "ما".

- ألا تعتقدين أنه لو كان للرجل زوجك وأب أطفالك الآخرين أشقاء علّموه باكرا أن يُقاسم لما أفرط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعني "ما" بحدة غير معهودة فيها:

- لم تُدللّه يوما أم.

ثم تعضّ على شفقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة مدحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد رحيلها. الأهمّ، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: "أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته، أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه" ... لكن لا شيء بخصوصها!

كل ما يحفّ بذكرى هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مشبوه.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرٌ تحريكها. لكن فضولي أهمُّ من ترفّق يحضر ويغيب.

- لم تدلّه؟! تقصدين أنها كانت مريضة، أن مرضها أثر في طبعها وفي طبعه، ربما المرض هو سببُ عدم إنجابها لغيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

- كلاً لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتيال ميتة. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تستكينُ "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.

- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرّج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟

يجب أن يكون رَفُضُها استقبال صَبِيفه الفطرة التي أفاضت الكأس. لكن ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدَّتُها التي التصقت باسمها؟ ما سبب هذه الشدَّة؟ أَيْكون جِرْمَانُها هي من حب لم تستطع اعطاءه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدّتي؟

هل أوجاع هذه الجدَّة سببُ الوجع الذي جعل "با" طول حياته كائنًا متألِّمًا مؤلِّمًا كم تسبَّب لي وللآخرين في كم هائل من الأوجاع؟

ماذا أو من ساهم في تكوين الطبع الشرس الذي عُرِفَتْ به صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟
ها قد انتقل البحث عن ذاتي إلى البحث عن الذات التي شكلت الذات التي شكلت ذاتي.

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم مقاومتها الصامتة.

- وأيضا؟ تكلمي.

تسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. أمر لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابنتها؟ أمر ربما تهامست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال! لأحاول الجَمْع بين مختلف قِطع "البوزل".

ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تَخَيَّب في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤهُ للنساء وتنكيله بكل أنثى رماها الحظَّ العائر بين ذراعيه مكدِّسا الخليلات والخليلات يشبعهنَّ إذلالا وخيانة وطلاقا.

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جِدُّ مُسْتَبَعِدٍ. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكيير والزرغاريد. مفهومُ رجال ذلك الزمان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهَمُّ أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا- بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلُّهم زناة، إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.

ماذا لو كان السرُّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهامست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيا كانت الأحداث التي مرت بها هذه المرأة فهي لم تحدث لها في التفاصيل وفي التفاصيل داخل التفاصيل إلا لها هي لا غير... ومع ذلك كم سيكون لها من تأثير في صياغة ذوات أخرى لم تعش أيّ من هذه الأحداث.

ماذا عن قصة الجدّ؟ ترى كيف تفعل فيّ هي أيضا فعلها الخفيّ؟

كم مرّة سمعت "ما" تردّد أنه وصل بيتنا ليلا قادما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشده، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنّه خاف إرعابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر.

هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبّلوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالما. ثم يأمر "ما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزيد لتلكّها.

لم يكن نقيض ابنه فقط في مثل هذا التصرف وما ينمّ من طبع وإنما في كل شيء تقريبا. فبقدر ما كان "با" صاخبا، طاغي الحضور، متكبرا، بقدر ما كان أبوه هادئا متواضعا، مجرد فلاح بدوي فقير لا يغادر واحته إلا لضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف والتمكّن من الحدّ الأدنى لأبسط أنواع العيش.

إذا انتظمت قصة "با" في علاقته مع امه على رد فعل ضدّ شيء لا أحد في العائلة يذكره أو يريد تذكره. كذلك انتظمت قصته مع أبيه على رفض صاخر لخياراته في الحياة. يحضرنى كم كان معجبا بشاعر معروف بالمتنبي جعل من قصائده الكلام المقدّس الذي ييرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثال؟ هل لتعرّفه في آلامها على الآلام التي عدّبتّه طوال حياته؟ هل وجد نفسه في مأساة وُقوفُ الشاعر اضطرارا على أبواب الملوك يستجدي من يحترقهم هو الذي كانت بنفسه أنقّة أن تسكن اللحم والعظم؟ ألهذه الأسباب وجد "با" نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الآدمي الذي لم تعد جمععته الفارغة تثير فيّ إلا هزّ الكتفين.

شأنّي الآن شأن من انطلق في جذب طرف خيط كتبة صوف بالغة الضخامة.

يجب المواصلة فلهذه الجدة وهذا الجدّ بالضرورة أجداد هم الذين أثروا في تسلسل القصص التي ستصنع ذاتي.

المصدر الآن لهذه القصص الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناولها الأجيال والتي شكلت الأحداث التي ترويتها أو تتخيلها جزءاً أساسياً من ذاتي.

عن هذا المصدر أن هؤلاء الأجداد قوم سكنوا أرضاً بعيدة شرقاً تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة ، أنهم هاجروا من فيافيهم القاحلة نحو أراضي الماء والطين ، أنهم عاثوا فيها فساداً ، أن ملكاً من ملوك الماشين وراء أذنان البقر أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء ، أنهم افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر ، أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجزون وراءهم نساءهم وأطفالهم وجمالهم ، أن جدّة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة ، أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلاً أسمّر اسمه من اسم الهلال جمّع الجراً والدهاء ، أنه هو الذي رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان ، أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم ويؤيون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فعلوا ، أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة ، أن السيف عاد لغمده يوم تبيّن أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حظّ الرحال وكل مكان ليس المكان وكل مكان هو المكان.

ما حفظته ذاكرة الرواة ملحمة ترونّ بقعقة الشعر وترنم السلاح. كل الصور فيها لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده الليل ، لرجال لهم وجوه كأنّها نحتت بالسكين ، إذا حنّوا ذرفوا الدمع مدرارا ، وإذا شجعوا تهوّروا ، إذا أكرموا أسرفوا ، إذا ظلموا أفرطوا ، إذا ثاروا كفروا لا يضاھيهم بشر حبّ الحرب وحبّ السلام.

لم يُعِطْ أَيُنْفِئَاسُ 'البنّة' له ماتت في سنّتها الأولى اسم الخنساء صدفة وإنما لأنها كانت المرأة التي اخترلت كل ما في هؤلاء القوم من رقة وتوحش.

ظلّت هذه الشاعرة التي يقال إنها جدة هؤلاء الأجداد تندب طول حياتها موت أخيها البطل لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان أن يمحو اسم صخرٍ لا من ذاكرتها ولا من ذاكرة القبيلة.

"يا عين ما لك لا تبكين تسكابا
فابكي أخاك لأيتام أرملة
المجد حلتُهُ والوجود علتُهُ
خطابُ محفلةٍ فترأج مظلمةٍ
حقال ألويةٍ قطاعٌ أوديةٍ
سُمّ العداة وفكاك العناة إذا
إذا راب دهرٌ وكان الدهر رتيا
وأبكي أخاك إذا جاورت أجنابا
والصدق حوزته إن قرنه هابا
إن هاب معضلة ستي لها بابا
شهاد أنديّة ليوتر طلابا
لاقي الوغى لم يكن للموت هتيا"

يَقِينِي أَنَّ "با" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أنّ مناهج ومسالك فُتحت داخل ذاته، أنّ أهدافا قاهرة تحدّدت لها والشعُر منذ القدم ذاكرة القبيلة تستودع فيه ماضيها ووصفة صنّع ذوات أطفال الصحراء للأجيال المقبلة.

يَقِينِي أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل"با" نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجواد، الصادق، المجيد، سمّ العداة وفرّاج كلّ مظلمة... كل القيم التي تمسك بها ونقلها لي بالعصا، بالصرّاح، بالكلام بالقدوة وبالمثال.

كم غريب أن أبياتا لقصييدة عن قصة ثار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دورا أساسيا في تشكيل كم من ذات منها ذات "با" ومن ثمة ذاتي!

ما أعرب أن تُشكّل قصص لا دخل لنا فيها ما بنا من خصال وعبوب تتحكم فينا عن بعد والبعء زمان يحسب بالعقود والقرون وما أعرب أن يقول البعض بحريته وكُنّا مُسَيِّرون بأحلام وكوابيس كم من أموات مجهولين!

ألا يعني كل هذا أن الأنا أداة تنسيق بين أشباح الأحياء والأموات تسكن ذاتي، لا البيت يعلم ولا الأشباح! لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فذاتي بالضرورة موزّعة داخل أكثر من ذات؟ ترى كيف هو "أناي" فيما أعرف ولا أعرف من هذه الذوات؟

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة الأوائل وفي صورة البئر، الأمتار التي لا زال يضيئها نور باهت من الوعي... آه ثمة شيء مثير لقلق غامض في صورة الذات كبئر بلا قاع! ليكن، تحت تصرفنا صورة الشجرة المقبولة من العقل العزيزة على الفؤاد وفي هذه الصورة سنسمّي هذا المستوى من الذات ذاكرة الغصن الوارف.

*

لابدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صببت في الجداول التي تشكّلت منه ذاتي.

لا معطيات عنهم توقّرها ذاكرة شهود عيان وإنما ذاكرة جماعية يتجدّد لاستحضارها باحثون ينقبون عن ماضيها في رمال الصحاري، في صخور الجبال، في طحالب أعماق المحيط، في الهواء المحبوس داخل جليد العصور الماضية، في رميم حيوانات منقرضة وبقايا للكائنات شبه الآدمية التي فتحت لنا الطريق.

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقيا نظرات مستغربة على جحافل أعوان الأمن شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارضا يخافون مني، وحاكما يخافون عليّ.

المهمّة الفرصة الثمينة على هامش اجتماع يوصّف بالهامّة: زيارة هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي عن أقدم طبقات ذاكرتنا الجماعية.

على طول حائط أكبر قاعات المتحف خزائن حديدية كالتّي تُخبأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها لا يقدر بثمن وهي تحتوي على رميم أوائل أوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوماً على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريق ستنتاب عليه أجيالُ الجدات والأجداد.

يقطع عليّ تمعني في الرميم صوت السيد مدير المتحف.

- سيدي، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان، كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته فأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن أنه وجد أكثر من محطة لانطلاق الطريق.

يخرجني من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

- ويسعدني أيضاً أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

كم منها ستقلب رأساً على عقب تصوراتنا الأكثر متانة عن الأوائل وتغيّرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فكّ هناك... ما أغرب أن تكون المعطيات عن الماضي السحيق مضمّنة في المستقبل المجهول.

لا يبق عليّ إلا شكر السيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترّم ذاكرة جماعية نحن بأمس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

داخل سيارة الرجوع أغلق العينين لتخيل هؤلاء الأوائل الذين لم يتركوا لنا إلا هذه العظام المتفرقة.

كم من أفلام وفيديوهات عن انطلاق الملحمة العظمى. ربما لو وُضعت تصوراتنا هذه أمام أوائل الأوائل لانفجروا بالضحك.

مما يقال إنهم نزلوا منذ أكثر من مليوني سنة بمنتهى الحذر من أشجار الغابة مقترين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الأفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأول مرّة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة تعد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من

يترصد بها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

يقال إن من كانوا الأوائل الأكثر شبها بنا انطلقوا من هذه الربوع قبل مئة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار)، أنهم توزعوا في أقل من خمسين ألف سنة على القارات الخمس ركضا وراء الطرائد وهربا من أنياب الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

كان من الممكن وهم في بداية الطريق أن تقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التأقلم. كان أمامهم ألف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا المفترق بدل ذلك لما وجدت أصلا أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

لكنهم ثبتوا على الطريق، اكتشفوا النار والمحراث والآلة البخارية والحاسوب، أخضعوا العالم وما فيه لإرادتهم وأحيانا لنزواتهم وأهوائهم، راكموا التجارب وراء التجارب والذاكرة الجماعية التي تسمى في هذا المستوى الثقافة تزداد كل جيل ثراء على ثراء.

أي قصة سأنتقي لي من قصص هؤلاء الأبطال الذين عبدوا لي ولك الطريق؟

آه هذا جدّ كان يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالليث الهصور. أين في الناس جدّ مثل جدي هذا وهو الصياد الذي قاتل الفهود وأرعب الأسود؟ انظر إليه وهو رابض وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحملك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة. آه هذه أنثى وجلة تقترب بحذر من غدير تريض التماسيح على ضفته وفي وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربيع ابتسامه على وجه هادئ وقور.

تري ما الخصائص التي أخذتها عنه وعنهما دون علم مني وإذن منهما ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مئة ألف سنة؟

لم تكن ملحمة الأجداد بعثة علماء وسواح يستكشفون العالم الغريب تأملا وفضولا. كانت أشبه -ولا تزال- بالبعثات العسكرية لاستعباد الحيوان والشجر والبشر ولو كانوا أبناء عم وخال. يقال إن الخصائص المكتسبة لا تورث، لكن ماذا لو كان الخوف والحذر من شرّ الأدميين الآخرين والبحث عن حماية الأقربين لا ينتقل فقط عبر الأساطير الدينية وملحمات الشعراء وقصص الأطفال وإنما أساسا عبر ذاكرة نقشت في أعماق الخلايا رعبا يتردد صدها من جيل إلى جيل؟ ... ماذا لو كانت العنصرية

والتعصب القومي والديني والقبلي من ترسبات ذاكرة آتية من أعماق الزمان محملة بالفضاعات التي ارتكبتها الأدميون في حق الآدميين الآخرين وهم يغزون قرى القش والطين أو المدن المختفية وراء الأسوار أو البلدان المطوقة بالأسلاك الشائكة.

سؤال آخر يضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا إجابة مقنعة عنها... هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصياد فيها من الفراغات ما فيها من خيوط تحيط بها؟

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة الجنس البشري برمته.

هي في صورة البئر، الأمتار العميقة التي لم يعد يضيئها أي نور والتي لا يمكن استحضار معطياتها إلا بتظافر أكثر العلوم تقدما.

آه ثمة شيء مثير لقلق غامض في صورة الذات كبئر بلا قاع! ليكن ، تحت تصرفنا صورة الشجرة المقبولة من العقل العزيرة على الفؤاد وفي هذه الصورة سنسمّي هذا المستوى من الذات ذاكرة الجذع المهيب.

*

تلك الليلة داهمتني فجأة من الاتجاه المعاكس سيارة يبدو أن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما الأنا مسلّم بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُملي على العضلات المتشنّجة وأمره فتندافع إلى عمل سريع، فعّال، منسّق، ناجح، منفذّة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن الداخلي الذي لا يأخذ كلية بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات لتثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثمّ لتتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

تلك الليلة التي لا تنسى، تراجع الموت كالنسر انقض على شحورور فلم يلمسه إلا بجناح. في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة الحديد التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا الظاهر وعيّه لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرّر وليتجدّد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجّب. من هذا الأنا المخفي الساهر الأمين على حياتنا وعلى التوازنات عندما تختل لا ينتظر منا إلا أن نتركه وشأنه وألا نفسد عليه قراراته بقرارتنا.

في ملفّ من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد لكن ليجزّب دوارا حصرَ هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تأتيني أوامر مبهمة من قوة غامضة بالكف عن التدخل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرف. شيئاً فشيئاً ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعتُ أن أقف فيه مجدداً على قدمي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنحاً لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق.

كل هذا لأن الأنا المخفي الذي بداخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب... كل هذا لأن العلم الهائل الذي بداخلي تكفّل بالأمر دون حاجة للرجوع لرأي الجاهل العائش على سطح ذاته.

قال سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئاً". إنها مقولة جميلة لكن لا يجب أن تحمل على محمل الجدّ، فكل آدمي، حتى سقراط، عليم بأكثر مما يتصور وإلا لما وصل العمر الذي يمكنه أن يصبح له شأن وأن تذكر كلماته الأجيال.

من ينتبه دورياً أنه لا أحد علّمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والستمئة عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائياً وبكل سهولة كما لو كنا أعظم المخترعين وأذكي المهندسين وأمهر التقنيين!

ذُكر كل متحذلق ينشد "يا من تدّعي في العلم معرفة... إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي يخترنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه بسلام وكيف يعرف تشغيل أعضاء جسده ببقية عمره وكيف يداّفع عن وجوده طوال بقائه حيّاً.

ثمّة إذن داخلنا علم هائل صامت هو الذي ندين له ببقائنا سواء ابان الصراع مع كل قوى الخراب والتدمير التي تعصف حولنا أو إبان لحظات حاسمة تفصل بين الحياة والموت.

كم عاكست هذا الأنا المخفي الذي يعرف كل ما يجهله أنا السطح وأنا طالب أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وأنا أحصل على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدّل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فننقاسم العبقريّة كشريكين.

نشبهه دوماً الوعي بالنور ونحمله كل الإيجابيات ونقرن اللاوعي بالظلام الدامس ونجعل منه مركز كل الأخطار، أما أن الأوان لكي نغير جذريا موقفنا من تمجيد الوعي والشكوى من اللاوعي؟. أي حاجة لك أن تكون واعياً بقواعد الفيزياء التي تسيّر المجرات في

السماء أو كيف تعمل خلاياك ومن أين أتت الأفكار والمفاهيم التي تتحكم في مواقفك وتصرفاتك ولماذا قواعد اللغة هي على ما هي عليه؟ ... هل تتصور مسافرا يحمل على ظهره كل مجلدات المكتبة الوطنية لتكون كل المعطيات تحت تصرفه في كل لحظة؟ أليس اللاوعي الخادم الأمين الذي يتكفل بكل مشاغل البيت حتى يمكنك التمتع بالحياة والتفرغ لما يعطيها قيمتها؟

الثابت أن العلم اللاوعي ليس على كل شيء قدير وإلا لما احتجنا لطبّ وأطباء. في بعض ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج ساخن كرية الزائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. ومما بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلمّ معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطبّ الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّي كرهتُ الرّجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنّي أحببت تلك اللّحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال. كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفق من أخي إلّا بعد تدخّل الغريب، والحال أنّه خرج منّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ الجليل بعد أكثر من عقد درّسه عن السائل الأحمر وكيف ترتبك خلايا مختصة محي خلل من ذاكرتها كيف يمنع الدم عن السيلان دون توقف، أصحّت السمع كما لم أفعل يوما لدرس في الفيزيولوجيا.

كم من أمراض يكشف العلم أنها مرتبطة أساسا بخلل أو نقص في ذاكرة الخلايا والذروة هذا المرض الحقيّر الذي نسميه مرض الزهايمر!

وأیضا هل ثمة أكثر ضمانا للصحة من قدرة خلايا الجهاز المناعي على تذكر كل ما تعرضنا له وحتى كل ما تعرض له الآباء والأجداد من أصناف الفيروسات والجراثيم وكيف أن تذكرها هو الذي يمكنها بسرعة من مواجهة خطرها؟

هل التلقيح شيء آخر غير حقن الجسم بأصناف معدلة من الكائنات الخطرة لتسجّل ذاكرته خصائصها حتى يتعرف على أشكالها الخطرة إن ارتطم بها فيصدها بما يتوقّف لديه من أسلحة؟

هذه الذاكرة الخفية التي نحقّزها بالتلقيح ونعوّض خلل طارئ أو نهائيّ فيها بالأدوية ليست خاصية خلايا الجهاز المناعي أو خلايا الدم ولا حتى خلايا الدماغ التي نتصورها

هي الوحيدة المكلفة بالوظيفة الكبرى. هي شرط وجود وفعالية الثلاثة وسبعين تريليون خلية التي تكون أجسادنا.

يقال إن عدد هذه الخلايا أكبر من عدد النجوم التي في السماء، لكن اعجازها ليس في عددها وإنما في تواصلها منذ ملايين السنين تراكم الخبرة وتنقلها من جيل إلى جيل عبر ذاكرة يقضي علماء البيولوجيا حياتهم في محاولة سبر أغوار آلياتها.

ألا يعني هذا أن الجسم بأكمله هو أعجب وأغرب ذاكرة بما أنه يحمل في آن واحد ذاكرة الكائن وذاكرة الكون؟

يمكننا الان التقدم في رسم هذا الجزء من الرؤيا المخصص لبناء تصورنا للذات.

ثمة إذن ذاكرة الخلايا التي تمكنها من للمحافظة على وجودها والدخول في مغامرة جبارة تشهد بناء الانسجة التي تبني الاعضاء، التي تبني الاجسام التي تبني الأجناس الحية ومنها الجنس البشري الذي تفرع منه الأوائل الذين تفرعنا عنهم والذاكرة هي دوما الخيط الرفيع الذي لا ينقطع أبدا بين كل هذه المستويات.

إذا تناولنا الموضوع في الاتجاه المعاكس سنقول ان لكل فرد منا ذاكرة راكم فيها ويراكم الى لحظة الرحيل كل تجربته في هذا العالم ... لكن هذه الذاكرة بكل ما يميزها عن ذاكرة الاخرين لا تنطلق من فراغ وانما ترتكز وتتغذى في جزء أساسي من ذاكرة أوائلنا الأقارب والأبعد... وهذه الذاكرة نفسها لم تنطلق من فراغ وانما هي ترتكز وتتغذى في جزء أساسي منها من ذاكرة أقدم هي ذاكرة الجنس البشري برمته.... وهذه الذاكرة لم تنطلق من فراغ وانما هي ترتكز وتتغذى في جزء أساسي من ذاكرة الحياة.

هذه الطبقة الأخيرة للذاكرة في صورة البئر هي الأمطار المظلمة التي لا يطالها أي نور، وفي صورة الشجرة هي ذاكرة الجذور العميقة التي تغذي الجذع وكل ما يتفرع منه .

لكن إلى أي عمق يجب مواصلة حفر البئر أو البحث عن الجذور التي تغذي الجذور التي تغذي الجذع وكل ما يتفرع عنه؟!

لنضف لصورتي الشجرة والبئر صورة جبل الجليد على أمل أن تساعدنا أكثر في تحديد وتوضيح معالم التصور العام الذي سنسميه الرؤيا.

في هذه الصورة للذات الأنا الواعي هو الجزء الطافي على سطح المحيط والأنا المخفي ما يوجد مباشرة تحت هذا السطح أما جَلّ جبل الجليد فهو الذي تنغلق عليه أعماق المحيط والذي يحتوي في داخله على تاريخ العالم بأسره.

"لما رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)

الذي أسميه الأنا

أصبحت كل العالم الشاسع"

الذات كل العالم الشاسع! هو ذاكرتها العميقة، هي ذاكرته السطحية! في هذه الحالة أي معنى للسؤال الذي نرهق به أنفسنا طوال الرحلة ننتظر منذ بداية الملحمة الآدمية من يعرف له الجواب ؟

الملحمة

"لا تشيخوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة."
كونفوشيوس

مقدّمة الكتاب السادس

يصل بي الطريق يوما إلى مدينة من بلاد سيتا. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المازة أمسح عرقى وقد خرجت بصعوبة من زحمة بشرية لم أعرف لها مثيلا.
- سيدي أرجو أنني لست وسط مظاهرة طائفية؟ أنا أجنبي عابر سبيل لا أرغب التورط في مشاكل لا تعينني. ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟
يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنظر ورائك. إنها محطة قطارات مومباي وهؤلاء الناس مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جئت في الأعياد؟

- عفوا، هل تسمح لي بسؤالٍ أخير؟ في بلادنا نحبي الآخر عن بعد ملوِّحين بيدينا ليتبين له أننا لا نحمل سلاحا وعن قرب نصافحه نوّكد ونتأكد أنه ليس في يده خنجر صغير... ثم نُقرئه السلام. الإلمّ ترمز تحييتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "نماستي"؟

- معناها نحبي المقدّس الذي فيك.

المقدّس الذي في... أنا!؟

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتسامته ثم يختفي داخل الزحمة.

يا للرجل المحظوظ! هو يعرف ماذا يفعل كل هؤلاء الناس في هذا المكان، لكن هل يعرف ماذا يفعلون في هذا العالم؟ هل له فكرة عن سبب تدافعهم جيلا بعد جيل بمثل هذه الأعداد وكأنّ لهم فيه موعدا لا يخلف مع وعود لا يقاوم لها اغراء؟

عبث اعتراض طريق أيّ من المارة لتسأله عن الأمر. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكّره أن عندنا كبار الاخصائيين ينظقون كل المتسترين على الأسرار التي تهمنا جميعا. قد يطلب بوليس النجدة أو سيارة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كبقية المازة لا يعرف فعلا ماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السّر على كل اللسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الآدميين استحالة حفاظهم طويلا على أي سرّ.

مزاجي هذا الصباح ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة تدافع فرضيات أردّ بها بنفسني على السؤال الذي لا جواب له عند أحد.

ها أنا أسمع في فضاء خيالي موظّفو مركز شحن سماوي ما يصرخون:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي آد3100. 2154879365 الذي يصرخ بكل قواه أنه بريء. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه. المسكين! على ما يقال، العالم الذي سينزلونه فيه من أكثر العوالم العقابية فظاعة في التعامل مع المحكومين بعقوبة مدى الحياة. تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كانوا كلهم هنا لقضاء عطلة ممتعة لا لقضاء فترة عقوبة مهينة؟

ليكن. الحوار "الحقيقي" إذن بين موظفين فاسدين:

- تُرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام وأن فيه أجمل الحروب وأكثر المغامرات اثاراً.

عبث كل هذا؟ طيب لنترك المخيلة تستريح ولنلتجئ إلى الأداة الأخرى للذهن التي يسمونها العقل.

ثمة فرضيتان لا أكثر لوجودنا في هذا العالم وبمثل هذا الاكتظاظ.

الأولى مرتبطة برهان السلطات العليا على الأعداد الكبرى ويمكن التعبير عنها كالآتي: كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتتشكّل حولها حفنة من كواكب قادرة على توفير الشروط الدقيقة لظهور الحياة...

كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلوغرام من التبر... كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة... كذلك لا مناص من ولادة عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ وشاعر اسمه إيسا وأدي يصيح إنسانا اسمه الحلاج.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدا في أية خانة تصنّفني السلطات المخفية وهل أنا من التبرأم من التراب.

الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالحني وصالح كل قرائي والبشر أجمعين هي التي تسميها الرؤيا الرهان على الجهد الجماعي وهي كالآتي:

المهمة التي كُلف بها الآدي من قبل السلطات المستترّة على سياساتها أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدي واحد... لذلك جعلت من الضروري أن تتابع الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاقّ.

طَيِّب، ما هذه المهمة التي تحتاج لجهود كل هذه الأجيال ، من كلفنا بها ولماذا ؟ من يبوح لي بأعمق وأقدم الأسرار التي تدعي أساطير العصور أن لها كل الإجابات عنها ؟

يقول ابن المقفع أنه لما بحث بين المرتحلين عمّا يشفي غليله لم يجد إلا:

"قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا... وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى وأن من خالفه على خطأ وضلالة والاختلاف بينهم كثير في أمر الخالق والخلق ومبدأ الأمر ومنتهاه وما سوى ذلك ... وكل زار وله عدو وعليه عاتب"

ألقى الرازي نفس الأسئلة وبعد طول السماع لهذا وذاك انتهى لقناعة لم تفارقه إلى الممات :

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لا فائدة إذن من اتباع طريق هو حلقة مفرغة لا تذهب بك بعيدا. فجأة يدهمني السؤال المستفز: لماذا أبقى عالقا في معارك قيل وقالوا؟ ؟ أليس صحيحا أنه " ما حكّ جلدك مثل ظفرك" ؟ لماذا لا أخلق لي أسطورة أجد فيها- قل أضع فيها -أجوبة تغنيني عن روايات كم من باحثين لا يقلون عني حيرة وضياعا؟ أليس هذا ما فعل كبار مغامري فضاء الرموز والخيال على مرّ العصور؟

طبعا، طبعا ، لكن لتتواضع قليلا أو لنفتعل مثل هذا التواضع. ثمة في هذه البلاد التي اوصلني اليها الطريق أحد كبار صنّاع الأساطير التي يعيش داخلها مئات الملايين من البشر . لماذا لا أستأنس بنصائحه ، قد تعينني في بلورة رؤيا تضيف للتصورات السائدة فوضاي الخاصة.

يتبلور داخل فضاء الخيال شبح صنعته الذات لتتفحص عبره مشروعا يتأرجح داخلها بين الجدّ والهزل، بين الرهبة والرغبة.

ترى هل سيعيرني فالميكسي اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي غير مبال حتى بفيالق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين؟

ينتبه الناسك لوجودي. يبادرني بانزعاج لا يخفيه:

- ماذا تريد؟

ماذا أريد؟ أقول له بما أن العصر يقدر الفردانية والخصوصية والمبادرة الشخصية في كل الميادين فإني قررت أن اذهب في نهج الحدائث إلى الأقصى بخلق ديانة خاصة بي وحدي... ديانة مثل فرشاة الأسنان لا أعيرها لأحد ولا أحد يفكر باستعارتها مني، ديانة أكون إلهها ونبيها ومعتنقها الوحيد، أخطر كافر بها وأول منشق عنها.

أهمس للشبح بين رجاء واستحياء بما أريد حقًا خوفًا أن يظنني أسخر منه والحال أنني لا أسخر إلا من نفسي.

- كما خلقت الآدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية حاجياتها المادية الحسية، خلقت أيضًا مهندسين معماريين في الفضاء الفكري الخيالي لتلبية حاجياتها الروحية وأنت يا فالميكي من كبار هؤلاء المهندسين. جئتك لأخذ نصائحك بخصوص بناء قصة تعطي لرحلتي معناها، بل وتؤكد أنني أدت المهمة التي كانت هدفها وأنه بإمكانني الانصراف راضيًا عن العالم وعن نفسي ؟

همس مزيج من الاستغراب والمرح.

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان تكفل لك كل هذا فلماذا لا تكنفي بها؟
-جلّ الموجود من التصورات لا يقبل بها عقلي أولاً يرضى به فؤادي لا لشيء إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصدّقها.
- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بإيمان الغوغاء وقسوة القضاة وفضاعة الجلّادين.

هل من سبب آخر؟

- نعم وهو الأهم...أغلبها تستفزّ حسي الفطري بالكرامة.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتها الطبيعة صدفة أو دمي خلقتها آلهة لا لشيء إلا ليعبدوها! ...عجبي من تشبّثهم بقصص تعيّرهم بأصولهم، تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية هم منها براء، تبرر لظالمهم ما يركبونه ضدّهم من ظلم فظيع ، تهددهم وتوعدهم بالعذاب بعد الموت وكأنّ عذابهم ابان هذه الحياة لم يكف.

- هذا عالم لا يخضع لرغبات أو شهوات أحد ولا يهتمّ بنرجسيات تافهة.

- إذن اليك سبب لا قدرة للعالم على الاستخفاف به. على حتى الرؤى التي لا تحتاج لأيّ عنف لبقائها كما هو الحال في أساطير العلم الحديث أعجز من أن تتحدّى أنياب الزمان. كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشديد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للآدمي على سكن نفس البنائيات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتغيّر الذوق العامّ أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة فيما تبحث عنه من بنايات روحية جديدة؟

- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

- والمقياس الثاني؟

- أحسنُ الأساطير المؤسسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة... التي لا تخلق شعوبا مختارة يحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم... التي لا تقسم البشر إلى مؤمنين وكفار... التي لا تخلق منبوذين يتهمون باطلا بارتكاب موبقات في حياة سابقة... التي لا تخلق مستبدا في السماء يشرع للمستبد الذي على الأرض... التي لا تحمله أسوأ ما فينا وتحصر فضائله في فضائلنا... التي لا تتعدى على كرامة خالق ومخلوق.

يعود الهامس الخيالي لتحسس مكامن الضعف والقوة في محاوره.

- أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء كهذا. الحقيقة دوما نسبية أو مؤقتة. في الدين هي ما تؤمن به مجموعة بشرية دون بقية المجموعات الأخرى ومن ثم هي نسبية. في العلم هي أحسن إجابة عن مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة. أما الحقيقة المطلقة والأزلية فلا يقول بوجودها إلا مخادع أو مخدوع.

أحدته عن المقياس ثالث: قدرة الأسطورة على الصمود أمام السخرية وهي من قديم الزمان أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الغتّ والسمين... أليست قابلية المواقف والتصرفات للسخرية منها أصدق دليل على وجود خلل داخلها... أليست القاعدة أيضا أن كل ما هو قابل للسخرية لا بدّ أن يُسخر منه طال الزمان أو قصر لا ينفع في حمايته كاهن أوجلاذ.

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع والمشهود لهم بجودة أعمالهم كثر؟

- لأنك لا تخفي أمرا يحاول الآخرون التستر عليه وهو أن كل ما نبي من فلسفات وأديان ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا نحن البشر.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك مأخوذ؟

أواه يا سبتا، برّب عشق طفل تهجّي في حبّك أجمل روايات القصة المقدّسة، تدخّلي، أريد نصائحه ولم لا بركاته.

- بركاتك وتمنياتك بالتوفيق.

يلقي عليّ الشبح نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعبة بمداعبة.

- من أي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.
يرمقني فالميكى بنظرة فيها فضول مفاجئ وكأنه يقرأ أفكاري واي غرابة في الأمر وهو ذهني يتفحص هذه الأفكار... ثم ترسم على شاشة الذهن هذا ابتسامة عريضة.
- إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوائل أخلق لك القصة التي تريد.
التي أريد؟ طبعاً الأجملى، الأغرب، الأخطر... خاصة الأكثر احتراماً للعالم، للآدمي
ولكل الكائنات الأخرى.

الصيغة المزيدة والمنقحة لقصة القصص

من أين أبدأ؟ ماذا لو انطلقت من أشهر الأساطير التي نشأت داخلها صاحبتني طوال الرحلة؟ ربما سأجد فيبيها بعض الأفكار أسطو عليها أو أعارضها ليتبلور الجديد والطريف من العملية. أليس هذا ما فعله الآدميون دوما وهم يبنون أساطيرهم من اقتباسات حتى لا أقول من سرقات أساطير الآخرين.

أجمل اخراج لأسطورة آدم وحواء هذه القصيدة:

"وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)³

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعند بلا خطر

فجأة طردا من الحديقة"

قف! طردا من الحديقة أي من الجنة!

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة حيث تقول إن ثعبانا خبيثا زين لآدم وحواء أكل تفاحة من شجرة فعاقبهما يافيه بالطرد لأنه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روجي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول إنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم.

أن يطرد آدم وحواء لاكتشافهما يدخان في المراحيض فأمر مفهوم لما يمكن أن ينجز عن الأمر من انفجار الجنة إذا كانت جنة طائرة أو نشوب حريق لا يبقى ولا يذر إن كانت جنة أرضية... لكن أن يطردا بسبب أكل تفاحة!

ليسمح لي أيضا بالتأكيد على أن النص لن يدخل في مناقشة عميقة بخصوص طبيعة هذه التفاحة وهل كانت تفاحة كالتي تُشتري من السوق وتتعرف عليها بسهولة الفم واللسان والأسنان... أم هل كانت تفاحة سحرية تُختزل داخلها المعرفة المحرمة علما

³ ترجمة لقصيدة بالفرنسية للشاعرة Andree Chedid (1920-2011) -الناشر

وأنه لا أحد يعرف لماذا حرمت المعرفة على الآدمي ولماذا تبلورت في تفاحة وليس في بطيخة أو قرعة.

الأهم من هذا أقول متحملا كامل مسؤولياتي الفكرية والأخلاقية أنه يجب رفض هذه القصة جملة وتفصيلا. إنها تعدّ صارخ على كرامة الرب المسمى يافيه إذ تصوره كمستبدّ بخيل حقوق ظالم ينكل بمخلوقاته بسبب معصية تافهة أضف لهذا اتهامه الضمني بالخبث حيث تجعله يحذّر من المعصية ويغري بها في نفس الوقت.

هي إهانة للعالم وهي تجعل منه منفي وسجن وعقوبة للمغضوب عليهم والضالين. أخيرا وليس آخرا هي تعدّ على كرامة آدم عندما تجعل منه كائنا بأسا يقبل بالركل في المؤخرة والطرده ولا يردّ الفعل.

السؤال لماذا ارتكب مؤلفو هذه الأسطورة المؤسسة مثل هذه البداية التعيسة لرحلتنا جميعا؟ هم لم يكونوا أقلّ ذكاء منا ونوايا طيبة لتسهيلها فلماذا هذا الخطأ المهني الخطير؟

إذا عرف السبب بطل العجب. ما السبب يا ترى؟

لندكرّ أولا أنه ليس من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الافريقية وهي تبعد بآلاف الأميال عن القبائل السامية المتواجدة في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية والتي أخذت عنها قبائل العالم هذه الرواية؟

القاعدة أن هناك وراء الكثير من الأساطير المشتركة أحداث صحيحة وقع تغليفها بالخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان.

أية أحداث قد تكون ولدت سردية طرد آدم من الجنة؟

أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجسد فبالخيال والحنين.

كانت "ما" تبغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدّة غير قصيرة بغير ارادتها وإنما لأنها كانت تفتقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياهها العذبة المستخرجة من آبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهله المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشققها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت تمرح الغزلان والزرافات والفيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الى ارتخاء ومن ارتخاء

إلى قبض أي أنها تمرّ من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف مدمر والسبب تغيّر المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول بعض أهل الاختصاص. لنتخيّل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة- كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم يتنقلون بكامل الحرية داخل ارض غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتدّ البصر. تأتي كارثة التحول المناخي الدوري لتصبح مراعيهم الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة. ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق الجلود والعطش يلصق الألسنة بالحلق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجرذان المتماوتة جوعا وعطشا. لنتصوّرهم حول نار باهتة والمعنويات كتلك التي نعيش أيام الحداد.

ينطلق شيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تتبارى أناقة وجمالا. في آخر الحلقة أذكي الأطفال وكان أكثرهم انتباها لكلام الشيخ. كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبّب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لنتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا تلهج بحمده الألسن على مرّ العصور. ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الأوائل فأدت لطردهم؟ آه لا بدّ أنهم سرقوا شيئا لربّ الأرباب والربات؟ لكن ماذا؟ مؤكد أشهى ما في حدائقه. هل ثمة أحسن من التفاح الذي أحب؟! طبعاً إنه التفاح! التفاح!

ثم ها هو يتحول تلقائيا للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين: ما الطقوس والصلوات والتصرفات لاسترضاء إله الآلهة حتى لا يواصل غضبه علينا فتعود الجنة إلينا ونعود إلى رغد العيش فيها... وإن لم يمكن في هذه الحياة ففي الحياة الأخرى التي تنتظرنا بعد الموت؟

أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضا في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّرنا حفيداتنا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجدا.

آه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشيخة وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) وأطباء أسنان (الشيخة لا تنام وآلام ضرس العقل تفقدتها عقلها) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشيخة قلقة من تقطع أخبار كتبية المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيارة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أذكي البنات وأكثرهن فضولا: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجدات لتنهار العصور الذهبية؟

أي خبيثة ستختلقها النبوة سترتوفسكيا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر؟ ربما أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها. أي طقوس ستفرض واي تصرفات ستدعو إليها عند رحالة آلاف السنين المقبلة.

على ذكر طبيعة الأسطورة ليسمح لي هنا برفض التصور الشائع لها أي أنها نسيج خرافات عن وضعنا في هذا العالم وعلاقتنا به اختلقها قبائل بدائية بقيت عالقة في مرحلة التفكير السحري ولم ترتق إلى مرحلة النضج العلمي والعقلي التي وصلتها الأمم المتحضرة.

على العكس أرى أن الأسطورة وخاصة الأسطورة الدينية حدس مرهف وفرضيات جريئة وأفكار بالغة العمق وحاجيات أزلية ماسّة غير مرتبطة بزمان ومكان، بتخلف أو تقدم.

المهم. اعتبارا لما قلناه عن حظّ هذه الأسطورة من كرامة الرب والآدمي والعالم-فإنه يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه أصحاب هذه المقترح البائس لقصة القصص: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما... فترا منها.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتقول لي إنهما هربا منها لربي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نحلم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردّي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم متى بطول باع الآدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدرية وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من السهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شكّ أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين إليها.

لا بدّ اذن أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الحبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟

من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تَخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمتانة روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الربّ لا غير. إذن في النسخة المزينة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزعج آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة. ذات ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمظت شفيتها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها. في آخر المطاف ... لم لا؟

[في طبعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الربّ بالفكرة وأنها هي التي أفنعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أربته صور آتية من أعماق المستقبل لئما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجربّ الجماع مع إبليس أو الثعبان.]

أيا كان صاحب الفكرة وبعد شجار مقرف ككل شجارات الأزواج، يُحسم الأمر لصالح الفرار. هكذا اشتعلت شاشات المراقبة برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جدا". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الربّ، بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، قرّر قرار الغبيين، من يدري؟ ربما هما رهاني الناجح هذه المرة.

"ومن خلال ضباب الزمان (أندريه شديد)

تابعهما الصدى بالأمر"

الأمر؟

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها بداية هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة الأدميين.

- "با" ما زلت مستيقظة. واصل القصة. ماذا قال لهما الصدى؟

- قال: خذا إبليس معكما.

لا بدّ أنه واصل هامسا لنفسه: *والإكيف سيعرف البشر ما الجمال والخير إن لم يزيّن لهم هذا الشيطان كل أصناف القبح والشرّ، من أين لهم معرفة المسؤولية و الحرية إن لم يسلط عليهم كل أصناف الجبر والقهر؟*

وقال لهم الصدى تعهدوا هذا العالم، إنه آخر أحلامي

باب الجنة والشيطان وراءهما وعالم جديد بأسره أمامهما ينتظر.

"سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الريح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له"

تدير حواء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام شلالات متدافعة من أعالي الجبال، أنهار متدفقة بين الروابي، بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار، كثبان من ناعم الرمل، جبال مكلّلة بمهابة الشيب، بحار تهشّ الريح فيها على الموج، غابات تعانق أشجارها السحاب، سماء مرفوعة بلا عمد.

يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت لا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهز هنا.

ينتبه بطلنا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العالم لا يوقر شيئا عدا وجوده، أما تدير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم هم لا غير.

كيف فاتته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابه هو! إنه في مواجهة الأمر الأول الذي يمجّر به صمّت العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعوّل إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكل وأنا أكل الجميع.

ترى هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مُضنّ وراء فطور الصباح. تتجاهل المرأة رجلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور.

"تجاوز آدم ضعيفته (أندريه شديد)

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئاً
وإنه كون يتلعم بأولى كلماته
عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتبديره الرائع والمروع
معاً سيتملكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معاً سيلدان آدمية الشر والجدل."

تبدأ حواء في وضع أولى خططها لتملك العالم الجديد لا سلاح لها غير الهشاشة والإصرار: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء والخضراء كمسيح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للتزلج يوم يخترعون هذه الرياضة. يجب التأكد أيضاً من سلامة الغابات وخلوها من الحُقر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذى. هام جداً تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري الذي سيرسم صورتها في لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.

ينفذ صبر حواء يوماً والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجة أنك جائع. هذا فعل يليق بابن أبيه لكن لا يليق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجلحك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعاً بقلة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة، بل سأقتل هذا الغبي الذي ينافسني في كل ما أريد.

هذه المرّة، لن تأخذه "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهام في أصعب العوالم.

يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة ولا فائدة في تضييع وقت القارئ في تفاصيل مقرفة يعرفها مثلي.

آن الأوان للمرور لأهم فصل في قصة القصص.

ذات يوم تصرخ حوّاء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل مستويات الزمان والمكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملت المهمة التي خرجنا من الجنة لإتمامها.

يصرخ أحدنا: لننتجّه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.

يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جئنا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والثلج.

يصرخ أجبين أو أعقل الأبناء: أريد البقاء مع أمي.

يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخائقة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

”الأرض لكم (جبران خليل جبران)

تبتّهج بملامسة أقدامكم العارية

الأرض لكم

وشعوركم مسترسلة تنوق إليها الريح

الأرض لكم

وأنتم الطريق”

ها نحن لما لا يحصى ولا يعدّ من القرون نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نقاتل الكواسر حتى لا نقتل وكل يوم نبقى فيه أحياء يوم يقربنا من الهدف الغامض.

أي شاعر عبقرى مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة تنغّي بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام!؟ أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية

وأيديهم العارية وبطونهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنفرة هم الأبطال
الذين تخجل أمام جسارتهم كل ما ندعي من بطولات؟
توقّف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئاً بخصوص من خطّوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر
السن! لا مكان في العالم اليافع للمستّين الذين تجاوزوا الثلاثين.
ماذا تقول وأنت تحرّك يدك أمام أنفك؟ آه الروائح التي تنبعث منهم.

حقاً من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعاً، وحتى
أجداد ملكة إنجلترا التي تموّه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم
الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقّفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من
مصلحتها التوقف، لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليله كبار
للصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضاً سليله هؤلاء الشبان الهمج النتنين.

ملاحظة ثانية بالغة الأهمية يفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبّه إليها. لا أحد منهم
يجرّ حقيبه تُصدر صريراً مزعجاً. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار
الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد
على اللزوم من الثوب والشحم.

ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ آه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان
خائفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.

إنه عالم لم يُخلق للجنباء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت
والموت يتغذى بالحياة والفاصل بين الحالتين حالة أزلية اسمها الصراع من أجل
البقاء.

يأتي يوم يئن فيه أحداً وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة
كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!

أئين تائه ثاني: يا لهذه الصحاري الصفراء نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة
الشمس!

وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي ثبّتت في فكّ الجليد والتلج!

وآخر: يا للرعب الذي تبثه فينا كل هذه الكواسر نهاراً وهي تتعقبنا بأظافر وأنياب لا
طاقة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذئاب التي يمنعنا عويلها ليلاً من النوم
نرتجف برداً وخوفاً داخل مغارات مظلمة تتقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرّزة!

يأتيهم جميعاً رجوع يتردد صداه من جيل لجيل : لم نكفّ عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أحرق، نحن نأثون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟

تولول أنثى فاق رعبها كل حدود: انتبهوا لهذه الطيور المشؤومة التي ترفرف فوقنا تنتظر من يسقط منا لتنهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفس!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فاق عنده أيضاً الغثيان والدوران كل قدرة التحمل.

من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمل! ماذا نفع طوال الرحلة، غير تحمل الحرّ والقرّ، غير تحمل الجفاف والظوفان، غير تحمل الضجيج والصمت، غير تحمل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟

أي حلّ غير تملق القوى المبهمة التي تتحكم في القرّ والحرّ عليها توجد علينا ببعض العون؟

صلاة الآدمي: يا من تتوجه إليه كل آمالنا، حتّى علينا قلب الأرض والبحر. ضعنا في حماية الشمس والقمر. احفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شراباً حلالاً. وقّر لجوعنا اللحم والشحم. فجر لعطشنا عيون الماء الزلال. يسّر أمامنا الصعب والوعر. ضمّد جراحنا. جدّد فينا كل فجرٍ شجاعة الأبطال.

الصدى: يا أحلام أحلامي، يا آلام آلامي، يا آمال آمالي، يا أفكارٍ وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلاً ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.

قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة الصوت. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأنّ وراء القول المسكوت عنه: ستنسّون كل آلامكم وستحمدوني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحققون لي المهمة التي شرّفتكم بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، هل لنا خيار آخر؟

*

أمام تفاقم صعوبات الطريق خطوة بعد خطوة تواصل المعنويات انهيارها. يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أمه وأبيه: تخشبت قدماي من المشي، غُصبتُ إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمرّقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت

كتفتي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريقُ اللعينُ طريقَه دوني. لن أتقدم خطوة أخرى.

أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، لقد توقف الرواد عن المشي دخلوا في أول اضراب عام. تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئاً داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- "با" ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيديّ لدفعي للركض والصراخ والرقص.

يستيقظ الرواد في الغد وبهم جدل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا ضاحكا ومُعْتَبًا أن أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلًا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغيّر حياتكم.

تصرخ تفاحة: القصة عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلًا فلا ترتجف "ما" من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.

تصرخ تفيحه: أنتِ الباكية والبايلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.

ثم تنفجر باكية لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.

- "با"، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.

- هذه قصة يرويها أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الآدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئاب؟

- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضلة عنده -إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلا أن صلّت لله ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثم لمع البرق

وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها "با" وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.

- يا غبيّة، وكيف استطاع "با" من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرّة ينتظر الرعد والبرق.

- أنت الغبية وليست لديك قصّة أحسن.

- بلى، إذن خرجت تفاحة مع "با" لتدلّه على مغارةٍ اكتشفتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميييييييييية جدًا جدًا لا يمكن الدخول إليها إلّا زحفا على البطون. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوماً مشتعلة، فاستطاع "با" أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.

- يا غبيّة، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفت النار.

بعض العُصّ الخفيف وشيء من جذب الشعر. خصومة بسيطة تسهل السيطرة عليها من قبل قوة حفظ السلام، خلافاً لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصات الذرية.

مَن كان يتصوّر أن اكتشاف النار حتى في هذا النصّ سيكون يمثل هذه الصعوبة؟

البنتان صامتان ثوابي متابعة. فرصة للاستيلاء على الكلمة.

- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبلت أخطئها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج الآدمي ساخطا إلى الغابة يبحث عن النار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كبريت بحجم بيت وبجانبها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكوي.

تصرخ البنتان: "با"، لا تعشّن!

بجدّ، ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الآدميون حدود القارة التي كانت مهدّ الجنس البشري إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على ما لا يُتحمّل من البرد.

كم من تصوّرات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة امتنّت بها للعاصفة، للبركان، لبقايا حريق غابة!

ثمة أيضاً قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالآدمي فتصدّى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك وكل متطلبات عيشها وترفض له أبسط متطلبات عيشه،

فقّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء وهو ما كلفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها؟ سيتطلب هذا العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الآدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصّة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للاستقرار النهائي في جهنم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصّل الأوائل على النار أو من أين سرقوها. لماذا أنكّف كل الجهد وحدي والقصة قصّة الجميع؟

المهمّ أن الآدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدّس وكل حواسّها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقّة مضغ اللحم النيئة وهضمها العسير.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتُؤثّر في مُدبرة تُرتمي في أحضان "با" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدّدا من النار. ترفض تفيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب تفاحة تقرّب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّتا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمّدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النّار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفنة من الآدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعدا لبضع ساعات الخوف والجوع، والمساكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف.

تهزني تفيحه من كفتي: "با" استيقظ، نريد بقية القصة!

بقية القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون لروايتي لقصة القصص عقدة مشوقة ما. لكنني انطلقت في هذه المغامرة ولا حتى بداية فكرة عما يمكن أن تكون هذه العقدة. نعم ما الذي خرجت الآدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ كل هذا كان متوقّرا إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

وقال لهم الصدى لا تجديد إلا بتدمير القديم فتحملوا الثمن.

لنفكر مليًا ودون أحكام مسبقة في سبب الهرب.

لا بدّ أن يكون هذا السبب وضعا لا يُطاق.

من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يُطاق.

إذن السبب شره الآدمي لكل ما هو غير متوقّر فيها أو بالكمية المطلوبة.

ما الشيء الوحيد الذي لا توفره الجنة؟ طبعاً الموت بما أنها المكان الذي ألغي فيه وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانبا والانصراف لما أهمّ بدلا من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هديانا صرفا. كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبا والانصراف لما أهمّ بدلا من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هديانا صرفا.

لكنني سأختار الثبات على رأيي بل سأزيد عليه لأختبر متانة فرضية الهروب.

أين يكتسب الموت صبغته الأكثر شراسة وقسوة؟ طبعاً فيما يسمى ساحة الوغى.

كأني بك تهزّ كتفيك وتقول هذا الرجل حقا يستأهل كل ما يفعله به الأصدقاء والأعداء.

تضيف قف لا شيء يكرهه الآدميون قبل الحرب والدليل هذا المشهد الذي ترويّه أشهر أساطير الآدميين.

يصفّر الربّ كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقى كل سيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على ربّ لم يجد إلا ساحة معركة للتجلي: "لكنهم أساندي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهارى وأقربائي كلّهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

يقطّب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الايمان؟

يرفض الربّ حجج أرجونا لأنّ للآلهة رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.

يتوجه إلى عبده ملاطفا:

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".

ثم يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقا تل فستكون خائنا يقال عنه جبان. إن ضباع الشرف للنبل أفطع من الموت".

كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصبته المقدسة مكثفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ غيره الربّ بالخوف أم لم يعير.

- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومنة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهيرشثرا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجربا الوعود البراقة.

- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض".

يتمسك أرجونا برفضه يواصل مناقشة الربّ.

- "ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلاتنا، وبتدمير سلاتنا ندمر تراثنا؟ كأني بكريشنا يهزّ كتفيه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر."

وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته. إن كان سيان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطعمك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك، لا تتحرك.

يواصل الربّ التحريض مستعملا أساليب في منتهى الخساسة:

- "تغنم لمن لا يستأهلون الغم؟"

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة.

- "إنه الواجب. لا يرحب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

يتكثّف صمت أرجونا ثم يستسلم.

"يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء"

تقول والآن أضف مشهداً آخر يظهر كره الآدمي لهذه الحرب التي تدعي أننا غادرنا الجنة للتمتع بها.

إنه مشهد الإمبراطور أشوكا الذي قتل مئة أخ ليغزو السلطة ويحافظ عليها. ها هو بعد نهاية أشرك معاركه يتجول بين تلال الجثث. يقال إنه استفزع فجأة ما أتاها من قتل الآلاف، أن صرخة أم مزقت قلبه وهي تتوجه إليه جاثية على جثمان ابنها "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي".

يقال أيضاً أنه قرّر منذ تلك اللحظة اعتناق ديانة تنبذ العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات مقضياً بقية عمره رسولا للسلام وعدوا للحرب.

عبثاً. ستواصل الحرب لا تعباً بتردد أرجونا قبل المجازر ولا بندم أشوكا بعدها.

*

لنواجه الحقيقة الصادمة. من أين لك أن تنكر أن الحرب صاحبت البشر ولا تزال مصاحبة الظلّ للماشي في عزّ الظهيرة.

انظركم يعتنون بها يهتّون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلاً بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم منذ نعومة أظافرهم، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب عن الزعيم الأوحّد والوطن المفدى والدين الحنيف والقصد تزيين القتل والموت من أجل هذه الأوهام المزركشة.

أضف حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها أكاديميات عسكرية يدربون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة والاختباء كالهرباء والزحف كالثعابين والافتراس كالكواسر.

كم يحبّون أيضاً إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطقت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم اللعب.

حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنّي أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الآدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوماً نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيء والأخضر البليد. كأنّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص بالمقارنة مع ريش النسور تيجانا وجلود النمر والتماسيح أزياء أوائلنا؟

لحسن الحظّ أنقذ مخرج هذا المشهد سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء ولم ينس الميداليات الثقيلة على صدورهم المنفوشة.

كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطواير الطويلة للمدركات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكأنّ الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحبّ استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدوّ على حدّ السواء.

أختتم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبّة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أطفالها الكبار الذين نذرتهم قربانا لآلهة الحرب وهم يبادلونها تحيّتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد كان واعياً آنذاك أن المرأة - التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبيع الذي تعبّدت له ذلك اليوم.

يا لخيبة أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفّف من عنف السياسة وسيقلّل من حروب لا يعشقها إلا الذكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التسترون وقوع السكرى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان إنتاج النساء من هرمون التسترون جدّ متواضع، فإننا لم نر تحسّنا في عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلن لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقّة والغلظة-كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجبن، العقلانية واللاعقلانية، النبيل والندالة، الأنانية والاثرة-موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحي وأن بطون

الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان الشمال.

ثمة من قرّأي من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناثا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة اشعالها.

حقا؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكنت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واختفائها كليا في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإننا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل ما زال قائما بإقناع القارئ بجديّة فرضيتي.

اصطقوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجزّات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سوى وإنما عقل آدمي. إلى الخلف أيها المتسلّل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشّاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

لنتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأجراها، برماحها وبينادقها لتفجير الكواكب والشموس والمجزّات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليدو في ممثليهم: "أكشين".

ينقضّ الآدميون على بعضهم بعضا بسكاكين المطبخ، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بحاملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق. تتصاعد الهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا وطننا المقدى، يحيا ديننا الحنيف، بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سأبارزهم بعقب السيجار ثم أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "لنسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصيح أندري بوفولويوسكي في جنوده أرشقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوفورود تبركا وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عينها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدتها، أن الضباب لفّ المعتدين فتقاتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محارين، فالعذراء لم تذرف الدموع لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات عبثا على الصليب من أجل هؤلاء الشياطين والشرّ دوما هو المنتصر.

القاعدة أن الآدميون وهم في هذه الحالة، يأتون من الأفعال ما لا تتصور جيرانك وأصدقائك وحتى أبغض خصومك قادرون عليها.

على القائمة قطع الرؤوس، بقر البطون، فتح الصدور، تقطيع الأطراف، الدهس بالدبابات والرمي بك حيا من الطائرة.

في سجلّ الفظاعات أيضا ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه ايشا.

الأفطع إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى الكاتار وماذا فعل برفاتهم أعدائهم من عتاة المؤمنين.

فعل الأفعال! هل يكون قاتل بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية... أليس فعلنا الأول نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أفضعها في فنون القتل.

*

جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقال انه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطًا يصل الأرض بالقمر.

تمعنّ معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للآدميين... وانظر النتيجة!

أيضا كم من آباء وأمهات ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الآدميين... وانظر النتيجة!

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر وما زلت حيًا أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمي، وقد سقطت بقربي

أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مَرَّقت ولا تزال تمرَّق كل يوم أجساد مساكين وُجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلتَ منها أنا الذي لا أكفُّ عن الشكوى من سوء طالعي.

يتسلَّق إبليس قمة جبل الأجساد المتراكمة ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكّم والشماتة: وأرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خرَّبوا حديقته.

أي حجج يمكن للعقل أن يقبلها- ولا نتحدث عن -الفؤاد- لتبرير مثل هذه الفظاعات التي يشيب لهولها الولدان.

لنجرَّب لعب دور محامي الشيطان. تأمل هذه الحيوية والآدميون ينقضُّون على بعضهم البعض. استمع للصراخ المتعالي من المتقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات الأبطال... بربك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائهما على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيئها مصابيح باهتة يبللك العرق وتخنقك روائح الأدوية؟

تقول تبرير بأُس ينضح بالرومنطيقية والفردانية والارستقراطية وهوس المراهقين الباحثين عن المجد ولو " في أفواه المدافع " كما يقول شكسبير. هاك تبريرا آخر ينضح بالعقلانية والموضوعية.

ألم تفتح الحرب بالقوة الطرق برًا وبحرا لتربط بين قبائل وشعوب فرقت بينها المسافات الشاسعة؟

ألم تكن أهم عامل مسرِّع لتبادل الأفكار والبضائع والجينات؟

أليس تطور الكم والكيف في الأسلحة هو الذي مهَّد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري؟

هل يمكن تصور نشأة الحضارات والدول دون الحرب؟

أليس الدمار الذي تخلفه الحافز الأساسي للتحسين والتطوير في كل المجالات وهذا الدمار هو الذي يوفر دوما الحوافز والظروف الممهدة لكل اعمار؟

ألا يعني هذا أنه لا وجود للعالم في أي لحظة من صيرورته إلا كنتاج لما تصنعه به قوى الدمار وقوى الاعمار، إلا كما أي كما يقرره صنّاع السلام والحرب؟

محكوم على الآدمي أيا كان الزمان والمكان أن يدخل العالم، أن يعبره وأن يخرج منه والصراع على أشده بين هذه القوى القوية الجبارة وهو الضحية والمطية، الوسيلة والغاية.

تصرخ فيّ حتى هذا التبرير غير كاف لإسناد الفرضية المستفزة . إذا برّنا الحرب بكونها ضرورة لما نسميه التطوّر فمعنى هذا أننا نجعل منها محركا أساسيا للبحث عن الكمال. لكن هذا الكمال كان متوفرا في الجنة. لماذا يهرب آدم وحواء من كمال لم يكلفهما شيئا للجري وراء كمال ستكلف استعادته كما هائلا من الآلام؟

تضيف لحشري في الزاوية : عكس ما تدّعي هو ما يفرضه المنطق . فهذا العالم بكل ما فيه من مصائب ومصاعب لا يكون إلا عقابا على جريمة ما ، أكانت أكل التفاحة المحرمة أو مراودة الملائكة أو جريمة أفضح . كيف تجعل منه مكانا نهرب إليه بمحض اختيارنا، بل ولترتكب فيه هذه الحرب التي لا تزيد إلا في ثقل ملفّ الجريمة التي قد تكون سبب نفيها فيه .

ممکن، لكنني لن أتخلّى بسهولة عن فرضيتي. ما زال في جعبتي ذخيرة من الأسباب سأجربها تباعا وأولها هذا التفسير التبرير الذي سيفحم أكثر نقّادي إصرارا على تسفيهي.

وقال لهم الصدى ابهروني بما تبتكرون أجمل هداياكم مفاجأتي

على أقصى طيف هذا العالم التناظري ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخ الرعب والألم. على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة الغارقة في صمت مهيب.

يا للفارق بين بشرها وبشر ساحة المعركة رغم أن لهم نفس العقول والقلوب! الآدميون الآن وهنا جالسون جنباً لجنب يحاذرون من السعال والعطس أيديهم خالية من كل سلاح كلهم انتباه، انتظار، تشوق إلى ما سيحرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجربونه إلا نادراً.

على الركب بشر آخرون هم عازفو الأوركسترا ويتصاعد منهم صخب يدسّنون به كل حفل، ربما للتذكير بما تصدره الآلات من أصوات مُنكرة عندما لا يفرض عليها الآدميون ارادتهم.

كم هم مسالمون، وقورون كل همهم منصب على التأكد من سلامة أدواتهم للنفخ والنقر والذبج على أوتار الكمان!

يتوقف البصر مطولاً عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلتها لأنها تعتبرها منافسة شرسة، أنه لا عازف كمنجة واحد سيضرب عازفاً آخر مدّعياً أنه يشوش على عزفه ويسرق منه الضوء وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي آلته على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا. كل العازفون بانتظار هذا الرجل الذي سيأتمرون بأوامره لتأدية رائعة من روائع آدمي آخر ترجم في أروع الأنغام أعمق وأنبّل المشاعر التي يقدر عليها البشر.

يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع أعمال هذا الرجل الميت من قرنين الحيّ الخالد في قلبه وفي قلوب الملايين إلى نهاية التاريخ.

تهمس الأم في أذن طفلها الذي أصبح مراهقاً.

- يا بُنيّ إنك تصمّ آذانَ الجميع والجيرانُ يتذمرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلاً نهاراً؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، تركبني، لا يدخل أحد غرفتي.

ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئ ابنتها نصف عارٍ، منتصبا على السير، في حالة متقدّمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا إخوة مدعورين.

- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقاً بدأتُ أخشى أنك مصاب ب....

لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما مصاب بموجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع أنغام ترفع من ينصت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.
ذات يوم تعبر المراهق فكرةً مثيرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!
ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة الإسبانية العجوز:

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟
- آسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي.
- من؟ لا أريد إلا لبتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تمدّ إليّ العجوز كنزاً من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ. تتسع ابتسامتها لأدري لليوم تعاطفاً أم تهكماً ثم تقول لي ضاحكة:
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغنيّ ليس بتهوفن.
تتكرر المعجزة. يجنو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجّه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزءاً من الشكر لامرأة عرفتته بهذه السمفونية ورفضت أن تُصدّق أن صبياً من أمة أخرى يمكن أن يهيم حبّاً بسمفونيات بتهوفن، أن يجعل التاسعة ملجأه المختار للفرار ممّا يزر به العالم من شرٍّ ومن قبح.
فجأة يصمت النشاز ليدخل بوقار غير متكلف الرجل الذي ننتظره جميعاً.
يا له من آدمي محظوظ، على الأقل طيلة هذا الفاصل القصير من حياته. لن ينهض أحد من الجوق ليفتكّ عصاه بحجّة أنّه أصلح منه للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنّه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعه أمامه.
هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليلبور أحسن ما عنده همّه الوحيد إبراز المواهب والتنسيق بينها.
قائد الجوق هو الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الأدبيّ الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفاً ولا يهدّد أحداً نموذجاً كلّ من يحكم؟

إنها حالة نادرة في علاقات البشر ببعضهم البعض حيث أنت أمام مجموعة من الآدميين وزّعوا أخيرا بينهم السلطة بكيفية جمّدت صراع النرجسيات وهاجس الجميع تأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل. أين ترى شيئا كهذا في علاقات الآدميين ببعضهم بعضا خارج تنظيم الأوركسترا السيمفوني؟

يلقي الرجل بأولى أوامره الصامتة. تنطلق نوتات السمفونية العظمى بطيئة هادئة. تتصاعد تدريجيا سرعتها وحدتها. ينطلق الشدو الشجي للكمنجات يقطعه قرع الطبول. أي حدث جلل تعدّ له صرخات الأبواق؟ كأنك تسمع عبر الصخب الموزون لمختلف الآلات الصراع الأزلي بين الرقة والفضاضة، بين الوداعة والعنف، بين المتعة والألم. يعود الهدوء تدريجيا فترتخي الأعصاب.

يتوقف العزف لحظة وكأنه لا بدّ للجميع من التقاط الأنفاس.

يبدأ المقطع الثاني بأنغام كأنها تصاحب طفلا يدخل الساحة على أطراف الأصابع لينطلق في الرقص يلف يدور وينط وقد أصبح شعلة من الفرح.

ثم يدوي قرع الطبول ليذكر أننا في هذا العالم لا نرقص إلا على فوهة بركان. أي أهمية للأمر المهم ألا نتوقف أبدا عن الرقص.

يأمر قائد الأوركسترا بالصمت فتتوقف في لحظة كل الأنغام. ثم تعود كأنّ فاصل الصمت لا مهمة له غير استعجال عودة الموسيقى لتتواصل لحظات تجرّب فيها الذات أصغى مشاعر المهابة والجلال.

تنساب الأنغام السحرية مجددا والحوار المسترسل بين الكمنجة والتشيلو، بين الناي والبوق والكلارينات لا تقاطعه الطبول إلا بنقرات خفيفة متفرقة. المقطع من بدايته لنهايته هدوء ووقار جلال تبخر منه كل يشي بأن هذا العالم عالم التهديد والخوف والألم. تبلغ الموسيقى أوج الرقة والجمال لتصبح خشوعا صرفا. لم نعد في قاعة مسرح وإنما في كنيسة -كنيس -معبد -مسجد تمّ فيه اللقاء الموعود بين بين الأحباء، بينهم وبين الحبيب المبحوث عنه من الأزل.

لحظة استرجاع الأنفاس يغتنمها قائد الجوقة لمسح عرقه.

يقف الكورس الذي كان ينتظر صامتا هذه اللحظة.

يبدأ المقطع الرابع الذي ينتظره الكل.

يدوي قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لا في السماء.

تتعالى حناجر جوقة المنشدين من الرجال والنساء بأشهر لحن في كل العصور، انتهى الصراع بين الكلمة والنغمة تظافت الطافتان والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"ندخل محرابك (شلمر)

روائعك يا فرح تعيد ربط المتفرق

كل الكائنات ترتوي بك من ثديي الطبيعة "

يا للمؤلف الألمي الذي جمع أصواتا لا متعة فيها متروكة للصدف أو للأيدي الجاهلة ليستخرج منها بفؤاده وب عقله وبراعة العازفين أقصى ما يزر به العالم من جمال!
تتحرك داخل الذات مشاعر بالغة الرهافة تتبع نسق الأنغام، تغور معها في دهايز الكآبة وترتفع معها إلى أعلى درجات الفرحة تتجاوب مع كل كلمات النشيد.

"على هذه الأرض ترفرف روح واحدة

الأخيار كالأشجار يتبعون الطريق الذي تفرشه الأزهار

كل البشر اخوة أين يظلمهم جناحك اللطيف "

لم يبق على الجوق إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرحة عاد سيد العالم، تصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات، بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن أدائنا وفخور. انطلق يا ذاتي إلى الأعلى، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترفعي، توهجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق.

تكمل الحناجر التغني بأبيات النشيد الرسمي للبشرية، تظافت الأبيات والنغمات لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال.

"تقدموا، أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرحة (شلمر)

اركعوا أمام الأب المقدس

ابحثوا عنه، ابحثوا عنه، ابحثوا عنه."

هل ثمة شيء يغفر للأدمية كل موبقاتها ويعلي شأنها بين كل الكائنات غير قدرتها على اختراع الفن وخاصة الموسيقى؟ مثلما بلور لوتسو وابن عربي وايسا من ممكن الصنع الذي تزر به الكلمات أروع القصائد... مثلما بلور أكبر الفنانين من ممكن الصنع التي تزر بها الألوان أروع اللوحات... مثلما بلور كبار المهندسين المعماريين من قدرات الحجارة هرم خوفو وكاتدرائية ستراسبورغ وضريح التاج محل... مثلما بلور كبار المهندسين الميكانيكيين من إمكانيات المعادن الطائرات والصواريخ والمحطات

الفضائية.... هذه السمفونية الضخمة الفخمة الجبارة العظيمة معلّم بناه بتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات.

إذن، خلاص، وجدنا عقدة قصة القصص. فرّ آدم وحواء من الجنة لخلق الموسيقى ولا شيء آخر، أما الحرب فقد كانت حادث طريق لا يحسب له حساب. ماذا تقول؟ حتى هذه العقدة غير مقنعة لأن الموسيقى كانت موجودة وبكل الأصناف والكميات في الجنة التي أدعي أن آدم هرب منها.

نعم كان بوسع آدم أن يسمعها طوال الأبدية لكن أن يخلقها قطعاً لا، فالموسيقى كالشعر لا تنبعث إلا من ذات تتأرجح بين أعمق الآلام وأجمل الأحلام، ومثل هذه الحالة لا وجود لها في الجنة وقد أصبحت الآلام والآمال بلا جدوى أو معنى.

اذن لنجعل سبب الهروب من الجنة بناء عالم جديد يعود فيه الخلق والابداع سيد الموقف بعد أن جمدهما الكمال في الجنة ومن ضروريات الخلق العودة لقدرة تأليف الموسيقى؟

نعم، لكن ماذا عن التكلفة؟ كم في هذه القاعة يتذكّر أن الوحيد الذي لم يسمع هذه السمفونية العظمى هو صاحبها لأنه أصيب بالطرش لتسممه بالرصاص الذي كان يلوث ماء الشرب؟ كيف واجه الموسيقي العبقري فقده السمع وهو الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلّف؟

من يستطيع استحضار ما عاناه من آلام في تجميعه هذه الأنغام التي ستسحر الملايين على مرّ العصور؟ أي أزمات نفسية رهيبية دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ وقبل بتهوفن من يستطيع تخيل عذابات شوبرت وموزارت وتشايكوفسكي وفان فووف والحلاج وأبو القاسم الشابي وغاليلي وكم من عمالقة الفن والفكر دون نسيان آلام بناء الاهرامات وتاج محل وناطحات السحاب في كبرى مدن العصر.

قيل الكثير عن آلام الشعراء والفلاسفة والفنانين لكن كم منا يعرف ما عاناه عباقرة الرياضيات من أمراض عقلية ونفسية في بحثهم المضي عن الحقيقة المطلقة مثل فودل، كانطور، بولزمان، دورنج أو اهرنفسست الذي قتل ابنه وانتحر على جثته.

من سأقنع بأنه لا تهم تكلفة الحرب ولا تهمّ تكلفة الفنّ إذا كان الرهان بالنسبة للأدي إعادة بناء العالم على هواه؟ الأهمّ من هل سيقبل هذا الأدي بمواصلة دفع مثل هذه الضريبة خاصة إذا داهمته الشكوك بأنه دُفع دفعا لمهمة باهظة التكاليف وهو يظنّها خياره الحرّ؟

وقال لهم الصدى لا تحبطكم المحن فكل ثمين باهظ الثمن.

تأتي من مذياع السيارة آخر الأخبار عما تعانيه البشرية من الصراعات التي لا تتوقف بين الشعوب والأمم، من تنكيل الجفاف والزلازل والأعاصير، من مخاوف اندلاع الحرب الكبرى التي تكثفت الاستعدادات لها.

لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة.

سيكون الرجوع من المدرسة بالقطبتين الشرستين تحديا عسيرا لأعصاب لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهدين. كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المتفرجين أو بتصاعد تناؤهم.

يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرّت من التراشق بالكلمات إلى العضّ وجذب الشعر. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- ممكن معرفة سبب المشاجرة هذه المرّة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرّة أن تنظر من نافذتها. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلاّ النظر من نافذتي.

بربك، أليست أغلب المشاكل المقرفة التي يتحدث عنها مذياع السيارة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مئذنه عقابا له لأنه نظر من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القذر لنافذته هو؟

أصرخ بأمر اعرف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيّارة أجد تفاحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه ورائها تخرج لها لسانها.

تعود البنتان للخصام يختلط ضحكي بصراخهما وصراخ أمهما من الصالون وهي تصرخ بالكفّ عن الصراخ.

أخيرا الليلُ وآخر واجبات اليوم.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، بقية قصة فرار آدم وحواء!
- بقية القصة؟ بعد كل ما أظهرتها طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا
وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه دور تفيحه شريطة أن تكفّ عن
الرقص على هذا السرير المسكين .

تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.

- تفيحه لا تعرف، "با"، أنت من يقود وأريد قصة جديدة، لا أحب قصة البارحة.
أي قصّة أختار لهذه السهرة تتماشى مع مزاجي؟ لماذا لا أحاول تلك التي حاولت
وضع حدًا لآلام البشر حتى وأن لم تفلح؟
تصرخ تفاحة من أولى الجمل:

-إنها قصة نوح...

تصرخ تفيحة وأنا أيضا أعرف أنها قصة نوح ...

ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الآدميين الساميين والهندوس الذين بنوا معالم الأسطورة
حقيقة ما جرى. وحده من خبر كواليس السلطة ويعرف كيف تؤخذ القرارات المصيرية
قادر على رواية القصة "الحقيقية".

التفاصيل حسب مصادر الموثوق بها والتي لا يمكن الكشف عنها لأسباب أمنية.

يومها افتتح الجلسة المهيبة أمون -رع بنفسه:

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونيا، اجتماعنا
الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الآدميين... هل
رأيتم السرعة التي انتشروا بها في كل أصقاع العالم والحال أنهم كانوا مبرمجين لقطعة
محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس الحية؟! هل رأيتم
تكاثرهم المهول؟

يتدخّل زوس لا يخفي استنكارا غاضبا إلى أبعد حدود الغضب والاستنكار:

-قل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تفتقت عنه عقولهم المريضة من أصناف التنكيل
حتى ببعضهم البعض.

يقاطعه بعل:

-حدّث ولا تسل عن وقاحتهم وعجرفتهم وقسوتهم في التعامل مع كل الكائنات
الحية التي شاء حظّها العاثر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم كل هذا الحمق
والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار، وتلويث السماء والأرض؟ قلتها

وأرددها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كلفت. لم يعد من المعقول مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الآدمية اللعينة بالحديقة المقدسة.

يغتنم بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

- هل رأيتم ماذا فعلوا ببجاري. حوّلوها بما يكذبون فيها من بلاستيك وقاذورات لقمامات سائلة... هل رأيتم ما فعلوه بالحوت أجمل وأعظم المخلوقات... هل تقدرون أنهم بصدد افراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل....

ينفجر بعلى ضاحكا:

- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتَبِه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجرت على رؤوسهم بركان "توبا". يا للأسف، قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ آتينا في وجه بعلى:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كمّا هائلا من الأجناس البريئة! أما وحيي لا يوجد رب ثانوي أغبى منك.

يصرخ أمون- رع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الإلهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.

يستطيع أخيرا كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجيّي على جنس بالغ الطرافة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيت ما قلته في سهرتنا عند اللآت والعزى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات... أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم...

يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يقاطعه ووطآن بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرقهم جميعا لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

وحدها ايزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس غير متحمسة لقرار تصفية الآدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأيها بالرفض المؤدب.

من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السداجة بخصوص طبيعة من يريد انقاذهم.

إذن كما تقول الأسطورة الأم التي سطت عليها الأسطورة المقدسة:

"ولما عزمت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان "

"أراد الإله إينكي إنقاذ الآدمية "

من إينكي هذا؟

يا للأسف، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصّص له سطح الأرض والحال أننا ندين له كلنا بوجودنا. ألم أقل لكم دوما أنني لا أنجّي على الحقيقة بخصوص لؤم الآدميين وقدرتهم على الجحود وإنكار الجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الإله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته؟

[تلخيص المرافعة]

أيها الآلهة الموقرة، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم الآدمي مجرم لا جدال في ذلك، لكن المسكين أيضا ضحية. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضان. لا تنسوا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصدهت بالملايين عبر العصور.

ثم إن قضينا الآن على الآدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونُعدّ المكان للورث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية.

ختاما اودّ تذكركم بأن الصدى لم يعط أمرا بإيقاف هذه التجربة خلافا لما يدعي بعض زملاء والزميلات. أما ندمه المزعوم على خلق الآدمية فمحض افتراء. يتعالى صراخ الآلهة، خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهتدة بالانقراض إذا تواصلت التجربة الآدمية.

لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت فلا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت ايزيس. يخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع. على كلّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تنجح خطة زملائه غير الأعزّاء.

كيف وماذا فعل إينكي؟ تواصل الأسطورة:

"فاختار الملك زيوسدرا

وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان

ويقوم في أرض العبور

أرض دلمون حيث تشرق الشمس."

ينهر إينكي الآدمي الذي تسميه الأسطورة الملك زيوسدرا وفي روايات أخرى نوح صارخا فيه أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش وهو أحسن يعلم أنه غير ضروري.

يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من أحياء وأموات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة آخر في هاوية تبدو بلا قاع.

تندافع الأفكار السوداوية في ذهن حواء: شكرا لك يا إينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة. حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه الحياة، وما على نوح إلا أن يتبعني في اليمّ أو أن يجربّ خلق حواء أخرى من عظم الساق أو من أي ظلع يشاء.

لأول مرة تفكّر حواء بجذّ في الانتحار ملّت مشاكل لا ولن تنتهي مع بعلمها وذريته الشرسة. لا بد له ككلّ انتحار أنثوي من إخراج جيّد. تنتظر حواء رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخترق أشعة القمر السحاب ليراها آدم-نوح وهي تفتح ذراعها مودعة الحياة في حركة مسرحية. طبعاً سيحتّ الخطي لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو العليم بأن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ.

أصرخ فيها: هيا خلّصينا، اقفزي.

ترمقي أم الأمهات بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البتتان بصوت واحد متناقل: "با"، لا نحبّك إذا واصلت هكذا.

يمكنني أن أوصل القصة أروبيها لنفسي غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.

إذن تنفّس "اينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حوّاء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الرّبّان.

كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من الآلهة إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد وإحالته على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرّت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين إينكي، آه لو يعرف ماذا أعددنا له؟

هم أعدّوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها أينكي النجاة لكنها الآن التابوت والمحيط المظلم المقبرة.

تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.

- هذه قصة التيتانيك، شاهدت مع "ما" فيديو جميل عنها.

تهمس تفيحة لنفسها:

-أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.

نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لاعتصار مزيد من المعاني من مكافحة القصتين.

تغرق الباخرة ببطء متلف للأعصاب. يمسك آدم بشعر حواء يجرّها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟

ترفع تفيحة عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشدّه؟

تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحة؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الآدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسّك، تشبّث بالحياة؟

تتضرع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي أدواته لا غير: أعطنا فرصة أخرى. سننجح المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعثتنا نبحث عنه.

إينكي الآن على زورقه مجدفاً ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرعى مجداف، إلى اليمين قليلاً. هكذا، نعم هكذا، والآن ترقق في جذبها وعظها بسرعة؛ إنها تموت برداً، لا تنس دميتها إيتي وإلا سترفض الصعود. ثم تتوجه إليّ:

- "با"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألسنتُ رائعة؟

بل أنتِ أروع من رائعة يا محبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

هل نغبط الغرقى ونبكي سوء حظ الناجين أم نبكي سوء حظ الغرقى ونهني الناجين؟ هل نفرح بانتصار الحياة على الفناء أم نزداد همًا لتواصل محنة الآدمية ولا تفسير أو تبرير للأمر؟

كأنّ صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة.

مهلاً يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والآدمية منذ انبثاقها مقسمة بين اغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم.

وقال لهم الصدى على الطريق أيضا واحات ظليلة تجربون فيها كم في الوجود من نعم

تستيقظ تفيحة باكية ترتجف بردا تفرك عينها باحثة بعصبية عن دميها ايتي.
- "با"، حلمت حلما مربعا...ظلام ومياه سوداء، دثرتي.

تسارع تفاحة لإحكام الغطاء حولها.

تكفّ طفلة الخمس سنوات عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة
وهي بين الأحضان الدافئة.

- لا أحب قصّتك، لا أحبّها.

- أنا أيضا يا حَبّوبي لا أحبها، لكن ما حيلتي. هي التي ترويني، لست إلا الناقل.

- لا، لا، إنها غلطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة. لن يكون في قصتي الليلة
المقبلة إلا "كثييبيير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة.

تتدخل تفاحة بقوة:

- وبعد النجاة من الطوفان سأجعل السفينة المحملة بالناجين من الغرق ترسي على
شاطئ جزيرة "جمييبييلة" جدّا جدّا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب
والعصافير وغابات لا يكون فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل.

تفيحة هامسة في أذن أختها: لا تنسي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع
المشي دون أن أنزلق على أحجاره الملساء.

لتفاحة أولويات أخرى وما على قصة الليلة إلا الانتظار.

- "با" وعدتنا هذا الأحد بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب
ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة ل " ما" ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة التي
تعدّها منذ البارحة.

لم لا؟ ستكون فرصة للاستلقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع بأنني لا
أفعل شيئا. حدوّ جدول رقرق متّكئا على جذع شجرة أتابع بأقصى الانتباه كائنا صغيرا
يشق طريقه بين الأعشاب.

" رويدا رويدا (إيسا)

تسلق جبل الفوجي

أبيها الحزنون"

من جديد تفاحة وازعاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "با"، ارتفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفيحه. الآن أنت الذي ستصنع لي إكليلًا.

هل من خيار آخر غير النهوض متناقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتني أعدّل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.

تصرخ تفيحه فجأة وهي في قمة الجذل لقدم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أغني تحت المطر..."

- تغنيان دون شمسية! لكن البطل في الفيلم الذي شاهدناه يغني مراقبا شمسيته.

تلتقط تفيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. ها نحن ثلاثتنا نرقص تحت المطر نضحك، نصرخ وننط، نفتعل الهجوم والهرب والكلّ مشغول بالشمسية افتكاكا وتملكًا.

العالم الآن في أوج حالته المباركة والذات تعيش أروع ما تهدينا الرحلة.

الفرح! تجربة الذات لسعادة مفاجئة لم يعد ينغص عليها ماضٍ مومج ولا مستقبل مخيف وكل الزمان مختصر في هذا الحاضر الذي يوصينا كل الحكماء عبثا بالعيش فيه وحده لا غير.

تنتبه تفيحه لمرور الساعات الممتعة وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما" تنتظرنا. عجلًا.

لكن تفاحة منشغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:

- "با"، انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك "ما"، يجب أن أجد حلاً لكيلا تتفطن.

كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مواء القط.

ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الآدمي الممعن في وداعته، لا يفعل سوى استعادة قواه للانقضاض عليه مجدداً؟

المهم أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الآدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الآدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه فما بالك بمحاولة التخلص منه.

أَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ مَبْتَهَلًا : انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

لإخراج ابنيها من ورطة أخرى هو الذي لا يخرج من ورطة إلا لما ألعن، تضع البنت إصبعها بين أسنانها مستغرقة في التفكير. ثم تهتدي للحلّ.
- سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.

إنه الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأثني الأخرى ولو كانت أمًا وزوجة... حلفٌ لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أبًا وزوجًا.
تعود إلى العالم ابتسامته. ربحت مهلة متعة وسلام لا يهيمّ انها لا تدوم.

نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجه منعًا صارمًا بدخول بيت نُظّف لتوّه ونحن بكل هذا اللبل والوحل ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزمّنة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم -وخاصة سيادة الأب- مسؤولية الزكام وما ينجّر عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكرًا على الباقية يا حبيبي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئًا بخصوص الأحذية. تُنزع كلّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

- أعدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذیذة إذا بردت.

- الدلال مع "با" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدية الأمر واستحالة تجاهله.

أخيرًا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.

تحتجّ ضاحكة: كفى قُبلا بأفواهكم المملّخة. النجدة، إنكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة. يا الله ثلاثتكم على برة، البنتان في غرفة النوم والسيد الأب اين يريد.

كم من ملفات تحفظها الذاكرة بحرص شديد ليس بمستغرب وكلها ملآنة بقصص كهذه ليس فيها رهان أو موعظة أو تبعات والعالم في حالته المباركة أصبح صنو الذات وصديقها لا الممتحن الظالم القاسي.

إنّها ليلة ساخنة والضيف ضيف طرق على الأبواب باكراً هذه السنة. هناك مواضع كثيرة ستشدّ المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل وهم مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح.

كل أحاديث السهرة عن جيرانٍ ووصلوا متأخرين عن مواعيدهم... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به اليهن... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابتها يوماً قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى للضيوف... عن الزواج الذي تأخّر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة.

"الحياة اليومية (رامبو)"

بأعمالها المتواضعة السهلة

مهمةً بامتياز

كم تنطبّب من الحبّ"

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتحلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الإحرام تؤكّد أنه لا خوف من تجربة الوجود.

يجمع الحبّ كائنين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق القادم الجديد والشاعر كالعادة الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالي كتمت سرّ الهوى بالذبح لولا شمسُ الغرر (ابن الخطيب)

مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر

وطرّ ما فيه من عيب سوى أنه متركّمح البصر

يتكوّر بطن حواء شيئاً فشيئاً فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقائق القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه يتبجّح دوماً أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته

على الطريق. ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذائقتها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يصل الطفل الموعود في الأبان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تفتح الوردة لإطلاق اريجها. ها قد أصبح حاضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كائنا موجودا في هذا العالم.

الطفل الآن مصدر فرح لأم فخورة وأب متهيب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمام واخوال، من عمات وخالات ... كيف لا والرسالة التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصلة الطريق إلى أبعد نقطة.

كم من ذكريات عن طفل هائج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صببية يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئا قدر شد شعور البنات.

ها هو يبحث عن أعذار تضحك كل من حوله: والله -يا "ما" لستُ أنا. يكذبون علي. آه يا أذني. تؤنبه الأم الأزلية والآن كفت عن الركض أصبتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك.

لا أسهل في هذا العمر من توليد الفرح.

يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صورته الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحي لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذه. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خط مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغش.

ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

أنا قلتُ لا أشرس من الآدمي وهو طفل، لا أعنف من الآدمي وهو طفل، لا أظلم من الآدمي وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ورجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات-خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تقدّمي كمعارض بدائي للرّضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بوسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبوّلتنا عليّ أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقلّ هذه اللحظة- أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكان آخر يستخرج منك هذا الفرح الذي يعوضك عن كل ما تمرّ به من منغصات العيش.

ها أنت تبتمس لرضيع تدفع عربته الصغيرة أم جميلة تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنضف إلى المشهد العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع إليها لتأخذ نصيبها من الحب ومن الحُب.

أيضا المقهى الصغير على الضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمتجهم، كلهم استبطنوا نصيحة الشاعر:

"قال البشاشة ليس تسعدكائنا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (أبو ماضي)

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإنك بعدُ لن تتبسم"

إنه مقهاي المفضّل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أنفوس ملء رئتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه والظهر مسنود إلى "جوناس" الشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

فجأة أجد نفسي أترنم بكلمات أغنية غناها أقيح -أجمل صوت لأكرم فتان.

" أشجار مزهرة

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

What a wonderful world !

العالم في حالته المباركة هذه زاخر بأماكن أخرى تولد في الذات كل أشكال ودرجات الفرح.

الأسواق مثلاً. كم أحبّ الوانها وروائحها! كم أحب صراخ باعة مرحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأيّ مشادة أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي! كم أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. كم أحبّ التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والتوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي ما أحتاج للذّ طبق يساهم في الحفاظ على صحي ومعنوياتي!

على ذكر الأطباق اللذيذة. هل ثمة في العالم وهو في حالته المباركة هذه مكان أحسن من المطبخ وهو الذي تكتسب فيه فرحة الحياة وأعمق وأقدم مظاهرها: لذّة الشبع والجوع كان طوال تاريخ البشرية ولا يزال أولى أسباب الهمّ والغم.

تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبى حذر مفاجئ

- أنقذت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة مشفقة.

- أحسن من هذا....

-لا وجود لأحسن من هذا.

- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.

- الآن؟ في منتصف الليل.

- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوّب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.

كم من مرة رأيته تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلة وبخشوع من يصلي صلاة الجنائز والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.

دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة الطهي... والنتيجة كعكة جافة كليا لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلها تؤكل أشلاؤها بالملعقة.

هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أدنى.

تعود "ح" أكثر من مرة إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.

- فهمت سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟

- تظنني غيبيا؟

- فسّر.

- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالفطر المجهول لبوزون" هيجز، فإن...

- لا تكن سمجا. سيصبح سائل الكعكة يابسا بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابسا هو الآخر.

- هذا بالضبط ما فهمت وسأهني نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.

تتنهد "ح" غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.

- أتساءل أحيانا ما الذي حبّبي فيك؟

- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي...متأكدة أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟

- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟

- لا.

- إذن تفضّل على برّه.

- كما قال لا أدري من: نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.

- انتبه، لا تضطّرني لاستعمال العنف ...

- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.

تهاجمني "ح" بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعيّ. لا تنظلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ موصده الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح "ح" الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة الفرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.

نعم، يجب اعتبار المطبخ صرة العالم في حالته المباركة لجملة من الأسباب وليس فقط لما يوفر من فرح بطبق لذيذ تنجح فيه الحبيبة أيما نجاح.

أليست كل الأفعال التي تمارس فيه مثل أكل، تذوّق، مضغ، التهام، شبع، تمتع أفعال تستمدّ قيمتها من عالمٍ عبّرته الأجيال وفعلٌ جاعٌ أكثر الأفعال تصريفاً.

خذ الآن الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروس، بريك بالتّن، طاجين جبن، بسيصة زيت الزيتون والحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست برّبك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الآدميةُ النهمَةُ تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعكرونة بفواكه البحر والسوشي والكزّي والنام وكعكة التفاح والبطّة بالسكر المحروق؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

لنتذكّر أيضا فضل المطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقيّ وتقدم.

أليس أولُ مختبر تمعّن فيه الآدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، ندوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها وتنمّعن في نتائجها؟

من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنساخ. حقًا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأنافة أو اللطف.

هنا لا يفوت النصّ تقديمَ بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّرنا -مع بالغ الأسف- إلى التهامها، خاصة الدجاج بسبب كل ما عرّف منا من خنق وسلخ مُعتبراً زلّة لسان لا تُغتفر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثاً.

أغتنم الفرصة أيضاً للتقدّم أيضاً بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مذهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.

تقول نسيّة الفلّ والياسمين والحبّ والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من مننعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟

تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسبّب في آلاف قتلاها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة.

بربّك من أعان البشرية أكثر ووفّر لها أحلى أوقات اليوم: مشاهير أباطرة الدين والسياسة والعلم والفنّ أم من نعرف ولا نعرف من الطباخين.

من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة المحسنين للجنس البشري: إسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابوليون وأبو عبيدة الجراح أم الذين اخترعوا البقلاوة والمقروض والغريبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية؟

انظر أيضاً كيف يضيف الطباخون إلى ما يفرح بطوننا ما يفرح عقولنا.

ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والبادنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود بينما نضجّ الوقت والجهد في الجري وراء أوهام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المادية والوطن المفدّى والشعب المقدّس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحاً أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حياً لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شكّ في السلامة العقلية للطباخ؟

أخيراً، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائياً من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة تسمم، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟

تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطباقون. بديهي أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأهوال التي نقاسي منها جيلاً بعد جيل. هناك مكان ينافس المطبخ في توليد الفرح: الملعب.

الملعب! أليس المكان الذي أريقّت فيه دماء القرايين البشرية والحيوانية على مرّ العصور... الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذاك ... الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب... الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة.....الذي تدافع فيه جماهير مقموعة لتفجّر ما بداخلها من عنف مكتوم... الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة عند نشوب حريق أو انفجار قنبلة تهول نحو أبواب الخروج لتتساقط مئات الأجساد وتموت عفسا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم، أحدثك يا صاحبي عن ملعب العالم وهو في حالته المباركة هذه على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وأفخم طراز من ملاعب العصر وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف من المتفرّجين وصراخ الفرح في أوجه.

السقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الدمار والموت التي تزمجر حولها وداخلها.

تنطلق الشماريخ تحيل الليل نهاراً ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاحب جذلان وسعيد. كيف لا يتفجّر الفرح عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيراً تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيراً ولو لزمّن قصير عابر، البشر جميعهم سواسية، لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء.

أمامهم مراسم الاستعداد للعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للغشّ والظلم.

تحت أنظار الجميع حكم نزيه عادل محايد موضوعي يعطي لكل ذي حقّ حقه.

فجأة يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الشباب. يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهباً كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم للكوكب الذي هو وطن الجميع.

يصل الحشد بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم. هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسحب التمثال بعيداً إذ لا يجوز ابقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التواري بعيداً عن الأنظار ليبقى محفوظاً بالغرابة والسّر.

ينتصب أحد النظارة واقفاً. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبّد.

تتواصل طقوس أوسع ديانات هذا العصر انتشاراً والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعاً لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق وابيض.

فجأة يتعالى صراخ الجدل وقد استطاع ممثلونا على ساحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادراً ما نصيب شبابه.

نعم، ظاهرياً نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتفي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأقل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء.

تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور، لكن حاجة الأكل ثابتة واحدة عند كل البشر... كذلك الأمر مع الحاجة الدينية... كم عبد البشر من آلهة قُدت من الحجر، من الشجر، من أجمل الصور ومن أروع الأفكار ! آه لو فتح لي المستقبل أبوابه لمجرد نظرة خاطفة على طقوس ديانات العشرة آلاف سنة المقبلة!

في الملفّ الذي تبلغ فيه فرحة الحياة ذروتها -والعالم دوماً في حالته المباركة هذه - يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشماً ومحرجاً. يجب أن أسخن أكثر فلست متعوداً على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضاً لغياب من تعودتُ على وجودهم أمامي بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهراواتهم الموجهة.

إنه حفلٌ آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"ضيع". ثمة في

العملية سخرية من الحرب والناسُ يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسمّم حياة الآدميين وهم أخيرا سواسية صبغت وجوههم وثيابهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلي وإن بأزياء مختلفة وبطبول تفرع أنغاما مختلفة تدرع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو اورليز، نوتيتج هيل، تريف، كيبك، بازل، ساو فنسنت.

ما يجمع بين كل هذه القصص أنها احتفال البشر بفرحة الحياة، ماذا عن قصصهم مع أكبر خطر يهدد هذه الفرحة والحياة بصفة عامة؟

تتحول في هذا المشهد والعالم في حالته المباركة هذه - ساحة المعركة من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية والبطل...الدجاج المحمّر.

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرة إلى فارس العدو؟ من؟ المهجّج الرسمي! الذي يرافقه في حلّه وترحاله! ربما قرّر الأمر ليعث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مُضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزّجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.

يستعطف أبو دلامة مولاه مذكرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عبثا. آخر استعطف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شعبانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محرّمة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمنا في قرارة نفسه قيام المهجّج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله.

يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغى".

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.

ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهراً... دجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئاً يشبهه:

أبو دلامة: أتعرفني؟ أ

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصَفِّ بعد؟

- لا والله.

- هل هتكتُّ لك عرضاً؟

- لا والله.

- هل قتلتُ لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقْتُ منك شيئاً؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قلته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العنّ الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعاً مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.

ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معاً دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسماً وروحاً.

نعم الأبطال الحقيقيون هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخانق وإلى المحيط المرعب، أما البطلات الحقيقيات فهنّ كل

النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، فيما يقدمنه للحياة من خدمات صغيرة وكبيرة... ما عدا هذا تمثيل ذكوري سخيّف عديم الذوق والفائدة.

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- يغتنم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفترانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصبّون سخطهم على أكلٍ لا أبشع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة قدم فيتدافع كهول استعدادوا طفولتهم لمباراة ستبقى في ذاكرة الأجيال. يتعالى صراخ المرح والضرباُت البارة تسدّد لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفّعها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمّرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يسطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص والبنادق مصوّبة نحو النجوم.

من يتدكّر أنه يدين بالفرح لوجود الحزن والقانون الذي نته له لاوتسو أكبر حكماء البشرية استحالة وجود للشيء دون النقيض... أي قيمة للسلام لولا أهوال الحرب؟ هل ثمة معنى للحقيقة لولا وجود الكذب؟ من أين لنا تذوق الجمال لولا وجود القبح؟ ... يا لها من مفارقة: أشدّ ما نكره هو الشرط الضروري لوجود أشدّ ما نحبّ؟

وفي هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه- تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفّاق في وجهي. أدرّش معه وأنا في قمة الحماس والجدل، أليس يوما رائعا؟ حتّى الطقس يريد السلام. هل تتصوّر أنها أوّل مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتما. ثمة الفرحة بأننا أكثر مما نتصور وأننا كلنا متضامنون متحدون ضدّ نوبة الدمار المقبلة... قد نستيق الأحداث نتصوّر فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها ويخرج الأغبياء للاحتفال بالنصر.

ثمة أماكن كثيرة أخرى يتفجر فيها الفرح والعالم في حالته المباركة هذه، المراقص نموذجاً. لنختزلها كلها في مشهد يعيد الخيال فيها تركيب معطيات الواقع.

الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدأ العزف على الأكورديون. ها أنا أتخيل ملك الزولو بمئزره الأحمر وطاقيه جلد الفهد على رأسه ينحني أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصيني فتقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجله خشب الركح. تتقدم الراقصة الباليينية لتتنشئ على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذکر الليالي الأولى فيتدافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بآخر هدايا اليوم كأنه حلاً للفنان الأعظم الذي علم الرسم موني وبيسارو إعادة تلوين السحب.

ها هو يضع بريشته على أطراف رمادها الكثيب لمسات جد خفيفة من الأصفر الوضء متابعا بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرج حواشيها. ثم كأني به يغيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضماً المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد.

كم صدق لاوتسو، أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن اقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان؟

"ثمة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جئننا للموت"

جئننا للموت! أم لتجربة الحياة والموت أولى شروطها!؟

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان "أبي بين ضلوعكم تقلّبي الأنفاس جنبا إلى جنب"

للبحث عن "الأب المقدس " شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس...وقدماء الإغريق إلى دلفت...وقدماء البريطانيين إلى أرخبيل الأوركاد شمالا وستونهانج جنوبا... وقبلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار وبركان وهضبة مربّعة وسط صحراء حمراء.

وفي عصرنا هذا يشدّ الآدميون رحالهم إلى أماكن اسمها شافين، كوياسان، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك.

يشدّ بنو قومي اليه الرحال منذ قرون وموعدهم معه مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنهد "ما":

- كم أنا سعيدة أنّك...ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوما.

لي فقط؟ كان الحجّ حلّمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت البّوح به حياءً من أن يُعتبر طلبا وتكليفا.

كم ردّدتُ لنفسي أنا جدُّ مشغولٍ هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أماننا الوقت وهكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.

- فات الأوان يا بئيّ، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهوّن عليها والسرطان ينهش جسدها وعليّ والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هوّن عليك يا بئيّ... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك...

لست مستعجلا، أليس كذلك؟

نعم، لستُ مستعجلا هذه المرّة بل سأخذ كل الوقت الذي بخلت به عليها دوما.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تُعرف الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

مؤكّد أنني سأعوّض زميلاً تدخل له كل كبار القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوّض. اللهم إلا إذا عيّوني للمهمة لأنتسك هناك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم... أو أملاً أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء فيرتاحوا مني نهائياً.

- بعد الشّر عن كبدي، والآن أصدّقني القول، لماذا تفاديت دوماً أسئلتني عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجاً وما زلت شاباً؟ حدثني عن كل تفاصيل السفر المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف التي كنت أحلم بها؟ ... خُطاي في حُطى أجدادٍ كان حجّهم إلى الأراضي المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر ناقّة بيضاء عُلقّت في عنقها الأجراس والتمائم... النوم بالنهار والسعي ليلاً تحت القنّة المرصّعة بالنجوم... المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى للأخطار الكامنة في كل منعرج...

أم أصف التي جرت في واقعهم اللعين؟

يبدأ الرحيل بالوقوف ساعات مضية في طابور تسوده الفوضى لإجراءات الشرطة وتسجيل حقائب ملائمة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعاً. يواصل الشيطان المكلف بالسخرية من بأحلامي العبث بأحلامي بحشري في طائرة مكتظة، بل وفي مقعد الوسط بين مدينة بشعة وشيخ أسمن منها.

عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطيّ عابس آخر يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة، ثم التدافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحج.

الضحيج والحرّ وروائح البنزين والعرق تخنق الأنفاس.

فجأة يدويّ زعيق الفرامل وصراخ السائق:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجّه إليّ الرجل بلطف: آسف، يا سيّدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرته بذلك وكننتُ في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أُبعقل أن تصبح أقدس

سفرة حلمتُ بها سنين هذه المهزلة؟ مَنْ هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفرة؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلًا على بشر أو إله.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلتُ من الحافلة متوجها إلى حقيبة رابضة تنتظري على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركز ورأيي والقمر يقهقه ويحرض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدّق فيّ مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهمة أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة الى أمثالي أهمّ من... لنقل إن للطريق أهمية كبيرة.

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشّر لأقصر الطرق المؤدية إليه.

أخيرا صراخ سائق الحافلة: يا الله، كلكم على برّة بهدوء، لا تتدافعوا لا تمشوا على رؤوس بعضكم البعض.

حال وصول المدينة المنوّرة آخر ساعات الليل، رميتُ بالحقيبة اللعينة على فراش النزل. هرعت إلى المسجد أترّجّح من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرهم.

زحمة مخيفة. تدافع فظّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الآدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرّب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الآدميين بأكثر العقوبات إذلالا.

ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الآدميين.

لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتكون حجرة أو عظاما ليبنوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهوا للإبهار واستغلال ايمان البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!

ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة للقدسين والسامير المزيفة لصليب المسيح!

بقية الأحداث التي كانت " ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.

حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنني من مثنوى هذا الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي مَنْ تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعته... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطّنا لغة الضاد وطنا.

يصرخ فيّ أحدهم: تحزّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟

لست بداهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيّب، كل الخشوع، كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلمنا العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.

أجيل البصر مطوّلا بين مثنوا الأخير ومثنوى الصديق الراقد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحركون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.

تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إليّ...

- تواصلت المهزلة في مستوصف البعثة، بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول الذي يلاحقني أنني عوقبتُ بما فيه الكفاية على ذنوب لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي.

قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمننا. كيف أترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان أنه لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرثّل في الأثناء. كان حقًا موقفًا محرّجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمري!

تتسع ربع ابتساماة "ما" وتعود لها بعض من حيويّتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.

- مَنْ استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهمة أن ربك سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرّض يكسو الشيب شعره. علمتُ أنني سأخرج من الورطة، بل وسأكسب منها حليفا متينا. تنحنحُ بوقار ثمّ توجّهت إلى مساعديّ قائلا: لا فضل هنا لطبيب على ممرّض إلا بالتقوى ثم من شيما تبجيل أكبرنا سنا، فليتقدّم فلان يؤم بنا هو الصلاة.

لا تقوى "ما" على التماسك فتنفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل... دون أن...

- إنها غلطة "با" لَمَا فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلّا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأُخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوةٍ آخر بين طاغية يأمر وينهى لا يكلف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولَمّا ابتلعه المجهول من جديد فسختُ كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له أكثر من رفض الطقوس.

تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم الأبدي من سماع بقية قصة مشوّقة يروها لها ابن عاد من أعرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالته ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يفي بحقه أو يستنفذه وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها....

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ... ومع هذا يا له مشهد يا أماه ليس كمثله مشهد في كامل عالم الأدميين.

طواف هؤلاء البشر حول بيت ربهم كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرّة... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

أصف الوجه الآخر للعالم أم التزم الصمت الحذر؟

هذا الوجه الآخر هو ساحة تتدافع إليها الجحافل يتوسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبّ الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه هذا النصب.

يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيذ منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولب بالشيء وبعكسه، وكأنّ بممتحنه نيّة

مسبقة لإسقاطه في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. تصوّر ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بالسجود لآدم لأذنب لأنه لا يُعصى الله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم!

ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم لما سمح لموظّف عنده أن يغيوهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لِمَا أَغَوَاهُمْ غَاو!

تتوجّه أفكار المراهق الساخر للكهل المتزايد حرّجا: من تلعنْ أوّل معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لستُ أداة أو بوقا؟ أليس هو جدّ كل الثوّار الذين تدّعي أنك واحد منهم؟

ثمّة أكثر من آدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

”رياه لو أن في طول انتظار غد جدوى لما أسمعتك الريح شكوانا (السياب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا

النار أشهى فهاتِ النارِ تصهرنا يوم الحساب ومثّعنا بدنينا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عبديك فالشيطان مولانا”

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا. إنه الوسواس الخناس هذا ما علّمني سيّدي الشيخ وما كتبته على لوح في الكتاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضوع من النص مصارحة الآدميين بالحقيقية التي يحاولون تجاهلها.

يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعتم فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّد فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثّه عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعتم فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشرّ الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجدّد فيكم، أزلي، متجدّد لا يجتثّه دين أو سياسة.

ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسّبا لكل الإمكانات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لثتم أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلُّ مشغولٍ بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى بَرِّ الأمان انطلق وأولوية الأولويات الآن لكل شخص الخروج من الزحمة المرعبة حيًّا.

قال فيهم أحد المنتهين: كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها.

ها أنا أجرب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلاتٌ صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسام الضاغطة على جسدي بحثًا عن نفس قد يكون الأخير!؟ تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطن والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى اليسرى معه إلى جاوا.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للآدميين وهو الذي يحاولون عبثًا إخفائه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجوز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصبّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيونًا متجهمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق خدّك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي بصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقناعها بتأدية أخطر طقوس الحجّ والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

تنهار المرأة البدينة أمامي مغشيًا عليها بين أقدام-بل قل بين حوافر-قطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة.

تُرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجيننة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثًا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟

كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يختنق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟
من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغاثتها إلى اليوم في أذني وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بالوداع لعالم غير مكترث.

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدها ليقول لي اللعين: الزم مكانك وإلا الدور عليك كلكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسني على حافة السرير.

- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت هذه المرأة.

تنظر إليّ مطوّلا وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثم... دخلت... البيت وصلّيت بين جدران.

تنتصب تفاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "با"، ماذا قالت جدّتي لما قلت لها ...

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلَ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدداً بنفس بالجدران الآدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدق. إنها دهشة من يكتشف البحر تبخر منه ماءه فالساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يومٌ غَسَل الكعبة والملك بنفسه من يقوم بالعملية. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرتُ أمري لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألتئم الحجر الأسود.

على أعلى درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام يبادرنا رجل ضخم الجثمان لا شك أنه السادن:

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك في الطريق.

يفغر الطفلُ-المراهقُ-الكهلُ فمه يكاد لا يصدق ما يرى.

في معابد الآدميين الأخرى، يعبرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه بتشديد أعلى المباني لا يتراجعون تزلفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره؟ طبعاً "هو" ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لنشعر بحضوره الصامت حولنا وداخلنا... لتحدث المعجزة التي أسميها اللقاء.

تنهار فجأة كل الحواجز كالمسدّد أمام جارف السيل.

يا جنر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل... الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد... الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر... الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التنين والكرم... الحمد لك والشكر على

الموسيقى، على الصداقة ، على الأخوة ، على الحب... الحمد لك والشكر على هديتي
الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزجرا: الحمد لك والشكر على الجراد، على
البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.
ثم يصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلب منه شيئا!
خاصية فائزة في الآدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي
الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خارج الذات قوة مُحبّة
تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدي
بسماجة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لنعبره سادة لا متسوّلين!... كم تشمّنت دوما في
هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف
أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها!

يواصل الطفل صراخه وكأنه لن يغفر للغيبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.
اللعنة ألا يعلم أنني لا أتكفّف أدميا أو إلها... أنفتي أمام البشر، الحياء أمام الله.

هذا قرار المراهق والكهل وليس قرار الطفل المتزايد نفاذ الصبر.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعانة مّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة
المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا أغصانها، يا كلّ أوراقها ويا كلّ
ثمارها، النجدة، إنني يائس إنني يائس، إنني تائه، دلّني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. إنه "هو" لا غير الذي يدلني على الطريق- تحديدا
طريق الخروج والسادن يرفع من نبرة همسه: يا الله برّة، وصل جلاله الملك خالد.

كل الفضاء يعبق بامتعاظ فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب
أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجديني ... أي
طريق أدلّك عليه و كل طريق هو الطريق.

معدّرة يا من يهب ولا يمتنّ، يا من يتكرم ولا يتبحّج، يا من يغدق عطاياه لا ينتظر
حمدا أو شكرا.

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد ليركض كل واحد في اتجاهه.

تتضح الوظيفة الحقيقية لتجمع الآدميين في هذا المكان. البحث عن المقدس مجرد تعلقة أما السبب فلمَ الشمل دوريا للعائلة الكبيرة التي فرقت بين أفرادها تقاطعات الطريق.

تتحرك الشرطة بحثا عنمن يصعب عليهم مغادرة وليمة اللقاء العائلي بعد انتهائها. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة هذه الربوع.

"فإن غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)

وليس غرامي بالأماكن والترب"

تستعجل "ما" بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-كيف كان الرجوع؟ حدثني عنه وبكل التفاصيل.

الرجوع! يعتمد على أي فضاء تمّ فيه.

قافلتي محملة بقرب ماء زمزم، بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت، بعبطور سقطرى وبكل ما جمعت من نفائس المخطوطات... لا بدّ من البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور القافلة لأعطيهم منابهم مما تنن بحمله الإبل... عند وصول واحة الآباء والأجداد توزع ما بقي من حمولتها وإطلاق سراحها فمتى استعبدتم الجمال وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا... أنا الآن داعية الشيخين أواصل تعليمهما في أصقاع الأرض... أمامي السلاطين وفقهاء السلاطين في صفوف متراصة والشرر يتطاير من عيونهم... الفرار! إلى أين والدهما في كل مكان وزمان أخطر سلاح السلاطين؟ الثبات، الثبات لمواصلة رسالتهم والإأي جدوى لحياتي!

تلمس "ما" كتنفي برفق لأواصل حديثنا هو كل ما يشدها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى...

- آه يا أماه! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة. اغتبنوا كلهم فرصة الحجّ لشرائها لبيوتهم وأيضا للبيع والترّيح. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كادت الطائرة ألا تقلع بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به لسفرة آمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بجهاز فيديو.

- أنا! أنا ابن أينفتّاس عدت بفيديو مثل بقية العامة! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجتُ من المطار أزرّف من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع الغرامة! وكدت أعرّف في جدّ أبوه الكلب هذا الفيديو للعين وأنا أجزّه مع حقيبة ملائنة بالثياب القذرة بل ودفعني أحدهم بغلظة وأنا أنتظر دوري في الصف ليركب قبلي آخر سيارة أجرة موجودة في المطار ... من أسمعك هذه الافتراءات؟

- أنت... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جئت به خصيصا ل....
- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّه سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد
التعيس الذي لا يصدق افتراءات الناس عليّ؟
لا نجرب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما
نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.
يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تبكي لا هي ولا أنا.
- أتذكرين حجّ أينفناس كما رواه هو بنفسه...

- يا ولدا!

- يا ولدا!

الأمر المضمّن في لهجة الاستنكار المصطنعة المواصلّة في هذا النهج.
- التفاصيل والعهدة على الراوي أنه وصل الأراضي المقدّسة غاضبا متأففا من طول
السفرة ومستوى العوام الذين سافر معهم مكرها. نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى
ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك -هو الذي لم تحمّل أمّه غيره-برعاع
القارّات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد.
تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.
- يا بني حرام عليك. أبوك صلّى الحّمس في أوقاتها منذ رجوعه.
- شريطة أن يوجد أحد يصليّ أمامه، بل قولي من يمثّل أمامه ولو كان القطّ.
- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
مرة أخرى من النبرة وقسمات الوجه، الأمر ليس الكفّ عن اغتياّب الرجل وإنما
مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الآدميين مهما عرفتهم،
أنهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت.

من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا تفاحة؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنت التي قاسمتني
الفراش سنين، أي كائن كنت أضعم بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدّمت إليّ
دوما تحت اسم "با"؟

لا أحبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع.

- تظنين أنني اغتاب من هبّ ودبّ؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما:
كن أسدا وكليّ وهل ثمة من أسد غيري ليأكله كله بطربوشه التركي وجبته الحريية
البيضاء؟

- لم تتغير رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنت المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهره!

- وفي وجهي كان لا يكف عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضا كان يردّد: أنا الشرارة وهو اللهب.

- شكرا على حسن ظنك بي وعلى جهودك الطيبة لإصلاح....

تقاطعني " ما " وفي لهجتها عتاب رقيق:

- يا بني، لو تعرف كم كنت ولا زلت ظالما لوالدك....

مؤكّد أن الرجل ظلّم بقدر ما ظلّم ولربما أكثر. ظلّمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل - كما هو الحال دوما مع الآدميين- لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلّمه ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات. إنها الصور النمطية المبتدلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الآباء والأمهات وأنه نفس الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدور الأجمل هو نتيجة استئثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوّق مكرهّنّ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامّة؟ هل نجاحهنّ في تسويق صورتهنّ على حساب الذكور المغفلين أكبرُ عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟

كرجل وكأب، وتحمّلا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لِحقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسأجعل عيد الآباء -نكاية في الحركات النسوية- يدوم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخاصّة الأجر بالطبع.

- سرحت مجددا، فيم تفكر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن موعدا مع الذات في غرفة الحمام تواجهها مطولا أمام المرأة جدّ كاف؟

تذكّرين كم مرّة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزح الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة. كأني أراك تجاهدين للحفاظ على جدتيك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمتعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مرضك مثل مرضه! ... اللعنة، لم لا تثبي على رجلك صارخة مثله اغربوا عن وجهي، تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب..

تسلّط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس، عدني فقط أن تُصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارم بأن أطمئنّها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهاقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

لا بدّ أن ترحل دون هذا الحمل الذي نغص جزءا كبيرا من حياتها.

- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصا أثقل من عصاه ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري.

كانوا يظنّوني أسخر منه وأنا اسميه السيد أئيفناس والحال أنني كنت أقصد كل كلمة... أيّ والله لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. أيّ والله لم يكن لي طوال الرحلة غيره خصما ومنافسا ويوم خيّل لي أنني انتصرتُ عليه بالضربة القاضية اكتشفتُ أنني لم أركض إلا وراء الأهداف التي حدّدها هو ولم أحقق إلا مطامحه هو. أيّ والله لم يُخيّب ظني إلا ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائيا أنا الذي آمنتُ دوما أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بجزرائيل يطرحه أرضا يجردّه من وسامته، من أناقته، من فصاحته، من جرّاته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر. أيّ والله، أين في الناس أب مثل أبي!

على فكرة، ليكن في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا

فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب آبائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبو فيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعويين يغالبون دموعهم من فرط التأثر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركة لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقّعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات وامهاتهن علما وأن مآلها مآل معاهدة الأبناء والآباء، لكن هذا شغلهم وليس شغلي. تمسح المحتضرة دموعها وابتسامه كاملة كالبدن ليله اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لآخر مرة.

- أتعرف لماذا قُدِّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟

- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير خدمة المرضي لا أكثر... بالليل وبالنهاري بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.

- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راض عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخش أحدا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمّي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.

ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.

تفتح عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقّف بصرها على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تُلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلها الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لذاتها وإنّما

تدعو فيها للباقيين على قيد الحياة. ترفع الأم الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا نأتي هذا العالم حجّاجا.

تتلقى "الباشاماما" رفات "الماما" والدفن فيها كالعودة بعد طول الفراق إلى حضن الأم الحنون. هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من حرقة ألم الفراق مع أعزّ حبيب.

"ولو حفروا في درّة ما رضيتهما لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)

ولو أودعوك الجوّ خفنا مصيفه ومشتاه، وازداد الضنين من الضنّ

فيا قبر واهٍ من ترابك، ليتنا عليه وآه من جنادك الخش"

آخر حفنة من الثرى ثمّ صوت المرثّل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردّد روجي: آمين.

حولي كلهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله وإنا إليه راجعون!

من هذا الذي نحن منه والذي إليه نحن راجعون؟

الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."
بريهادارانياكا اوبانيشاد

مقدّمة الكتاب السابع

هذا عشاءٌ عائلي في مطعم هندي صغير انتهى بسلام. فرصةٌ لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أيٍّ من البنّتين.

- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتبُ الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة مُلحة عاجلة بترقيته؟

تبتسم تفيحه:

- أصوّت لرسالة الشكر وأيضاً لتوصية الترقية؟

أسلّط نظرة حذرة على تفاحة فتبتسم فتفعل المكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.

- إلى هذه الدرجة!

تفعل غضباً يتسرّر على فيض من الحنان.

- نسيتَ ما كلّفنا دوماً! وتريد بعد هذا شهادة أحسن دليل من زبائن.

تفعل تفيحة المزايمة على أختها: ثم هل نسيت أنك رفضت لي كلباً وأنا في العاشرة وأنتك يا شرّير تمسّكت برفضك رغم الإلحاح والبكاء، بل وسخرت مني قائلاً إنك مستعدّ لأن تشتري لي حيواناً أليفاً شريطة أن يكون معزة؟

- كلب في البيت والحال أنه لا أحد نجح منذ بداية التاريخ في حلب حيوان كهذا! عودي يوماً إلى حوش أجدادك وسترين -وجبنُ المعصورة في فمك- أفضلية الماعز على الكلاب.

تضحك تفيحة وتعد بأنها ستعود يوماً إلى واحة الآباء والأجداد لتلقّي التدريب الذي فاتها، خاصة وأن الأزمة الاقتصادية والمصرفية العالمية بصدد التفاقم هذه الأيام وقد تفرض بعض التأقلم والمراجعات الموجهة على باحثة لا تتفنن أصابعها إلا مسك القلم والنقر على الحاسوب.

ثم تُحدّق في الفراغ تبتسم لذكريات لم تتّضح حلاوتها إلا بمرور السنين.

- كنتُ تردّد دوماً كم أنا فخور بك يا ابنتي. هذا الفخر هو الذي شجّعني دوماً على التحمّل ومواصلة الطريق.

أعود للهجة الحزم لأخفي تأثراً عزّ عليّ دوماً تركه يبرز.

-تفيحة، سؤال قد لا تتذكرينه، ألقىته عليّ وأنت في الرابعة: "با" ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الناس؟ أن الأوان لأسمع ردك؟ نعم ماذا تفعلون في هذا العالم؟ ماذا تفعلون به، ماذا تفعلونه فيه؟ وبالمناسبة ما هو فعل الأفعال الذي بحثنا عنه ثلاثتنا ونحن نعب على سجاد الصالون في بيتنا القديم؟

- فيما يخص فعل الأفعال، يبدو لي حين أنظر إليك أنه لا يمكن أن يكون إلا فعل بحث.

- كيف لا يغربني خيارك هذا أنا الذي ضيّع نصف عمره في البحث عن نظارته والنصف الآخر في البحث عن مفاتيح البيت والسيارة... إنه فعلٌ مهمٌ أقبله مرحليا حتى ولو أنني أشعر أن الذي أبحث عنه غيره.

تجذبني تفاحة من ذراعي تتأملني كما كانت تراني لأول أو لآخر مرة:

- كان يا ما كان، طفل همّه الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحّد الآخر ألا يكتشفه أبدا لتبقى الأسرار أسراراً.

- أخيراً ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. بالله عليك، أليس أظن ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرٌّ أبداً أو أنه سرٌّ لا يستأهل كل المشاق التي تكبّدنا لكشفه ثم ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟

- جميل، لكن قل لي أين وصلت في هذا البحث الذي لا يجب أن ينتهي؟

- إلى رؤيا بدأت تتبلور فيها الإجابة عمّا اسميه السؤال منبع كل الأسئلة. لكن الإحباط يأتي دورياً كلما تذكرت قصة الشخص الذي جاءه في المنام كليلللل فلاسفة البشرية وأنبياؤها وعلمائها، كل واحد بمعتقداته حول وجود الله من عدمه، حول طبيعة العالم وسبب وجود الآدمي فيه الخ. كان يدمرها الواحدة بعد الأخرى بجملته لا غير، فينصرف الفيلسوف أو العالم أو النبي ساخطاً. وفي غمرة الحلم انتبه الرجل أنه سينسى الجملة التي مكنته من تهديم أعظم الفلسفات وأكبر الأديان وأعقد النظريات العلمية، فقرّر أن يتذكرها بكل قواه وأن يسارع لكتابتها حالما يستيقظ. هذا ما فعل. وعند قراءتها انفجر ضاحكا والجملة التي أمامه بالغة البساطة: "كلام جميل، لكن... هذا ما تدّعيه أنت!"

تضحك تفاحة:

- لا تقلق من جهتي، سأصدّق كل ما تدّعيه أنت لا لشيء إلا لكثرة تصديقك كل ما أدّعيه أنا.

تستعدّ البنت التي ستصبح أما للنهوض وهي دوما في عجلة من أمرها مثل والدها وقبله جدّها.

تتوقف بغتة. تمسك بذراعي ونحن نعبرُ باب المطعم.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يُضاف إلى ألقابك الكثيرة،
وسيسند إليك من قبلي قبل دخول الصيف.

- تقصدين!
- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدًّا.

-أنا! أنا زين الشباب! ينادى له يا جدّي! يا بنت استحي.

تمرّر تفيحة يدها أمام وجهي. تهزّني تفاحة من كتفي ربما تنتظر استفزازا آخر أخفي به
تأثري. لم لا؟

- آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددت في لحظات التفلسف الفارغ، لكن لا بأس من
مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم.
تتدخّل تفيحه تفتعل الجدّ:

- كفى يا أطفال من هذه الضوضاء على قارعة الطريق.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتاريخ مسيو فيدال شهر... الوصول تقريبا
في...

- اترك هذه الحسابات للنساء وللأطباء. المطلوب أن تغتنم الشهور القليلة القادمة
لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.

ثم تأخذ في تقليد صوتي:

- كانت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جانّا وكانت تحقّق كل ما
عزمت عليه...

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكك الكلمة لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف
وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه
على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعمّ الخير...

- اعترفاً أنها كانت قصصاً مسلية وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي
ستساعدكما على مصاعب الحياة.

تقاطعي تفاحه:

- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذا التوجه، لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة مستهلكة.

- خشية في غير محلّها. أعدكما بقصة لم تُرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقاً... إنها روايتي الخاصة لقصة القصص، أولفها منذ عقود لنفسني، لكنها قد تصلح أيضاً لمن سيأتي من أحفاد.

تهمس تفاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "با"، إذا كان المولود بنتاً سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

- كفى تهرباً من مسؤوليتكما، نعود للموضوع بخصوص الشهادة... وأريد تسبقة.

يمدّ الدليل يده للبقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السائحتين في أدغال هذه المحمية الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدفة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة، اعبري كل فضاءات العالم... حظي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في ذريتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب... تنقلّي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر، تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدا، تحملين الشكر لكل من عبّدا لنا الطريق.

أي طريق أطول للعودة الى البيت؟ لست مستعجلاً لوصوله و "ح" تخفي وراء ابتسامها الدائم وجعها وقد أصبح كل جسدها خريطة أمراض.

فجأة أجد نفسي أتمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

"المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل"

نعم، المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويل يبيبيبيبي.

مسكين جسدها الذي كنت أولّع له البخور، الذي كنت أقيم له الطقوس أنشد في عبادته الترانيم، هذا الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي.

هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلدٌ حفرَ فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق، لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض باحثاً عن عودة السرطان.

لا تتضح حقيقة المشاعر تجاه الذات الأخرى إلا والحبيبُ فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب. آخر فرصة لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسي عن حياء غبي: أحبّك.

نعم سأخذ "ح" بين ذراعِي أضمّ حطام جسد لحطام جسد فأنا الآخر لست بأحسن حال. ها قد وصلتُ إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستفزّ به طلبتي: "وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير".

إنه العمر الذي تكفّت فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كأنّ هذه الحياة إبحارٌ على محيط تُسلمنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقواربٍ كسّر الدهرُ صواريخها وتدافع الماء من ثقبٍ حفرنا أغلبها بأظافرنا وأسناننا.

على فراش "ح" نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الآدمي، على فراش تفاحة قريبا نسخة جديدة له... كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... تواصلُ مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.
جدّاً سأصبح جدّاً بعد أشهر!

حرّة! مرحبا بك يا حرة في عالم الرعب والانبهار ولتعبيره الحرية أول حق والمسؤولية أول واجب... نعم سأعدّ لك قصة لم يرويها من قبل جدّ لطفل.

يا إلهي كل هذه السنين، كل هذه العقود التي مرت وأنا لا انتبه لتراكضها! كم صدق أحد أساتذتي الأجلّاء عندما قال: أنت لا تنتبه لعمر طلبتك لأنك ما زلت شابا، ذات يوم ستُفاجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة، يومها ستعي أنك أصبحت شيخا... ايه والله! ها قد أصبحتُ أفجأ عند انطلاق كل سنة دراسية بوجوه رُضِعَ ثبتت على أجسام عمالقة، فأردد لنفسي فعلا كم هم صغار سنّ ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي ...

"بالقرب من كوشي (إيسا)

ضفادع تزعق بلا انقطاع

هرمت، هرمت، هرمت"

أخيرا البحيرة التي آتيتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة. لم لا التوقّف بعض الوقت والمقعد العمومي الذي أفصله شاغر يدعوني للتكرّم بالجلوس. أخرج هاتفي النقال من جيبي وعذّر وجوده استعماله أساسا لنقر الأفكار العابرة وسماع الموسيقى.

أين توقّفت كل هذه السنين في بناء سرديتي لقصة القصص؟

آه تذكّرت... خرج الآدمي من الجنة بمحض إرادته لسبب مجهول ... أفاق في عالم عجيب مبهر مرعب... ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب... أعاد تشكيل العالم على هواه بالحرب وبالفرّ وبالعمل...مئل وأخرج وعاش وصقّق لكل أدوار البنوة والأبوة والحب والصدقة والعداوة مجريا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدّر عليه الذات الآدمية من أحاسيس، من مشاعر، من أفكار وأفعال.. بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة... يشدّه الحنين دوريا لهذا المبهم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه... ثم؟

ما الذي بقي لإكمال القصة التي سأرويها لحزّة؟ أهّم اللبئات التي كانت صعوبة صقلها سبب توقّف العمل والتهرب من التفكير فيها أكثر من مرّة.

أولى الصعوبات التي يجب العودة إليها سبب الهروب من الجنة... أصعب اللبئات هندسة المهمة التي خرج من أجلها آدم وحواء مضحين بكل نعمها.. كيف تبرير ثمنها الباهظ ومنه الموت الذي خلصتنا منه هذه الجنة؟ ... ثمة أيضا مسألة هوية الآدمي... من هو الآدمي حقا؟ توقّف الحفر في ذاكرته عند طبقة ذاكرة الحياة لكن ما الموجود تحتها؟

نعم، يجب استئناف العمل على قصة القصص من الآن حتى وإن كان ألامي بضع سنوات قبل أن تطالب بها حزّة.

طبعا لن تكون سرديتي لرحلة الآدمي في هذا العالم سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث النافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع العابرة، من النجاحات النادرة، من الإخفاقات المتكررة، من الآلام العبيثية، ومن النهايات المحزنة... كلا، ستكون الرحلة ملحمة حققنا كل أهدافها المعلنة والخفية لا ننهينا إلا على كل الرؤوس وفوق اكليل الشوك اكليل الغار.

تتدافع الأفكار ويتسارع النقر.

أنا الآن كالفتان الذي يخطّ بقلم الرصاص على الورق الرسوم التجريبية الأولى للوحة
المنشودة، كالمهندس المعماري الذي يخط لنفسه تعليمات إتمام أهم مشروع في
حياته.

"بنيْتُ على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيْتُ على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفأة

سأبني."

[تحرير الآدي من آمال ومخاوف عبثية]

يذهب المخرج جون بورمان في فيلم زاردوز إلى أبعد مما تجاسرت عليه. ففي سرديته لبداية ملحمتنا نرى آدم وحواء يديران فعلا ظهرهما للجنة... لكن بعد تدميرها كلياً وإخراجها من الخدمة ناهيك عن انهاء خلود الخالدين فيها بمجزرة لا أروع منها.

إنه تصرف قاسي في التخلص من أحد أهم المفاهيم التي جاء بها العقل الجماعي لتفسير ظهورنا، لكن ما يغفر للمخرج العبقرى تطرفه هذا أنه ساق الحجج الدامغة التي تؤيد سرديتي وفي هذا وحده ما يكفي لأقف بجانبه أمام أي هجوم. إذن هذه هي الرواية " الصحيحة" لقصتنا مع الجنة لا يهم تناقضات الزمان مع الرواية الأصلية بما أن الموضوع ليس درجة المنطق في الأحداث وإنما درجة المنطق في الأفكار.

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنّة اصطناعية تُوقر الخلود والشباب الأزلي وكلّ الملذات لأقلية محظوظة تحصّنت وراء أسوارها الشاهقة. أما قدر بقية الآدميين فصراع البقاء في عالم تحوّل أكثر من أي وقت مضى إلى جهنم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهمّشين قدر استعصاء المحمية المتكبرة عليهم رغم تعدّد محاولات غزوها قروناً بعد قرون. يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا حُيّل إليه -مَنفذاً للقلعة المحاصرة، فيدخلها وحيداً على ثقة أن ساعة الثأر قد قربت.

المشهد الأول

بدلّ أشرس المحاربين المتدافعين لقتله، شاهد الصياد الهمجي عجوزاً يتقدم نحوه باسم ممدود الديدن.

شيخ! ألا تؤكّد الأخبار التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم أن سكّان المحمية لا يهرمون أبداً!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب، والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه بطلنا رثة الحزن في كلام الشيخ.

يجب أن يَحْتَّ هذا الكائن المقرَّز على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعةٍ استعصت على أشجع وأذكي الأجداد.

لا حاجة لتهديدٍ فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا افراغ ما في صدره. قال الشيخ: اسمع مَنّي القصة الحزينة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود.

كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها فأعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. بنينا ما خلناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيّلونها في السماء بعد الموت، ذلك المكان الذي سمّوه الجنة ثمّ توجنا المشروع العظيم باكتشاف سرّ الخلود.

دقيقة صمت. تنهّد. استئناف القصة:

- من باب الحذر ممّا قد بقي فينا من شرور الأدميين وضّعنا كل التعليمات لإدارة شؤون جنتنا هذه في الزمردة السوداء. إنها هي التي تسيّر وتتحكم في كل شاردة وواردة. إنها هي حارسة خلودنا. لا قدرة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها ومن يخرج عليها أو يهددها عقابه الشيخوخة الأبدية. لا تقرب ذلك المبني الذي هو محرابها وإلا يا ويلك من مصير أشدّ هولاً من كل ما تتخيل.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

زاردو محادثاً نفسه:

إذن الزمردة مقتلهم! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشقّاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ وسيتدفق جنودي للسلب والسي ومتعة الثأر. لكن أين الطريق إليها؟! الغوث يا ربة القبيلة.

كأنّ الربة المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه -هكذا دائماً بمجرد الصدفة- فتاة باهرة الجمال بالغة الأنافة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضاً هذا الاسم؟ لماذا رثة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوتُ الساحرُ: تعال، فرغَ الصبرُ من طول انتظارك كلَّ هذه القرون. اتبعني، سأكون دليلك إلى أبعد نقطة. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنجح. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق الفتاة تقود المحارب الهمجي في دهاليز تبدو لا نهاية لها ووراءها ذكورٌ وإناث يرفلون في الحلي والحلل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توّجّسا قلقا. فجأة أحسنّ زاردوز بألم لا يُطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوًا يواجهه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرها عقله.

- قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو ومرافقته أكثر من مرّة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدّة آلام فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضمّه إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وندجح وأنذاك أصبح لك زوجة.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفج أساريها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة. حتى في الجنة مؤامرات ومتأمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلّونها حين تختلط عليها الطرق؟

قالت له بعد ساعات بدت له أطول من سنين: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفك في شيء. هناك حرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا ممنوعون من دخوله. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.

ها هي الزمردة السوداء في قبضته أخيرا.

علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال...
يطبق براحته على الزمردة السوداء فتتنطفئ كل الأنوار. تتهاوى الأسوار ليقترحم مجرى الزمان المحمية كما يقترحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.
يشدّه منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله المتدفقين من وراء الأسوار المهشمة يتضرعون اليهم: أنا، من فضلك! أنا! أنا! اقتلني أنا الأول!
الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد!

الإناث يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه آدمي يوما!

تَعْجَبُ مَنْ يرى غزالا يركض صوب الأسد أو حَمَلا يرتمي في أحضان الذئب.
يتقدّم الشيخ للمحارب الهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة يمكن مشاهدتها.
- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.
- ستتكلم قبل ذلك. مَنْ أنت؟ مَنْ هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟
- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.
اسمع مني بقية أغرب قصص الآدمية المجنونة.

كانت المحمية التي سميها الجنة مكانا مثيرا في البداية. عرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شعبنا جنسا وعلمنا وصلاة ثم أصابنا الشبع... فالتخمة... فالقرف... ولا شيء أمامنا غير تكرار التكرار إلى ما لا نهاية.
كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموبقة.

كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بلادٍ متزايدة العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ فيهم: أليس من قوانين الكون أنه لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد، أنه لا مجال لإيقاف سيل الزمان وإلا كنا كمن يريد حبس مياه النهر فلا نخلق إلا بركة آسنة... أليس من قوانين الكون أيضا أنه لا وجود لشيء إلا بوجود النقيض... ما الجمال إن لم يصدنا القبح، ما الفرح إن لم نجرب الحزن، ما الخير في غياب الشر... كيف

تكون السعادة في هذا المكان وقد فقدت أول شرط لوجودها وهو وجود الشقاء... ثم أي معنى لحياة أزلية والحياة لا تكون إلا بوجود الموت؟

كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا اسمع الموسيقى أكثر وتعبّد أكثر وتمتّع بكل ما قيل من شعر. لكن أي حاجة في مكان كالجنة للموسيقى وللشعر وقد انطفأت كل الآلام التي كانت دوما وراء خلقهما والتمتع بهما.

قالوا تأمل أكثر، تعبّد أكثر وتلاش في الحبّ أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول.

شيئا فشيئا اتضح لي أنه ليس أمامي سوى أبدية من اللا إحساس ، من اللا شعور، من اللا تفكير، من اللا مشروع ، من اللا تغيير ، من اللا شيء... أن هذه الجنة ليست إلا الاسم المضلل للعدم .

العدم! ألا يحيل المفهوم بالضرورة إلى "شيء" نطلق عليه هذا الاسم ومن ثمة هو موجود وأن كنا لا نعرف طبيعته، لكن كيف يمكن لهذا "الشيء" أن يوجد والمفهوم يجعل منه اللا موجود المطلق؟

يمسح الشيخ دمة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للأدميين مذُجدوا.

- حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنث أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبّد مثل اللذة المؤبّدة، وضع لا يحتمل.

تدرجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنازة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت.

كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

لأنني كنت أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ.

الوحيد الممكن اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحمية. كُنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كُنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذاك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملانا الوحيد. قلّت، يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقدا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندلّه على مَكمن الداء.

كنت يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت
أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُغامر صنيدي.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دامٍ الأبدية:

-والآن اغمس نصلك في صدري، عاد الموت حقًا بعد أن كان دوماً الواجب.

أريد أن أتمتع برؤية دمي وهو ينفجر أخيراً حُرّاً طليقاً من شرايبي. أريد أن ألمسه، أن
أشعر به ساخناً لرجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا
إفاقة.

قالت مقاطعاً الشيخ وهي تنظر إليه برقة ويدها على ذراع المنقذ: أنا التي فُدتته داخل
الهيكل. نصله لي قبل أي آدمي في هذه الجنة اللعينة.

يتجاهل زاردوز طلبها كلُّ اهتمامه منصبَّ على الشيخ وهو يغرس خنجره في صدره
ببطء وهدوء والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

ليسمح لي السيد المخرج هنا بالتعبير عن اعجابي بالفيلم لكن مع بعض التحفظ
بخصوص الخاتمة. اقترحي إعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي لتوفير الوقت والموارد
المادية:

قال الشيخ: بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ، كنت قد أُصِبتُ بالإحباط
من تعدد المحاولات الفاشلة لخلق قائد من بقايا آدمية تعيسة انتهت في كل الأحوال
بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنقذ داخلنا. لا أدري متى سمعت
صدي صوت بداخلي يشجعني على مواصلة البحث عن حلّ في هذا الاتجاه. ثم
اعترضتني يا آدم بعد حادثة التفاحة وأجزمُ أن ذلك لم يكن صدفة. عرفتُ من أول
وهلة وأنا أسمع كلامك وأنظر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك إلها أو ثعبانا
يقرر له ما يأكل وما لا يأكل، وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن
تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار. لكن كان من الضروري أن أجد امرأة تجمع
الجرأة والحيلة لتخرج معك لولادة بشرية لا ترتكب الحماقات التي ارتكبتها تلك
المنقرضة، ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة.

آه كم كنت أودّ وقد أكملتُ مهمتي التمتع براحة الموت. لكنّ أمر الصدي كان واضحاً:
لا بدّ يا إبليس وقد أظهرت تجرّبي هذه كل حدودها أن تصحب آدم وحواء فأنت
عنصر ضروري للتجربة المقبلة.

بريك أليست هذه الصيغة أكثر أناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاحب مكلف وينتهي
بمذبحة؟

المهم اتفاق القراءتين. لم يطرد آدم وحواء من الجنة، وإنما خرجا منها طوعا والخيار
حرّ القبول بكل تحديات الوجود ومنها ضرورة الموت بدل إيقاف الزمان على متعة
أزلية لم يعد لها أي طعم.

تكلمة المقطع

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه الشيء إلا بوجود نقيضه. لا يمكن إذن أن نتخلص من
مفهوم الجنة إلا ووجب التخلص بكيفية أو بأخرى من نقيضه ومكمله: جهنم.

أجمل صيغة للتخلص من هذا المفهوم السام، ذلك الذي يقترحه العقل الجماعي عبر
قصة امرأة ولا ككل النساء.

في هذه القصة يشاهد الناس رابعة العدوية تركض ويدها اليمنى دلو من الماء ويدها
اليسرى شعلة من النار. سألوها إلى أين أيتها السيدة الجليلة، قالت للجنة أحرقها بهذه
النار ولجهنم أطفئها بهذا الماء حتى لا تعبدوا الحق عن خوف أو طمع.

من أين للعقل ألا يدعم موقف كهذا؟

أليس مفهوم جهنم مناقض هو الآخر للقانون الأول الذي يسيّر العالم ألا وهو أنه لا
ثبات لشيء أو أحد ولا مجال لإيقاف سيلان الزمان على حالة أو وضع سواء في مكان
اسمه الجنة أو في مكان اسمه جهنم.

ثم من أين للقلب ألا يصفق للموقف؟ أي خطيئة -مهما عظمت- تُجازى بالعذاب
الأزلي؟ كيف جعلنا من إله يصف نفسه بأنه الرحمان الرحيم جلادا أزليا؟

أضف لهذا أن مفهومي الجنة والنار اهانة للعابد وهما يجعلان منه كائنا لا يحركه في
علاقته مع الإله إلا الخوف والطمع.

هما إهانة للعبادة بإرجاع دوافعها إلى البحث عن مصلحة لا غير...

أخيرا هما إهانة المعبود بجعله مطمّعا ومخوّفا إضافة لجعله جلادا ساديا زمنا.

نغلق القوس ونعود لسياق القصة.

وبعد استماعه لاعتراف إبليس وفهمه أنه ضالع في المؤامرة ولا قدرة له على التخلص
منه، التفت آدم إلى حواء آخذًا بيدها لتخطي العتبة التي تفصل بين جنة بصدد
التلاشي وعالم مبهم ما زال غارقا في الضباب.

كأني بحواء تتردّد، كأني بآدم يحاول إخفاء موجة من الهلع داهمته فجأة... هل من
الممكن أن تنتهي قصة القصص حتى قبل أن تبدأ؟

[انتقاء سبب مقنع لأصعب خيار ورهان]

تعود للذاكرة اللحظات العصبية قبل تفضّل تفاحة بدخول العالم وكم كان طول المخاض قاسيا على كل الأطراف.

هيّا يا بنت اخرجي يكفي من الدلال واللعب بأعصابي.

أكيد أن هناك أسبابا وجيهة لهذا التردّد والدليل صرخة الفزع التي يطلقها كل قادم جديد.

هل داهمت وعيه وهو متشبث بجدار الرحم صوّر آتية من أعماق المستقبل تظهره تائها في فضاء أخرق الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين، طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة، جالسا القرفصاء يبكي حبيبا خانته قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا...

هل رأى نفسه عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة تنتنه على وشك الغرق ولا يقدر على شيء... مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم... مهووسا ماشيا بين تلال الجثث وراء قافلة من المهووسين يضيرون صدورهم أفقدتهم حجم كارثة الطاعون كلّ صواب... بخارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الطعام والماء... جريحا يحترق فوق أرض معركة وأطفال جياح يفتشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما... جنديا يُقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار... لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيمٍ بشع إلى مخيم أبشع... طفلا يتيما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسوّل المنظم... طفلة تساق عبر مسارب جبال مرعبة حُرّاسها يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمتها قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... جارية تذبح في ليلة ليلاء مع مئات الجوارى لأن إمبراطورا مجنونا صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين... امرأة توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم أوصى الأتقياء بعضهم البعض ألا تكون حجاتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا تطول زفة الإعدام... عجوزا تتسول قطعة خبز على باب ثكنة والجنود يطردونها لا يعلمون أنها كانت في شبابها بائعة هوى مرّ على جسدها كل ما في الثكنة من ذكور لثام.

هل هاجمته صور من مستقبله البعيد وهو شاعر صوفيّ معلّق على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... شخّاذ

على باب كم من معبدٍ لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء... قبة كل الأنظار والحشودُ تتشبّث بجلبابه قبل تعليقه على خشبة وهو لا يقدر على شيء لأحدٍ ولا حتى لنفسه؟

هل تجدد في وعيه رعب ما بعده رعب وهو يسترجع ما عاش يوم جُدع أنفه ليجعله حاكمٌ مجنون عبدة لمن لا يعصي له أبسط أمر.. يوم رُبي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تخبطه...يوم جرّ إلى أعماق الأرض ورثاته تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أئمن معدن...يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحك عليه علياء القوم وسفلة العامة وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين.. يوم فُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارقٌ سارقي قوتِ أطفاله... يوم أُوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة وأسلم الغازي سكانها لسيوف القتل بالجملة؟

هل داهمته قناعة أنه لن يكون طوال رحلته في العالم الجديد إلا صيدا ثمينا للكواسر من آدميين وغير آدميين، وعند الموت وليمة للذباب للجراثيم وللدود؟ من أين الانكار بأن آدم وحواء أخذوا قرارا أقلّ ما يقال عنه إنه متهور ناهيك عن كونه غير ديمقراطي. ألم يكن حريّا بهما أن يواجها كل بناتهن وأبنائهن بما ينتظرهم وترك الخيار لهن؟

أما كان عليهما من باب النزاهة أن يصرخا في ذلك الذي ستسحب له طاولة القمار أسوأ رحلة: أنت، نعم أنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! مصرّ على دعم خيارنا علما وأنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة... أنك سترعي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل...أنك ستسبب في إيقاف تشغيل المترو أربع ساعات، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشاتمون والجميع يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين.

آه نسينا أن نقول لك إن عمّالا في قمة التقرّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، أن سائق القاطرة سيُعطى أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسوّاق المساكين ضحايا أمثالك من المنهارين نفسيا وما أكثرهم هذه الأيام.

ما من شكّ لديّ أن قرار الفرار لو طرح على التصويت على الأجيال التي سيلدها آدم وحواء لكان الفوز الساحق لقائمة لا، لا ثم لا. إلى أين يقودنا مثل هذا الكلام الذي لن أغضب أن وصفه القارئ بالعبثي؟ إلى تساؤلات لا أظنها عبثية.

حتى ولو فرضنا أن الملل في الجنة أصبح لا يطاق، أن الغثيان من تخمة الملذات الرخيصة المزمّنة بلغ أوجه وأن الآدمي فهم أنه لا راحة تفوق راحة الموت، فإنه لا العقل يصدق بأن هناك كائن يفضل الارتماء في أحضان الجحيم على الصبر على الجنة ولا القلب يقبل بالثمن الباهظ للخيار الأخرق.

*

لا بدّ من تدخّل حازم للكاتب وإلا قد تنتهي قصة القصص حتى قبل أن تبدأ. فجأة ينتبه الكائن المتردد لأصوات خرير الماء ينساب في جدول صغير، لهمس الريح في الأغصان، لهدير الأمواج تتكسر على الشاطئ، لضحك الرضيع وهو في حضن أمه. ماذا؟ كل هذا لا يكفي... الاحجام يتفاقم بل ثمة موجة جديدة من الرعب تداهم القادم جديد.

آه نسيت أنه يسمع أيضا بكاء الطفل وهو يغتصب، عويل الثكلى وهي تنتحب، صراخ الجلاذ وهو يُعذب، حشجة الجريح وهو يحتضر. آخر ورقة.

يتجدد همس الصدى وفي النبرة خشيةً مبهمة وأمل متجدد: تأمل الشكل الذي سترتحل فيه، خاصة أصابع اليدين... حقا صمّمت بدقّة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة، الأهمّ قدرتها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار... تمعّن فيما ستخلق من الأصوات.

تُداهم الفكر قوالي الباكستانيين ومواويل العرب ورافا الهنود والترانيم الكنسية للروس وجاز الأمريكيين وسمفونيات الغربيين وروائع العزف على كورا الافريقيين.

ينتبه المحرم إلى أنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه. يسرّ إلى نفسه وهو لا يزال تحت وقع سحر الأنغام: ثمة في هذا العالم ما يستحق أن...

يتبلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه أنّه سيلبس الشكل الآدمي وسيتحمل كل التبعات لا لشيء إلا لقدرته على خلق الموسيقى.

تعود الطمأنينة إلى تفاحة وكم من حبلى قلقة تشعر من جديد بحركة في أحشائها تكاد تقسم أن فيها إيقاعا لجنين يرقص.

آه لست وحدك الراض لما أسوق من أعذار في محاولة يائسة لإنقاذ سرديتي.
ثمة من يصرخ: يا رجل تكرر نفس الكلام مدعيا النزاهة والموضوعية في البحث عن
سبب مجيئنا هذا العالم لكنك تغتم كل فرصة كونك صاحب النص لفرض ذوقك
وخياراتك على البشرية جمعاء.
كأني أسمع فان فووق يصرخ من قبره: أدين بشدة هذا الخيار فأنا شخصا لم آت هذا
العالم إلا للرسم.

يصرخ آخر: كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماع موسيقى يحرمها ديني!
إنها فرصة لكل من لم تعجبهم المهمة للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق المهذبة
وغير المهذبة، ومنهم من يُضحك عليّ الجميع وهو يصرخ: أما أنا فلم آت هذا العالم
قابلا بكل أهواله إلا لجمع طوايح البريد.

*

طيّب، كل الاعتراضات مقبولة بما أنه لا خيار آخر لي غير القبول أو افتعاله. لنفكر إذن
كلنا بهدوء في السبب الذي دفع بالصدى لدعم قرار آدم وحواء وتسهيل تنفيذه.
هو إما قرأ في ذهنيهما مشروعهما أو هو الذي أسرّ به في وعيهما الباطني فلم يتفطنا أن
القرار منه لا منهما.

منطقيا لا بدّ أن يكون ما زرعه في الذهنين أو همس به عند باب الجنة أمر بفعل كذا
أو كذا لأن الرب لا يطلب وإنما يأمر.

لا بدّ أن يكون هذا الفعل هو الفعل المؤسس، الفعل الجذر الذي ستفرع منه ما لا
يحصى من الأفعال التي ستمكن آدم وحواء من تنفيذ ما أمر به الصدى.

أي مقياس لفرزه من بين كل الأفعال هذه؟

يجب أن يكون متقدما عليها، سابقا لها مانعا ظهورها إن لم يوجد بنفس المنطق
الذي يمنع وجود الأطفال إن لم يوجد قبلهم الأب والأم.

هو بالضرورة أول فعل على قائمة الأفعال التي سيتصاعد عددها وتعقيدها على طول
خطّ الزمان.

ما الأفعال الأولى الأقرب إلى الفعل-الجذر؟ قد تقودنا معرفتها إلى معرفته.

إنها منطقيا أفعال الحواس الخمس إذ هي التي تبني أولى وأقدم صورنا للعالم عندما
تبلور من مبهم أصلي صور الشمس والقمر والنجوم، أحاسيس البرد والحَرّ والجوع
والشبع، أصوات الأم والريح وقطرات المطر على نافذة غرفة النوم، روائح الفلّ
والياسمين، طعم الخبز والتين والزيتون...

أليس العالم الآدمي أيضا نتيجة أفعال الحاسة السادسة التي تبنيه باكرا بالتسمية والتصنيف ثم بأفعال التخيل؟

وأیضا أليس ما تفعله السواعد وهي تدمر وتعمّر في كل الفضاءات وفي كل المبادین لا تتوقف عن بلورة الجديد المتصاعد التعقيد المتزايد الفعالية؟

السؤال الصائب إذن لم يكن ماذا يفعل الآدميون في هذا العالم وإنما كيف "يفعل" الآدميون هذا العالم الذي ما كان يوجد لولا الآدمية التي أوجدته.

أوجد؟! هل يكون هذا الفعل هو الذي يبحث عنه النص منذ بدايته؟

مبدئيا هو يخضع للشروط الذي ألزما به أنفسنا لتمتيعه بهذا الشرف. هو متقدم على كل الأفعال التي تصنع عالمنا وكلها من تبعاته ولا يمكن تصورها بدونه.

لنتريث قبل اعتماده الفعل-الجزر الذي انطلقت منه الأفعال التي صنعت قصة القصص.

ما المعاني الكبرى التي تسبغها اللغة عليه؟ مما تنيرنا به المعاجم :

"يقال أُوْجِدَ فلاناً أي أغناه... ويقال أُوْجِدَ فلاناً بَعْدَ ضعف أي قوّاه... ويقال أُوْجِدَ على الأمر أي أكرهه وألجأه... ويقال أُوْجِدَ الشيء أي جعله يَجِدُهُ ويظفّر به... ويقال أُوْجِدَ مطلوبه أي أظفره به... ويقال أُوْجِدَهُ عَلَى المَعْصِيَةِ أي أكرهه عَلَيْهَا... ويقال أُوْجِدَ اللهُ الشيء أي أنشأه من غير سَبْقٍ مثال..."

في نفس المعاجم أقرب المرادفات لفعل أوجد هي أفعال أَبَدَعَ، أَبْرَأَ، أَخَدَتَ، أَفْضَى إلى، أَنْتَجَ، اخْتَرَعَ اخْتَلَقَ، اسْتَحْدَثَ، اسْتَنْبَطَ، اكْتَسَفَ، اخْتَرَعَ، سَبَّبَ، سَوَى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَلَدَ، خلق.

خلق! ...أوجد الشيء أو أنشأه من غير سبق مثال!

ما العالم إلا ما تخلقه الذات بالوسائط التي تملك؟

يمكننا إذن اعتماد الفعل ليكون عقدة لروايتنا لقصة القصص وبحوزتنا ما يكفي من الحجج لإرضاء العقل والقلب.

اشكاليتان يطرحهما خيارنا هذا.

خلق العوالم من قدرات وصلاحيات الربّ وحده مما يعني أننا نجعل بهذا الخيار من الآدمي الها. في نفس الوقت لا مهرب من جعله مخلوقا إذ لا بد من موجود متقدم عليه -سمّه ما شئت- هو الذي أوجده حتى يستطيع خلق-إيجاد عالمه هذا.

كيف يمكن للآدمي أن يكون خالقا ومخلوقا؟

ها قد أعادنا البحث في طبيعة المهمة إلى البحث في هوية المكلف بهذه المهمة؟

[ربط نسب الآدمي بأنبل أرومة]

للتقدم في هذه الإشكالية يضع العقل الجماعي تحت التصرف أسطورة اغريقية اقل شهرة وانتشارا من أسطورة آدم وحواء، لكنها لا تقل عنها ثراء بالمعطيات الضرورية لبناء الرؤيا.

تقول هذه الأسطورة إن الآخر رضي أخيرا أن يريك وجهه الحقيقي بعد طول الاختفاء وراء أقنعة كل الأدوار التي يخرج ويمثّل.

ترفع يدك نافذ الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت... فثالثا، فرابعا، فخامسا، فسادسا، ف...

تتراكم عند قدميك الأقنعة، والوجه المخفي يتباعد تباعد الأفق عن الراكض.

لا تياس، كأنّ هذا آخر قناع بقي على الوجه.

ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.

تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت لا غير.

يمكنني التأكد من الأمر بالانقضاء في فضاء خيالي على كل الذين منهم كل وحشة وكل نقمة وكل نعمة أرفع أقنعتهم لأكتشف دوما وجهي وراء آخر قناع.

آه، يريدون ممارسة الحق الذي منحتهم لنفسي. ليتفضلوا. لن يكتشفوا كلهم وراء آخر قناع على وجهي إلا وجههم الذي يعرفون.

هذا التصوّر لهويتنا المشتركة من ثوابت الفكر صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور. أجملُ إخراج له الذي تجده عند المتصوفين وكبار الشعراء.

"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا"

إنه حدس موغل في القدم ومع هذا ثبتته التصورات المعاصرة لما نسميه العلم.

فالآدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" يحتويها كتاب يسمى برنامج المورثات. إذا تصورنا أن لهذا الكتاب 1000 صفحة فإن 999 صفحة منه متشابهة في كل حرف، في كل كلمة، في كل نقطة وفي كل فاصلة. وحدها حمولة صفحة يتيمة من الجمل المبعثرة هنا وهناك فيها تعليمات الفوارق التي تمنع أن نكون كلنا نسخا طبق الأصل لنفس النموذج.

معنى هذا لمن لا تخفي عنه الشجرة الغابة أنني وأنت وهو وهي نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة وقصص متباينة في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت، لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق.

ماذا لو كان هذا الوجه الذي هو وجهك ووجهي هو نفسه قناعاً؟

يصبح السؤال والتحدي على من أو ماذا هو موضوع؟

لردّ يوفّر لنا كنز العقل الجماعي أسطورة ثرية ثالثة هي أسطورة فيشنو-الإله الثالث للديانة الهندوسية.

فحوى هذه الأسطورة أن هذا الإله قَبِلَ بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسداً في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان يصفه رجلٌ ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا وهو مبرمجٌ لتجسّد عاشر عند نهاية العالم.

ما الأفكار الأساسية التي تضيفها للبحث الذي لا ينتهي أبداً؟

أهمها أن الآدمي يقاسم السمكة السلحفاة والخنزير البري نفس الأصل كما يتقاسم نفس النسب أطفال الأب الواحد... أي أن الآدمي هو مثل هذه الكائنات غلاف آخر لنفس المحتوى، أنه هو أيضاً مظهر من المظاهر التي يتخذها الإله.

كيف يمكن أمر كهذا؟ تدخل الأسطورة هنا مفهوماً مركزياً لبناء تصورهما. إنه مفهوم الأفاتار **अवतार** ويعني في اللغة السنسكريتية عملية تجسّد الخالق في المخلوق وأيضاً صعوبة العملية وما تكلفه من ألم. فليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، اللامحدود في المحدود، الأزلي في الفاني، مثلما ليس من السهل بالنسبة إلى الناقص أن يحتوي الكامل، والمحدود أن يحتوي اللامحدود والفاني أن يحتوي الأزلي.

لنذهب إلى أبعد بهذا المفهوم الثري الذي توفره لنا الأسطورة.

إذا كان الآدمي -أكان القزم، المقاتل، أو بوذا - أفاتار من أفاتارات فيشنو، لماذا لا يكون فيشنو هو نفسه أفاتار لشيء آخر؟

ما الذي يمكن أن يختبئ تحت قناع فيشنو؟

أي قوّة قادرة على أن تسكن وأن تتوزع كاملة بالعدل والقسطاس في كائنات جدّ متباينة شكلاً وحجماً مثل الآدمي والسمكة والسلحفاة والخنزير البري؟

الإجابة الوحيدة والتلقائية هي الحياة طبعاً.

عودة إلى ما يقوله الفيلسوف دولوز Deleuze عن تقنية يعتمدها الفكر وهي تجسيد مفاهيم معقدة في صور معبرة تُوفّر على العقول البسيطة مصاعب التنظير. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسّد للموت، إبليس كمفهوم مجسّد للشرّ، افروديت كمفهوم

مجسّد للجمال. لنجعل إذن من فيشنو المفهوم المجسد للحياة مع التأكيد أننا لا نبحث عن حقيقة فيشنو في المطلق كما "يعرفها" جهابذة الديانة الهندوسية وإنما عن كيفية استعمال هذه اللبنة في بناء الرؤيا.

لنتفقد معطياتنا المتفرقة نحاول جمعها لعلّ صورة عامة تنبثق من عملية التجميع هذه.

الآدمي إذن هو آفاتار أي شكل اتخذه فيشنو في لغة الأسطورة الدينية واتخذته الحياة في لغة العلم. هذا الشكل خاص به يميزه عن بقية الأشكال التي تتخذها الحياة مثل السلحفاة والخنزير والسمكة.

القول بأن الآدمي شكل هو الذي يرسمه الأطفال والفنانون وحتى بيكاسو لا يكفي لتعريفه فهو يتميز عن بقية الكائنات التي لها أشكال متقاربة مثل الغوريلا والشمبانزي والبونوبو بخصائص نفسية وثقافية وقدرات فكرية تجعل منه حالة من بين الحالات التي تجربها الحياة في هذه الأجناس الحية التي تتجسد فيها.

أخيراً، هو ليس شكلاً ثابتاً للحياة أو حالة قارة لها إذ لا يحافظ على شكله وحالته إلا لفترة ضئيلة من الزمان نظراً لعمر يقاس بالعقود في حين أن عمر الحياة يقاس بملايين السنين.

هل انتهينا من الموضوع وحددنا لبطل قصة القصص هويته النهائية؟

طبعاً لا. يجب أن نسأل ماذا وراء الحياة؟

لا بدّ من قوة ما سابقة لها متقدمة عليها جعلتها ممكنة الوجود وفتحت لها الطريق لكي تخلق ما خلقت من أجناس وكائنات تتبارى غرابة وإعجازاً.

أطلق الآدميون على هذه القوة المجهولة التي رصدها الحدس منذ ظهور الوعي واللغة ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماء.

تخيّلوها تحت ألف صورة وصورة وانزلقوا في أخطاء جسيمة بإعطائها صفاتنا وتحميلها أحقادنا.

تخاصموا منذ الأزل حول من ناله شرف معرفتها أحسن من الآخرين.

أذكاهم من اعترف بأننا نتخذ طريقاً خاطئاً بالتسمية والوصف وتلبيسها طبائعا بأحسن وأساء ما فينا.

"الاسم الذي نستطيع نطقه (لاوتسو)

ليس الاسم الخالد

أصل السماء والأرض

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة يرتكب نفس الخطأ وهو يصفّ الكلمات ليحصر في مفهوم "الطاو" ما يقول إنه لا يمكن لا تسميته ولا وصفه:

"مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن"

إنها حقًا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمّى خارج المسمّى. من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا لخيمة عالما أن يكون لها عمودا. كل ما يمكننا قوله بخصوص هذه القوة التي تتفزع عنها كل ما نعرف أو نرصد من قوى ومنها الحياة أن اللغة عاجزة عن اعطائها اسما لأن اللغة لا تسمّي إلا ما نرصد بحواسنا المحدودة وبفكرنا المتحوّر طول الوقت، إن المخيلة لا تفعل عبر الأساطير سوى إضفاء صفات مضخمة عليها لكنها صفاتنا، إن العِلْم يمنع من تحميلها نوايا وأهدافا هي دوما نوايانا وأهدافنا.

المخرَج الوحيد هو الذي وجده الخوارزمي، أي تسمية هذا المجهول المطلق الذي لا بدّ من وجوده ليكون للحساب حلا: "الشيء".

لكن ألا ننهي عن الخطأ ونأتي بمثله؟ أليس "الشيء" اسما هو الآخر؟ بلى، هو اسم لكنه أقل الأسماء ضررا لأنه ليس إطارا مغلقا على صورة أو فكرة وإنما زاوية مفتوحة على اللانهائي من الأفكار والصور. على الأقل هو يسمح بتجاوز التصورات البديئة التي جعلت من سر الاسرار مستبدا في السماء مصنوعا على شاكلة المستبد في الارض المهووس بالاعتراف بسلطانه، المتعامل مع عباده -عبيده بالترهيب والترغيب، الذي يقول لهم كل الذين لا يعترفون بي اراضيهم لكم بقوة السلاح وأطفالهم ونسائهم وحيواناتهم للذبح ... هذه التصورات الرديئة هي التي ولدت الحادا لا يزيد إلا الطين بلة بإفراغه الرضيع مع ماء الحمام القذر.

أن يكون "الشيء" غير ممكن التسمية والتخيّل والفهم لا يمنع من البحث في تمظهراته كما يفعل الفيزيائي وهو يرصد حركة المجزّات والنجوم دون فكرة واضحة ونهائية عن طبيعة القوى الحقيقية الموجودة وراءها.

إذا اعتبرنا في مقاربة أولى أن "الشيء" هو كل شيء فانه يحق لنا القول إن الحياة شكل من اشكاله بما أن له كيانات مثل الجماد ليس فيها حياة... أن هذه الحياة حالة من حالاته بما أنها تكتسب خصائص غير التي يحافظ عليها في أشكاله غير الحية... أنها

لحظة من لحظاته بما أن تاريخها يقاس ببعض مئات الملايين وتاريخ "الشيء" لا يقاس لأنه الزمان كله.

اكمال التصوّر: الخاصية الأساسية للحياة - لكل كائن حي- هي ارادة البقاء، إرادة التكاثر، إرادة التنوع، إرادة التواصل، تعبيرات مختلفة عن الظاهرة التي لا يمكن فصلها عن الشكل والحالة واللحظة أي الإرادة بصفة عامة جامعة منبع كل الارادات في مختلف مجالات الحياة. مثل هذه الإرادة لا تتبع من اللاشيء وإنما ضرورة من إرادة متقدمة عليها أكانت واعية أو لا واعية، حلما مبهما أو مشروعاً متكاملًا. مثل هذه الإرادة لا تكون إلا من إرادة "الشيء".

هكذا يمكننا أن نكتب بكل ثقة أن الحياة شكل-حالة- إرادة -لحظة من "الشيء".
دون اللجوء لأي مغالطة أو أي تقنية من تقنيات التفكير السحري يمكننا أن نكتب أيضاً: **بما أن الحياة شكل -حالة-إرادة-لحظة من الشيء ...وبما أن الآدمي شكل-حالة - إرادة-لحظة من الحياة...فإن الآدمي شكل-حالة-إرادة- لحظة من "الشيء".**
الاستنتاج المنطقي:

قال البسطامي، أحد كبار المتصوفة: "خرجتُ إلى الحجّ فاستقبلني رجل في بعض المتاهات فقال لي: يا أبا يزيد إلى أين، فقلت إلى الحجّ، فقال كم معك من الدراهم، قلت معي مائتا درهم، فقال طُف حولي سبع مرات وناولني المائتي درهم فإن لي عيلاً، فطفت حوله وناولته المائتي درهم".

إذن لم يكن الرجل أمام محطة مومباي يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم على المقدّس الذي كان منتبها لوجوده فيّ وكنت لأعي به حجه عتيّ تبلّد مزمن !!

[الحسم في قضية هدف الرحلة]

يمكننا الان العودة لسياق القصة لصقل أصعب لبنات الرؤيا أي للردّ على السؤال سيد الأسئلة في شكله الجديد: ما هدف ايجاد - خلق العالم الآدمي؟

لنتفحص قبل محاولة الرد قيمة الكلمات المفتاحية التي تشكل السؤال. قد تكون الغشاء على العينين لا المصباح الذي نضيء به الطريق وسط الظلام.

هل لاحظت أنه لا أحد كتب أطروحة فلسفية فيها من الاستشهادات أكثر مما فيها من الأفكار حول معنى أو هدف وجود فرشاة الأسنان.

السبب بالطبع أن هدف وجودها واضح وضوح الشمس ألا وهو نفعها لمستعملها حيث تقلل من مخاطر تسوّس أسنانه ونفعها لجلسائه حيث تقبهم من تحمل رائحة

فمه. انظر لكل الأشياء التي لا تثير لدينا أي تساؤل عن معناها وستجد أن سبب عدم التساؤل هذا وضوح مصلحتها بالنسبة إلينا.

ثمة إذن علاقة وثيقة بين قدرتنا على فهم الأشياء ودورها في الشبكة المعقدة للواقع الذي نتخبط فيه وبين رصدنا بسهولة للنفع الذي يمكن أن تقدمه لنا في صراعنا من أجل البقاء وتحسين ظروفه.

الخطأ أننا عممنا طريقة التفكير هذه على مجالات ليست مجالاتها.

تعلمنا جميعا -حتى لا أقول رُوضنا - منذ نعومة أظافرنا على ربط معنى حياتنا أي قيمتها وعدم عبثيتها بما نفع به في كل المجالات. هكذا استبطننا منذ بداية الرحلة اعتقاد ضرورة التسلح بأهداف تصبّ كلها في تحقيق نوع أو آخر من المنفعة لنا و/أو للآخرين.

هكذا أصبح هاجس كل واحد منا ما يقدم للعلم، للفن، للوطن، للإنسانية مؤمنا أنه بقدر ما يعترف لنا الآخرون بقيمة عطائنا، بقدر ما نستطيع اعتبار أن حياتنا كان لها معنى وأنه يمكننا الرحيل عن هذه الدنيا راضين عن أنفسنا.

ها أنا أتخبط في ورطة فكرية إذا قلت إن ما أعطي لحياتي معناها لحد الآن أنني حاولت أن أكون نافعا للشعب.

ما نفع الشعب؟

إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟

إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية، ما نفع الإنسانية؟

شيئا فشيئا يصل الشك المدمر إلى مستوى الأفكار المؤسسة للرؤيا.

إيجاد -خلق العالم الآدمي؟ ما نفع إيجاد -خلق العالم الآدمي؟ ليكون عالم الكمال والفضيلة والجمال! ما نفع الكمال والفضيلة والجمال مع التذكير أن مثل هذا العالم لا قيمة له ولا وجود إلا بوجود النقص والرذيلة والقبح.

الهدف من خلق -إيجاد العالم تجربة الوجود... ما نفع الوجود؟

أضف بُعدا ثانٍ للمأزق النظري.

عندما أقول إن حياتي تستمد معناها من كونها في خدمة الإنسانية فلأنني أعتبر أن بقاء الإنسانية أكبر وأهمّ من بقائي، ومن ثم ضرورة التضحية بنفسي من أجلها.

هل ثمة شيء يمكن أن يكون أكبر وأهمّ من خلق -إيجاد العالم؟ طبعا لا شيء.

لكل الأفكار، لكل منهجية وحتى لكل لغة سقف لا يمكن تجاوزه. ها قد وصلنا سقف مفاهيم المعنى والهدف والمنفعة. عبث إذن البحث للوجود عن سبب أو تبرير وهو

الذي يوجد النافع وغير النافع، الصالح والطالح، المفهوم وغير المفهوم، المنطقي والعبثي.

ها قد استقامت أخيرا عقدة قصة القصص.

يمكنني الآن أن أردّ على سؤال تابعتي عقودا ألقته عليّ طفلة في الرابعة أو الخامسة ونحن نمشي في شارع مكتظّ: "با" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس "هنا"؟

كلنا "هنا" لنخلق بحواسنا ومشاعرنا وأفكارنا وخيالنا وسواعدنا عالمتنا الآدمي لا بحثنا عن الكمال أو أي غاية أخرى وإنما لتجربة الوجود بكل ما فيه وبكل ما عليه.

تريننا جميعا على أنه لنا جسدٌ لترويض العالم ودماعٌ لمعرفة أسرارهِ.

ماذا لو كانت "الحقيقة" أنه ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزرع به من قدرات في مجالي الفكر والخيال؟

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طُعما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم فيه تجربة طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءهِ.

ألا نُصاب بخيبة الأمل عندما نُصل إلى هذا الذي ركضنا زمنًا وراءهِ ونحن نكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمنّا؟

ألا نجعل من كل نقطة وصولٍ -ولو كانت قمة القمم- منطلقَ طريق جديد؟

أهذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي إقتحم أنت الدنيا للنصر، أمّا أنا فتكفيني متعة الصراع.

ماذا لو كانت كل أهدافنا مجرد وسائل لاستكشاف ما تزخر به الذات من خير ومن شر، من قوة ومن ضعف، من علم ومن جهل، من ممكن وغير ممكن؟

إذن كل القضايا "المقدسة" التي سخّرت لها حياتي لم تكن إلا تعلات لتعهد اللهب المقدس الذي بداخلي، آخر ما يهّم منها النصر أو الهزيمة.

أخيرا يمكنني مواصلة ما بقي من الرحلة كما يقول لادوتسو "كالموج على سطح المحيط، كالرياح بلا وجهة" لأن كل وجهة هي الوجهة وكل مهمة هي المهمة.

[الموت كرجوع إلى السطر]

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو، يتوجّه الملك بيرانجي وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علّموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأظافرك بهذه الحياة، إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكّر أنك ستتخلّص من هموم الدنيا."

هموم الدنيا! ها هو يناجي نفسه: لا أحبّ إليّ منها الآن... الصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تذليلها... عليّ أن أتذكّر كل أنواع الإخفاق!... إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد... ماذا تقول أيضا هذه الغبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل!
آه هذه الدنيا التي آن الأوان لتوديعها!

تملّكها الآتي تملّك ساليب وفارقها الماضي فراق سلب (المتني)

كيف لا نتفهّم رعب الآدمي من نهاية رحلته في هذا العالم هو الذي عبره ضحية اساطير زرعت في وعيه انه عبد من طينة دنيا طرده إله من جنته ليعيش مكفرا عن ذنوب لم يرتكبها لينتهي به الموت بين براثن ربة اسمها أميت ستمزقه اربا ربا وسترمي بأشلائه في الخواء أو سيقضي الأبدية في قدر من القطران والنار.

"نهار أتيت إلى الدنيا (نزار القباني)"

وجدت قرار إعدامي

ولم أر باب محكمتي

ولم أر وجه حكامي"

هل يجب مقاضاة كل الذين نسجوا هذا النوع من الاساطير؟ موضوع نتركه للنقاش في فرصة أخرى.

طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبداً مناقضة لأهمّ قوانين هذا العالم الذي يحرم الثبات على حالة أو شكل.

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محرّكها وشرط وجودها الذي هو الحرمان.

لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية يُلقَى بنا فيها دون أن يتفضل أحد بإعلامنا من قرّر الأمر لماذا وخاصة إلى أين؟

لنجرّب إقناع الآدمي المسكين الخائف من قرب فئائه ومما قد ينتظره وراء الباب المخيف أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة

والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنات رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

كأنني أصرخ في أذني أطرش قَرّر منذ زمن طويل أن الطرش أنفع له من السمع ولسان الحال يقول: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

محاولة أخيرة. لنطلب منه أن يحبرّ على الورق ما يخطر بباله من أوصاف لتعريف الحياة. آه كتب: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجددة. ما الكلمة التي يحاذر من كتابتها؟ إنها طبعا كلمة م.ح.د.و.د.ة.

ألا يعني هذا أن الموت ليس حالة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة؟ كيف يكون الجزء من طبيعة الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأهدب لحدبته!

إذن للاضطلاع بالدور الطبيعي لكل اسطورة تحترم وظيفتها أي تسهيل الحياة والموت يجب على الرؤيا تلبية رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبدا، ومن جهة حملها على القبول بضرورة نهايتها، بل وبطيب خاطر؟

كيف يمكن تحقيق مثل هذه المعادلة؟

اعطينا روايتنا لقصة القصص تصورين للذات.

التصوّر الاول مستقى من صورة الشجرة، الذات فيها هي الورقة وأيضا العصارة التي تغذي كل خلاياها والآتية عبر الغصن والجذع من أعماق الجذور.

التصور الثاني هو ان الذات شكل - حالة-لحظة مما سميناه "الشيء".

القاسم المشترك بين التصورين أن للذات مكونين: سطح يفنى وأعماق لا تفنى.

في تصور الذات كورقة الشجرة ما يفنى هو الغلاف عندما يأتي الخريف. ما لا يفنى العصارة التي تجري في شرايينها أي ذكراتها المتواصلة مع ذكرات الغصن والجذع والعروق وحتى ذاكرة "الشيء".

هكذا يذبل الغلاف وينفصل عن الغصن لكن العصارة تواصل فعلها في الأوراق الأخرى جاهزة لتغذية ورقة جديدة تأخذ محل التي ذهب بها الريح.

في تصوّر الذات كشكل-حالة-لحظة من "الشيء" ما يفنى هو الشكل. ما لا يفنى "الشيء" الذي تبلور في هذا الشكل والذي سيواصل التبلور فيما لا يحصى ولا يعدّ من الأشكال.

كأني أسمع صوتا غاضبا: مهلا لن نتخلص من الصعوبة بمثل هذه السهولة فهذا الذي تقبل بفنائه ذات فريدة من نوعها علاوة على كونها ذاتي .

كلام معقول لكن داخل المنظومة الفكرية للرؤى الأخرى أما في هذه الرؤيا فالجسد ليس الذات وإنما قشرتها والموت ليس نهاية وإنما انطلاق التجديد وشرطه الضروري. بربك ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد ونفس المخزون من تجاربه؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أول شروط وضروريات حياة جديرة بأن تُعاش؟

انظر الآن كيف تحقق الرؤيا-دون التعسف على منطقي- كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المُرَهَق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها جزء بسيط من العصارة... والتجدد المتواصل عبر الأوراق التي تعيش فيها هذه العصارة منذ ملايين السنين، والتي ستتواصل في كل أوراق المستقبل، إلى أن تنتهي مغامرة الحياة نفسها.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين.

لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه الموت للذات المُرَهَقَة الموجوعة، وعلى بابه توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد في شكلك الماضي وفي القصة التي عشت".

في جناح مواز لتتجدد الذات في ألف شكل وشكل لرحلات لا تعرف لها نهاية والخلود لم يعد ثبات المخلوق وإنما تواصل الخلق.

"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)

أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد

مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي

أو مخرجي منه ولا بمبدي"

أو كيف أنه ما زال لقصة القصص ما لا يحصى من الروايات

يتعالى صوتُ تفاعحة من وراء باب غرفة النوم، تصرخ بالكفّ عن الهرج، فلا يعيرها لا الأب ولا البنت أدنى اهتمام.

أهمس في أذن الطفلة:

حبيبي حرة، توقفي عن الصراخ، قد توقظي هناء....

- جدّي! هناء شريرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و ...

- نعم، نعم، وفي السيارة تنظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها.

يا إلهي أبهده السرعة مرت السنين! هذه الطفلة الجميلة ذات السنوات الثمان التي ترقص فوق سريرها ودميئتها بين يديها هي ذلك الجنين الذي طلبتني أمه أن أعد له قصة لم يروها جد لحفيد، هي تلك الرضيفة التي طلبتُ منها أن تنقر بقبضتها على مفاتيح الحاسوب لعلّ معجزة تحدث فترتسم على الشاشة أخيرا كل الأجوبة عن الأسئلة اللعينة.

- جدّي! أريد أن تروي لي هذه الليلة أطططططططططط وأججججججججججج قصة.

- وهل جئتُ لغير هذا؟ عندي لك قصة أروع من كل ما سمعتِ من قصص أمك وجدتك أعددتها لك خصيصا ولا يوجد في العالم أحسن منها.

بريك هل ثمة راوية قديمة أو معاصرة أعطت للآدميين مثل الجذور النبيلة الارستقراطية البالغة القدم التي تعطيها لهم الرؤيا وكلهم أشكال الواحد المتعدد؟.

ألا تبين أنهم لم يأتوا العالم لأهداف صغيرة وانتصارات تافهة او إخفاقات لا قيمة لها وإنما لإيجاد عالم كامل يبلورونه من احساسهم ومشاعرهم وافكارهم وخيالهم وسواعدهم ويجربون فيه طيف حالات الوجود بكل ما فيه من متعة ومن ألم، من انبهار ورعب وأنه الأمر الذي ننجح فيه كلنا دون استثناء أو مفاضلة؟. ثم أليس رائعا أن طاولة القمار تُرجع لنا خسائرتنا وتسمح بمعاودة اللعب ولا حدّ للمرات أو للمبالغ التي نستطيع الرهان عليها...من المفروض إذن ان تلاقي روايتي لقصة القصص نجاحا باهرا وأن ترفع لي التماثيل لو كان الاعتراف بالجميل من خصائص الآدميين.

من حسن الحظّ أنه بوسعي تسويقها لمن لا خشية أن يضحكوا مني أو أن يكفروني.

ماذا؟ روايتي هذه كلها تبسيط وثرغرات وتناقضات وخاصة أحكام مسبقة فيها تواطؤ واضح مع البشر رغم كل ادعاءات نقدهم وسيهم وكأنّ قرار ختم الأبحاث والحكم بالبراءة سبق حتى انطلاق البحث في جرائمهم الثابتة.

هل ثمة رؤى لم تبسّط المعقّد، لم تجزّئ الموحد، لم تجمّد المتحرّك، لم تحاول استنفاد ما لا يستنفذه تصوّر أجراء به الدين أو العلم؟ ألا نطبخ أساطيرنا وأدياننا وأبيولوجياتنا منذ وجدنا بما تملبه رغبات الخيال والفكر والمزاج والمهنة الأولى لكل رؤيا تحمّل الواقع لا وصفه. في كل الحالات أكثر الرؤى نفعا وثرأ ليست التي تدعي كشف الاسرار وانما التي تضيف لها أسراراً تعمقها وتضيق فيها... كل أملي أن تكون الرؤيا من هذا النوع .

تجذبني حرّة من ذراعي كما كانت تفعل أمّها عندما أسهو عنها طويلا.

- جدّي، جدّي، جدّي! هيا، عجل.

- طيب، خذي في حضنك "إيتي" لتسمع هي أيضا أجمل قصة. شيء بداخلي يقول لي إن هذه الدمية التي ورثتها من أمك متلهفة أكثر منك لسماها. ربما تتجسّس علينا منذ كانت بحضنها؛ على كل حال ليس لدينا ما نخفيه. إذن...

فجأة يتغير مجرى الأحداث.

- جدّي! جدّي! أنا من أروي القصة وستكون قصتي أجججججمل القصص!

- يا بنت عمّز كامل وأنا أولف هذه القصة وأنت تريدين بأعوامك الثمانية أن...!

تعود حرّة إلى الففز فوق السرير تغني صارخة: أنا! أنا أروي لللللللل القصة.

- لكنك لا تعرفين حتى من هو آدم ولماذا هرب من الجنة!

- أنا أعرف! أنا أعرف! أنا أروي القصة وليس أنت!

لم لا أسمعها؟ أليست كل تصوراتنا للعالم قصصا يرويها أطفال لأطفال؟ ما الذي يدعوني للاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟ ربما لديها أفكار طريفة يمكنني السطو عليها لتحسين هذه القصة التي سأواصل كتابتها إلى عشية الرحيل...

- إن أيقظت هنا تتحملين وحدك مسؤولية تدخلها المتواصل. تفضلي. الرجاء عدم الاختصار وأخذ لللللللل الوقت.

تهمس الطفلة في أذني وقد اكتسبت ملامحها جدية مفاجئة.

- جدّي لا أريد أن تموت أبدا... أبدا... أبدا!

- يا بنت، ماذا فعلت لك لكي تتمي لي شيئا كهذا. على كل حال ما زال ألامي الوقت لسما روايتك حتى وإن كانت بطول رواية شهرزاد. انتبهي، من قواعد اللعبة -واسألني أمك- أن أفنكها منك إن أخذتها في اتجاه لا يُعجبني. كلّي آذان صاغية.

من يدري كيف ستتطور في آلاف السنين المقبلة روايات قصة القصص؟... أكيد أن الأدبي سيبتدع تصورات تُمسرح في أساطير علمانية وديانات لا قبل لنا بتخيلها!

ترى هل بوسع كبار مهندسي الرؤى في المستقبل-ولا أتصورهم إلا شعراء علماء -
التجديد الجذري في خلق الأساطير الكبرى بالخروج من وعلى ثنائيات البداية والنهاية،
العدم والوجود، الخالق والمخلوق، الفوضى والنظام، الحياة والموت، المادي
واللامادي، الماضي والمستقبل... أم أن العقل الخيالي أو الخيال العاقل سيبقى على
مَرَّ العصور حبيس المفاهيم التي تؤسسه مثلما سيبقى الجسد حبيس الخلايا التي
تشكّله؟

تُسلّط حِرّة نظرة أخيرة على أخت مغمضة العينين. تتنفس الصعداء وقد تأكدت أنه لا
شبح ابتسامة على محيّاها يفضح تظاهرها بالنوم رغم كل الضجيج الذي أحدثته.
تضع رأس "إيتي" على المخدّة بكثير من العناية.
تحدّق في مبتسمة ثم تهمس: كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، أمير
جميل اسمه آدم...

وقال لهم الصدى جعلت لكم النوم لتراتحوا والموت لتتجددوا لأن الطريق ما زال طويلا

أعربت في بداية النص عن استغرابي أمام النقص الفادح لروايات السفر في عالم المنام وانتهيت بتفهم أسباب إحجام كل كتاب أدب الرحلات عن تناول الموضوع. ها أنا أستغرب في نهاية هذا النص من النقص الفادح في التوثيق لنهاية رحلة اليقظة فلا أديب، أو شاعر، أو فيلسوف، أو عالم ترك لنا شهادة مستفيضة عن ثوانها الأخيرة. حقا أتفهم أنه لم يكن من السهل على أي منهم إملاء ملاحظاته الأخيرة وطبيب متمرن بصدد كسر أضلعه في عملية ذلك قلبه المتوقف. أتفهم أيضا أنه لم يكن بوسعه - لأسباب لا نعرفها لكننا نعذرهما- ختراق النفق الرابط بين الحياة والموت في الاتجاه المعاكس ليخبرنا صارخا : أعرف ماذا ينتظركم جميعا...عندي لكم خبر رائع وخبر مريع بأيهما أبدأ ؟

حتى هذا لا يبزر النقص في التوثيق للحظة الخروج من العالم وهي لا تقل أهمية عن لحظة دخوله.

أي قارئ يحمل على محمل الجدّ كاتب لا يعرف كيف تنتهي القصة التي حبرّ في روايتها مئات الصفحات ؟

لذلك اضطلعا بمسؤوليتي الفكرية والأدبية ومواصلة للنهج التحريري للنص في الترفق بالأدبيين فإنني سأجعل نهاية رحلتنا تنتهي ب " ها بي أند" تعطي للنص ورقة إضافية أخرى للفوز في مسابقة التصورات البناءة.

الرجاء هنا عدم تذكيري بكل كل الذين لفظوا أنفاسهم شنقا وسحلا، وذبحا، وحرقا، وتعذيبا. انها مبالغات مؤسفة وشطط " الشيء" في نزعة التجريبية الباحثة عن كل ما يمكن استكشافه من حالته الآدمية ولو كانت تجارب أقصى الفضاة . وفي كل الحالات هو كما قلنا مرارا لا يجرب إلا على نفسه، فبأي حق نلوم ونحتج .

لمن لا يقبلون بهذا التبرير -خاصة المذبوح بالمنشار- أقول متمالكا أعصابي: اذن دبروا رؤوسكم، موتوا داخل الأساطير المريعة التي تصعب عليكم الموت كما صعبت عليكم الحياة . فسروا ، بزروا ، تمردوا، متوا أنفسكم بالوعود المغربية ، أما بخصوصي فنهاية رحلتي داخل الأسطورة التي بنيتها بعقلي وخيالي لتكون بيتا للروح خاص بي ومفتوحا على الرحب والسعة لمن يريد سكنه، فهي كالآتي:

يتصاعد من مكبر الصوت همسٌ أنثوي رقيق كالذي يعد بليلة حبّ ساخن: الرجاء من السيد غريب وكل مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالاً إلى بوابة المغادرة. أهزّ كنفّي وكل اهتمامي منصبّ على المكان . كأنني أعرفه ... أهو الذي نزلت فيه أو قل أفقت فيه.

من مقعد وثير بهو انتظار مطار مُتراحي الأطراف، أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مفترقاته. يتسمّر البصر على جحافل المتوجهين إلى بابٍ دوّار ضخم، وعلى الوجوه قلق لا ينجحون في إخفائه.

بعضهم يجرون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثاً، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة، لبقاء الحدود مغلقة بين العوالم، وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

كم أودّ أن أسألهم واحداً واحداً: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرُك وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟

يعود الصوت الناعم في المصحح إلى ترديد نفس الجملة، هذه المرّة بتخصيصٍ يبدو مقصوداً وبنبرة تبخّرت منها ادعاء التأدب: الرجاء من السيد غريب عدم التأخر التقدّم حالا لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أوأصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولاً التركيز على آخر سطور وصيبي.

يتجدد النداء هذه المرة بنبرة شرطية المطار التي تتفحص جواز سفرك بريبة لتسألُك عن سبب مجيئك لبلدها وماذا تنوي أن تفعل فيه: المطلوب من المدعوّ غريب التقدّم إلى بوابة الرحيل القاعة رقم خمسة، الآن ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

تُرى ما سببُ عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو هو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافذة الصبر.

ربما لم يُكْمَل بحثه ولم ينته من تدبيج تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته إلى أطول فترة ممكنة ليشبع فضوله بخصوص تطور وخاتمة القصص التي عايش بدايتها أو فصلاً متقدماً من فصولها.

كل شيء سينغير، ستعيد البراكين والزلازل وتحرك الألواح معالم هذا الكوكب، ستتبخر أجناس لا تحصى ولا تعدّ، ستظهر بشريات جديدة تعوّض التي انقرضت، ستبرز أديان وتكنولوجيات وحضارات وامبراطوريات لا أحد كان يتخيلها،... لا شيء

سينغير، نفس القوانين التي تتحكم في بقاء وتطور الكون، نفس صراع وتكامل قوى الإعمار والدمار، نفس التتابع والانقراض للأجناس الحية، نفس تتابع الأجيال البشرية المشحونة طموحا وأوهاما وبحثا لا يتوقف عن الجديد والطريف والمختلف...

يقطع عليّ تلاطم الأفكار صوتٌ لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالا فسترى ماذا سنفعل بك.

كل هذه الصراخ بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يتحول تهديدا: آخر -إنذار. أردّد آخر انذار.

متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنتُ أتوقّع؟ ظهور ذلك المرض في القلب؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراض بالتجاهل، لكن ذلك النوع البلدي لم يتبخر لمجرد إعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.

يصرخ الآن في المصحح ذكّر آخر يبدو أنه أخذ الملفّ على عاتقه: تعال يا سيد غريب. يكفي ما أضعت من وقتنا. احترم نفسك وما كنت تموّه به على الناس .

يُضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البلدي صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشمته وها هو الآن يماطل ويسوّف ويؤخّر لحظة الرحيل عنه.

صحيح أنني أسوّف وأماطل. كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلاحية الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعائم مغايرة تماما.

نعم، ما زال هناك أممي الكثير من العمل لإنضاج تصوّراتي عن هذا المبهم الأصلي الذي أسميه "الشيء"، عن مغامرته في عالم-كائن، في كائن-عالم اسمه الآدي، عن وضعه فيه الشيء ونقيضه، عن تكلفة تحرير تجربة الوجود من جمود الكمال.

يعود الصراخ من مكبّر الصوت لنفس الموظف المتزايد التوتر: تعال يا روح أمك طلّعت روحنا، الله يطلّع روحك وروحها .

مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن فما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الآدميين وقد حافظ جلّهم على أسرار لم أتمكن من فهمها، ربما لأنني لم أحبّهم بما فيه الكفاية.

على فكرة، عزيزي القارئ، عزيزي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى لحظة الوداع، هلاّ أشبعت (ت) فضولي بالرد على سؤال لم أتجاسر يوما على إلقائه على أحد، هكذا كانت رحلتي في هذا العالم فهل وجدت بعضا من نفسك فيها وهل هي حقًا كما أرادها النصّ رحلة ذاتٍ في المتغيرات وفي الثوابت رحلة كلّ ذات؟

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا كل من يسمع: إنه من قوم حاول نبئهم أن يُعلّمهم أنه لا أكُل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم جميعا ممسكٌ بخشب الطاولة، بأنيابه وأظافره.

كم يخطئ هذا الموظف الدعوي في حقّي!

"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الإنترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبتُ العلم

فأعطاني مشاكل للحلّ

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبتُ قدرة الطيران

فأعطاني عقبات أتسلّقها

طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحضّلت على كل ما أحتاج"

نعم نلتُ من الحياة كلّ ما تقدر عليه من عطاء."

حقا صدق الشاعر في قوله :

"الطريق ليس صعبا (كيركجارد)

الصعب هو الطريق"

بيني وبينك، ما الذي كنت ستشعر به لو كان الطريق سهلا والسهل هو الطريق؟
طبعاً أن العالم يستصغرك، إذن لماذا الشكوى؟
لم يبق لي إلا تسلّم آخر عطايا الطريق: الموت.
قبل ذلك يجب إتمام كتابة وصيتي والتأكّد من خلوّها من الأغلاط النحوية والمطبعة التي تلاحقني في كل النصوص.

وصية؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ الجمعة والسبت والأحد والنتيجة
حالة العالم الذي تغادرا ثم ماذا تعلمت أنت نفسك لتدعي تعليم من لم تعلمه الرحلة
ما يجب أن يتعلم؟

صراخ متفاهم الحدّة وبدايةً تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبي المعني
بالشتمية، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا
فخامة الحاج الدكتور الأستاذ الرئيس، ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوّة.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث
النوايا، كلبنة مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه
كالآخرين. كيف أحملك على محمل الجدّ وقد كتبت للتو واللحظة أن الموت آخر
هدايا الحياة؟

ما لكم كلّمكم ضدي هذا اليوم؟ ثم متى كنت متوافقا دوما مع آرائي حتى أطالب الآن
بشيء كهذا وفي مثل هذا المكان؟

هنا أسلّط عليك نظرة أنكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة
الربع: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي برصد كل تناقضاتي سأهمس في أذن عزرائيل
أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك
فستطرده شرّ طردة، تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه إن ترك لك
الوقت.

كأن عزرائيلهم هذا مصّر على ألا يهتمّ إلا بي أنا، وكأن له معي ثارا شخصيا قديما.

"تَمُتْ فؤادك الأيام فتّا وتَنَحّت جِسمك الساعات تحنا (الإلبيري)

وتَدعوك المنون دُعاء صِدقٍ ألا يا صاح أنت أريد أنّا"

روايتان لما حدث بيني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار مبالغ فيه] أنني نهضتُ من مقعدي
خائفا مرتبكا، أنني أدرتُ البصر باحثا عن مَهْرَب، أن ملاك الموت انتبه لمخططاتي
البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقِي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشرا
جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه ملّ
هذا العمل وسيطلب من الإدارة العامة تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت
الأريكة آه يا ظهري، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ
أصبح طول الوقت: النظارات، النظارات، أي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لئخفي
بكاء الغيظ والقهر ان كسرتم لي نظاراتي، أنني وقد جرّوني جرّا من تحت الأريكة قفزتُ
على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقِي وأنا الممسك بخناقهِ، أن اللعين

اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفضُ عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس سُغْلهم مبالغاتها الكثيرة] أني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة المعلقة التي سأضعها على باب الرحيل، أني صافحت عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعوُّ الشرفي، فتفضلتُ فاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أني لم أعصّه وهو الذي صدّق كلّ الإشاعات عني، أني غافلته لألصق على باب الرحيل المعلقة قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لِمَا مضى بلا حسرة، فاتحا ذراعِي لِمَا سيأتي بلا وجل.

تري ماذا أضافت قصتي للعالم؟ آه، ماذا تضيف القطرة للمحيط الهائج؟ ماذا تضيف حبة الرمل للصحراء الشاسعة؟ لا شيء ومع هذا، هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنه؟ هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي توجدّها وهل للعالم قصة خارج كل ما عاش من القصص ومنها قصتي؟

يتوقف الطبيب عن إنعاش عبيّي محدّقا بانتباه مفاجئ في العجوز المحتضر.
هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوفٍ أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر.
يهمس في المغادر شبح جدّ مهيب: لا تخف عبّرتُ قبلك الباب، الجسم مهيباً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل لك العبور.
تتدافع بهدوء متزايد إلى سطحٍ وِعِي متسارع الانحسار أجزاءً مفككة من أحاسيس من مشاعر من أفكار، من أئمن ما رسب في ذاكرة بصدد الإنطفاء ...

أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لئدة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين توضع بها أرجاء البيت... لمن يتوجه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطع كامل من الحيتان!... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفجيحه ولية عهدّها... كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببت شفة... نعم، نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار!

دمعة حارقة تسيل على خدِّ سيسكنه الصقيع إلى الأبد، تذرفها أصعبُ بنت على أصعب أب.

الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجمال.

ها هو يتوغل داخل فضاء تتدافع فيه أشباح لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجنّة في رحم الخيال. كم من لقاءات غير متوقعة في آخر مكان يمكن للعقل وللخيال تصوره.

آه، أنت من كنتِ "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة من أتعبت على كل حال برافو، أحببتُ أداءك... آه، هذا أنت من لاعبي دور "ح"! لماذا لم تردّ أو لم تردّ على سؤالي وأنا أضملك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك، رأيت في مرآة ذاتك أجملَ صوّر ذاتي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم... لم لا يكون لنا لقاءً جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ ... آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة... خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا تُعد إلى التدخين، تُردد إنها سيجارتي الأخيرة... آه، أنت من كنتِ ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرتُ لك، كنت أول من بتّ في هاجس الموت، حظًا سعيدا في رحلاتك المقبلة وحنانٍ من حصباء العوالم المجهولة... أنت "هنا"! كنتُ أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ آه كنتِ تمثّل! طبعاً وأنا أيضا، كلنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنتِ لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتني على تجنيد كلّ قواي لمواجهة ضرياتك الموحجة، وأنا أيضا أوجعتك كثيرا! شكرا على الثناء... وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكلَ كبك ونحن نشرك؟ كنتِ تسمعنا! حتى الخرفان هنا كيف؟ تركتُك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيثُ ظنك لما فررتُ أغالب الغثيان! يا خروفا (سابقا)، أولا لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتِ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهام! أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طرديتك، أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمز مفهوم، لكن ما الذي دهاك لتجرب شيئا بغباء الوجود خروفا؟ آه ماذا دهاني لأجرب الوجود آدميا؟ عفوا لم أقل شيئا... على فكرة من رأى "أينفئاس"؟ آه أخذ ملقّه للمهمة الجديدة غاضبا وشمتم كل من سأم عليه واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرّة العقرب.

يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكارٍ، قد يُسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب.

تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل الموسيقى ذروة الجمال والجلال والآدمية تتضرع للرب بلهجة استعطاف الطفل لأبيه Bleib bei uns.

كأنّ الصدى هو الذي ينفخ بقوة في منديله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بأن أبقى معكم!

تنحسر كل المخاوف والأوجاع بهدوء كالأمواج بعد مرور العاصفة.

اكتملت الرحلة، والذات بالوجود نالت كل مراميها.

يتوقف عازف البيانو عن النقر.

تتفكك النصوص إلى الحروف الأولى.

يبهتُ تدريجيا بريق النجوم.

يتعمق صمت الصحراء.

تتلاشى ربع ابتسامة خجولة من الأفق.

ينتهي العالم من جمع أشياءه وكلّ أدوات الإغراء.

تبدأ اليد الخفية في خلط الأوراق من جديد ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل أبدا.

الذات الآن كقطرة عبرت السماء سحبا عرفت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت

داخل زخم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيع وتتجدد في أوسع ذات، في

الذات الأوسع... في الذات القدوس.

"نفد الزيت (كبير)"

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد"

افتحي باب شساعتك يا عتمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترققي بأناتي التي أترك، ويا

قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البحار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه

لعودة المدّ، انتهى جزر الزمان.

"ما أن جذبت كفني على عيني (هايكو عربي مهدي إلى ذكرى إيسا)
حتى تصاعد الصراخ من ألف حنجرة
وأنا-أنت كل مولود جديد"

العالم الآدي
350.000 جيلا بعد طوماي.
79 حولا بعد هيروشيما،

معلقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-إرادة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-إرادة-لحظة من "الشيء"،
"الشيء" هو كل الأشكال، كل الحالات، كل القوانين وكل الزمان،
مثله كمثّل دّوحة ولّادة لا نهاية لعطائها،
ثمارها نَمْلٌ، نَحْلٌ، فِطْرٌ، طَيْرٌ، شَجْرٌ، بَشْرٌ،
كل ما كان وما سيكون من كائنات-عوالمٍ
تتبارى كلها غراباً وإعجازاً، تتساوى قيمةً وقداًسة،
أمامها تُحنى الهامات إعجاباً وتهيباً،
و"الشيء" كالفتان في أوج الخلق، كالطفل في غمرة اللعب،
يستكشف عبرها الطيف اللامتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا أبداع من وحي إبداعه عالمنا هذا،
أقطعه طرفاً من المكان، أجازه قبساً من الزمان،
سنّ ألاّ سكون فيه إلا استعداداً للكّر والفرّ،
ولا حراك إلا وهو صراع-تعاضد الأضداد،
فلا حياة دون الموت، لا خير دون الشر ولا متعة دون الألم،
عالمٌ مبهر مرعب، لا نفاذ لعطاياه، لا حدّ لقسوته،
الكلّ فيه آكلٌ ومأكول، الكلّ فريسةٌ وصياد،
البناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
عالم على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالآلام النقص والخلل.
على أحسن حال ودواليبه الصامته تعدّل كل عيب بذكاء عجيب.
عالم على الدوام جحيماً وسطّ الجتّة وجتّة وسطّ الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والآدمية الفاعل، المفعولُ بها والفعل،
يتبلور "الشيء" في كلِّ ممثِّل، في كلِّ مخرج وفي كلِّ الأدوار،
مستكشفاً عبر قصص الأمم والشعوب والأفراد،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يعيش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده النجاح وال فشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكابوس تأتي كالحلم،
وفيك كما لو كنتَ محاولته الأولى،
كما لو كنتَ رهانه الأخير،
يواصل سبر أغوار حُلُوِّ ومُرِّ الوجود إنساناً.

الإنسان شيءٌ كلاً شيءٍ لأنه الجزء في الكلِّ،
الإنسان شيءٌ ليس كمثل شيءٍ لأنه الكلُّ في الجزء،
لا هدف للرحلة إلا الرحلة، لا سبب للوجود إلا الوجود،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو غاية،
الموتُ تفكيك القديم لتركيب الجديد بنفس اللبنة،
عند هذا المنعطف من طريق لا تُعرف له بداية أو نهاية،
إنصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت على أحسن وجه أعظم مهمّة،
كيف ولا وقد أوجدت عالماً طريفاً آخر،
ارتحلت بين أهواله وروائعه،
وأنت بعض من خيال "الشيء" يمشي على قدمين.

ISBN 979-8-218-54247-4



دار منوال للنشر
جميع الحقوق محفوظة © 2024